المشروع الوطني للترجمة
الرواية العالمية

وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب

سحابة ذهبية أمضت ليلةً

تأليف: أناتولي بريستافكِن
ترجمة: د. نزار عيسى

سحابة ذهبية

أمضت ليلةً

تصميم الغلاف

عبد العزيز محمد

المشروع الوطني للترجمة

الرواية العالمية

سحابة ذهبية

أمضت ليلةً

تأليف: أناتولي برِيستافكِن

ترجمة: د. نزار عيسى

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة - دمشق ٢٠٢٤م

العنوان الأصلي للكتاب:

Ночевала тучка золотая

الكاتب: Анатолий Приставкин

تاريخ النشر: 1988 "Советский писатель"

المترجم: د. نزار عيسى

الآراء والمواقف الواردة في الكتاب هي آراءُ المؤلِّفِ ومواقِفُهُ ولا تعبِّر (بالضرورةِ) عن آراء الهيئة العامة السورية للكتاب ومواقفها.

سحابة ذهبية أمضت ليلةً / تأليف أناتولي بريستافكن؛ ترجمة نزار عيسى .- دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠٢٤م .- ٣٣٦ص؛ ٢٥سم .- (المشروع الوطني للترجمة. الرواية العالمية).

١- ٨٩١,٧٣ ب ري س ٢- العنوان ٣- بريستافكن

٤- عيسى ٥- السلسلة

مكتبة الأسد

« الإهداء »

أقدم هذه الرواية لجميع قرائها الذين أخذوا على عاتقهم هذا النوع المهمل من الأدب، ولم يخيّبوا أمل كاتبها.

أناتولي برِيستافكِن

-١-

«قوقاز، قوقاز». لم تأت هذه الكلمة على لسان أحد قبل اليوم، ظهرت من لا شيء، كما يظهر النسيم في الحقول، انتقلت همساً، ثم انتشرت في الزوايا القريبة والبعيدة لدار الأيتام.

ما هذا القوقاز؟ ومن أين جاءت هذه الكلمة؟ حقيقةً، لم يستطع أحد أن يقدم شرحاً واضحاً لذلك.

وما هذا الخيال الواسع أن تدور أحاديث عن مكان يدعى قوقاز، في ضاحية موحلة من ضواحي موسكو. هذا القوقاز الذي لم يكن ليُعرف أنه موجودٌ أصلاً لحفنة من أشقياء دار الأيتام، لولا بعض القراءات الصفّية التي تتلى بصوت مرتفع، لعدم توفر الكتب المدرسية.

الأصح أنهم كانوا على علم بوجوده، ولكن في أزمنة ضبابية متباعدة وغامضة. عندما أطلق الحاج مراد[1] النار على أعدائه في جبال القوقاز، وهو رجل الجبال المقدام ذو اللحية السوداء، المعروف بمآثره البطولية، ثم عندما اعتصم زعيم المريدين الإمام شَميل[2] في قلعة محاصرة يدافع فيها عن نفسه، بينما كان الجنديان الروسيان جيلِن

---

(١) الحاج مراد: هي رواية للكاتب الروسي ليف تولستوي، كتبها بين عامي ١٨٩٦و١٩٠٤، ونشرت بعد وفاته عام ١٩١٠، وهي آخر أعماله. والحاج مراد شخصية حقيقية تعرف عليها تولستوي خلال خدمته العسكرية في القوقاز. المترجم.

(٢) الإمام شَميل **(١٧٩٧-١٨٧١):** قائد سياسي وديني في شمال القوقاز. خاض حروباً مع الروس أُسِرَ بعد معركة خاطفة، ونُقل إلى موسكو. المترجم.

وكَستيلِن[1] قابعين واهنين في قاع حفرة عميقة. وبِتشورِن[2] أيضاً، تلك الشخصية العدمية[3]، هو أيضاً سافر إلى القوقاز.

وها هي علبة السجائر التي لاحظها أحد الأخوين كوزمين مع ضابط جريح في قطار إسعاف عَلِق في محطة تاميلِنا.

على العلبة رُسم فارسٌ ببرقع أسود على صهوة حصان بري جامح، وفي الخلفية رُسمت جبال قممها حادة كللتها الثلوج البيضاء. لم يكن الحصان يعدو وإنما كان يحلق في الهواء. وتحت الحصان كُتب بخط غير منسق وبزوايا حادة اسم «كَزبيك»[4].

اختلس الضابط معصوب الرأس، النظر إلى ممرضة جميلة خرجت مسرعة لتلقي نظرة إلى المحطة، كان شاباً وسيماً بشاربين دقيقين، نقر بإصبعه عدة مرات على القسم الكرتوني من سيجارته، دون أن يلحظ وجود كولكا الصغير بجواره، بثيابه الرثة فاغراً فاه، حابساً نفسه، ينظر بإعجاب إلى العلبة الثمينة.

كان كولكا يبحث عند الجرحى عن كسرة خبز تَفَلَّتت منهم، يلمّها، لكنه رأى علبة السجائر «كزبيك».

مهلاً، ولكن ما علاقة هذا بالقوقاز؟ وبالأحاديث التي تدور حوله؟

بتاتاً، لا يوجد أي علاقة.

---

(١) جيلِن وكَستيلِن: شخصيتان من قصة ليف تولستوي «أسير القوقاز»، وفيها يحكي قصة الضابط الروسي جيلِن الذي أسره القوقازيون مع زميله كَستيلِن، وفيها يبين الكاتب شجاعة الأول وخضوع الثاني، وكيف عاش الضابطان خلال الأسر ظروفاً بالغة القسوة. المترجم.

(٢) بِتشورِن: بطل رواية «بطل من هذا الزمان» لميخائيل ليرمنتوف. وهو ضابط روسي شاب. المترجم.

(٣) العدمية: مصطلح فلسفي يصف حالة من فقدان أي معنى أو قيمة للحياة. يصفها فريدريك نيتشه بأنها تفريغ الكون ولا سيّما الوجود الإنساني من أي معنى أو هدف أو قيمة. المترجم.

(٤) كزبيك: هو جبل مرتفع من جبال القوقاز، يقع عند الحدود بين روسيا وجورجيا. المترجم.

ومن غير المفهوم كيف ولدت هذه الكلمة المتلألئة بحوافها الجليدية اللامعة في مكان يستحيل فيه ولادتها، في دار الأيتام الجائعة دائماً، والباردة أبداً، فلا خبز يطعمهم ولا قطعة حطب تدفئهم. كان جُلُّ اهتمام الأولاد هناك يدور حول حبّات البطاطا المتجمدة في الحقول، وقشورها المرمية في النفايات، وأقصى أحلامهم وقمة رغباتهم كان كسرة خبز، ليبقوا على قيد الحياة، ليعيشوا يوماً إضافياً من أيام الحرب.

والحلم الأقدس لأي منهم، الحلم المستحيل، هو الولوج ولو لمرة واحدة إلى قدس أقداس دار الأيتام، إلى غرفة تقطيع الخبز[1]، وقد ميزنا نمط الخط في كتابتها، لأنها انتصبت عالياً أمام أعين أولاد الدار، وكانت صعبة المنال أكثر من أي شيء، حتى إنها كانت أصعب منالاً من ذاك الكَزبيك.

عيَّنوا فيها أناساً اختاروهم بعناية، لنقل، كما يختار الله من يريدهم في الجنة. هم المصطفون، سعيدو الحظ، ويمكن القول إنهم أسعد من على وجه الأرض.

لم يكن الأَخَوان كوزمين من عدادهم. ولم يخطر ببالهما قطُّ أن يكونا من عدادهم. فهذه الوظائف كانت تُسند إلى أشخاص محسوبين، بعضهم كانوا هاربين من العدالة وهم المتنفذون في هذه الفترة في دار الأيتام، المتسلطون حتى على المنطقة بأكملها.

لم يكن حلمهما أن يدخلا غرفة الخبز كما الآخرين من أبناء آدم المصطفين، وإنما فقط أن يتسللا ولو للحظة واحدة، لثانية صغيرة، كالفئران، ليلقيا نظرة واعية على الثروة الأعظم في العالم، متمثلةً بأكداس الخبز على الطاولة. يأخذان هناك نفساً عميقاً، يأخذانه من البطن وليس من الصدر، من المعدة وليس من الرئة، ليسكرا برائحة الخبز الأخاذة.

هذا كل شيء. وفقط!

---

(١) يُصنع رغيف الخبز الروسي على شكل متوازي مستطيلات، يزن الواحد منها كيلوغراماً واحداً. خلال الحرب العالمية الثانية اتبعت السلطات السوفياتية سياسة التقنين على المواد الإستراتيجية ومنها الخبز، ولذلك كان نصيب الفرد اليومي منه قرابة ١٢٥غرام، لذلك كان يُقطع الخبز ويعطى المواطن حصته، ولكن هنا في دار الأيتام كان نصيب الفرد أقل من ذلك بكثير، وكان الباقي يُسرق. المترجم.

لم يحلما حتى ببعض فتات الخبز الذي لا بدَّ أن يكون قد تساقط بعضه عند رمي أرغفة الخبز على الطاولة واحتكاك أطرافها بعضها ببعض. فليجمعه المصطفون وليستمتعوا به، فهذا من حقهم.

ومهما اقتربا من غرفة الخبز وتمسحا ببابها المصفح بالحديد، هذا لم يجعلهما يحققان الصورة المتخيلة عن رائحة الخبز التي احتفظ بها الأَخَوان كوزمين في رأسيهما، فالرائحة لم تكن تنفذ عبر الباب الحديدي.

لم يكن ممكناً لهما على الإطلاق الانسلال، وعبور هذا الباب بشكل قانوني. كان هذا ضرباً من الخيال، والأَخَوان كانا واقعيين. رغم أنه لم يكن غريباً عليهما أن يحلما.

وإليكم ما أدت إليه أحلام كولكا وساشكا شتاء سنة الأربع والأربعين. لقد دفعتهما أحلامهما للتفكير بالعبور بأي طريقة إلى غرفة تقطيع الخبز، دخول مملكة الخبز... بأي طريقة.

في هذه الأشهر الأكثر كآبة، التي يستحيل فيها الحصول على حبات البطاطا المتجمدة[1]، ناهيك عن فتات الخبز. لم يطيقا السير بجوار البناء قرب الباب الحديدي. كانا يعرفان ويتخيلان بالصور تقريباً، ماذا يجري خلف الجدران الرمادية، خلف قضبان النافذة المتسخة، كيف يستحضر المصطفون الميزان والسكين، يقطعون الخبز كيفما اتفق، يدعكون أطرافه، يجمعون ما تساقط منه. حفنة ناعمة، يسكبونها طريةً دافئة في أفواههم، أما القطع الكبيرة فهي من نصيب الزعيم.

يرغي اللعاب ويسيل، تتشنج الأمعاء وتنقبض، تُظلم الدنيا ويزوغ البصر. تُكتم رغبة قوية بالصراخ، بالزعيق، بالطرق على ذاك الباب الحديدي حتى ينخلع أو يُفتح، ليفهموا في نهاية الأمر: أننا أيضاً نريد خبزاً. وليكن من بعدها السجن... فليعاقبوا، فليضربوا، فليقتلوا... ولكن، وقبل ذلك فليتاح لهم النظر إلى الخبز، ولو من عتبة الباب،

---

(١) كانت ظروف الحياة في الحرب العالمية الثانية قاسية جداً، لم يجد الكثير من الناس ما يأكلونه، فلجؤوا إلى حفر الحقول المزروعة بالبطاطا باحثين عن حبيباتها المتجمدة، وهذا كان جرماً يحاسب عليه القانون بالسجن لعدة سنوات. المترجم.

فليسمح لهم مشاهدة أكوامه كيف ترتفع على طاولة التقطيع، تلالاً تشبه جبال كزبيك... كم رائحته شهية!

عندئذٍ تصبح الحياة ممكنة، ويعود الإيمان بها كما كان. فما دامت أكوام الخبز موجودة، فالعالم موجود... ويمكن متابعة الصبر والصمت، وتستمر الحياة.

حصة الخبز الصغيرة، حتى مع الإضافة التي تُلحق بها، لم تكن لتخفف الجوع. لا بل كانت تزيده ويصبح أقوى.

ذات يوم، قرأت معلمة غبية لتلاميذها وبصوت مرتفع، مقتطفات من أعمال تولستوي، روت قصة كُتوزَف[1] في الحرب، وكانت قد تقدمت به السن، ذكرت لهم كيف كان يأكل قطعة دجاج بلا شهية، حتى بشيء من التقزز، ويمضغ جناحها القاسي باشمئزاز...

بدا هذا المشهد للأولاد بعيداً جداً عن الواقع! هكذا يخترع الكُتّاب قصصاً غريبة! اسمعوا هذا الهراء، كُتوزَف لا يستطيع مضغ جناح دجاجة! لم تَرُقْه قساوتها، كيف هذا؟ والأولاد هنا مستعدون من أجل عظم مجرد من اللحم أن يركضوا إلى آخر الكون. بدأت بطونهم بعد هذه القراءة المُدَوِّية يلويها الجوع أكثر، ليس هذا فقط، بل فقدوا ثقتهم بالكُتّاب إلى الأبد. فما دام هناك من يتأفف من أكل لحم الدجاج، فهذا يعني أن الكُتّاب أنفسهم قد أتخموا.

مرَّ على تاميلِنا عدد كبير من اللصوص الصغار والكبار، ولكن ومنذ أن أُقصي عن دار الأيتام، اللص الأكبر الملقب بالبومة، اتخذ اللصوص دار الأيتام وكراً لهم في الشتاء، مبتعدين عن أعين أصدقائهم اللدودين، رجال الأمن.

بقي شيء واحد على حاله دون تغيير، لا زال الأقوياء يأكلون كل شيء، ويتركون الفتات للضعفاء، يتركون لهم أحلاماً صغيرة، ويتخذونهم عبيداً أوفياء لهم، يوقعونهم بكسرة خبز أرقاء لشهر أو شهرين.

---

(١) كُتوزف: بطل قومي روسي، قاد جيش بلاده، وانتصر على نابليون في الحرب الوطنية عام ١٨١٢. المترجم.

كان ثمن قطعة الخبز المحمصة جيداً والأكثر سمكاً والأحلى طعماً، المقتطعة من الجزء العلوي من الرغيف، شهرين عبودية، طبعاً الحديث يدور حول حصة من الخبز، عن كسرة صغيرة تظهر شفافةً مسطحة إذا ما وُضعت على الطاولة. والقطعة الأقل جودة وسمكاً، المقتطعة من الجزء السفلي للرغيف، وتكون نحيلة وباهتة، يقابلها شهر عبودية.

ومن لا يذكر فاسكا سمَرتشوك، وهو من أتراب الأخوين كوزمين، وله من العمر أحد عشر عاماً أيضاً. خدم نصف عام قبل أن يأتي قريبه الجندي، مقابل قطعة الشهر. كان يتضور جوعاً، لم يكن يجد ما يأكله، كان يقتات على براعم وأوراق الأشجار، حتى لا يموت جوعاً.

والأخوان كوزمين في الأوقات الصعبة، رهنا نفسيهما أيضاً. لكنهما كانا يقومان بهذا معاً.

إذا تم جمع الأخوين كوزمين في شخص واحد، فلن يكون في دار أيتام تامِيلِنا من هو أكبر منهما مجتمعين سناً، وربما لن يكون من هو أشد منهما بأساً.

والكوزمينان كانا يعرفان حجمهما وقيمتهما.

سَحْبُ الأشياء بأربع أيدي أسهل منه باثنتين، والمراوغة عند الهرب بأربع أرجل أفضل. وأربع أعين ترى مجالاً أوسع، وتدرك أكثر متى يستحسن القبض على الأشياء والهرب بها.

وبينما تنشغل عينان بعمل ما، تحرس العينان الأخريان الاثنين. لا بل تحرسان وتحفظان ثيابهما وفراشهما وأغطيتهما من أن تُسرق وهما عليها نيام يحلمان بالصور الجميلة لغرفة الخبز. ولو حصل هذا لاستهزأ المستهزئون ولقال القائلون: كيف لا نخاف على غرفة الخبز ونحصّنها، والفراش يسحب من تحتكما.

لم يتوقف الأمر على الأخوين كوزمين، فقد تشكلت ثنائيات كوزمينية عديدة. كان إذا قُبض على أحدهما في السوق وهو يسرق، ويجرّه الناس إلى مخفر الشرطة، يبدأ بالعويل

والصراخ واللعب على مشاعر الناس لتشفق عليه، ويحاول الآخر في هذه اللحظات تشتيت انتباه الناس. وعندما يلتفتون إلى الآخر، وفي لحظة، يكون الأول قد ملص، واختفى، ويلحقه الآخر ليختفي هو أيضاً. فالثنائي هذا رشيق، زلق كما السمك، قد تلتقطه ولكن لن تستطيع التمسك به.

العيون تتفحص، والأيدي تنشل، والأرجل تهرب مسرعة...

ولكن يجب التحضير للطبخة مقدماً، وطهيها على نار مناسبة... فالحياة معقدة دون خطط موثوقة، ماذا ستسرق؟ كيف؟ وأين؟

رأسا الأخوين كوزمين حضرا للطبخة بشكلين مختلفين.

كان ساشكا شخصاً هادئاً، يتأمل العالم ويستمد أفكاره من تأملاته الهادئة. وهو نفسه لم يكن يعرف كيف كانت تنشأ عنده هذه الأفكار.

أما كولكا فقد كان عملياً، واسع الحيلة، سريع الفهم، يستطيع وبسرعة رهيبة بعث الحياة في هذه الأفكار وإسقاطها على الواقع. يحسب الأرباح فوراً، ويترجمها بدقة أكبر إلى مادة تؤكل.

فإذا تلفظ ساشكا بشيء ما، وهو يحك رأسه الأشقر، كأن يطرح فكرة الطيران إلى القمر مثلاً، فهناك على سطحه الكثير من كعكة عباد الشمس[1]. فلن يسارع كولكا معترضاً ولن يقول «لا». بل سيفكر في البداية ملياً برحلة القمر، وعلى أي نوع من المناطيد ستكون، ثم قد يسأل: «لماذا إلى هناك؟ ألا يمكننا أن نسطو على ما هو أقرب...».

وحصل أن ينظر ساشكا نظرة حالمة إلى كولكا، وذاك يلتقط إشارات أفكاره لاسلكياً عبر الأثير. ويشرع يفكر بكيفية تنفيذها.

---

(١) عند معالجة بذور عباد الشمس في معاصر الزيت، لا يُعصر الزيت منها تماماً. فيبقى ما يسمى الكعكة وفيها بقايا الدهون وبعض البروتينات والكربوهيدرات. وعادة ما تستخدم هذه الكعكة علفاً للحيوانات. المترجم.

ساشكا شعلة من الذكاء، عنده رأسٌ ذهبيٌّ، لم يكن رأساً وإنما كان قصر مؤتمرات[1]، لقد شاهد الأخوان مخططاً لهذا القصر الشاهق الارتفاع، كانت تبدو ناطحات السحاب الأمريكية قزمة بجواره، وكان القصر يعلوها بمئة طابق.

طبعاً نحن الأوائل، نحن الأكثر سمواً.

والأخوان كوزمين من الأوائل، ولكن في شيء آخر. هما من أوائل من فهم كيف يحافظان على حياتهما ولا يموتان شتاءً عام أربعة وأربعين.

عندما اندلعت الثورة في بطرسبورغ، سيطر الثوار على محطة القطارات إضافةً إلى البرق والبريد، ولم ينسوا على الأرجح، اقتحام قطاعة الخبز والسيطرة عليها.

طبعاً، لم تكن المرة الأولى التي كان الأخوان يسيران فيها بمحاذاة قطاعة الخبز. ورغم العذاب الذي يسببه المرور بجوارها، إلا أن مشوار اليوم كان مؤلماً بشكل لا يطاق.

«كم أنا جائع، كم أريد الأكل، أستطيع قضم هذا الباب، وأكل التراب المتجمد تحت عتبته» - قال ساشكا هذا بصوت مسموع. وفجأة لمعت في رأسه فكرة. نعم.. يمكنه أكل التراب تحت عتبته... بالتأكيد يمكنه... ولكن بشكل آخر... بالحفر.

طبعاً بالحفر...

لم يقل ساشكا شيئاً، هو فقط نظر إلى أخيه كولكا، وذاك فوراً، تلقى الإشارة، جالت في رأسه، قيَّمها، ثم أدار وجوهها. ومرة أخرى لم ينبس ببنت شفة، وفقط عيناه أضاءتا.

الإبداع يأتي من رحم المعاناة، لا يوجد في الكون من هو أكثر تركيزاً وإبداعاً من الإنسان الجائع، زد على ذلك إذا كان هذا الإنسان يعيش في دار الأيتام، الذي تطور دماغه خلال الحرب ليعرف عما يبحث، وأين يجد ما يبحث عنه.

---

(١) قصر المؤتمرات: كان من المخطط له قبل الحرب العالمية الثانية بناء مجمع مؤتمرات، تعقد فيه جلسات مجلس السوفييت الأعلى للاتحاد السوفياتي، وكان مقرراً أن يكون الأعلى في العالم وفقاً لخطة المهندس المعماري بوريس يوفان، ٤١٥ متراً يعلوه تمثال للينين بارتفاع ١٠٠ متر. بدأ التحضير للبناء في الثلاثينيات ووضع الأساس له ولكن اندلاع الحرب عام ١٩٣٩ جمّد المشروع، ولم يُكتب له النهوض ثانية. حالياً أعيد ترميم المعبد الذي كان أصلاً في هذا الموقع. المترجم.

ودون أن ينطقا بكلمة، فضباع الدار في كل مكان، وكل حرف يُسمع سيذاع، وهنا سيكون مكمن فشل أفكار ساشكا الإبداعية. ودون مقدمات ذهب الأخوان إلى مستودع صغير قريب، يبعد نحو مئة متر عن دار الأيتام، ويقع خلف غرفة الخبز ولا يفصله عنها سوى عشرين متراً.

تفحص الأخوان المكان. ونظرا في آن واحد إلى الزاوية الأبعد، حيث تكوّمت خردة حديد عديمة النفع. هناك خلف حجر القرميد المكسور كان مخبأ فاسكا سمَرتشوك حيث كان يحتفظ بأشيائه الثمينة. وهنا، عندما كان المستودع فيما مضى معداً لتخزين الحطب، اختبأ العم أندريه، وهو جندي سُرق سلاحه، فلجأ إلى هذا المكان، ولم يعرف به أحد، فقط الكوزمينان عرفا.

سأل ساشكا هامساً:

- أليس بعيداً؟

- وهل هناك ما هو أقرب؟ سأل كولكا بدوره.

أدرك كلاهما أن لا مكان أقرب. وأدركا صعوبة ما هما مقدمان عليه.

كان من السهل كسر قفل باب غرفة قطاعة الخبز، وهذا لا يحتاج منهما إلى جهد كبير، ولا يستهلك من الوقت الكثير. ولكن هناك من حاول سابقاً كسره، فالتفكير بحل هذه الأحجية لم يقتصر على الأخوين كوزمين.

بالمقابل ردت الإدارة بتركيب قفل ضخم يقرب وزنه من الكيلوغرامات العشرة. قد يحتاج قنبلة لكسره. قفل لو عُلق في مقدمة دبابة، لما استطاعت أي قذيفة معادية أن تجرحها.

بعد تلك الحادثة الفاشلة، أُغلقت النافذة بقضبان غليظة متشابكة، لُحمت بطريقة لا يمكن التأثير بها بإزميل ولا بعتلة يدوية، لم يكن ممكناً قطع القضبان المتصالبة إلا باستخدام لحام الأكسجين.

وكولكا فكر بهذا أيضاً، وانتبه إلى وجود الكربيد في مكان ما، ولكن لا طريقة للحصول عليه، كما أن إشعاله على الملأ والعيون تملأ المكان، لم يكن أمراً مجدياً.

المكان الوحيد البعيد عن أعين المتطفلين هو تحت الأرض. فلا خيار آخر، وإلا التخلي نهائياً عن التفكير بغرفة قطاعة الخبز، وهذا لا يناسب الأخوين بأي شكل من الأشكال.

حالياً، لم يعد المتجر، ولا السوق، ولا حتى البيوت مكاناً ملائماً لاغتنام الطعام. رغم أن مثل هذه الخيارات خطرت في رأس ساشكا. والمصيبة أن كولكا لم يجد لها خططاً واقعية للتنفيذ.

فالمتجر يحرسه عجوز شرس، يسهر طوال الليل، لا يشرب الخمر ولا ينام، يكفيه نوم ساعات قليلة في النهار.

والمنازل المحيطة كثيرة جداً، فهي لا تعد ولا تحصى، ولكنها ملأى باللاجئين الذين لا يجدون ما يأكلونه، هم أنفسهم يبحثون عن فريسة يصطادونها.

كان أحد هذه المنازل في ذهن الأخوين كوزمين، لكنه نُظف من قبل من هم أكبر منهما سناً، أيام البومة. وللحقيقة فهم لم يجدوا فيه شيئاً له القيمة، حصلوا على بعض الخرق، وآلة للخياطة وضعوها هنا في هذه الغرفة، لعبوا بها مدّة طويلة، تناوبوا عليها، أداروها حتى انتزع مقبضها وأحالوها إلى أجزاء متفككة.

ليست آلة الخياطة موضوعنا، وإنما غرفة الخبز. ولا يهمنا منها لا الميزان ولا الأوزان. وإنما الخبز فقط، هو وحده ما جعل رأسَيِ الأخوين يعملان بأقصى طاقة.

في هذا الوقت يمكن القول: «كل الأفكار تؤدي إلى غرفة الخبز».

هي قلعة وليست غرفة. ومعروف أنه ليس هناك من قلعة، أي غرفة خبز، يمكن أن تعصى على جائع من دار الأيتام.

في أكثر أيام الشتاء برداً، عندما يأس زعران دار الأيتام من إيجاد شيء يصلح أكله في المحطة أو السوق. كانوا يتحلقون حول الموقد(١) يلتصقون به يفركون مؤخراتهم

---

(١) في الدول التي يطول الشتاء فيها وتعاني برداً قارساً لشهور طويلة، تكون التدفئة جزءاً من تكوين منازلهم. والروس يستخدمون موقداً حجرياً كبيراً يدفئ المنزل بأكمله، ولا يقتصر استخدامه للتدفئة وإنما للطبخ أيضاً. وبفضل تكوينه الخاص يتراكم الهواء الساخن ويدفئ المقاعد والجدران المجاورة. المترجم.

وظهورهم بجدرانه، يتشربون الدفء منه يأخذون ولو جزءاً يسيراً من حرارته، بدوا كما لو أنهم كانوا يشعرون بالدفء. مسحت مؤخراتهم الكلس عن حائط الموقد حتى بانت حجارته. في هذه الأجواء بدأ الأخوان كوزمين في تنفيذ خطتهما المذهلة، وفي استحالتها كان يكمن سر نجاحها.

شرعا في العمل كما لو أنهما عاملا بناء متمرسان، بدأا التعزيل من المخبأ في الزاوية البعيدة للمستودع باستخدام قطعة حديد ملتوية، ولوح خشب معاكس.

تمسكت أياديهما الأربع بالحطام، رفعته قليلاً وأسقطته على اللوح، كانت السنتيمترات الأولى هي الأكثر صعوبة. أحدث سقوطه دوياً أصمّ على الأرض المتجمدة، كانت كأنها تئن.

حملا الأنقاض على اللوح الخشبي، وسحباه إلى زاوية المستودع المقابلة، إلى أن تشكلت كومة عالية منها. نقلا طوال ذلك اليوم العاصف التراب الناتج عن الحفر بعيداً إلى الغابة، كان الثلج يلسع وجهيهما ويملأ أعينهما. لم يكن لديهما من حيلة لنقل التراب إلّا في جيوبهما وحضنيهما، قبل أن يفطنا إلى استخدام كيس المدرسة القماشي.

أصبحا منذ الآن يتناوبان في الذهاب إلى المدرسة، ويتعاقبان أيضاً في الحفر، يوم من كولكا ويوم آخر من ساشكا.

من كان دوره في المدرسة، كان يجلس حصتين عن نفسه، وعندما يقرأ المعلم التفقد وينادي: كوزمين؟ حاضر، أي الكوزمينين أنت؟ نيكولاي[1]، وأين الآخر؟ أين آلكساندر؟ وفي الدرسين التاليين كان يقدم نفسه على أنه الآخر ويغيب هو. وفي المحصلة كان كل منهما يحضر نصف الدروس. وبكل الأحوال لم يكن مطلوباً منهما أكثر من ذلك.

الأكثر أهمية للبقاء على قيد الحياة في دار الأيتام كان الحرص على وجبات الطعام في مواعيدها، فلا مجال للتناوب على وجبة الغداء أو العشاء، فضباع دار الأيتام ستلتهم

---

(١) نيكولاي هو كولكا، وآلكساندر هو ساشكا. المترجم.

في لحظة كل شيء ويحيلونه أثراً بعد عين. هنا يختلف الوضع، يترك الأخوان الحفر، ويسرعان معاً إلى المطعم، يندفعان كما لو أنهما إلى معركة.

لن يسأل أحد من تناول طعامه ساشكا أم كولكا؟ هنا هما واحد، كوزمينان متحدان. فإذا ظهر أحدهما فإنه نصف. وقلّما يُرون فرادى، ويمكن القول إنهما لم يُشاهدا منفصلين قطُّ.

يتمشيان معاً، يأكلان معاً، ويذهبان للنوم معاً.

حتى إنهما يُعاقبان معاً، ولكن يُعاقب أولاً من يُقبض عليه قبل الآخر.

-٢-

كانت حفريات الأخوين في أوجها، عندما بدأت تنتشر تلك الأقاويل الغريبة عن القوقاز.

لم يكن هناك تفسير واضح لظهور هذه الأقاويل، ولكن كان هناك إصرار كبير على انتشارها، انتقلت في زوايا دار الأيتام، في مهاجع النوم. كانت تخمد أحياناً ولكنها سرعان ما تعود للظهور بعناد أكبر. كانوا يتحدثون عن دار الأيتام، كما لو أنهم سيزيلونه من مكانه المألوف في تاميلِنا، وينقلون جميع من فيه إلى القوقاز.

سيُنقل المعلمون، والطباخ المعتوه، ومعلمة الموسيقا ذات الشاربين، والمدير المعاق، «المعاق ذهنياً»... كل هذه الأقاويل كانت تُنقل طبعاً بالهمس.

باختصار، الجميع سيُنقلون.

تحدثوا كثيراً، أعادوا وكرروا، اجتروا أحاديثهم، علكوا العلكة نفسها مرات ومرات، لكن أحداً منهم لم يتخيل كيف يمكن دفع هذه الجموع الطائشة إلى تلك الجبال.

قليلاً ما استمع الأخوان إلى هذه الثرثرة، وأقل من ذلك ما صدقاه منها. لا وقت لديهما لهذا الترف، كانا يعملان على أحافيرهما بقوة وإصرار.

لا شيء يدعو للقلق، هذا صار واضحاً حتى للأغبياء، لن يُنقل نزلاء دار الأيتام رغماً عن إرادتهم، لن يُدفع بهم دفعاً، لن يؤخذوا في أقفاص، كما بوغَتشوف[1].

وإذا حصل هذا فسينتشرون في الأرجاء كلّها عند المرحلة الأولى من رحلة نقلهم، حتى قبل أن يصل القطار إلى محطته الأولى. وجمعهم بعد ذلك سيصبح مستحيلاً، وسيكون كمن يجمع الماء بالغربال.

وإذا ما تم مثلاً، إقناعهم بالانتقال إلى القوقاز، فلن يكون هذا لخير القوقاز، فهم سيأتون على الأخضر واليابس هناك، سيسرقون ويأكلون كل شيء في طريقهم، لن يبقوا حجراً على حجر في جبل كزبيك، سيحيلونه إلى مكان قفر، إلى صحراء.

هكذا فكر الكوزمينان وذهبا يتابعان الحفر.

كان أحد الأخوين يحفر الأرض بقطعة حديد، والآخر ينقل الحجارة بدلو صدئة إلى الخارج. كانت التربة في البداية قاسية، ثم لانت فيما بعد، وهي الآن رخوة تنهال وحدها. وبحلول الربيع وصل الحفر إلى أساس البناء التي توجد فيه غرفة قطاعة الخبز.

وذات يوم، جلس الأخوان عند قاعدة البناء في نهاية النفق.

كانت تبدو أحجار القرميد التي بني الأساس منها حمراء داكنة شابها اللون الأزرق، كانت أحجاراً صلبة، قاسية رغم قدمها، والأخوان بذلا جهداً كبيراً لتحطيمها، كانا يدفعان دماً لكل قطعة تتكسر منها. انتفخت الفقاعات على راحتيهما، ولو توفرت عتلة يدفعان الحجر بها من جانبها لوفرت عليهما الكثير من الجهد.

لم يكن هناك مجال للاستدارة في منطقة الحفر، وكانت التربة تنهال عند بوابة النفق. ودخان القنديل البدائي، المصنوع من محبرة مسروقة من ديوان الإدارة، يأكل عينيهما.

في البداية استخدما شمعة حقيقية، من الشمع الأصلي، مسروقة أيضاً. لكنهما أكلاها فيما بعد، لم يحتملا، فقد كانت أمعاؤهما تتلوى من الجوع. نظر أحدهما للآخر،

---

(١) إِميليان إِفانِفِتش بوغتشوف، قاد انتفاضة عام ١٧٧٣ في بداية عهد يكاتيرينا مدعياً أنه القيصر بطرس الثالث، قُبض عليه ونقل إلى بطرسبورغ بقفص خشبي ضيق. حوكم فيما بعد وأعدم. المترجم.

ثم إلى تلك الشمعة، طبعاً لا تكفي، ولكن القليل خير من لا شيء. قسماها نصفين، ومضغاها، بقي الفتيل وحده لم يستطيعا مضغه.

حالياً يتصاعد الدخان من احتراق فتيل صُنع من الخرق، جُهز له مكانٌ حُفر في جدار النفق، ومن هناك كان يضيء خافتاً بلون أزرق، طبعاً كان الدخان أكثر من الضوء.

جلس الأخوان منهارين، متعرقين، متسخين، طويا ركبتيهما واستندا إليها بذقنيهما.

وفجأة سأل ساشكا:

- حسناً، ماذا عن القوقاز؟ هل يتحدثون عنه؟

- نعم، أجاب كولكا.

- سينقلوننا، أليس كذلك؟ ولمّا لم يجب كولكا، سأل ساشكا مرة ثانية: - ألا ترغب في السفر؟

- إلى أين؟ سأل.

- إلى القوقاز.

- وماذا هناك؟

- لا أعرف... لكن الأمر مثيرٌ للاهتمام.

- ما يثير اهتمامي الآن هو أن أجد نفسي هناك، وضرب كولكا قبضته بحنق في حجرة القرميد التي أمامه. هناك وعلى بعد متر أو مترين من قبضته، ليس أكثر، توجد غرفة الخبز المنشودة.

أرغفة كثيرة على طاولة جرّحتها سكاكين قطع الخبز، تفوح منها رائحة شهية، أكوام من الأرغفة الذهبية. كل رغيف أجمل من الآخر. والحصول على قطعة منها هي السعادة بأبهى صورها. تضعها في فمك، تمضغها، تمتص منها حلاوتها وتبلعها. ومن هذه الأرغفة الكثير، خذ قطعة من أي منها، وتمتع بنكهتها.

لم يحصل في حياتها قطّ أن أمسك الأخوان كوزمين بيديهما رغيف خبز كامل، حتى إنهما لم يلمساه قط.

لكنهما شاهداه، طبعاً عن بعد، كان الناس يزدحمون عند الميزان لشرائه كسلعة على البطاقة التموينية.

كانت بائعة الخبز نحيلة، ملامحها لا توحي بعمرها، تمسك بطاقات التموين الملونة، بطاقات للعمال، وأخرى للموظفين، وبطاقات الإعالة والأطفال، كانت ترمقها بسرعة بعين ثاقبة متمرسة، تتأكد من القسائم المثبتة بها، وتنظر إلى الخاتم على قفا البطاقة، حيث دُوِّن رقم نقطة البيع، رغم أنها تعرف بالاسم تقريباً جميع التابعين لمركزها، ثم تمسك المقص، تشيك تشيك، وتقص قسيمتين أو ثلاث قسائم وتضعها في الصندوق. آلاف القسائم، وربما مليون قسيمة صارت ضمن الصندوق، وعلى كل قسيمة دُوِّن رقم ١٠٠، ٢٠٠، ٢٥٠غرام.

لم تبلغ حصة القسيمة الواحدة والقسيمتان والثلاثة، قطعة صغيرة من الرغيف الكامل، تقوم البائعة بسكين حادة بقطع هذه القطعة الصغيرة من الرغيف الكامل بكل حرص. ولا فائدة لها من هذا الحرص، فهي تقف هزيلة بجوار الخبز، ولم تتأثر وتسمن.

لكن الرغيف الكامل الذي لم يمسسه سكين، لم يخرج به أحد على مرأى عيون الأخوين الأربع.

رغيفٌ كاملٌ، إنه ثروة، لا يمكن الجموح بالتفكير إلى هذا الحد.

وأي نعيم سيكون، عندما تملك ليس رغيفاً واحداً فقط، ولا اثنان ولا ثلاثة، بالتأكيد ستكون جنة حقيقية، نعيم حقيقي، ولا داعي بعد ذلك لأي قوقاز.

لا سيَّما أن هذه الجنة بالجوار، وها قد أصبحت تتردد أصوات غير مفهومة عبر جدار المبنى.

أعماهما دخان القنديل البدائي، وصم أذنيهما اختلاط تراب الحفر والعرق فيهما، ورغم ذلك، كان يتردد إلى مسامعهما أصوات مكتومة، لا تترجم عندهما إلا «خبز، خبز...».

في هذه الأوقات كان يتوقف الأخوان عن الحفر، طبعاً هما ليسا أحمقين. فعندما كانا يذهبان إلى المستودع، ويمران بجوار الباب الحديدي لغرفة الخبز، كانا يقومان

بدورة إضافية حول المبنى ليتأكدا من وجود القفل الضخم في مكانه، وهو على كل حال يُرى عن بعد ميل.

فقط بعد ذلك، كانا يدخلان في نفقهما ليتابعا عملهما في تحطيم هذا الأساس اللعين.

بهذه المتانة كانوا يبنون فيما مضى، لم يساور الشك لحظة من بنى هذا الحصن، أن هناك من سيأتي يوماً ما ويعلق بكلمات نابية ممتعضاً من متانة عملهم.

عندما سيصل الكوزمينان، وتفتتن أعينهما برؤية غرفة الخبز بإنارتها المسائية الخافتة، يمكن القول إنهما أصبحا فعلاً في الجنة.

آنئذ، كان الأخوان متأكدين تماماً مما سيفعلانه.

هذا ما خطر في بالهما، فقد فكر به رأسان، وليس رأس واحد.

حالما يصلان سيأكلان رغيفاً واحداً فقط، لن يأكلا المزيد خوفاً من تلبك أمعائهما بهذه الثروة. وسيأخذان رغيفين آخرين ويخبئانهما في مكان آمن. وهذا يحسنان عمله. إذن فقط ثلاثة أرغفة. والباقي لن يلمساه حتى لو مهما حصل، وإلا ستدمر الذئاب المتوحشة الدار.

وبحسابات كولكا، فقدان ثلاثة أرغفة لن يلفت الأنظار وهي في الأحوال العادية تُسرق يومياً.

قسم منها يأكله الطباخ المعتوه، والجميع يعرف أنه مختل عقلياً قضى فترة في مشفى الأمراض النفسية. مريض لكنه يأكل كشخص عادي وأكثر. وقسم آخر يسرقه من يعمل في قطع الخبز، ومن يدور حولهم من الضباع. والحصة الأساسية الكبرى هي من نصيب المدير وعائلته وكلابه.

والمدير لا يطعم فقط الكلاب والماشية، وإنما يُطعم أيضاً أقاربه ومن يدور في فلكه من المتطفلين. ولهم جميعاً ينقلون وينقلون... وأيتام الدار، هم من ينقلون. ومن ينقل يحصل على بعض الفتات ثمناً لخدماته.

قَدَّرَ الأخوان كوزمين تماماً، أن فقدان ثلاثة أرغفة لن يثير أي ضجة في دار الأيتام. لن يخسر أحد من المنتفعين شيئاً، هم سيعوضونها من الآخرين. هذا كل شيء.

ومن سيأتي بلجان تحقيق من المنطقة لتحقق، كمن يأتي بالدب إلى كرمه، فهم أيضاً يجب إطعامهم، وبطنهم كبير، وطبعاً سيبدؤون التقصي عن سبب السرقة، ولماذا يعاني أولاد الدار سوء التغذية، وهل يكفيهم ما تُقدمه لهم الدار؟ ولماذا تبدو كلاب وحيوانات المدير فحولاً.

فقط أخذ ساشكا نفساً، والتفت إلى المكان الذي أشارت إليه قبضة كولكا وقال وهو مستغرق بالتفكير:

- غير أن رؤية الجبال العالية شيء ممتع بالتأكيد، شيء مثير للاهتمام. قد تكون مرتفعة أكثر من البناء الذي نحن فيه؟ أليس كذلك؟
- وما الغريب في ذلك؟ قال كولكا والجوع يسيطر على تفكيره، لا مكان في ذهنه للجبال مهما كان شكلها. ويبدو أنه يشم عبر الأرض رائحة خبز طازج.

صمت كلاهما.

- أعطونا اليوم قصيدة، تذكر ساشكا حضوره الدرس، - قصيدة بعنوان الجُرْف، لميخائيل ليرمنتوف.

لم يتذكر ساشكا كل شيء غيباً، مع أن القصيدة كانت قصيرة. ليست مثل «أبيات شعرية عن القيصر إيفان فاسيلِفتش، وجندي الحرس القيصري مع التاجر المقدام كلاشنيكَف» ...أف. اسم القصيدة وحده نصف كيلومتر! ناهيك عن الشعر نفسه.

تذكر ساشكا بيتين فقط من قصيدة الجُرف.

سحابة ذهبية، أمضت ليلةً

على صدر جُرف جبل شاهق[1].

عن القوقاز، أليس كذلك؟ تساءل كولكا بفتور.

- نعم. عن ذاك الجُرف ...

---

(١) أخذت الرواية اسمها من البيت الأول لهذه القصيدة. المترجم.

- وإذا كان جُرفك لعيناً أيضاً كهذا... وأشار ثانية بقبضة يده إلى أساس البناء.

- هو ليس جُرفي!

صمت ساشكا متأملاً.

فهو لم يعد يفكر بالشعر منذ زمن بعيد. ولا يفهم فيه شيئاً، ولم يكن في الشعر شيء مهم ليُفهم. فلو قُرئ الشعر على معدة ممتلئة لربما كان ذلك أكثر فائدة. فها هي المرأة الشعثاء تعذب الأولاد في الكورال، فلو لم يُهدِّدوهم بتركهم دون غذاء لشمّعوا الخيط من الجوقة، ولم يبق منهم أحدٌ. وماذا يمكن أن تنفعهم الأغاني والأشعار إذا كانوا جائعين... فتفكيرهم دائماً، وهم يغنون أو يقرؤون الشعر يبقى مقيداً بالأكل فقط. لا يوجد في ذهن الجائع إلا الدجاج.

- وماذا أيضاً؟ سأل كولكا فجأة.

- ماذا، ماذا؟ كرر ساشكا.

- ماذا عن ذاك الجُرف؟ هل انهار أم لا؟

- لا أعرف، قال ساشكا.

- كيف لا تعرف؟ والقصيدة؟

- أي قصيدة... آ... كيف أقول. سحابة، يعني، اتكأت على جُرف...

- مثلنا نحن مع أساس هذا البناء؟

- ثم أخذت غفوة... وطارت...

صفر كولكا.

- وفقط؟

- فقط.

- يا إلهي، ما هذه النصوص التي يكتبونها، ذاك عن الدجاجة، وهذا عن السحابة.

- وأنا، ما علاقتي. غضب ساشكا. - وهل أنا الشاعر؟ ولكن لم يكن غضبه شديداً. وهو أيضاً مذنب في هذا، لم يستمع لشرح المعلمة، كان يحلم.

فجأة وهو في الدرس انتقل به خياله إلى القوقاز، إذ كل شيء مختلف عما هو عليه في تاميلنا العفنة.

جبال بحجم دار الأيتام، موزعة في ثناياها مراكز خبز كثيرة، بلا أقفال. لا داعي هناك لحفر أي أنفاق، تدخل بنفسك تأخذ الخبز الذي تريد وتضعه على الميزان، ثم تأكله. تخرج وتجد أن هناك مركز خبز آخر، وأيضاً مفتوح، لا قفل عليه. الجميع هناك باللباس الشركسي التقليدي، يبدون مرحين، ولجميع الرجال شوارب. يبتهجون كثيراً عندما يشاهدون ساشكا وهو يأكل متلذذاً بطعامه، يبتسمون، يربتون على كتفه. ويقولون «ياكشي»، أو شيء من هذا القبيل. والمعنى واحد: «كُلْ أيضاً، فالخبز كثيرٌ عندنا».

كان الوقت صيفاً، والأرض خضراء في الجوار. لم يرافق الأخوان كوزمين لوداعهما سوى أنّا ميخايلفنا، التي قد لا يكون فكرها مع الأخوين في سفرهما، إذ لم تكن تنظر إليهما وإنما كانت نظراتها تتجاوزهما وتنظر فوق رأسيهما بعيون زرقاء باردة.

ما حدث لم يكن متوقعاً، ما كان يُخَطط له هو إرسال اثنين من فتيان دار الأيتام الأكبر سناً والأكثر إزعاجاً، لكن من وقع عليهما الاختيار، اختفيا فجأة، وكما يقال، فص ملح وداب، بينما وافق الأخوان كوزمين وأبديا رغبة في الذهاب إلى القوقاز.

أعيدت كتابة وثائق السفر. لم يهتم أحد ولم يستفسر، لماذا قرر الأخوان الرحيل فجأة، ما هذه الضرورة التي تدفع الأخوين إلى تلك المنطقة البعيدة. لم يزرهما لوداعهما أحد، فقط أطل عليهما بعض الطلاب الأصغر سناً لرؤيتهما من باب الفضول. وقفوا عند الباب، وأشاروا بأصابعهم إليهما، وقالوا: «هذان، وبعد فترة صمت، قالوا: إلى القوقاز».

كان سبب رحيلهما وجيهاً، والحمد لله الذي لم يعلم به أحد.

قبل أسبوع من هذه الأحداث، تهدم فجأة نفق تحت غرفة الخبز. انهار في مكان ظاهر. وانهار معه أمل الأخوين في حياة أخرى أفضل.

كانت الأمور تسير على ما يرام، غادرا مساءً، وبدا كل شيء طبيعياً، وكانا قد أنهيا جميع الأعمال المتعلقة بالجدار، ولم يبق سوى الانفتاح على أرضية الغرفة.

صباحاً وهما خارجان من بناء الدار، كان المدير وجميع أعضاء المطبخ مجتمعين، والعيون تحدق، يا للغرابة، غارت الأرض عند حائط غرفة الخبز.

ثم انتبهوا فيما بعد، يا إلهي. هذا نفق.

نفق تحت المطبخ، تحت غرفة الخبز!

لم يحدث مثل هذا في دار الأيتام من قبل.

بدؤوا يرسلون الفتيان إلى المدير للتحقيق، بدؤوا بالأعمار الأكبر، ولم يخطر في بالهم ذوو الأعمار الأصغر.

جرى استدعاء مهندسين عسكريين، خبراء في المتفجرات لاستشارتهم، كان السؤال، هل من الممكن أن يقوم أولاد بحفر هذا وحدهم؟

فحص المستشارون موقع الحفر، من المستودع حتى غرفة الخبز، دخلوا النفق في الأماكن التي لم تعانِ الانهيار، تفحصوه من الداخل. خرجوا نافضين عنهم التراب الأصفر: «مستحيل، بلا آلات ومعدات، ودون خبرة متخصصة لا يمكن بأي حال من الأحوال حفر مترو الأنفاق هذا. يستغرق مثل هذا العمل لجندي متدرب مستخدماً أدوات الحفر ومعدات مساعدة أخرى، شهراً كاملاً. أما أن يقوم به أولاد... فنحن بكل بساطة نرحب بهذه الكفاءات للعمل لدينا، إذا كانوا بالفعل هم من تمكن من تحقيق هذه المعجزة وحدهم».

إنها فعلاً معجزة. قال المدير عابساً. - لكني سأجد نبي المعجزات هذا.

كان الأخوان واقفين مع زملائهما الباقين. كل منهما كان يعرف بما يفكر به الآخر.

كلاهما كان يعرف، إذا ما بُدِئَ البحث والتقصي، فإن نهايات الخيوط ستتجمع عندهما، والأدلة ستقود إليهما. أليس هما من تسكع هنا طول الوقت، أليس هما من تغيب بينما الجميع كان حاضراً عند المدفأة في مهجع النوم؟

الكثير من العيون كانت حولهما. فهذا غفل عنهما، والثاني أيضاً، أما الثالث فقد يكون انتبه إلى عدم وجودهما.

عدا عن ذلك، تركا في ذاك المساء القنديل هناك، والأهم منه، حقيبة ساشكا المدرسية، التي بها نقلا تراب الحفر إلى الغابة.

محفظة مهترئة، لكنهم متى وجدوها فستكون نهاية الأخوين. لذلك وبكل الأحوال ينبغي إيجاد طريقة للهرب وبسرعة. أليس من الأفضل الانسحاب دون ضجة وبهدوء إلى القوقاز البعيد؟ والفرصة الآن مواتية لوجود مكانين شاغرين.

طبعاً لم يكن الكوزمينان يعرفان أن هذه الفكرة طُرحت في مكان ما من دوائر المنطقة في لحظة مشرقة لتفريغ دور أيتام ضواحي موسكو، التي كان عددها في ربيع الأربع والأربعين، المئات في المنطقة. هذا دون حساب المشردين الذين لا يُعرف لهم مكان إقامة، وعاشوا كيفما اتفق.

بهذه الطريقة وبضربة واحدة، ومع تحرير أراضي القوقاز الغنية من العدو النازي، تم حل جميع القضايا. التخلص من أفواه فائضة، والحد من الجريمة، وطبعاً تأمين فرص عمل للفتيان.

وبالتأكيد تقديم النفع للقوقاز.

وهذا ما قالوه لفتيان الدار: سافروا إن أردتم أن تشبعوا الأكل. هناك كل شيء متوفر. الخبز والبطاطا. وحتى الفاكهة التي لم يعتقد أحد من أولاد الدار بوجودها أصلاً.

عندها قال ساشكا لأخيه: «أريد فاكهة... تلك الفاكهة، التي عنها... ذاك... الذي زار الدار، تحدث».

أجاب كولكا أخاه، بأن الفاكهة المقصودة هي نفسها البطاطا، وهو متأكد من هذا.

- سنشبع بطاطا! قال ساشكا.

وردَّ كولكا على الفور أنه عندما يستقدمون ضباع دار الأيتام إلى هذا المكان الغني، حيث يوجد كل شيء، سيصبح فوراً فقيراً. لقد قرأت في الكتاب أن الجراد، وهو أصغر

حجماً بكثير من أولاد الدار، عندما يندفعون مجتمعين، يأتون على الأخضر واليابس، يتركون المكان خالياً. مع أن بطونها ليست بحجم بطون إخوتنا، وهي لن تأكل كل شيء. فهي قد لا تأكل تلك الفاكهة غير المعروفة. أما نحن فسنأكلها ونأكل كل شيء يقع في طريقنا، حتى الأوراق والبراعم والزهور.

مع ذلك وافق كولكا على السفر.

في يوم السفر جيء بهما إلى غرفة الخبز، طبعاً لم يتجاوزا العتبة. أعطوهما حصتهما التموينية من الخبز عن يوم واحد فقط. ولم يحسبوا أيام السفر. خافوا عليهما من البدانة. هما ذاهبان إلى الخبز، فلماذا إعطاؤهما إياه.

خرج الشقيقان من، الباب وحاولا ألا ينظرا إلى الحفرة عند الحائط، تلك التي تركها انهيار النفق.

مع أن الحفرة كانت تشدهما للنظر إليها.

ظاهرياً أعطيا انطباعاً أنهما لا يعرفان شيئاً، أما باطنياً فقد استسمحا الحقيبة والقنديل، وودّعا النفق الحميم، الذي قضيا فيه كثيراً من أمسيات الشتاء الطوال رغم الدخان.

ذهبا إلى المدير كما أُمرا، وقد وضعا في جيبهما حصتهما من الخبز، تحميها راحة يديهما الضاغطة عليها.

كان المدير جالساً على درج منزله، كان يرتدي بنطلون غولف، لكن دون قميص، حافي القدمين. ولحسن الحظ لم تكن كلابه بجواره.

ودون أن ينهض، نظر إلى الأخوين وإلى المعلمة المرافقة، وربما في هذه اللحظة فقط، تذكر لماذا هم هنا.

تأوه، ونهض، مشيراً بإصبعه الملتوية.

دفعتهما المعلمة من الخلف، وخطا الأخوان عدة خطوات مترددة إلى الأمام.

ورغم أن المدير لم يُسئ إليهما يوماً كانا يخشيانه. كان يصيح بصوت عالٍ. يأخذ طالباً من طلاب الدار من ياقة قميصه، ويقول بأعلى صوته: «محروم من الفطور والغداء والعشاء...».

جيد إذا اكتفى بدورة واحدة ولم يتابع، ماذا لو تابع دورة ثانية أو ثالثة؟

وكأن مزاج المدير اليوم جيد.

ودون أن يعرف اسمي الأخوين، وهو عادة لا يعرف اسم أحد في دار الأيتام، نكز كولكا بإصبعه، وأمره أن يخلع سترته القصيرة التي لا تغطي الرقع الكثيرة على بنطاله. وأمر ساشكا أن يلبسها، ويعطي سترته الطويلة لأخيه كولكا.

ابتعد قليلاً ونظر إليهما كما لو أنه قام بعمل خير، راقه ما رأى، وكان سعيداً بعمله.

- هكذا أفضل... وأضاف: - انتبها.. لا تشاغبا، لا تسرقا، لا تدخلا تحت قاطرة القطار، فقد يدهسكما. هل تفهمان؟

نخست المعلمة الأخوين ليردا، وهما صاحا بصوتين مختلفين:

- نعم، فيكْ فيكْتَريتشْ، لن نفعل.

- اذهبا إذنْ، اذهبا!

سمح لهما.

وعندما أصبحا على مسافة وتأكدا أن المدير لم يعد يراهما، تبادل الأخوان ملابسهما مرة ثانية.

هناك في جيبيهما احتفظا بحصتهما التموينية من الخبز.

قد لا يلحظ المدير هذا الفرق، فقد كانا يبدوان له وكأنْ لا فرق بينهما. طبعاً غلط، فهما مختلفان. فساشكا لم يكن صبوراً ولم يحتمل أن تكون حصة الخبز في جيبه ولا يأكل قطعة منها، أما كولكا المقتصد فقد وضعها في فمه ومصَّها قليلاً ولم يعضّها.

جيد أنه لم يبادل البنطلون مع أحد غريب. ففي حزام بنطلون كولكا خُبئت ورقة من فئة الثلاثين.

لم تكن في أيام الحرب تعدّ ذات قيمة كبيرة. لكنها كلفت الكوزمينين الكثير.

كانت النقود الوحيدة التي يملكانها، ويعتبرانها سنداً لهما في المستقبل المجهول.

أربع أيدي. أربع أرجل. رأسان. وأم الثلاثين.

-٣-

نفّذت أنا ميخايلفنا ما كُلّفت به، أوصلت الأخوين بالقطار الكهربائي إلى محطة كازان، وسلمتهما باليد مع أوراقهما الثبوتية للمسؤول، وهو رجل أصلع يرتدي طقماً لم يكن مكوياً.

ينادونه بيوتر أنيسِمَفيتش.

ألقى نظرة سريعة إلى الأخوين، وسجّلهما في قائمة لديه، ثم وضع هذه القائمة في حقيبته، وتمتم بخصوص ملابسهما: كان يُجدر حسب التوجيهات أن يُسَلَّما في تاميلِنا ثياباً أفضل من هذه.

غريب، أقسم إني لا أفهم ما يجري. وأخذ نفساً عميقاً.

هنا فقط أدرك الكوزمينان تصرف المدير الغريب بتبديل سترتيهما، قد يكون أراد أن يخلِّص نفسه من تأنيب ضميره، إن كان موجوداً...

ملوحاً بحقيبته، قاد بيوتر أنيسِمَفيتش الأخوين على طول القطار متجهاً بهما نحو العربات الأمامية.

اقترب الكثيرون منه، متلهّفين، يحملون أشياءهم وأكياسهم، يشتكون أنهم لا يستطيعون السفر إلى بلداتهم، طلبوا المساعدة في ترتيب سفرهم بأي طريقة يراها...

كانت إجابته للجميع هي ذاتها: «لا، لا، لا أستطيع».

ومرة واحدة احتدَّ وخرج عن المعتاد قائلاً:

- وهل تعتقدون أن لدي مؤسسة خيرية، غريب، أقسم إني لا أفهم ما يجري، لدي خمسمئة مشرد، ولا أعرف كيف سأتمكن من إيجاد حجز لهم. قال هذا ولسبب ما أشار إلى الأخوين كوزمين.

لم تُعجب الأخوين كلمة «حجز»، لكنهما بقيا صامتين.

أينما تحركوا كانت الرؤوس تبرز من نوافذ القطار.

يصرخون للقادمين الجدد، يصفرون، ينادون صائحين، لا سيَّما إذا رأوا أحداً من معارفهم ممن كانوا يتسكعون معهم في الأسواق أو المحطات، أو تعرَّفوا عليهم في السجون التي أطلقوا منها.

وكان هناك من تعرَّف على الأخوين كوزمين، وبدأت الصيحات تلاحقهما:

- حشرات تاميلِنا، تزحف جاهدة إلينا؟

شغل الأخوان سريرين في الثلث العلوي، وأسرعا إلى النافذة، دافعين برأسيهما بين الرؤوس الغريبة.

وصلت مجموعة من شباب لوبِرتسي، عرفهما الأخوان فور وصولهم، فقد التقياهم سابقاً، لا بل تشاجرا وتعاركا معهم، وطبعاً لاحقتهم أصوات الأولاد الحادة والصيحات والصفير.

وهكذا استقبلوا أيضاً شباب لوبلِنو، ومَجايسك، وهؤلاء مجرمون قتلة، وكذلك شباب سيربُخَف، بَدولسك، فَلَكَلامسك، ميتيشه، وهؤلاء جميعاً من دور الإيواء، وهم طيّعون هادئون متعاونون لكنهم يسرقون الكحل من العين، وأيضاً وصل شباب من نَغينسك، رامِنسكَيه، كَلومنا، كَشيره، أريخَفا - زويفا.

أما شباب موسكو فهم الأسوأ على الإطلاق.

وكانت لهم امتيازات كثيرة، فكان طعامهم أحسن، وكانوا يلبسون ليس خرقاً كما الباقين من الضواحي.

استقبلهم الصراخ والزعيق من جميع من في القطار حتى طغت أصوات الصراخ على كل الأصوات الأخرى ولم يعد يُسمع صوت أجراس الترمواي في شارع كَلَنشيوفكا.

بدأ الزعيق والزئير والعواء والخوار.

ظل صراخهم يعلو ويعلو كلما استقبلوا مجموعة جديدة من رفقائهم، إلى أن عمَّ الظلام.

قنافذ زَغورسك، أرادوا ضربنا

لم نعد نحتمل، نفد صبرنا

شحذنا سكاكيننا، وللطعان جُبرنا.

غنوا مقاطع من أغانيهم، كلماتها لم يكن فيها أي تجريح، كانوا يصرخون فقط، وهذا من طبعهم.

كان قطارهم مثل سفينة نوح، جُمع فيه من كل نوعٍ، زوجان اثنان، من كل دار أيتام اثنان، وكان عليهم بعد الآن أن يعيشوا ويتعايشوا علٍى أرض القوقاز نفسها، كما حصل بعد الطوفان العظيم.

حصل فيما مضى أن تربص أهالي زَغورسك ببعض أهالي دميترف، وتمكنوا منهم عندما جاؤوا إلى الدير زائرين طالبين الرضا والمغفرة من الكنيسة، ضربوهم بضراوة ووحشية. وغابت هذه العائلة عن الأنظار فترة طويلة تضمد جراحها، إلى أن جاءت الفرصة وقبضوا على شخص من زَغورسك كان زائراً عند أقاربه في دميترف، احتجزوه لشهر كامل في سرداب رطب بارد في كنيسة مهجورة. وأولئك لم يسكتوا على الضيم، ولم يتركوا الأمر دون رد، قبضوا على أحد سكان دميترف في القطار الكهربائي، ربطوه على الصليب وعلقوه في المقبرة لليلة واحدة: كان يصرخ كالمذبوح. ولكن من يجرؤ على دخول مقبرة وبالتحديد عندما يسمع هذه الأصوات. بالتأكيد سيهرب مبتعداً.

كانت هناك قصصٌ أكثر إثارة حصلت بين السكان ومختلف دور الأيتام في مدن ضواحي موسكو، من اشتباكات بالسكاكين، وكمائن، وحصار لدور الأيتام نفسها.

والآن جمعتهم نفوسهم الشريرة في قطار واحد، مثل جمع عناصر كيميائية غير منسجمة في بُوتقة واحدة، وهو من الخطورة بمكان لو حصل.

ومثل هذا التفاعل العنيف حصل بالفعل، وبدا وكأن القطار سيتفجر ويتحول إلى أشلاء في وقت قريب.

والحمد لله أن القطار يتكون من عربات كثيرة.

لم يحصل الاختلاط بين هذه العناصر فوراً، وإنما بالتدريج وبشكل خفيف، وإلا لما بقي في القطار قطعة على قطعة. حصل بعض العراك هنا وهناك، وبعضهم هرب من طريق الآخر إلى عربة أخرى أو هرب من القطار كله إلى قطار آخر... وهذا حصل.

وبحلول الليل بدأ القطار يهدأ. امتلأ إلى أقصاه، حُشي وكأنه علبة. صار لزاماً على المسافرين أن يكفّوا عن التصفير بمن يمر أمامهم من الغرباء وينتبهوا إلى أنفسهم، ويبحثوا عن مكان ينحشرون فيه، يدفعون مَنْ بالجوار، يبعدونهم، ليتمكنوا من الجلوس، والأفضل أن يكون مكاناً كافياً للاستلقاء.

تماماً كما فعل الكوزمينان.

في الأسفل، تحت سريرهما جرت أيضاً مناوشات مألوفة. أحدهم لم يسمح لآخر بالدخول، دفعه بعيداً وأخرجه... طبعاً ارتفع صياحهم، وتدخل الشباب الأكبر سناً.

وبالتدريج استقر الوضع.

أعطوا المقعد السفلي لينام عليه اثنان، عرق وراس، وشغلوا ليلاً الباقي من الأرضية للنوم بين المقاعد وفي الممرات.

لم يزعج أحدٌ صديقينا الكوزمينين، اللذين شغلا الثلث العلوي. لم يقترب منهما أحد. فالمكان مرتفع كفاية ليحبط رغبتهم في الصعود. إضافة لذلك فإن السقوط من هناك مؤلم لمن تخول له نفسه ويتسلق.

وإذا ما اشرأب أحد بنظره من تحت، فسيلاقي وجهه الفضولي أقدام الأخوين. لا تنظروا إلى مكان لم يُسمح لكم بالنظر إليه. لا تحشروا أنوفكم فيما لا يعنيكم. لا شيء يخصكم هنا.

استلقى كل منهما بمفرده كسيِّد على الرف الثالث، ومن عليائهما كانا يشاهدان ما يجري تحتهما، كما لو أنهما يشاهدان فيلماً سينمائياً.

نوادر، وفكاهات، وأغانيَ... غنى أحدهم: «ناسك فقير معذب، إلى القوقاز ذهب، يبحث في جبالها عن الذهب...».

بقيت نهاية قصة الناسك والذهب في القوقاز غير معروفة، لأن القطار اهتز وبدأ يتحرك.

هدأ الجميع. أصاخوا السمع. بين مصدق وغير مصدق، أحقاً ينطلق القطار؟

تكررت الهزة مرة ثانية، بعد توقف قصير، اهتزت العربة بقوة أكبر، صرَّ الحديد، وفعلاً تحرّك القطار. وصار هذا أكثر وضوحاً حين خفتت حدّة الصرير بين الهزات الضعيفة والضربات التي ما زالت قليلة.

لم يندفع أحد إلى النافذة، ليشاهد كيف تبتعد سابحةً الأضواء القليلة لعاصمة الكون، وقد رفعت النقاب الأسود الذي جلّلها حتى الماضي القريب، وهي تعود الآن لتغوص في الظلام.

لم يهتم أحد بذلك، وأكثر من ذلك، فإن أبطال قصتنا كانوا يزدرون موسكو التي لا تثق بالدموع. وهذا عرفوه من تجاربهم الشخصية.

صاحت البنات اللاتي كن يشغلن المقاعد السفلى ويدركن الأصول، أنه من المفترض عند الوداع ترك دمعة تسقط رغم عدم اعتراف المدينة بصدق الدموع.

إحداهن قالت بصوت ناعم وحاد، أشعر بالحزن...

- ولماذا الحزن؟ قال أحدهم.

- لأنني أغادر، والفراق محزن.

وما المحزن؟... هن لا يفقهن شيئاً، يحزنَّ للفراق والجميع هنا. يقلن، ربما لن نعود يوماً، وماذا إذا لم نعد، وإلى أين سنعود؟ أ إلى موسكو سنعود؟ والأحسن ألا نعود، وما الفائدة منها، بيوتها حجارة، وناسها حديد.

ليخسف الله بهم الأرض، لا يمكن العيش فيها ولو بالمجان، ضواحيها غير مريحة، قذرة، فقيرة، ملعونة، صارت كلها منطقة عسكرية الجميع هنا يعيش بقوانين الحرب فقط، يبيعون ويشترون... أما أولئك الذين انتصروا على العدو بعملهم خلف الآلات، وهم يصقلون المعادن في الورش الباردة، فهم لا يرون أطفالهم، فكيف سيلتفتون إلى الأطفال

المشردين، أهملوا أطفالهم لدرجة كبيرة، ورديّاتهم تمتد لاثنتي عشرة ساعة، وأحياناً ينامون في ورش العمل.

أما بالنسبة للأخوين كوزمين فليس لهما أي قرابة مع أي أحد في أي مكان، لا هنا ولا في أي مكان من العالم.

هما موجودان لذاتهما فقط، هذه هي الحقيقة.

ولذلك فأينما تم نقلهما، فبيتهما، وسقفهما وأقاربهما - هما نفسهما.

لم تكن الحياة في ضواحي موسكو مريحةً، عانينا ودفعنا أثماناً باهظةً، قاتلنا وتعاركنا لنحصل على لقمة العيش، قَمِلَت أجسادنا، والآن يبدو الأمر كما لو أننا نهرب من ذاتنا فرحين، نطير إلى المجهول، مثلما تطير بذور نُثرت في صحراء.

ونحن نُثرنا في خضم الحرب.

نتجه حيث تأخذنا الريح، حيث ترمينا الأقدار، ونعلق في مكان ما، قد نستقر في شق أو صدع أو حفرة... وإذا ما قُدمت الرعاية والعناية، وأُغدق علينا الحنان وروينا بماء الحياة، سننبت وننمو.

قد ينبت غصينٌ واهنٌ، وقد تنمو سويقةٌ صغيرةٌ باهتة، وربما يستطيل خيطٌ رفيع، ولن يهتم أحد لذلك، وربما لن ينبت شيء، وتغوص في المجهول إلى الأبد. وهناك أيضاً لن يهتم أحد لهذا.

عدم الاهتمام يعادل النكران، وهذا يعني وجودك وعدمه سواء.

هذا ليس فقط عن الأخوين كوزمين، هذا عن جميع من سافر في قطارنا المرح في تلك الرحلة المذهلة، أيام الحرب على النازية، عام أربعة وأربعين، عبر الأرض المدمرة التي لم تنبض الحياة فيها بعد تحريرها من الاحتلال النازي.

حاولت التواصل مع بعض من أذكرهم جيداً بفضل ذاكرة الطفولة العجيبة، أذكرهم ليس بالشكل فقط وإنما بالاسم والكنية، وحاولت عبر السنين البحث عنهم.

أرسلت أكثر من مئة من تلك البطاقات الصفراء أطلب عناوينهم من أقلام العناوين في مراكز البريد. ولم تعد أيُّ بطاقة منها بعنوان. ولم تصلني أية رسالة من أي منهم.

وها قد مضى خمسة وعشرون عاماً وأنا أنشر كتبي مستخدماً عن قصد أسماءهم الحقيقية في قصصي ورواياتي، في مقالاتي وخواطري، ومن جديد، لا جديد، لم تصلني أي كلمة.

فكرة مرعبة تحضرني، هل يمكن أن أكون الوحيد بينهم الباقي على قيد الحياة؟ من غير المعقول أن يكونوا اختفوا، أو ضاعوا؟ أكانوا بذوراً لم تنبت؟

ربما تكون هذه الرواية هي صرختي الأخيرة في هذا الفراغ. استجيبوا لندائي، ردوا من فضلكم! فاق عددنا الخمسمئة في رحلة القطار تلك. فليلبِّ النداء أحدٌ ما، شخص واحد على الأقل ممن بقي على قيد الحياة ويسمعني. لأن الكثيرين منهم قضوا فيما بعد، بعضهم قضى أمام عيني. وآخرون اختفوا أو هربوا من تلك الأرض الجديدة، التي نُقلنا إليها.

من عليائهما صار المشهد يُرى بوضوح أكثر، ويُسمع بصفاء وجلاء أكبر. كانت تُروى أحاديث كثيرة يتفاخرون فيها كيف استطاعوا نشل ضحاياهم الأكثر حرصاً، كيف دس هذا يده في جيب الضحية. كيف وصل إلى محفظته، أو إلى كيسه حيث زوّادته، يأخذون منها ما يمكن أكله.

عند هذا جزرة وعند ذاك شوندرة، وهذا عنده خيارة مخللة، وآخر رأس سمكة فوبلا مقددة، أو حبة بطاطا مسلوقة. حتى سميد مطبوخ كان عند أحدهم، كتلة قاسية، ملفوفة في خرقة... وهناك أيضاً ما هو أروع - الفطائر المغبرة التي تخبز من قشور البطاطا المتجمدة وبقاياها المتخربة.

وفجأة غمرت المكان رائحة قوية مسكرة... أخذت الأمعاء تتلوى من هذه الـ «المفاجأة». وبدأت تنتقل عبر الأسرّة حتى ملأت العربة وعمّت القطار كله. وفي الأمعاء، كأن منشاراً ينشر فيها. لقد فُتحت علبة مرتديلا، تلك العلبة الأمريكية البيضاوية المتطاولة ذات العلامة الذهبية.

أبناء العاهرة سكان موسكو، يعودون إلى منازلهم القرميدية، ويأكلون فطائرهم الشهية.

هذا الكلام عنهم، عن أولئك الذين يسافرون، ويحملون معهم اللحوم المعلبة.

طبعاً لا يجوز التعميم. ولكن يظهر لمن ينظر إلى المشهد من بعيد، من خلف الغابات، كما لو أن مائدة فاخرة من الأطعمة في العاصمة عند الرفيق ستالين كما أظهرته الصورة في الكتاب مع الطفلة مملكات[1] وهي جالسة في حضنه، والكثير من الطعام سيبقى على الطاولة، فهل من المعقول ألا يجد أصحاب الكروش الذين يشبهون مدير دار الأيتام، الوقت الكافي ليسرقوا ما تبقى. وإلا قولوا لي، اهمسوا في أذني، من أين علبة المرتديلا تلك التي تلمع ذهباً كالشمس؟.

لم يعرف صديقانا الكوزمينان المرتديلا هذه إلا من القصص. وعرفاها أيضاً من رائحتها، وهذا حصل مرتين في حياتهما، مرة شمَّ ساشكا هذه الرائحة التي لا تنسى، ولا تُخطئها حاسة الشم، وتضرب فوراً تحت الأضلاع، ولا يمكن الخلط بين رائحتها ورائحة أخرى، ونقل ساشكا هذه الأحاسيس لأخيه كولكا.

كما في القصة الدارجة عن طعم لحم الدجاج... ما أطيب لحم الدجاج يا صديقي، وهل أكلته؟ لا طبعاً، لم آكله، لكنني رأيت صاحب الأرض يأكله.

والآن كلاهما ينظر إلى الأسفل، كما لو أنهما يراقبان نجمة متلألئة في قاع بئر مظلمة. لم يكن الأخوان وحدهما يشاهدان ما يجري في الأسفل. وإنما كان الجميع يشاهد. وربما يستمع وبالتأكيد كان الجميع يشم، فقد لا تسنح الحياة لهم بفرصة أخرى ليستشعروا هذا الشعور، ويشموا هذه الرائحة.

---

(١) مملكات أكبرديفنا ناخانغفا: من مواليد عام ١٩٢٤ من طاجكستان، تميزت وهي في الحادية عشرة من عمرها في جمع القطن، وتفوقت على جميع النساء اللاتي كن يعملن في منطقتها رغم صغر سنها، وأعلنت بطلة إنتاج، واستحقت وسام لينين تقديراً لها عام ١٩٣٥ وهو أعلى وسام في الدولة، قلدها الوسام آنذاك كالينين. والصورة التي جمعتها مع ستالين انتشرت بشكل واسع في عموم الاتحاد السوفياتي. المترجم.

وبعد ذلك، وكما لو أنهما تلقيا أمراً، استدار الأخوان، ونظر كل منهما إلى الآخر. كلاهما كان يعرف ما يفكر به الآخر.

فكر ساشكا: كيف يغلق فمه ليمنع نفسه من أن يملأ صراخه وزعيقه كل القطار من الجوع. الأمر لا يتعلق بعلبة المرتديلا بعيدة المنال، فلتذهب إلى الجحيم هذه العلبة الحلم. وإنما من ابن العاهرة، ذاك المدير في تاميلِنا، الذي أُمر بكتاب رسمي، وهذا ما اتضح من أحاديث الآخرين فيما بعد، بأن يزود المسافرَين بحصص غذائية من الخبز وغيره لخمسة أيام. بماذا كان يفكر النذل عندما كان جالساً على الدرج يحك البثور تحت إبطه، أين كان ضميره البالي. وهو كان يعرف، نعم كان يعرف أنه يرسل ولدين صغيرين في رحلة جوع لعدة أيام. ولم يخزه ضميره ولم تهتز له شعرة.

باسمي شخصياً وباسم الأخوين كوزمين، أعلن الآن ما لم أعلنه سابقاً، ولو جاء ذلك متأخراً كثيراً، حتى ثمانينيات القرن العشرين. نعلن عدم التسامح معكم، أيتها الجرذان السمينة، التي أغرقت المركب الذي هو بيتنا وفيه أطفال اختيروا ورُموا في بحر الحرب الهادر.

أحدهم كان اسمه فلاديمير نِكَلايفتش بَشْمَكوف. كان مديراً لدار أيتام تَلوفكا، وهو أحد من جوّعنا، وتحكَّم بأقدارنا.

أين أنت أيها النابليون الصغير، ذو اليدين القصيرتين والشخصية المتسلطة. الذي كان يحب تدوير الحرمان التأديبي من الطعام لعدة أيام مميتة.

- محروم من الغذاء، محروم من العشاء، ومن الفطور ومن الغذاء...

تنقبض النفس من هاجس سماع الحكم المؤلم: كم مرة سيلف قائمة حزام الجوع حولك.

كلاهما أخرج قطعة الخبز التي أعطيت لهما. صارت الآن صغيرة جداً، فقد كانا ينتشان منها طول الطريق حتى لم يبق منها على راحة اليد ما يساوي بعرة فأر.

شمَّ كولكا رائحتها، ولحسها بلسانه، واقترح:

- أتأخذها؟

- وأنت؟

- أنا متخم منذ الصباح، قال كولكا. وهو نفسه يفكر: إذا أكل ساشكا القطعتين ربما ستشعرانه بالشبع أكثر. وبكل الأحوال فإن تناول الطعام ليلاً لا داعي له، فالشعور بالشبع سيذهب به النوم ويصبح بلا فائدة.

أعطى كولكا قطعة الخبز لساشكا، واستدار عنه. انبعثت رائحة المرتديلا من كل مكان، قلبت الأحشاء كما لو أنها رصاصات متفجرة.

فليكفّ الأوغاد من حك الملعقة بحواف العلبة، فإن هذا الصوت يثير التشنجات في الأحشاء، كما لو أنهم يكشطون الأمعاء بالملعقة بدل العلبة.

أراد كولكا أن يعوي، أن يعضَّ الرّف الخشبي الذي يستلقي عليه. انكبَّ بوجهه على اللوح الخشبي الجاف، وضغط رأسه، شعر أنه بعد قليل سيسوء وضعه أكثر. سيصرخ سيزعق كوحش ليملأ صراخه عربة القطار بأكملها، هكذا كان نمط تأثره بفرح الآخرين. ولم يكن حال ساشكا بأحسن، فقد أعاد قطعة الخبز لكولكا. وقال وهو ينظر إلى السقف هامساً، ناقماً:

- لو يقُدر لنا البقاء أحياءً حتى الغد... عندما يتوقف القطار...

وأخذ كولكا نفساً عميقاً وقال فرحاً:

غداً، إلى الســــــــــوق!

كان السوق يعني لكليهما، أنهما سيقدران ولو على مضض أن يبقيا على قيد الحياة خلال هذه الرحلة.

الموسكوفيون الذين التقيناهم في طريقنا كانوا قد حصلوا على حصصهم التموينية لخمسة أيام. كما أن أقرباءهم قدموا لهم الدعم اللازم. أما عند الكوزمينيين فأقاربهما هن العمات في السوق، وأفضلهن اللاتي لا يحرسن بضاعتهن جيداً.

لقد فكرت بشيء للغد يغير أحوالنا، قال ساشكا، وحك رأسه. هناك في أعماق فكره، في مجاهيل عقله، ولدت أفكار خلاقة.

- سنحقق ذلك، قال كولكا حانقاً، وصارماً في وعده، وكأنه قطع عهداً. وكان ذلك مفهوماً لكليهما أنهما سيقومان بما فكر به ساشكا. فالكلام لا يُشبع، إذا لم يكن لديك خبز تأكله.

- ٤ -

اختلج القطار وتوقف.

- ما هذه المدينة؟

- هل هي فارونِج؟

وكما لو أن أمراً صدر، استفاق الأخوان معاً، وبدأا يحملقان عبر النافذة. ظهرت أمامهم واجهة المبنى الرمادية وقد كُتب عليها بالألوان الزيتية كلمة «فارونِج» باللون البني.

سمع الأخوان أن مدينة بهذا الاسم ستكون في طريقهم. طبعاً لم تكن المدينة مثاراً لاهتمامهما، وإنما كان السوق ما يهمهما وهو بجوار المحطة. تدحرج الأخوان من عليائهما على رؤوس الأولاد تحتهما، الذين تدافعوا إلى النافذة ينظرون عبرها. شق الأخوان طريقهما مسرعين إلى مخرج العربة، وهناك اصطدما بمرافق الرحلة وهو رجل قصير ذو شاربين في الزي الرسمي الأزرق الداكن الخاص بعمال السكك الحديدية. نتأ من ساق حذائه الطويل، في رجليه القصيرتين علمان صغيران. وهو يجرُّ شيئاً ما في كيس ثقيل، وكان التعب بادياً عليه، فقد تعرق شارباه، وتوسعت عيناه.

- عمو، هل سنقف مدةً طويلة؟

دفعهم المرافق بصدره وحاصرهم في نهاية الممر، وألقى الكيس بصوت أصم على أرضية القطار. واستدار إليهما، وهو يعيد تقويم كتفيه.

- ماذا تريدان؟

- السوق، قال كولكا، متأملاً من سؤاله خيراً، وليس عبثاً جرَّ الرجل الكيس الثقيل. من المؤكد أن فيه بطاطا، هذا واضح من شكل الحبات فيه، يجب ألا يغيب هذا الكيس عن النظر.

- ها هو السوق خلف المحطة، تمتم المرافق، وأشار بيده باتجاه المخرج، - ولكن لا تتأخرا، لن يقف القطار طويلاً، عندما يصفر القطار صفرته الأولى، أسرعا إليه، فالصفرة الثانية يكون قد تحرك.

تبادل الأخوان النظرات.

استحسن كلاهما عدم توقف القطار مدةً طويلة. وهما لا يحتاجان إلى توقفه الطويل. فكلما أسرع في المغادرة، كان ذلك أحسن. فكل شيء كان قد جرى تهيئته في دماغهما وتم التفكير به مقدماً سواء عن ذاتهما أو عن القطار.

هنا على الأغلب جرت معارك ضارية، فخلف جدار المحطة الطويل الذي ينتهي ببناء المحطة نصف المهدم، تظهر ساحة كبيرة ملأى بالناس. قفز الأخوان كما عشرات الشبان الآخرين الذين اندفعوا إلى السوق عبر الأحجار المكسَّرة والخنادق الملأى بالماء.

انغرسوا بقفزاتهم في أوحاله كما ينغرس الخنجر في الضحية.

عند المدخل، كما العادة تُباع بذور عباد الشمس في أكياس، وتُعرض للبيع المكانس المحبوكة يدوياً. ثم في عمق السوق هناك الخضروات: البطاطا والشوندر واللفت والخيار... تبدو الخضار هنا أكثر منها في ضواحي موسكو، والألبان أيضاً أكثر تنوعاً، حتى إنها تباع بأكواب تعلوها القشدة الوردية. هنا ينتجون أنواعاً كثيرة من الألبان، وهذه تصيح لبن، من يريد لبن، لاحقته البائعة بندائها الممدود. وهي تنادي لأن أم الثلاثين الحمراء كانت تطل من جيبه. وخلف أم الثلاثين بضع وريقات زرق... لولا أم الثلاثين لما أعارتهما البائعة أي أهمية، ولما لاحظتهما حتى، ولما صاحت ببضاعتها، فكم من الزعران مثلهما يجوبون السوق.

كانت هذه فكرة ساشكا، أن تظهر ورقة الثلاثين المغرية من جيبه على جميع من في السوق، وبجوارها قصاصات من علبة دخان زرقاء «بِلَمور كنال»... بدت وكأن في جيبة حزمة من الأوراق النقدية، تتوجها ورقة الثلاثين الظاهرة للعيان.

هذه طبعاً كانت مجازفة من الأخوين، فمن الخطورة عرض ورقة ثلاثين حقيقية على الملأ، ويمكن لأي محتال أن يندفع بسهولة ويأخذها. ولكن هذا كان محسوباً أيضاً.

كان كولكا يسير بكل ثقة مظهراً ورقة الثلاثين، وساشكا خلفه يراقبها، لا يرفع نظره عنها، ويدفع من يقترب أو ينظر إليها.

زِحامُ السوق شديدٌ، يفصصون البزر، والأرض ملأى بقشوره.

سُمع صراخٌ في مكان قريب منهما. ربما ألقي القبض على شخص ما، وربما الآن يضربونه.

لم تكن هذه اللوحة غريبة عن الأخوين، هما نفسهما تعرضا لهذا الموقف، وقاما بهذا الدور، صرخا كمن يُذبح، كانا ينتظران أن يتدخل أحد ويشفق عليهما. أما من يسكت ويصبر على بلواه، فلن يرحموه، وهم مستعدون لقطع رأسه لأتفه الأسباب، فهو قد تعدّى على ممتلكاتهم الخاصة.

قد يكون هذا صراخ زميل لهما من القطار، لكن الأخوين سرعان ما استدارا وغيّرا اتجاههما، يبدو أن الباعة يقظون هنا.

وبعد نحو خمسين خطوة من مشيهما توقفا، لقد وجدا ضالتهما، وجدا ما يبحثان عنه.

رغيف خبز جوادار موضوع على قطعة قماشية، على طاولة خشبية مسطحة، ليس في منتصفها، بحيث لا تستطيع الوصول إليها، وإنما على طرفها، مخبوز في المنزل، مُقَسَّم إلى شرائح دائرية متساوية مُقَطَّعة بدقة. وبجواره شيء مذهل، أبيض، متطاول، عندما رآه كولكا، تعثر في مشيته. وحملق مندهشاً.

نخسه ساشكا بلطف في خاصرته:

- ماذا بك، مثل خروف على بوابة جديدة... هذا رغيف! مثل الفطيرة البيضاء التي يعرضونها في الأفلام.

قال ما قاله همساً، وهو نفسه يحس بشيء ما، كقطعة من الطين علقت في حلقه، لا يستطيع بلعها ولا يستطيع بصقها. وكله بسبب هذا الرغيف اللعين الذي يظهر أمامهما.

رأى ساشكا مثله في أحد أفلام ما قبل الحرب: كان المخبز وكأنه موجود مباشرة في الشارع. يدخل أحدهم ويشتري رغيفاً مثل هذا الأبيض... ويقول: «اشتريت رغيفاً». يا ترى، أليس هذا أقرب للمزاح؟ رغيف كامل، وبلا بطاقة تموينية!

نظر الأخوان حولهما، المهم ألا يسبقهما إليه أحد. ألا ينهال المشترون على هذه السلعة الرائعة. لكن الأمر ليس كذلك، لم يقترب منه أحد. لا أحد يجسه، ولا من يساوم عليه... يمر بين الفينة والأخرى من يسأل عن ثمنه، ويغادر على الفور، لم يمسسه أحد. يظهر أنه من الخبز غالي الثمن، وينتظر شارياً غنياً، كانت قشرته الذهبية تنعكس متألقة على لونه الأبيض الظاهر عند خط الالتحام غير المنتظم في الأعلى.

ما أطيب رائحته! هكذا رائحة يشمها الأخوان عن بعد مئة متر، ربما لهذا السبب هما هنا. فهل المعدة الفارغة تقود إلى رائحة الخبز، كما النحلة إلى الأزهار؟

صلى الأخوان في سرهما. طلبا من الله: «يا رب، لا تعطه لأحد، احفظه حتى نتهيأ لأمره، غيّر طريق من حاله ميسوره ويستطيع شراء هذا الأبيض الأعجوبة... ربي أنت ترى أننا مسافران، وإذا أفلت منا هذا الرغيف فسنبقى دون طعام... ونحن جائعان يا ربي. تقول جداتنا إنك أطعمت الخبز لآلاف البشر، أعطِ القليل من الخبز لشخصين آخرين».

ربما لم تكن هذه الكلمات هي نفسها التي استخدمها الأخوان في دعائهما، لكني واثق أن المعنى هو نفسه. وعن صدق تلك الصلوات واثق أكثر.

وفي الحال، تقاسم الأخوان عملهما، استدار أحدهما ليصبح بمواجهة القطار، والآخر يمَّم وجهه شطر رغيف الخبز، وعلب العسل الصغيرة بجواره.

هنا تكون العيون الأربع ضرورية، هذه الأفكار هي خلاصة ما أنتجه رأس ساشكا العبقري وبطنه الجائع. وقفا ظهراً لظهر، وبذلك وضعا كل المحيط تحت النظر، هكذا تبقى أم الثلاثين مصونة، ويسهل إعطاء إشارة، بحركة بسيطة من المرفق.

سمع ساشكا صفير القطار. صفيراً مبحوحاً طويلاً، وكأنه فعلاً يناديه: «رح رووووووووووووووووووووح».

هذه هي إشارة البدء. كما لو أنها بوق إسرافيل، تدعو فيها بطلينا ليبدأا العمل بقضيتهما المحقة.

والآن، إلى الأمام، وفقط إلى الأمام إلى الرغيف الأعجوبة، إلى شرائح الجوادار المستديرة، إلى علب العسل التي تجمعت حولها الدبابير... والأهم، إلى فطيرتنا الذهبية الحبيبة. هيا كولكا، أسرع.

نخس ساشكا أخاه بمرفقه الحاد تحت أضلاعه. هيا، ابدأ قال هامساً.

أما كولكا فقد سحب ورقة الثلاثين لتظهر بشكل أوضح، واتجه مباشرة إلى الطاولة. وهو يعرف أن لديه دقيقة أو دقيقتين لتنفيذ العملية ليس أكثر. اقترب من الطاولة حتى صار ملاصقاً لها، ثم استدار لتظهر نقوده، وسأل:

- وماذا عندكِ؟ ألقى كلمات عابرة، وأعطى فكرة واضحة أن ما هو موجود ليس هو ما يبحث عنه. والموجود لا يعنيه أبداً. لا شيء هنا يستحق التوقف عنده.

صبية في مقتبل العمر، حدقت عيناها الزرقاوان الخاويتان والجاحظتان كزرين في السماء، واستطال جسدها عرضاً أكثر منه طولاً. كم هي بدينة! كيف يمكن أن تنتفخ إلى هذا الحد؟ وأي طعام يمكن أن ينفخ بهذا الشكل، أتخموها المسكينة حتى صارت كالخنزيرة.

وبالقرب منها رجل، يبدو نحيلاً بالنسبة لها، ضغطته ربما. عندها ما يقارب المئة بود[1] من اللحم.

كل هذا اختلج كنسمة في رأس كولكا، بينما كان يتأفف، وينظر إلى الخبز بوجه غير راضٍ.

- يعرضون أي شيء... يبيعون أشياء لا قيمة لها... قال بعُنجهية وقد خرجت الكلمات من بين أسنانه، دون أن يكلف نفسه ويفتح فمه. ونظر إلى البعيد، والآن سيتابع طريقه. هنا لا يوجد ما يستحق النظر إليه.

الفتاة تفصص بذور عباد الشمس، وترمي قشورها جانباً بلا مبالاة، تعمل رشاً، كما المدفع الرشاش. لكنها الآن أُغيظت.

---

(١) البود: وحدة قياس روسية قديمة للأوزان. والبود الواحد = ١٦,٣٨٠٤٩٦٤ كغ. المترجم.

- أشياء لا قيمة لها؟ استفسرت هي، وقشرة بزر بقيت ملتصقة بشفتها السفلى.

- هذا برأيك لا قيمة له؟ ودفعت بقوة رغيف الخبز في وجهه.

كان كولكا ينوي المغادرة، لكنه توقف، أخذ الرغيف في يده، وفجأة، ومن قشرتها المرنة ورائحتها المسكرة، أحس في حلقه ببوادر الغثيان.

- من النخالة، أليس كذلك؟ سأل كولكا وقطب حاجبيه. كانت ملامحه توحي أنه لا يحتمل الغش ولا يعجبه أن يقدموا له خلطات مختلفة من النخالة.

- أنت من النخالة، اهتاجت الفتاة. - هذا الخبز من القمح الصافي، يجب أن تمعن النظر.

وبالفعل أغلق كولكا عينيه، وانقلبت معدته، وبدأت مظاهر التقيؤ تظهر عليه. إن تقيأ هنا أمام عيني هذه الصبية المترفة، فسيفشلْ مخططهما. هنا تكمن العقدة، توقعا كل حركة يمكن أن تحدث، وفكرا كيف يتداركانها. لكنهما لم يتوقعا غثيان الجوع، فهذا لم يدخل في حساباتهما، لم تخطر ببالهما التشنجات المعوية، نسوها تماماً. لم تؤخذ بالاعتبار.

رفع كولكا رأسه، وأخذ نفساً عميقاً، ونفساً آخر. وضع يده على فمه، مستعرضاً التثاؤب، وفعلاً ظهر كأنه يتثاءب، فقد ضجر من الوقوف هنا، ينظر إلى هذا الرغيف المغشوش ويقنعونه أنه ليس مصنوعاً من النخالة.

- حسناً، وكم ثمنه؟ سأل، ودفع برغيف الخبز نحو الفتاة. ولكن لم يبعده كثيراً، كيلا يصعب عليه أخذه مرة أخرى.

- مئة وخمسون.

- وأقل من ذلك؟

- أقل مِمَّ؟ انظر، إنه من القمح الخالص.

- مئة، دمدم كولكا ولوح بيده. - أعرف قمحكم الخالص. رغيفك هذا لا يساوي قروشاً.

- مئة وأربعون، قالت الفتاة. واستأنفت قرض البزر.

- مئة وعشرون، قال كولكا وهمَّ بالمغادرة. خطا خطوة إلى الخلف ولم ينظر إلى الفتاة ولا إلى الرغيف، فهو ليس مهتماً به.

- مئة وثلاثون، صاحت الفتاة في أثره. مطلقة البذور من فمها.

- حسناً، تراجع كولكا وعاد أدراجه وهو يربت على جيبه بطريقة تجعل نقوده مرئية مرة ثانية. - اعلمي أني أعرف أنني الخاسر.

أخذ الرغيف بيده، وبدأ يضبه في الجيب نفسه الذي وضع النقود بها. وحتى لا يسمح للبائعة البدينة جداً أن تستعيد رشدها، أشار بإصبعه إلى نوع آخر من الخبز.

- وهذا بكم؟

- القطعة بثلاثين، والعسل بثلاثين، شغّلت الفتاة شفتيها بطريقة تطايرت قشور البزر في جميع الاتجاهات.

- اشتريت، مع أنك سلختِ جلدي عن عظمي بأسعارك الغالية، قال كولكا ذلك بجرأة، وفجأة ابتهج ووضع قطعتي خبز دفعة واحدة في الجيب نفسه الذي وضع فيه الرغيف. ودون أن يسمح للفتاة أن تعود إلى رشدها، حشر علبتي عسل في عبه. - وليكن ما يكن، سآخذها كلها.

وكأن الفتاة شكَّت بشيء ما، تركت البزر، وحملقت بزري عينيها بكولكا:

- ادفع، ما بك تأخذ، وتضع في جيبك، دون أن تدفع، وصرخت. - أقول لك: ادفع.

والرجل الذي كان نائماً حتى هذا الوقت، جفل من صراخ زوجته، وجال بنظره في المكان. على مرأى منه تؤخذ بضاعته وهو مشغول بعدّ الغربان.

ها هي اللحظة الحرجة الثانية قد حَلَّت، عندما يتحقق الهدف، يصبح الانسحاب السلس ضرورياً. وكما يقال في الأخبار: اكتملت عملية تطويق المجموعات المعادية في ضواحي ستالينغراد. وحان الوقت لتوجيه الضربة الحاسمة.

ولهذه المهمة كان ساشكا يرصد المكان ليتابع في الوقت المناسب ما فعله دميتري بَبروك[1] قائد فوج الرصد في معركة كولِكوف[2] ضد ماماي. هذا مر معهم في المدرسة. طبعاً تلعب دور ماماي هنا، فتاة القمح المكتنزة.

ضغط التتار والمغول على الروس، بدأت الفتاة بالصراخ:

- ادفع، وأمسكت الفتاة بكم كولكا. - ادفع بسرعة.

وفي هذه الأثناء أمر قائد الفوج، دميتري بَبروك أن يدخل بفوجه، ويوجه ضربة قاصمة حاسمة بالدبابات على المواقع الفاشية المعادية.

وفجأة كالشيطان ظهر ساشكا بقربه.

- أسرع، أسرع. صاح ليغطي على صوت البائعة. - القطار يغادر.

أدار كولكا رأسه نحو القطار، وتحولت الفتاة بنظرها إلى القطار دون إرادتها، فقطارهم بالفعل بدأ يتحرك، لكن ببطء.

صرَّت عجلات القطار كأنها تقوم بتمارين الإحماء. ازدحم الشبان عند مداخل العربات وهم يندفعون إلى الداخل.

- بسرعة، صاح ساشكا بصوت مدوٍّ يثير الذعر، - سندفع... سندفع لاحقاً.

عادت الفتاة إلى رشدها، ومسكت في كم كولكا بإحكام شديد.

- متى لاحقاً؟ ادفع، وزعقت: - النقود الآن

- أعطها النقود، صرخ ساشكا. - وإلا فسنبقى هنا.

---

(١) دميتري بَبروك: هو أمير انتقل إلى موسكو في ستينيات القرن الثالث عشر، وتولى منصباً قيادياً، ارتبط اسمه بكثير من الانتصارات البارزة ولا سيَّما معركة كولِكوف عام ١٣٨٠. المترجم.

(٢) معركة كولِكوف: حصلت في ٨ أيلول عام ١٣٨٠ بين تجمع أمراء موسكو بقيادة دميتري بَبروك من جهة وجيش التتار والمغول بقيادة ماماي على بقعة بين نهرين، لا تزيد مساحتها على ٢-٣ كم٢، وانتصر فيها تجمع أمراء موسكو. المترجم.

- النقود موجودة تحت رغيف الخبز.

- أعطني رغيف الخبز.

أمسك ساشكا رغيف الخبز، وهناك تعيقه شرائح الخبز أيضاً. وبدأ كولكا يبحث تحت قطع الخبز، سحب يده وصرخ فيها دعي يدي كيف أعطيك وأنت تمسكين بي؟

أفلتت الفتاة يده، واندفع كولكا يركض. أما ساشكا ورغيف الخبز فقد وصلا القطار منذ مدة.

هكذا بدا المشهد: ساشكا في المقدمة مع رغيف الخبز، ثم كولكا، وتتعقبه بفارق خطوة فتاة القمح ثم زوجها.

توهجت حرارة الفتاة، وصار كولكا يحس بسخونة نَفَسها في ظهره.

لم يكن الوقت مناسباً للضحك، مع أن عرض الفتاة كان أكثر من طولها، ولكنها تركض بشكل مخيف، لقد أرعبته. قد تقتله إذا ما لحقت به. ولن يرحمه أحد. وهنا تلقف البائعون الآخرون الحدث للتسلية، وشاركوا في مطاردة اللص الصغير. ولو وصل الأمر للضرب فعلى قلبهم أحلى من العسل.

ملأ صياحهم السوق:

- حرامي، حرامي، أمسكوه.

جميع ركاب القطار كانت عيونهم شاخصة، تشاهد العرض وكأنهم في مسرح.

من العربات الخمس عشرة، من مئة نافذة، ظهر خمسمئة وجه. خمسمئة حنجرة تصرخ، تقهقه تزأر تهتف تزعق. كلٌّ يدلي بدلوه بما يقدر عليه.

- هنا فارونج.

- يا حبيبي تعال الحقني، حبك تاعبني.

- انظروا، لقد أضاعت زوجها.

- هي ليست فتاة وإنما قطار.

- أطلقي البخار وإلا فسيحصل انفجار.

- تصلح قاطرة لدفع القطار.

- أو مخفف صدمات.

بدأت تنهال العلب والزجاجات وأشياء أخرى من النوافذ، يحاولون إيقاف تقدم جحافل الأعداء الفاشية المامية. وكما هو الحال في التاريخ، فإن الشعب في نهاية الأمر هو الذي يحسم نتيجة المعركة.

كان ساشكا أول الواصلين إلى عربة القطار، أمسك بذراع الباب، وألقى نظرة على ساحة المعركة.

تعثر كولكا، وسقطت منه قطعة خبز كان ممسكاً بها في يده. انحنى ليلتقطها، فسقطت القطعة الثانية.

رفعت الفتاة قبضة يدها، مهددة من في النوافذ، أصبحت قريبة جداً من كولكا، وهي قاب قوسين أو أدنى من القبض عليه. وخلفها زوجها. وهناك شاب يلهو تطوع بالركض خلفهم. وهناك أيضاً وأيضاً من يركض...

- دعها، صرخ ساشكا بكل ما أوتي من قوة، سُمعت صرخته في كل أرجاء فارونج، - اتركها، اتركها، اتركها.

ارتبك كولكا، وصار يسمع الأنفاس فوقه، لم يكن ما يسمعه أنفاساً وإنما كان فحيحاً، صريراً وصليلاً. ليس أقل من دبابة على وشك أن تصدمه.

وقفز مستخدماً يديه ورجليه، مسك بكلتا يديه بسلّم القطار، والفتاة تمكنت من مسك رجليه، تشده إليها.

تشبث ساشكا ومرافق القطار بإبطي كولكا، يشدونه صوبهم، والفتاة تشد صوبها، وهو تمدد كما الأكورديون. يصرخ، يولول، والجميع يصيح ويزعق، وأخيراً هو لنا.

كيف تجاذبوا كولكا المسكين، كيف مزقوه، بقيت قطعة من بنطاله في يد الفتاة.

أما الشاب الذي نجح في الوصول والذي مد يده ليتسلق القطار، عاجله مرافق القطار بالعلمين على بوزه وتابعهما بحذائه.

- لا تحاول، صرخ بوجهه. - ممنوع دخول المحتالين. تجار مستغلون وقحون.

ومرة ثانية بدأت تتطاير العلب وغيرها من نوافذ القطار، وهناك من حاول التبول.

وعلى أصوات الصياح والمزاح بدأ القطار يكتسب سرعة.

- ٥ -

أطعمت فطيرة الخبز الكوزمينيين مدةً طويلة. أكلا القلب الإسفنجي، حتى وصلا إلى القشرة الخارجية، لم يتركا ذرة تسقط من قلبها هدراً. وحصلا في آخر الأمر على قالب...

صارت القشرة الصلبة إناء لهما، حرصا عليه كل الحرص، وبالمحصلة فهذا الإناء هو وعاء سحري، صنعته أفكار ساشكا، فقد حصلا منه على فائدة مضاعفة ومثلثة ومخمسة.

كانا يقفزان إلى المحطات عند التوقفات القصيرة، بفطيرتهما الفارغة وأم الثلاثين نفسها، التي كانت تنتأ من جيب كولكا، يقصدان العمّات في السوق، ويطلبان منهن أن يملأن فطيرتهما بالقشدة أو بأي نوع من أنواع اللبن أو المربى.

ثم يبدأ الأخوان بتمثيل مشهد يلعبان فيه دوراً صاخباً فيما بينهما: يصيح أحدهما على الآخر معترضاً على السعر المرتفع، ويكون القطار في هذا الوقت قد بدأ يتحرك.

ينتهي المشهد بإفراغ وعاء الخبز من محتواه، وما علق على جدران الفطيرة وتشربته جدرانها، كانا يقشطانه بملعقة يستعيرونها من شبان موسكو.

ولكن اتضح أن وعاء الخبز لن يصمد طويلاً، وهو ليس خالداً كما كل الأشياء في عالمنا.

بالتدريج، أصبحت القشرة الخارجية رقيقة، وأصابها البلل، وبعد فارونج بعدة أيام تفسخ الوعاء وتفتت إلى قطع صغيرة. طبعاً، سارعا إلى أكل فتاته، رغم أسفهم عليه.

نفد العسل أيضاً، فعند هروب كولكا انسكب في حضنه، وأغرق قميصه وبطنه. تصرفا مع القميص بكل بساطة، مصَّاه وعلكاه في منطقة العسل عدة مرات، حتى تثقَّب.

أما بالنسبة لبطنه، فلم يسمح كولكا بلمسه. «ألا يكفي أني خسرت قميصي، لا أريد أن أخسر بطني أيضاً»، هذا ما قاله.

كان يتجول في عربة القطار والدبابير تحوم حوله. وصار الأولاد في الطابق السفلي يميزونهما: كولكا الحلو، وساشكا المالح.

كان يمكن أن يستمر اللقب لكليهما ولكن الكوزمينين مولعان في تضليل الآخرين وانتحال شخصية بعضهما بعضاً، لذلك سرعان ما عادا وأربكا الجميع، ولا سيَّما حين اختفت رائحة العسل. كان هذا أسلوبهما في الدفاع عن النفس، والذي تشكّل مع الزمن. كانوا ينادونهم من تحت:

- هيْ... أنت يا حلو، حضر قالب الخبز، فالمحطة التالية قد اقتربت.

ويجيب كولكا:

- لماذا توجه كلامك لي، قل له ذلك، هو كولكا، ويشير إلى ساشكا.

تبادلا أماكن نومهما ولبسا ثياب بعضهما بعضاً. لم يكن المغزى واضحاً، ولا الفائدة المرجوة ظاهرة.

ما كان المحيطون بهما يأبهون من وماذا يرتدي كل منهما، ولا أين ينام. والأخوان عرفا حق المعرفة أن هذا يبدو حالياً غير مهم. ولكن إذا ما حدث طارئ، حدثٌ جنائي مثلاً، هنا يصبح من المهم إرباك المحيطين، ومِن ثَمَّ خلط الأوراق.

كما كانوا يفعلون سابقاً...

ولكن الأخوين لا ينظران الآن إلى الماضي، بل يتطلعان إلى المستقبل.

سرعان ما بدأت تنتشر في عربات القطار روائح أخرى غير رائحة العسل والعرق والبول، روائح قمعت كل ما سبقها. دخل القطار فيما يسمى مدرسياً «منطقة التربة السوداء».

لم يكن من السهل أن تلفت نظر طفل مشرد إلى شكل الطبيعة وجمالها. ولكن وبشكل مفاجئ انفتحت دنيا جديدة لم تكن عيونهم معتادة إليها: فالأرض هنا فعلاً سوداء.

تقريباً بلا أشجار، بلا غابات، لا يوجد أي نوع من أنواع أشجار البتولا، هناك تلال حتى نهاية الأفق، لونها أسود كسواد أرجل أي ولد من أولاد دار الأيتام.

لم يكن سهلاً تمييز الغربان على هذه الأرض، والقاطرة أيضاً تتماهى مع لون الأرض.

وما يثير الدهشة أيضاً: نمو هذا الكم الهائل من الخضروات والفواكه في هذه الأرض السوداء دون إشراف ولا حراسة. كان من الصعب تمييز أنواعها عن بعد، علاوة على أن الناظر بحالة حركة. فلو خفَّف القطار قليلاً من سرعته، لو أنه يتوقف في مكان ما.

وكأن القطار يكيد كيداً، فقد اهتاج وزاد من سرعته، والحقول تمر مسرعة، والقطار تابع كالمسعور.

وبدأت الصلوات في العربات. أرجوك توقف لثانية واحدة... للحظة واحدة، لنحظى ولو بجزرة واحدة، بشوندرة واحدة... توقف، تمهل، ماذا تخسر، نتوسل إليك أيها القطار الحبيب.

وفجأة توقف.

هل سُمعت صلواتهم؟ أم أوقفت قوة الأفكار بخار القطار وسط الحقول؟

خفَّف القطار من سرعته، تحشرج صوته وتوقف.

قال سائق القطار وهو رجل عجوز حليق الرأس قليل الكلام، موجهاً كلامه للوقاد.

- باستا، هنا طعام يكفي جميع من في القطار، احبس البخار لساعتين، وأعطني ماءً مغلياً، سأحضر الشاي.

اندفع جميع ركاب القطار، مئات اليافعين، طبعاً باستثناء الأطفال الصغار، والجبناء الخائفين، والمرضى، وكل ما عداهم انهال من العربات يستوضح سبب توقف القطار. ولكن بعضهم ودون تمهل اندفع إلى الحقول المجاورة لسكة القطار، إلى المزارع الخضراء، وبدأ القطف والقلع.

كان البادئ في أول الأمر هم الأكثر جرأة، والأكثر مكراً. والآخرون وقفوا يتفرجون.

وفجأة وبعد القليل من التفكير، انطلق الجميع إلى الأمام. وكأن قطيعاً متوحشاً انقض على المزارع الخضراء وغمرها فوراً.

استغرب سائق القطار وهو يشاهد منظر الأولاد المأساوي بين الخضار مثل الخنافس بين الأعشاب تتحرك مهتاجة من مكان إلى آخر.

أكمل صب الماء المغلي على الشاي المركز في كوب معدني ضخم، ورفعه بيدين مرتعشتين وارتشف بحذر وقال:

- لن تخسر روسيا الكثير إذا ما شبع الأولاد مرة واحدة في العمر.

حصل في الحقل ما لا يمكن تصوره. هبشوا ما في وسعهم. وحملوا كل ما وقع بمتناول يدهم. قطفوا عرانيس الذرة الفتية التي لم تتشكل حباتها بعد. نزعوا اليقطين المتناهي الصغر بأسنانهم وبالحال بدؤوا يمضغونه بقشرته كأنه تفاح. سحبوا ما حصدوه بأوراقه وسيقانه، وحملوه إلى القطار.

حشروا في أحضانهم الخيار والجزر والشوندر الفتي، وكانت أفواههم تمضغ ما حشيت به. وتبصق ما التصق بها من تراب أسود. قطفوا رؤوس عباد الشمس الصفراء التي لم تنضج بعد. ومن لم يستطع فتلها وقطفها، اقتلعها من جذورها، حملوا كل هذا كما يُحمل الحطب، وجروه إلى القطار.

وقعت أحياناً بين أيديهم خضار غير مألوفة، حمل كولكا بعضاً منها في قميصه على أنها خيار ضخم، ثم تبين فيما بعد أنها لم تكن خياراً أبداً، وإنما كوسا، كانا يتعذبان بأكلها ولكنهما أكلاها، فلا يجوز رميُ النعمة.

في هذا التوقيت الذي يمكن وصفه بالغريب، التقى الكوزمينان مع ريغينا بتروفنا.

حمل الأخوان غنائمهما ولم يفكرا إلا بشيء واحد، ألا وهو كيف سيتاح لهما الوقت لحشرها في رفهم العلوي ليعودا أدراجهما لحصد المزيد.

من الضروري أن نقول إنهما عملا بكل ما أوتيا من قوة، بأياديهما وأسنانهما بالعزيمة نفسها. كلاهما كان يتمكن من قضم زهرة عباد الشمس ومضغ بذورها الحلوة اللينة غير المكتملة النمو بعد، في أثناء انشغالهما بعمل شيء آخر وفي أثناء سيرهما، يستخلصون حلاوتها، ويبصقون ما تبقى منها على العشب.

أما المرأة فكانت تقف عند مدخل عربتها.

حتى إن ساشكا انفتح فمه دهشاً لرؤيتها. ومنه انسكب قليلٌ مما يمضغه في فمه من البذور غير الناضجة. وكولكا ذُهل، ولم يعد يعي ما يفعله محدقاً بها. امرأة كهذه لم تكن متوقعة.

صبية في ريعان الصبا، شعرها أسود داكن، كثيف، طويل ملقي بلا مبالاة إلى الخلف. وعيناها سوداوان لامعتان، عميقتان لا يُعرف لعمقهما قرار، محاطتان بهالة من الوداعة والدفء. أما شفتاها فممتلئتان، فيهما الكثير من الحيوية، طبيعيتان لم يدخلهما أي لون، وهذا ما أعجب الأخوين أكثر من أي شيء آخر. كان رأسها مرفوعاً عالياً، مثل هذه الرفعة لا تكون إلا لإلهة أو ملكة.

هكذا رآها كلا الأخوين. وعلى الفور أحباها. وكان حباً أبدياً بلا هدف.

لم يَبُحْ أحدهما للآخر بهذا الحب، فقد كان هذا شيئاً خاصاً وهو الشيء الوحيد الذي لم يكن مشتركاً بينهما، كما باقي الأشياء، وإنما كان شيئاً يخص أحدهما دون الآخر.

هذا على اختلاف ما أعجب الأخوين في هذه المرأة.

أُعجب ساشكا بشعرها وأحب صوتها لاسيَّما حين كانت تضحك. أما كولكا فقد كان معجباً بشفاه المرأة وقدِّها الساحر، كما تلك الشهرزاد المرسومة في كتاب «ألف ليلة وليلة».

هذه المشاعر لم تكن من اللحظة الأولى، وإنما هذا ما أدركاه فيما بعد. أما الآن فهما يقفان جامدين أمامها، كما لو أنهما لم يشاهدا إنساناً بجوار العربة، وإنما ملاكاً هبط من السماء.

بحضنيهما المنتفخين البارزين لأكثر من نصف متر، ويديهما المشغولتين بحمل عباد الشمس، وفميهما المحشوين بذوراً فتية لم تنضج بعد، ولم يُتح لهما الوقت لمضغه. انشدّا إليها وأصبحا فجأة لا يعرفان ماذا عليهما أن يتصرفا.

نظرت المرأة إليهما وضحكت بصوت عالٍ. كان صوتها مخملياً منخفضاً، ارتعش له جسداهما.

- يا للعجب! قالت وهي تنظر إلى الأخوين، وكأنها تغني، - من أين أنتما؟ يشبه بعضكما بعضاً إلى هذا الحد؟ كفردتي حذاء. وانحنت لتراهما بوضوح أكبر، ثم استطردت: - لا لستما فردتي حذاء بل أنتما حذاءان لرجل واحدة.

وضحكت مرةً أخرى، وأشرق وجهها، وتألقت ضحكتها رائعةً وهادئة.

ولمّا كان الأخوان واجلين صامتين، والبذور البيضاء قيد المضغ ما زالت تتساقط من فم ساشكا، كانت المرأة تحاورهما بلطف كما لو أنهما صديقان عزيزان تعرفهما منذ وقت طويل، وتابعت:

- عندي ولدان في عربة القطار، لكنهما أصغر منكما. أصغر بكثير، مجموع عمريهما سبع سنوات، واسماهما جوريس ومارات، هما جديان جداً، وأقول لكما هما طفلان مهمان، يمكنكما مناداتي ريغينا بتروفنا... تذكرا، لا تنسيا؟ ريـــغيـــنا.

- بِتـــــروفْنا... وأنتما من؟

والآن فقط، انتبه ساشكا أن عليه أن يغلق فمه، وسعل كولكا وبصق بقايا البزر تحت قدميه. وأعلن بصوت أجش مضطرب أنهما كوزمينان.

- وفقط؟ قالت المرأة بمرح.

أومأ الأخوان في آن واحد رأسيهما إيجاباً.

- هذا غير ممكن. صاحت المرأة مبتسمةً، واختلجت شفتاها، لربما هكذا تضحك.

- هل يمكنني تسميتكما كوزمين الأول وكوزمين الثاني؟

- كلا، قال كولكا بصرامة. - نحن منفصلان ندعى كولكا وساشكا. أما مع بعض فنحن كوزمينان، يعني كوزمين.

هزت المرأة رأسها، وكأنها ذُهلت مما قيل، فاضطرب شعرها الأسود، وسقط جزء منه على صدغها وعلى كتفها.

- من منكما من؟ هو إز هو[1]؟ كما يقول الإنكليز... لا، حتى لو قلتما لي فلن أميزكما في المرة المقبلة، فأنتما نسخة كربونية، هل تفهمانني... منسوخان بورقة كربون.

لم يفهم الأخوان ماذا تعني «النسخة الكربونية» ولكنهما أقرّا فيما بعد بأنهما وللمرة الأولى في حياتهما يتحدث إليهما أحد بلغة أجنبية. حتى إن ساشكا تصبب عرقاً، وسمح كولكا لقطرات أن تسيل في بنطاله.

ولكن المرأة لم تلاحظ شيئاً، فقد انحنت لتقترب من الأخوين ولتصبح أقرب وأقرب، وصار التنفس عليهما أصعب وأصعب، وكانت تعبق منها رائحة كثيفة عميقة غريبة لم يعرفاها من قبل. ومال شعرها المثير واستلقى فجأة عليهما. وخفضت من علو صوتها وقالت كما لو أنها تكلم أقرباء لها:

- أحبائي، سنلتقي فيما بعد، سأكون معلمتكما، نعم، نعم. وستقولون لي دائماً من منكما يكون من، ولن تربكاني، أليس كذلك؟ أنتما تخدعان الجميع بهذا الشبه الكبير بينكما، وتجعلان أي أحد يخلط بينكما، أليس كذلك؟

أطرق الأخوان برأسيهما.

هي كانت المرأة الأولى التي أدركت دفعة واحدة كل شيء عنهما.

- إلى اللقاء كوزمينيَّ العزيزين، قالت المرأة ذلك، وأخذت نفساً عميقاً. - غادرتُ موسكو مع صبيين مثلكما مهمين لي، وهما لن يستطيعا العيش مدةً طويلة من دوني... سنلتقي؟ لنقل عند المحطة التالية... تمام؟ حسناً لقد اتفقنا. مع السلامة.

تركتهما وذهبت.

---

(١) who is who? المترجم.

صعد الأخوان إلى القطار، وأفرغا ما يحملانه من ثروة في الرف العلوي، ولسبب ما لم يعودا سعيدين بما حملاه.

وبدأت عندهما فوراً مرحلة الانتظار، متى سيتحرك القطار ليصل بأقرب وقت إلى المحطة التالية.

وعندما حصل ذلك، بعد الكثير من الدقائق المؤلمة، لم تكن المرأة صاحبة الاسم الغريب ريغينا بتروفنا عند العربة. ولم تكن أيضاً في كل المحطات التالية. حتى إن الأخوين ظنا أنها لم تكن موجودة على الإطلاق. وفي اليوم التالي أصيب القطار بإسهال حاد.

-٦-

أصيب جميع من في القطار بالإسهال، لأن أمعاء الأولاد الخاوية الضعيفة لم تستطع هضم هذه الكمية من الخضار الملوثة.

ألقى مرافق القطار ذو الشاربين نظرة إلى التواليت بأسف وحرقة.

كل شيء كان متسخاً، كرسي التواليت والأرضية حوله، صنبور الماء والمغسلة تحته، ورف الصابون فوقها، كانت الجدران ملطخة تقريباً حتى السقف.

حتى مدخل القطار كان متسخاً، وبلغ الممر بين العربات، وهناك من تذاكى وفعلها عند مدفأة العربة.

والآن، بعد ما حصل وعند محطات التوقف المتكررة، كان الأولاد يخرجون إلى الحقول ليس للحصول على الغنائم، وإنما ليخففوا عنهم ويقضوا حوائجهم خلف سفح السكة المرتفع.

خارت قواهم ولم تعد لديهم القدرة على الابتعاد، صاروا يجلسون مباشرة بجوار العربة أو تحتها. بعضهم الأكثر ضعفاً، استنفذ طاقته عند الخروج من العربة ولم يستطع النهوض فيما بعد، فكانوا يسحبونه إلى داخل العربة.

كان سائق القطار صغير الحجم، كثير التجاعيد مسخماً بالسواد، وكانت ملابسه ملطخة بالشحم الأسود، والآن وبعد ما جرى صار يركض على طول القطار قبل أن ينطلق به وينحني متوسلاً:

- يا أولاد، يا أحبائي، أرجوكم، كيف لي أن أنطلق بالقطار وأنتم تجلسون على عجلاته. أيُّ مصيبة هذه، لو سقط أحد منكم، لا سمح الله، ودهسه القطار. كنت أُخدِّم الجبهة، أقود القطار إلى ستالينغراد، أنقل الجنود ليلاً على سكة حديدية موضوعة على الأرض مباشرة، ولم يحصل معي أي حادث...

وأومأ برأسه واهتز شعره القنفذي الشائب منادياً المدير لمساعدته.

وظهر بيوتر أنيسِمَفيتش مستعجلاً، يركض من عربة إلى عربة ضاماً حقيبته إلى صدره، ينحني إليهم ويستجديهم:

- اخرجوا من فضلكم، علينا أن نغادر، القطار ينتظركم، هكذا لن نتزحزح من مكاننا أبداً، أتفهمون؟

لم يرد الأولاد عليه، ولم يتحركوا. وإنما صدرت عن مؤخراتهم المصطفة على نسق واحد أصواتٌ قوية كجواب لطلب المدير.

اعتدل المدير بوقفته ورمق سائق القطار، وقال فاتحاً يديه:

- غريب، أقسم إني لا أفهم ما يجري.

- ليس غريباً، هذا أمر مفهوم، تمتم سائق القطار. - ولكن كيف ستتصرف؟

عند المحطة التالية، وكان اسمها محطة كوبان، توقف القطار لثلاثة أيام. فقد كان الجسر المؤقت الذي نُصب على نهر جبلي، وهو الجسر الذي أقامه خبراء المتفجرات خلال الهجوم الأخير، جرفه طوفان هائج، ولم يُشَغَّل الجسر الجديد بعد. لذلك نُقل القطار إلى سكة بديلة.

أُفرغ الأطفال من القطار، ونقلوا إلى قطار شحن قريب ينقل التبن.

كان ساشكا أقلّ تحمّلاً من أخيه، فقد ملأ بطنه مرتين أكثر من غيره، حشاه خضاراً، وبذور عباد شمس، وبطيخاً أخضر، وباذنجاناً وأشياء أخرى. لذلك كان أول من عانى من معدته. وصار بين الحين والآخر يركض خلف آخرين راكضين للغاية نفسها في ممر العربة.

حتى إنه تدبر أمره في المعبر بين عربتين، فيفرغ ما عنده دفقاً عبر فتحة بين قطع الحديد المتمفصلة وهي تصلّ.

لم يبق فيها بعد ما يفرغه. فقد أفرغ كل الأخضر، والأصفر أفرغه، وحتى الأسود. ثم ظهر المخاط، وكانت فيه خثرات دم.

جاء المدير عند المساء ومعه اثنان يرتديان الأبيض، رجل وامرأة. عاينا الجميع. وساشكا أيضاً. جسا بطنه وألقيا نظرة إلى لسانه.

كان ساشكا شاحب الوجه، صامتاً، ممدداً على حصيرة فوق العشب.

وكان كولكا يحاول إثارته ليتحرك، حكى له عن المحطة، وعن حدائقها المجاورة التي تنمو فيها أشجار الخوخ الأصفر، وتتدلى أغصانها وثمارها مباشرة على الطرقات المحيطة، تقطف منها ما تشاء، وتأكل قدر ما تستطيع. وعند سفوح السكة هناك ثمرة أخرى هي البرقوق، ومنها أيضاً تأكل ما تشاء، فهي مجانية.

وبذور الكثير من الثمار أيضاً، ملقاة عند سفح السكة، وهي كثيرة لدرجة أنها تحجب الأرض. يذهب الأولاد، من يقدر منهم على المشي، يأخذون منها، ويضعونها على سكة القطار، ويكسرونها بالحجارة. وأصوات طرقاتهم تُسمع في كل المحطة.

- أسمعهم، حاول ساشكا الكلام، وحتى إنه ابتسم بشفاه شاحبة. بدا كولكا مستغرباً كيف عُصر أخوه وأُخرج كل شيء منه.

لكنه سكت عن شيء واحد، لم يحدِّثه عما رآه في المحطة. عن عربات غريبة على السكة البعيدة خلف محطة ضخ المياه. وصل إلى تلك العربات بمحض الصدفة، فقد كان يجمع البرقوق على امتداد سفوح سكة القطار، وسمع من يناديه من الأعلى من خلف قضبان نافذة عربة للبضائع. رفع رأسه ورأى للوهلة الأولى عينين فقط، كانتا لولد أو لبنت. كانتا سوداوين بارقتين، وفيما بعد تكشَّف الفم والشفاه واللسان. امتد الفم إلى الخارج ولفظ لفظاً واحداً غريباً: «خِيْ». استغرب كولكا وعرض ثمار البرقوق على راحة يده. «هذا؟» كان واضحاً أن هذا ما يريدانه. وعما يمكن السؤال ما دام لا يوجد هنا شيء غيره.

- خِيْ! خِيْ! خرج صوتٌ من جديد، وفجأة انبعثت الحياة داخل العربة الخشبية. امتدت الكثير من الأيدي الصغيرة إلى قضبان النافذة، وظهرت عيون أخرى

وأفواه أخرى كانوا يتغيَّرون كما لو أنهم يتدافعون، وفي الوقت نفسه ارتفع ضجيج أصوات غير مفهومة، كانت كما لو أنها تتكلم من جوف فيل.

ارتد كولكا وكاد يسقط. ومن حيث لا يدري ظهر جندي مسلح. ضرب الجندي بقبضة يده على جانب العربة الخشبي. لم يضرب بقوة، ومع ذلك اختفت الأصوات فوراً، وساد صمت الأموات. واختفت الأيدي. وبقيت العيون فقط ملأى بالخوف. وجميع لواحظهم كانت مشغولة بالنظر إلى الجندي.

رفع الجندي رأسه، ولوح بقبضته، وقال كلمات اعتاد قولها:

- صمتاً تْشوتْشْمِك[1]، لمن الكلام؟ الزموا الصمت حالاً.

وخطا الجندي نحو كولكا الذي لم يستعد رشده بعد، وأدار له رأسه بكثير من الحرفية باتجاه المحطة، وكأنه يعرف من أين قدم ودفعه من ظهره:

- اذهب، اذهب من هنا. لا شيء هنا لمشاهدته، هذا ليس سيركاً.

اندفع كولكا يركض حتى وصل المحطة، حاملاً حفنة من ثماره التافهة. ولو لم يكن ساشكا في هذا الوضع التعس لأخبره بكل ما جرى فوراً ولسأله أيضاً عن التْشوتْشْمِك... هل هم الزعران، أم المشردون، أم المحتالون، أم قطاع الطرق؟ هذه أسماء معروفة لديه. أما هذا فهو تعبير جديد، يجب إدراكه بالعقل. لكن ساشكا كان مريضاً. وهو بكل المعايير كان يحتضر.

والمرأة البيضاء، تلك التي ترتدي المريول الأبيض، أحضرت بعض الأقراص وتلك الخزعبلات في حبابات. ومن شفقته على أخيه تناول عنه نصف تلك الأقراص، فهي سم زعاف، وشرب الحبابات. هو الوحيد الذي أدرك أن هذا العلاج سيقضي على ساشكا. حتى إنه أعان أخاه مرة في وضع ميزان الحرارة بدلاً منه، لكنهم في هذه كشفوه.

والطبيبة البيضاء كانت حادة النظر، أمرت بفصل الأخوين ورأت أن يعيش كولكا حالياً في عربة أخرى.

---

(١) تْشوتْشْمِك: اسمٌ يُطلق على سكان آسيا الوسطى، وأحياناً على سكان القوقاز. وغالباً على من هو غير روسي. المترجم.

قاوم كولكا، ولم ينفذ الأوامر، حتى إنه حاول أن يثنيهم عن قرارهم برفع صوته، ولكن كل هذا كان بلا جدوى. كانت الطبيبة حازمة في قرارها، وتقريباً بالقوة وبمساعدة الرجل الأبيض طردت كولكا وأمرته ألا يظهر أبداً عند ساشكا. ليس هذا فقط وإنما هددته باقتياده إلى مكان بعيد إذا خالف.

أدرك كولكا ما يجب أن يفعله، نزل إلى أسفل العربة، ومن هناك عبر أرضيتها حاول التحدث إلى أخيه. عندما لم يكن عنده أطباء، كان ساشكا يجيب بصوت خافت. وبوضع الأذن على خشب العربة كان يمكن فهم ما يقوله.

عندها فرش كولكا كمية من الأعشاب وأوراق الأركتيوم(١) الكبيرة بين سكتي القطار، وصنع لنفسه مرقداً، نام تحت ذاك المكان الذي فيه ساشكا. وليعرف ساشكا أن كولكا دائماً بين يديه، كان يطرق بحصاة على أرضية العربة، ويجيبه ساشكا. وهكذا أمضيا يومين.

أُعيد ترتيب القطار السابق، المتوقف في مكان قريب منهم. فقد جرى كشطه وتنظيفه من الأوساخ، ثم غسله بالمنظفات والمطهرات، التي ملأت رائحتها النفاذة العربات. لذلك عانى أول من أراد الانتقال والعودة إليه من صعوبة التنفس، وكانت الرائحة تثير الدموع. لذا انتظروا ليوم آخر حتى تزول الروائح المثيرة والمزعجة من العربات.

عاد كولكا مرة أخرى إلى قطار الشحن الغريب خلال فترة انتظارهم. جال عدة مرات حول الشجيرات الشائكة دون أن يكل أو يمل. هذه العادة السيئة ميزت أولاد الدار، يدورون ويحومون كما الدبابير، حول المكان نفسه الذي أُبعدوا عنه. ومعلوم أن هذه المناورة تؤمن لمن يقوم بها الحصول على شيء ما من هذا المكان، إن لم يكن طعاماً يسد به رمقه، فقد يكون مشهداً يراه بعينيه... والمشاهد هنا صار لها ثمن. وعند أولاد دار الأيتام تعدّ العيون الحادة بمنزلة حصة طعام ثانية.

---

(١) نبات الأركتيوم (Árctium): هو جنس نبات من الفصيلة النجمية، أوراقه بيضاوية كبيرة الحجم. المترجم.

وبقدر ما أمعن كولكا النظر، وهو جالس خلف الشجيرات عند سفح سكة الحديد، وبقدر ما أصاخ السمع، لم يستطع العثور على أي شيء. رأى جندياً، ليس ذاك الذي طرد كولكا، وإنما آخر، أطول وأعرض، كان يسير بمحاذاة القطار جيئة وذهاباً، محاولاً الاحتماء بظل العربات الضيق.

على امتداد حياتهما غير القصيرة، هو وساشكا شاهدا أنواعاً كثيرة من القطارات، كانت تمر عبر تاميلِنا، قطارات إسعاف رُسم على جوانبها الصليب الأحمر، قطارات عسكرية تنقل دبابات مشدرة، قطارات لاجئين، وقطارات جنود عاملين، وحتى مساجين... ومرة شاهدا قطاراً ينقل أسرى نازيين، نقلوهم بعربات عادية، أما ضباطهم وجنرالاتهم فقد خصصت لهم عربات فخمة... تم نقلهم فيما بعد بقافلة عبر موسكو. لكن هذا القطار، لم يكن يحمل نازيين ولا لاجئين، ويستطيع كولكا أن يقسم على ذلك. على الأغلب، كان قطاراً يشبه قطارهم للأولاد المشردين، وكما يبدو فهم لا يطعمونهم أيضاً. لذلك فعلى الأولاد تأمين طعامهم بأنفسهم، وهو شيء اعتادوه منذ طفولتهم، ولكن إذا أغلق عليهم، فكيف يمكنهم ذلك؟

كان يعرف كولكا قساوة الحجز، فهما وساشكا غير مرة دخلا السجن، كانت المرة الأخيرة بسبب سرقة خيارة مخللة من السوق. وفي أثناء جرّهم إلى القسم كانا لا يزالان يمضغان الخيارة المسروقة. لكنهما جلسا فيما بعد طوال الليل يصرخان، كم أرادا شربة ماء! هما حُبسا من أجل خيارة مخللة أو غير ذلك. أما هؤلاء، فلماذا؟ ربما نظفوا بيت المدير؟ أو سرقوا غرفة الخبز بكل ما فيها؟

بينما كان كولكا يراجع ذاكرته ويفكر، صفر القطار الغريب وبدأ يتحرك، رمقه الجندي بنظرة خاطفة وهو يقفز ليصعد درجه، وهنا أيضاً بدأت تنطلق أصوات، ليس من عربة واحدة، وإنما من كل العربات. صراخ، زعيق، بكاء وعويل.

انطلق القطار بالاتجاه الذي قدم منه قطار الأخوين. ولكن، كم كان غريباً، أن الأصوات والألفاظ من العربات المسافرة، بقيت مدّةً طويلة تحوم في سماء المحطة بعد أن غادر القطار، حتى ذابت في الشفق الدافئ.

طبعاً هذا كله من تخيلات كولكا، فكما اتضح فيما بعد، أن هذه الأصوات وهذا العويل لم يسمعه أحد غيره. فقد كان سائق قطارهم يمشي بهدوء وسلام حاملاً مطرقة ينقر بها عجلات القطار، وكان الأولاد يتململون بجوار القطار، والناس يتحركون في المحطة بهدوء في أعمالهم، وكان المذياع يبث لحناً حماسياً لفرقة آلات النفخ النحاسية: «واسعة يا بلادي».

وفيما بعد تحركنا نحن أيضاً باتجاه القوقاز المجهول.

عبرنا نهر كوبان الهائج بخطوات هادئة على جسر مؤقت واهٍ، نصبه مهندسو المتفجرات في الآونة الأخيرة، ظهرت الحدائق التي غمرتها المياه، ثم بانت عند الأفق جبال بعيدة. كانت فرحتنا كبيرة، كما لو أننا قد أنجزنا في حياتنا اكتشافاً عظيماً، «جبال، انظروا، إنها الجبال، جبال حقيقية».

كانت زرقاء لا تختلف كثيراً عن غيوم متفرقة عند حافة السماء، والوصول إليها كان سيستغرق أكثر من يوم سفر. كان مشهد القمم المتلألئة يحبس الأنفاس، وحقيقة بدا لنا في هذا الوقت أن أحلامنا بحياة فيها الفرح والسلام، فيها الخير الوفير يمكن أن تتحقق.

وغاب عن الوعي، ومحي تماماً من الذاكرة، ذاك اللقاء الغريب في محطة كوبان مع قطار امتدت منه أيدي أقراننا إلينا، وهم يصيحون: «خِيْ! خِيْ!».

توقف قطارانا جنباً إلى جنب كما لو أنهما أخوان توءَمان، لا يعرف بعضهما بعضاً، وافترقا إلى الأبد. ولم يعنِ لأحد البتة أن يغادر كل منهما في اتجاه، أحدهما شمالاً، والآخر جنوباً.

كان يجمعنا مصير واحد.

ولكن عندما تقرر أن يذهب الجميع إلى القطار فقد حان وقت مغادرته المحطة، طُلب من ساشكا واثنين آخرين ألا يغادروا فهم ممنوعون من السفر بسبب مرضهم وضرورة معالجتهم في المشفى.

عندها كان كولكا مستلقياً تحت العربة واضعاً أذنه على أسفل العربة، ويستمع.

لم يفهم كل شيء، لكنه أدرك أن ساشكا في خطر.

سمموه في البداية بأقراص وحبابات غريبة، وختموها بمنعه من السفر في القطار، منعوا كولكا من البقاء بجواره، وبهذا قريباً بالتأكيد سيقتلونه.

جلس كولكا تحت العربة ينقل لساشكا آخر الأخبار، شتم الطبيبة البيضاء، التي لا تسمح له بزيارته...

يجب أن يسافر ساشكا إلى القوقاز. لا داعي لبقائه في هذه المحطة. حتى لو كانت ثمار البرقوق كثيرة هنا، والخوخ الأصفر كثير أيضاً، ونوى الثمار عند سفح السكة، مليون، لكن ليبقى الأخوان على قيد الحياة يجب أن يكونا معاً، ويسافرا معاً وفي القطار نفسه أيضاً...

هنا خطر ببال كولكا خاطرٌ، كيف تخطر في رأسه مثل هذه الأفكار؟ خطر بباله أن يتبادلا مكانهما. ليلاً، عندما ينام الجميع، يأخذ مكان ساشكا في قطار التبن، وساشكا يذهب إلى القطار المغادر. وعندما ينطلق القطار، يقفز كولكا، وينتقل بسرعة إلى القطار...

ربما استطاع ساشكا بذكائه أن يأتي بمثل هذه الفكرة، وربما بأحسن منها، هذا مؤكد. لكن كولكا كان فخوراً بخطته: هو من فكر كيف ينقذ أخاه من مصيبة.

أما ساشكا فقد رفض فكرة الخداع رفضاً مطلقاً. فقد كانا الآن يبدوان بالشكل مختلفين تماماً، ويستحيل الخلط بينهما، فساشكا شاحب، واهن حتى الإنهاك، وكولكا سليم معافى. ومن جهة أخرى، لا يستطيعان انتظار الليل، فالقطار سيغادر قبل حلول الظلام. لذلك يجب عليهما أن يفكرا بطريقة أخرى.

سكت ساشكا قليلاً ثم سأل من خلال خشب الأرضية:

- ألا تساعدنا تلك، التي... ريزينا؟(١)

- مطاط؟ سأل كولكا. - لا، لا يوجد معي مطاط، ولماذا المطاط؟

- لا، لا أقصد المطاط، صاح ساشكا من الداخل. - أقصد المعلمة... ما اسمها؟ أليس اسمها ريزينا؟

---

(١) ريزينا: تعني بالروسية المطاط. المترجم.

قفز كولكا عند سماعه اسمها مشوهاً إلى هذا الحد، فاصطدم رأسه بالعربة، وتطاير الشرر في عينيه. كيف غاب عنه ذلك. طبعاً، ومن غيرها يقدر على مساعدتهما في مصابهما، إذا لم تساعدهما هي، هذا المخلوق الملائكي، هذه الملكة المشرقية، شهرزاد، يجب العثور عليها بأسرع وقت.

- ريغينا بتروفنا... هكذا هو اسمها، - قال ذلك وفرك رأسه - استرح أنت. تظاهر بأنك نائم، لا تتناول أيّ أقراص، قد يسمموك. ولا تدعهم ينقلوك. وأنا حالاً... سأجدها، هل تسمعني؟ - وطرق أسفل الأرضية ثلاث مرات. هذا ليجعل انتظار ساشكا أكثر متعة. أما ساشكا فقد أجاب بطرقة واحدة. فهو يوفر قواه، التي لا يملكها. هُرع كولكا إلى القطار، فالوقت ينفد ولم يبق منه الكثير.

مر كولكا بسرعة على جميع العربات، فتش كل الأسرة والرفوف وتحت الرفوف، ولكن لم يعثر في أي مكان على تلك المرأة الشرقية التي تدعى ريغينا بتروفنا. ولا يعرف أحد عنها شيئاً.

الجميع كان يرحب بكولكا، يسلمون عليه، يصيحون هنا وهناك فوق وتحت:

- هي، كوزمين، أين الكوزمين الثاني؟

- أيهما أنت؟ كولكا أم ساشكا؟

- أنا بيتكا، أجاب.

وفكر كولكا، لو كانت المرأة التي هي ريغينا بتروفنا، لسألت بالأجنبي: «هو إز هو». ليس مفهوماً ما تقوله ولكنه شيء رائع، كما لو أنها تستخدم ألفاظاً بذيئة في كلامها[1].

لو كان الظرف يسمح لألَّف كولكا نكتة بهذا المضمون، ولأضحك جميع من في العربة، ولكن لا وقت الآن... وصل إلى القاطرة الرئيسية، ولسبب يجهله، ألقى نظرة إلى المقطورة التي خلفها، تلك المخصصة للوقود. ورأى هناك بائعين متجولين، كانا يجلسان على الفحم، ويأكلان البيض والخيار. ولكن لم يكن هناك أي نساء.

---

(١) الروس يلفظون حرف الهاء خاءً خفيفة، وبإضافة حرف ثالث للكلمة يصبح لها معنى باللغة الروسية، وكثر ما يستخدمها الروس للشتائم، ولغير الشتائم أيضاً. المترجم.

أدرك كولكا أنهما سيضيعان هو وأخوه. وها هي القاطرة تستعد للانطلاق، والبخار بدأ يتصاعد، والسائق ينقر بمطرقته على الإطار الأحمر للعجلة الأمامية، ويعاينها، ليتأكد من سلامتها.

هرع كولكا إلى السائق يسأله وعنده بعض الأمل:

- هل سيتأخر القطار في المغادرة؟

لم يكن السائق الشائب اليوم ملطخاً بالشحم والسخام، ربما تمكن من الذهاب إلى حمام البخار، نقر على إطار العجلة وأنصت، ثم قال:

- ولماذا ننتظر بعد... لقد طالت استراحتنا، سأطلق الصافرة، وننطلق. أمامك نصف ساعة، استعجل إن كان لديك ما لم تنجزه بعد.

وكولكا لم يُنجز شيئاً. لم يوفق بإنقاذ أخيه. قد يكون الأحسن أن يذهب إلى قطار الشحن حيث يرقد ساشكا، ويأخذه إلى قطارهم المغادر، وبينما يكتشفون ذلك، يكون قد أوصل أخاه إلى العربة.

مرت على رأس كولكا الكثير من السخافات، ولكن لم يكن بينها أي واحدة يمكنها مساعدة أخيه. وقد يئس من إيجاد ريغينا بتروفنا قبل انطلاق القطار.

رفع كولكا بصره، وذُهل. إنها أمامه، تقف مباشرة في طريقه، كانت مشغولة البال تنظر إلى البعيد، ولم تنتبه إلى وجوده. وفي يدها، لو حُكي ذلك عنها لما أمكن تصديقه بأي شكل من الأشكال، سيجارة حقيقية، وكولكا يعرف تماماً هذه السجائر، إنها بِلَمور كنال.

وريغينا بتروفنا تأخذ سحبة من السيجارة وتطلق دخاناً دافئاً، ممعنة النظر في البعيد. إنها تفكر.

لو لم يكن بهذا الموقف اليائس، لما تجرأ كولكا في حياته من الاقتراب من امرأة جميلة وغريبة مثل هذه، ليس هذا فقط ومدخنة أيضاً.

ولكن الظرف الآن لا يسمح بالتردد. هُرع إليها كما لو كانت قريبته، وبدأ يشرح لها، وكان شرحه مبهماً بعض الشيء. حكى لها عن الإسهال، وعن الحبابات وأقراص

الدواء، وعن تلك، البيضاء، التي ترتدي المريول الأبيض، التي تريد الإبقاء على ساشكا، وإبعاد كولكا... وكيف طردته وأبقت ساشكا وحده ليميتوه، فهو سيضيع هنا في هذه المحطة. ودون ساشكا سيضيع كولكا أيضاً. وهما موجودان حتى الآن ولم يضيعا لأنهما معاً ولم يحصل أن تعرضا لمثل هذا وجرى تفريقهما.

رمت ريغينا بتروفنا السيجارة على الأرض دون أن تنتهي من تدخينها، وسألت على الفور:

- إذن أنت كولكا؟ لنذهب.

لم ير ساشكا كيف عبروا نهر كوبان على الجسر الواهي المعلق الذي يهزه ضغط المياه العاتية.

التصق الجميع بنوافذ القطار، وحشر كولكا رأسه، ليعرف كل التفاصيل وينقلها فيما بعد لساشكا.

كان النهر الهادر في الأسفل يدفع مياهه العكرة بقوة، تدور في دوامات ضخمة، وتتحطم أمواجه عند الدعائم الصخرية للجسر المحطم ويرتفع الزبد الأبيض.

تحرك القطار بهدوء، كما لو أنه يتلمس طريقه، وربما تذكر سائقه أكثر من مرة خلال هذه الرحلة، أيام الحرب وطريقه إلى الجبهة، ولاسيِّما الطريق إلى ستالينغراد، حيث كان عليه أن يسير على قضبان وضعت على عوارض عارية عبر سهوب الفولغا.

تمايلت الدعائم والركائز الخشبية، والجسر نفسه كان يهتز، ليس كثيراً ولكن اهتزازه كان واضحاً. وإذا ما أُلقيت نظرة كما فعل كولكا إلى المياه الهادرة في الأسفل، فإن الناظر سيعتقد أن الجسر آيل للسقوط في الهاوية السحيقة تحتهم.

ارتد كولكا، وهز رأسه. أرعبه المشهد.

لكن الجسر اقترب من نهايته، وظهرت على جانبيه أكوام مرتفعة من الردميات السككية - الحمد لله، فقد وصل القطار بسلام دون أن يسقط - وبدأت تظهر الحدائق والبساتين المغمورة بالكامل بالمياه.

لم ير أي من الأولاد مثل هذا المشهد من قبل. قوة جبارة دفنت كل جوارها، كم من الماء موجود في النهر حتى يتمكن من غمر كل شيء حوله، كانت تظهر قمم الأشجار وحدها ناتئةً فوق الماء.

دخلت ريغينا بتروفنا، هي الآن من يتولى أمر رعايتهما، فقد وعدت الطبيبة البيضاء بمتابعة الأخوين ولا سيّما ساشكا. شرحت المعلمة لهما أن تحسن الطقس وارتفاع درجات الحرارة في مثل هذه الأوقات من السنة، يذيب الثلوج على قمم الجبال، ويزيد منسوب أنهار القوقاز، ونهر كوبان واحد منها.

- وهل يعني هذا أننا نحن الآن في القوقاز؟ قال كولكا غير مصدق.

رمقته ريغينا بتروفنا بعينيها السوداوين اللامعتين، وكان يبدو أنها تفكر بشيء آخر، أجابته بنعم، وأنهم بالتأكيد قد أصبحوا في القوقاز. وأنهم قد وصلوا.

- والجبال، أين هي؟ قال كولكا محبطاً.

كان ساشكا صامتاً. ولو لم يكن مريضاً لسأل طبعاً السؤال نفسه. ما هذا القوقاز الذي توعدون. لا شيء غير الماء يملأ البساتين!

ابتسمت ريغينا بتروفنا ابتسامة هادئة، وارتعشت شفتاها الممتلئتان غير الملونتين، وامتلأت عيناها بشيء من الحزن العميق.

- انتظرا حتى المساء، قالت ذلك بانحناءة منها وكأنها تقول سراً خطيراً. - مساء، عزيزيَّ الكوزمينين، ستكون الجبال.

- وكيف هي؟ سأل كولكا بالوكالة عن نفسه وعن ساشكا.

وافقه ساشكا بحركة ضعيفة من رأسه.

- ستريان، إنها جميلة... لا، إنها بمنتهى الروعة. تناوبا لئلّا يفوتكما منظرها من بعيد.

تركت ريغينا بتروفنا قطعتي خبز دهنتا بالزبدة الأمريكية البيضاء «لارد»[1]. لم يكن لها لا طعم ولا رائحة، تركتهما وذهبت. هناك انتظرها رجلاها الصغيران: مارات وجوريس.

---

(١) لارد، lard: زبدة أمريكية مصنوعة من شحم الخنزير. المترجم.

لحس ساشكا قطعة الخبز بلسانه، دون أن يأكل منها، وعند أول محطة، أخذ كولكا القطعتين واستبدلهما ملء علبة ليتر من الخوخ الأصفر الكبير. فالخبز يمكن استبداله بأي شيء.

تذوق ساشكا الخوخ بقطعة صغيرة جداً وببطء شديد، وقال بجهد ظاهر: «لو هذا كان عندنا في موسكو»...

تفهم كولكا فوراً أخاه، الذي أراد القول: إن هذه الثروة لا يحلم بمثلها أحد في موسكو، علبة ليتر كاملة من الخوخ، وتأسف الكوزمينان أنه لا يمكنهما التباهي بهذا أمام زملائهما في تاميلِنا، ولا تقديم بعضها لهم.

تخيل كولكا أنه وأخاه ظهرا في مهجع نوم دار الأيتام ومعهما هذا الخوخ. سيسارع الجميع بأسئلتهم وعيونهم مركزة على هذه الفاكهة التي لم يسبق لهم رؤية مثلها، وسيجيبهم كولكا ببرود، موضحاً أن هذه الفاكهة من القوقاز، من على ضفاف نهر كوبان الجبلي، وتسمى خوخاً، وهناك منه أكوام، كلوا منها بقدر ما تريدون.

وهنا، سيقدم الفاكهة لزملائه، سيوزعها على من يريد، سيعطي بوني ثلاثاً منها فهو الأكبر ولم يزعجهما يوماً... وكان سيعطي فاسكا سمَرتشوك اثنتين، فهو الجائع دائماً... ولأعطى تولكا البورجوازي واحدة فقط، فهو سمح مرةً للكوزمينين بأن يلعقا ملعقته عندما انتهى من تناول قدر الطعام الذي أحضره العجوز والد صديقه الجندي، أكل القدر كله وشبع على مرأى منهما، وهما يتطلعان.

ولكان أعطى المعلمة آنّا ميخايلفنا واحدة. مع أنها كانت امرأة باردة ولامبالية، ولم تكترث يوماً بهما، وتعامت تماماً عن وجودهما، ولم تحفظ شكلهما في ذاكرتها بتاتاً، ولكن كولكا كان يشفق عليها. بكل الأحوال هي الآن تنتظر فارس أحلامها، وهذا يعني أنها ليست لا مبالية بالمطلق، وهي لا تخرج مع الجنود مثل الأخريات.

والكوزمينان تسللا يوماً إلى غرفتها متناهية الصغر، على أمل الحصول على شيء يُستفاد منه، ولم يجدا شيئاً هناك، حتى فتات خبز يابس لم يجدا. كان هناك علبة عاجية صفراء فيها مسحوق، أخذاها وذهبا بها إلى السوق لبيعها، خطفوها من كولكا بجشع، ودفعوا فيها ثلاث حبات بطاطا. وفيما بعد أعلنت آنا ميخايلفنا أمام الجميع أنها فقدت

حلية غالية الثمن مصنوعة من عاج الفيلة... ولربما أعطاها كولكا خوختين كاملتين، فلتأكل تعويضاً لها عن العلبة.

ولأعطى كولكا المدير الحرامي فيكْتَر فيكْتَريتش خوخة واحدة. فهو الذي وافق على سفرهما. ولأعطى الموسيقية ذات الشاربين أيضاً... لن يخسر شيئاً، فالخوخ في القوقاز كثير، فليأكلوا، وهم أيضاً يعيشون ظروف الحرب الصعبة. ونفوسهم تطلب الخوخ أيضاً.

هكذا كان كولكا يفكر وهو يغسل ويوضب الخوخ.

وبينما أطعم ذهنياً بونيا، وتولكا، وفاسكا وآنّا ميخايلفنا... وضع خوخة في فمه وبدأ يأكلها، ثم خوخة ثانية وثالثة. واتضح أن توزيع الخوخ للأصحاب في الأحلام أفضل، لينزل في الحقيقة كل الخوخ في بطنه.

أحس كولكا بتعب، وأراد أن ينام. لكنه تذكر أنه وعد ريغينا بتروفنا أن يتناوبا لئلّا يفوتهما منظر الجبال. ولو كان ساشكا معافىً لاستطاعا طبعاً توزيع المناوبات بشكل أحسن، أحدهما ينام والآخر يراقب من النافذة، جبال غاية في الروعة تنتظرهما.

والآن كولكا يقوم بالمناوبتين وحده، لكنه لم ير أي جبال. بدأت تظهر بعض التلال والهضاب، ولكن مثلها في ضواحي موسكو الكثير، ولم يكن كولكا يبحث عنها. وأصبح الوقت مساء، وبدأت الزرقة تلون الأفق. وبدا كما لو أن غيوماً زرقاء انتفخت أمامه، خاب أمله بمشاهدة الجبال وابتعد عن النافذة.

وساشكا أيضاً الذي كان يتتبع تعابير وجه كولكا، همس محبطاً:

- لا شيء؟

- «هو از هو» أراد كولكا أن يرمي شتيمة مستخدماً هذه الكلمات الأجنبية، لكنه عدل عن ذلك، لأن هذه الكلمات استخدمتها ريغينا بتروفنا بالذات.

وها هي نفسها قد ظهرت، وقالت بطريقة غريبة، وصوت منخفض وعميق:

- عزيزيَّ، هل رأيتما الجبال؟ أم فاتكما منظرها؟ أم كنتما نائمين؟

قفز كولكا واندفع إلى النافذة:

- ليس هناك أي جبال.

قال ذلك بيأس، فهو كان خائفاً فعلاً ألا يكون هناك جبال في القوقاز على الإطلاق، وكل الأحاديث عن هذه الجبال كانت كلاما فارغاً.

- كيف هذا يا أعزائي... يا أصدقائي، يا كوزمينيَّ الحبيبين. قالت ريغينا بتروفنا ذلك وهي منتعشة ومتأملة، وارتسمت على محياها ابتسامة هادئة.

ابتسامتها هذه بثت الدفء في قلب ساشكا، وصار واضحاً له أن لا مجال أن يكون القوقاز دون جبال، ما دامت ريغينا بتروفنا تتحدث عنها.

اقتربت المعلمة من النافذة، وأومأت إلى جهة الأفق:

- ها هي، انظروا.

- أين؟ حشر كولكا رأسه عند النافذة، وبدأ تلاميذ آخرون ينظرون أيضاً.

- ألا ترون؟

- لا نرى شيئاً. أجاب الجميع بصوت واحد.

- لا أراها، قال كولكا ذلك بشيء من عدم الثقة، لأنه لا يمكن إلا أن يفكر أن ريغينا بتروفنا لا تقول إلا الحقيقة. لا يفسد الأمر كونها تدخن، فهذا شأنها، أما أن تمزح بشأن جبال القوقاز فهي لن تقدم على ذلك.

أشارت ريغينا بتروفنا بيدها إلى السحب، التي بدأ لونها يتحول من اللون الأزرق إلى اللون الزهري اللطيف، وقالت:

- وما هذه؟

- هذه؟ سأل كولكا بنبرة. هذه ...

أراد أن يقول إن هذه سحب، سحب عادية، تجوب السماء الأبدية... وفجأة أدرك الحقيقة، وتوقف، وهمس بهدوء:

- جبال؟ أليس كذلك؟ وفجأة صرخ ملء العربة كالمجنون: جباااااال، جباااااال.

واندفع الجميع إلى النوافذ، وصار بعضهم يشير ويشرح للآخرين، أن ما يرونه ليس سحباً على الإطلاق، وإنما هكذا تبدو قمم الجبال البعيدة عند خط الأفق، بيضاء يوشحها اللون الأزرق. والوصول إليها يتطلب سفر عدة أيام.

وساشكا الذي أيقن أن الجميع قد شاهدها، جميعهم ما عداه، اضطرب وطلب بحماسة: «وأنا أريد رؤيتها، ساعدوني لأراها» واقترب من النافذة، وبدأ كولكا يشرح له: «انظر، هناك في البعيد...» وساشكا يسأل ووجهه ازداد شحوباً، «أين؟ أين؟» وأخيراً عندما رآها، ابتسم، رغم الإنهاك الذي أصابه.

ها هم قد وصلوا إلى القوقاز. إلى ذات الجبال. وإذا كانوا سيفخرون يوماً بشيء أمام زملائهم في دار الأيتام في تاميلِنا عند عودتهم، فبالتأكيد لن يكون الخوخ أو البرقوق، الموجود بكثرة عند سفوح السكك الحديدية، ولا حتى نهر كوبان الهائج، ولا الجسر الجديد المتأرجح، وهم كانوا من أوائل من مر عليه إلى ضفة النهر الأخرى وتحتهم كان النهر الهادر يغلي. لا، ليس هذا.

سيتحدثون فوراً عما هو أهم، سيتحدثون كيف شاهدوا سحباً بيضاء حقيقية ترتفع عند خط الأفق، تلفها ملالة من الضباب الأرجواني، مباشرة باتجاه خط سير القطار، وهذا كما تبين أنها سلسلة جبال القوقاز وقممها.

- فلتَحْيَ الجبال، صاح كولكا ملء حَنْجرته، والتقط الجميع الصيحة، وأخذوا يطبلون، ويضربون على الرفوف والجدران، وبدؤوا الرقص والقفز البهلواني... كان هذا يشبه العيد، وكأن القطار فقد عقله... ومن كل هذا الضجيج العام الخارج عن السيطرة الذي يشبه جوقة أطفال، كان يمكن تمييز كلمة ثابتة هي «الجبال».

وسافروا بعد هذا، ليوم ونصف: ليل، نهار وليل حتى وصلوا إلى هذه الجبال، إلى المحطة الهدف، إلى المكان المنشود.

-٧-

أيقظوهم عند الصباح الباكر.

وبدأت حركة قوية في العربات، وانتشرت أصوات تنبه إلى عدم نسيان الأغراض الشخصية لمن يمتلكها.

كان المرافق القصير ذو الشاربين يصيح في ممرات القطار محذراً بالنسبة للأمتعة، وغمز الأخوين قائلاً:

- ها قد وصلنا يا صديقيَّ الصغيرين إلى القوقاز، يمكنكما المغادرة والتمتع بنكهته.

وأسرع إلى الباب وقد برز من حذائه الطويل العلمان الملفوفان في غمدهما.

تبادل الأخوان النظرات، ثم تابعا النظر من النافذة.

توقف القطار عند جبال جرداء غير مرتفعة، لا محطة هناك، ولا موقف، كل ما هناك كان قد احترق خلال المعارك الأخيرة.

فقط لوحة خشبية مثبتة بشكل مائل على عمود إنارة، كان مكتوباً عليها اسم المنطقة بالفحم «كفكازسكيي فودي»[1].

ينفتح إلى يمين سكة القطار حتى خط الأفق وادٍ رحب تُرى في ضبابه الصباحي الخفيف حقول مربعة خضراء، وسلسلة من الأشجار على طول الطرق الزراعية الغائبة عن النظر من هذا المكان، يتخلل هذه المساحات الخضراء بيوت صغيرة بيضاء، وربما قرى بأكملها.

تبرز خلف الوادي في منطقة يصعب تمييز بعدها، هضاب يغلب عليها اللون البني، تبدو كما لو أنها نضحت وسالت لترسم بقع الغابة الحمراء وجذوع أشجارها البنية، وخلفها تألقت بالأبيض قمم جبال القوقاز الرئيسية، كأنها جزء من السماء.

وحتى قبل ذلك، وفي محطة صغيرة للقطار، شرح إيليا المرافق شرحاً مفصلاً ودقيقاً للكوزمينين مشيراً بالعلم الذي يحمله إلى الجبال العالية، فهذا يدعى كزبيك، وذاك ذا الرأسين، إِلبروس[2]، جسد واحد برأسين، باختصار إلبروس أيضاً توءَمان.

---

(١) «مياه القوقاز المعدنية». المترجم.

(٢) قمة إلبروس هي أعلى قمة في أوروبا، بارتفاع يبلغ ٥٦٤٢م. المترجم.

فوراً خطرت على البال علبة السجائر التي كانت بيد الضابط الوسيم، وعليها ذاك الخط المنكسر الذي يميز قمم الجبال الحادة التي لا تشبه لا من قريب ولا من بعيد هذه الجبال.

شوهدت الجبال منذ كانوا في طريقهم إليها، ظهرت كما لو أنهم يرونها من خلال قطعة شاش، كانت تبدو حقيقية، ولكن ليس إلى ذاك الحد الذي يؤكد وجودها.

سمح صفاء صباح اليوم من تمييز جميع ثنايا الثغور على المنحدرات الرمادية، مثل الجداول المتجمدة التي تبدو خطوطاً بيضاء متعرجة نازلة إلى الأسفل.

كانت الجبال قريبة. حتى إنها كانت تبدو أقرب من تلال الغابة الحمراء، التي ارتفعت الجبال فوقها.

وصار واضحاً أن التلال الحمراء خلف الوادي هي بعيدة، لا بل بعيدة جداً، وتلك القمم التي ترتفع فوقها في السماوات هي أبعد منها بكثير.

وإلى اليسار من خط القطار، أو من المحطة التي كانت موجودة سابقاً، ومباشرة بعد قضبان السكة الحديدية، ترتفع روابي تتدرج في ارتفاعها وهي خالية من الأشجار، وحرقت الشمس أعشابها فيبست. يظهر على رابية منها بناء مدور أبيض مقام على أعمدة تعلوها قبة، كان غريباً أن يسلم هذا البناء من الحرب.

أُخذ الأولاد باتجاه هذا البناء المدور، وُزعوا صفوفاً، خمسة في كل صف، ليسيروا أرتالاً. ولكن تبين على الفور أن لا أحد منهم يعرف كيف يسير في الصف، ولا هم يريدون ذلك، ساروا بمجموعات صغيرة، تجمعوا حسب دور الأيتام التي جاؤوا منها، يذكِّرون بمشهدهم منظر النازحين الهاربين.

وبينما كانت مقدمة الحشد تسير خلف المدير وقد توغلت في عمق الوادي الرحب، كان لا زال في الخلف من يقف عند عربات القطار، لم يستطع الفكاك عنها بعد.

وبعد أن اجتاز الحشد ممراً ضيقاً بين رابيتين ليستا عاليتين، وجد الأولاد أنفسهم فجأة في منطقة شاسعة لم تسمح الروابي بمشاهدتها من المحطة.

ظهرت هنا أنقاض مصح سابق، وشاهد الجميع مباشرة بين الركام وأكوام القمامة حفراً بيتونية غريبة، مربعة الشكل، يملؤها الماء.

كانت الفقاقيع تغطي سطح الماء الراكد وكأنه يغلي، وارتفع بخار خفيف تجمع فوقه، وانتشرت منه رائحة كريهة.

- فو، من فعل هذا، ما هذه الرائحة. ومضوا يمزحون ويضحكون بصوت عال، خلعوا عن أنفسهم توتر الدقائق الأولى الأصعب على الأرض الغريبة.

اقترب بيوتر أنيسِمَفيتش يركض لاهثاً، وهو الذي سعى بحركة مكوكية جيئة وذهاباً على طول الرتل. يلوح بحقيبته، ويطلب من الجميع التوقف.

وهم دون أمر التوقف، كانوا سيتوقفون، فهم لا يعرفون إلى أين سيذهبون فيما بعد. واتضح أنهم قد وصلوا.

أشار بيوتر أنيسِمَفيتش إلى الحفرة وقال:

- ألم تسمعوا بالمياه الكبريتية؟ نعم، هذه هي... يعني، إذا أراد أحد منكم أن يستحم فهي مفيدة.

ساد الصمت، إلا من الذين كانوا في الخلف، فقد تابعوا همهمتهم وهم يقتربون، ولم يسمعوا شيئاً مما كان يقال. كانوا يدفعون من هم أمامهم ويسألونهم: «ما هذا، هل وصلنا؟ هل هذا بيتنا الجديد؟».

- يجب أن... يجب أن تنزلوا... يجب أن تخلعوا ملابسكم وتغسلوا عنكم كل أوساخ الطريق، وتابع المدير بصوت أعلى وهو ينظر نحو الحفر نظرات فيها الكثير من عدم الثقة. كان واضحاً أنه هو أيضاً لا يعرف كيف يستحم بها.

- انزل وحدك، قال له الجمع بصوت مرتفع. - وهل نحن مجانين لنستحم هنا، أو أنك جئت بنا إلى هنا لتصنع منا حساء؟

- حساء؟ لم يفهم بيوتر أنيسِمَفيتش. - لماذا حساء؟ وحدق في الوجوه، وكأنه يبحث عمن يسانده بينهم.

لكن الوجوه كما لو كانت منتقاة، كلها ساخرة، يملؤها الفضول، وبأحسن الأحوال وجوه فيها الكثير من عدم الثقة أو حتى الخوف.

- غريب، أقسم إني لا أفهم ما يجري، قال ذلك ومسح جبهته. - لماذا حساء؟

- لأننا سنُسلق مثل السرطانات. رد عليه أحدهم دون مواربة.

- هذا ماء يغلي، انظر الفقاقيع على سطحه.

- أجل، تمتم المدير وأخذ نفساً عميقاً. - مياه كبريتية... لم يسبق لكم رؤيتها... هذا مفهوم، على كلٍ..

نظر بيوتر أنيسِمَفيتش إلى الحفر، وخطا إلى أقرب حفرة إليه.

ودون أن ينظر إليهم، وكأنه نسي وجودهم تماماً، بدأ يخلع ملابسه ببطء. خلع سترته، طواها من منتصفها، وترك بطانتها من الخارج، وأخفى حقيبته كشيء ثمين، تحتها. خلع بنطاله وقميصه والقميص الداخلي ولسبب غير مفهوم ترك الحذاء للمرحلة الأخيرة.

بقي في الساتان الداخلي الداكن، الطويل حتى الركبتين. أخذ نفساً عميقاً واقترب ببطء من الحفرة. تحسس الماء برجله، ثم بيده، ومع ذلك لم يأخذ قراره بخوض الماء. وقف حائراً وتذكر حكاية «المهر الأحدب»(١)، وكيف وقف الملك متردداً أمام المرجل وهو يغلي، وفي نهاية الأمر قفز الملك في المرجل، ولم يخرج منه.

وفجأة شهق بيوتر أنيسِمَفيتش، وانزلق عند الحافة وسقط مباشرة في الماء، وتطاير الرذاذ إلى الحجارة القريبة.

---

(١) المهر الأحدب: قصة خيالية شعرية روسية للأطفال، كتبها بيوتر يرشوف عام ١٨٣٠. بطلها إيفان الأبله ومهره السحري الأحدب. طلب الملك من إيفان أن يأتيه بوصفة تعيد له شبابه. وبمساعدة المهر، قُدمت له الوصفة، وكان عليه أن ينزل في مرجل الماء وهو يغلي. استهجن الملك الفكرة، وطلب من إيفان أن يجربها على نفسه. وطبعاً ليس دون سحر المهر، تمكن إيفان من الخوض في الماء المغلي، وخرج أكثر شباباً. وهذا شجع الملك، وكانت نهايته. المترجم.

انتشرت الضحكات في الحشد المتجمع حول هذا السيرك. وبدأ المزاح، وتعالت أصوات الضحكات، وساد الهرج.

- غريب، أقسم إني لا أفهم ما يجري، قال أحدهم مقلداً المدير بنبرته.

- كل شيء مفهوم، سنحصل الآن على حساء باللحم.

- مرق اللحم.

- حساء بالمدير.

- حرام عليكم، ربما يجب إنقاذه قبل فوات الأوان، فأنتم كثر، أما المدير فهو واحد عندنا.

- ارموا له الحقيبة، سيغرق دونها.

كثرت الأقاويل والصيحات، أما بيوتر أنيسِمَفيتش فكان يخوض في الماء دون أن يعير اهتماماً للأولاد وتعليقاتهم.

نخر وشخر وحك تحت إبطه، وغمر رأسه بالماء ثم رش الماء من فمه مثل نافورة. كان بكل حركاته يعطي انطباعاً أنه كان مستمتعاً في تخبطه في هذه الحفرة العفنة.

هدأ المزاح تدريجياً. وأُفسح المجال للفضول بدل عدم الثقة. اقترب من الحفرة من كان أكثر جرأة وجسارة بينهم، لمسوا الماء وهم يتضاحكون. وفوراً ارتدوا. ودفعوا إلى الماء، الأقرب من الفضوليين بملابسه، الذي كان واقفاً عند الحافة. وهو الآن في الماء، لم يحاول الخروج، وتابع سباحة وسط ضحكات وصيحات زملائه.

وبين الآخ والإيخ، نزل عدد من الشبان إلى الماء الفاسد، مظهرين تخوفهم منه. لكنه كان واضحاً عليهم أنهم لم يكونوا خائفين على الإطلاق، لأنهم فوراً بدؤوا يتراشقون ويسبحون ويلفظون الماء نوافير من أفواههم...

هنا تقدم الباقون. وقد فهموا أخيراً أن لا حساء يهدد أجسادهم، ولا من يحزنون. وهذا ببساطة حوض استحمام، نعم، استحمام مرح. باختصار، حمام ترفيهي.

وبالصراخ وصيحات أُورا[1] بدأ الأولاد يتسابقون للنزول إلى الحفر التي لم تعد تكفي لأعدادهم، وبدؤوا يتعاركون ويتراشقون بالماء.

والفتيات فقط تجمعن ووقفن بعيداً خائفات، ولكن فضولهن جعلهن يراقبن عملية السلق.

هنا ظهرت ريغينا بتروفنا، فجمعت الفتيات وأخذتهن إليها.

خلف أنقاض المصح، وعند حافة المرج، يتصاعد الدخان من مربع كبير هو بالأساس حوض للسباحة. لم ينتبهوا لوجوده بادئ الأمر. إليه أخذت ريغينا بتروفنا الفتيات. هناك جردت طفليها من ملابسهما وعرّتهما تماماً وهما صامتان، لهما من العمر ثلاثٌ وأربعٌ من السنوات، أنزلتهما الواحد تلو الآخر في حوض السباحة. وتبعتهما الفتيات ولكن ليس دون زعيقهن المعتاد. كان المشهد غريباً لمن ينظر إليه، ويشاهده من مكان مجاور.

خمسمئة يافع، أضحوا الآن أطفالاً، صارت طفولتهم أكثر وضوحاً، هم أطفال عاديون، جن جنونهم بين الأنقاض، تهافتوا على السباحة، غطسوا في أحواضهم وأحواض رفاقهم، تراشقوا الماء الدافئ، وتطاير رذاذه على الحجارة المحيطة. وفقط بيوتر أنيسِمَفيتش الذي ارتدى ثيابه ومشط شعره القليل الأبيض، وجلس إلى جوارهم، ضاماً حقيبته إلى ركبتيه، ينظر بحذر إلى صخب الأولاد.

وفي الجوار جلس القرفصاء سائق القطار العجوز بشعره الأبيض القنفذي، يرقب بلامبالاة ويدخن لفافته «رجل المعزاة»[2]. فهو الذي دل المدير إلى هذه الحمامات غير العادية. ربما ليست المرة الأولى التي يكون فيها هنا.

وبصعوبة أُخرج الأولاد من الأحواض، ليعودوا وينتظموا في الرتل.

بعضهم ارتدى ثيابه، والآخرون لا زالوا يغطسون في الماء، ولم يكن هناك قوة تستطيع إخراجهم. كولكا وساشكا في البداية لم يرغبا في النزول إلى الماء، فقد كانت رائحته

---

(١) أُورا: صيحة روسية تعبر عن الابتهاج والمرح ويقين الانتصار. المترجم.

(٢) «رجل المعزاة» لفافة سجائر من الورق على شكل حرف L. المترجم.

السيئة تقلب أمعاءهما. ولكن فيما بعد تصالحا مع هذا، وأعجبتهما الفكرة، واختارا حوضاً صغيراً ولكنّه مريحٌ ومبلطٌ ببلاط ملون يغلب عليه اللون الأزرق.

دلك الأخوان أحدهما الآخر، وغطسا معاً في الماء، أرادا أن يريا كيف يبدوان تحت الماء. ولكن لم يكن هناك ما يتمسكان به لذلك عادا أدراجهما. راحا ينفخان الفقاقيع على سطح الماء، ويحركان الماء بأيديهما بشكل دائري ليشكلا دوامة، تراشقا الماء ورشقا زميلاً لهما من الحوض المجاور حاول الانضمام إليهما في حوضهما، وعندما أصرَّ، فضَّلا الخروج، وارتداء ملابسهما. كان الوقت كافياً لهما، وكان ساشكا قد أضعفه المرض، وهو لم يستطع البقاء طويلاً في الماء.

وقف الأخوان في منتصف الرتل، بثيابهما المبللة كما الكثير من زملائهما، ونظرا إلى الجبال التي تلألأت قممها بالثلوج. كان واضحاً أنه يمكن رؤيتها من أي مكان، ويمكن التمتع بمنظرها إلى أقصى حد، دون أن يكون هذا باعثاً للملل.

بدأ بيوتر أنيسِمَفيتش يقرأ التفقد من القوائم دون أن يعير انتباهاً لمن ما زال في الأحواض.

اتضح أنهم خلال سفرهم فقدوا سبعة أشخاص: هناك من تأخر، وهناك ربما من هرب، طبعاً لا يخلو الأمر من ذلك.

سلكوا عند العودة إلى سكة الحديد ذات الدرب، وعندما صاروا بجوار المحطة بدؤوا يهبطون إلى الوادي، والآن صار مفهوماً لماذا سميت هذه المنطقة بـ «المياه القوقازية»، وربما كان ينبغي أن يطلق عليها منطقة «المياه النتنة».

ساروا متباعدين على طريق واسعة كثيرة الغبار وسط حقول خضراء. حاول الكوزمينان تذكر النباتات الموجودة في طريقهم وأماكن نموّها، هذا طبعاً للحالات الطارئة، وهما ليسا واثقين أنهما سيستفيدان من هذه المعلومات لأنهما لا يعلمان كم سيسيران وأين سينتهي بهما الطريق.

وكانت استراحة قصيرة، وخلال الاستراحة، سارع الأولاد إلى جمع ما أمكن جمعه مما وقع تحت أيديهم، ولكنهم في هذه المرّة فعلوا ذلك بفتور وتكاسل، لقد اتعظوا

مما حصل معهم خلال رحلتهم الماضية في القطار. تابعوا المسير إلى أن ظهرت لهم بيوت بيضاء وسط الحقول الخضراء.

اجتاز الرتل قرية كبيرة اسمها بِرِزوفسكَيا عبر طريق غريب، خلى من المارة تماماً، كان الطريق أبيضَ ناعماً لكثرة الغبار عليه، وخلت القرية من أشجار البتولا التي حملت اسمها.

كانت الحقول المنبسطة خلف القرية تغصُّ بأعمدة حجرية مشرعة، كان ارتفاعها أعلى قليلاً من طول أحد الكوزمينين، رمادية اللون، كثيرة العدد، تشبه العوائق المثبتة في ضواحي موسكو لعرقلة تقدم الدبابات النازية. إذن، هنا أيضاً كان خط دفاع، هكذا فكر الأخوان، كم من الأعمدة نُصبت هنا. وفجأة تحول نظرهم إلى الطريق الذي يبدو أنه قد انتهى أمامهم.

توقفوا بعد كيلومترات ثلاثة بعد القرية. بالضبط عند بداية الجبال الخضراء، كانت ترى من خلال الأشجار عدة مبان، بناء أبيض من طابقين، واثنان آخران بطابق واحد، ولكنهما طويلان يشبهان المهاجع.

على عمود عند المدخل، خلف سياج شائك أخضر، عُلقت لوحة كتب عليها «المعهد الزراعي».

شُطبت التسمية بخطوط متقاطعة بالطباشير، وكُتب تحتها بخط مستعجل، «لـ ٥٠٠ ش. مشرد، نازح من ضواحي موسكو».

نظر بيوتر أنيسِمَفيتش بقلق إلى الرتل الممتد، ضاماً حقيبته إلى صدره، قرأ العبارة المكتوبة على العمود، هز رأسه والتفت إلى الأولاد.

- ها نحن قد وصلنا، قال ذلك وهو يمسح العرق عن جبينه. - هذا يعني أننا سنعيش هنا. الانضباط شيء أساسي، وأشياء أخرى، كما تعلمون.... لا تحدثوا ضوضاء، لا تذهبوا بعيداً، فقد تضيعون وليس لدينا من نرسله ليبحث عنكم...

في هذا الوقت في مكان ما خلف الجبال صدر صوت قوي تتابع كالرعد. رفع الأولاد رؤوسهم ينظرون إلى السماء، لم يكن هناك سحب، ولم يكن لها أثر.

وبيوتر أنيسِمَفيتش نظر إلى الأعلى أيضاً، أراد أن يقول لازمته: «غريب، أقسم إني لا أفهم ما يجري»، لكنه قال شيئاً آخر:

- يفجرون ألغاماً. تلك التي بقيت بعد الحرب مع النازية. ومرة ثانية مسح العرق براحة يده. - حسناً، والآن سيطلعونكم على أماكن نومكم، وأين يقع المطعم، والتواليت... يمكنكم الانصراف.

وبالنتيجة يمكن اعتبار ما قيل، كلمة افتتاحية على شرف الوصول بالسلامة.

شخص مشغول البال، في رأسه الكثير من المشاكل والهموم، كان يدير مستودعاً حتى وقت قريب، فهو ليس بليغاً في الكلام. إضافةً إلى هذا، ليس لديه ما يقوله، فقد وُضع في هذا الدور لأول مرة. أُمر بأن يوصل الأولاد، وهو قد أوصلهم.

سبق له العمل بقطاع النقل. نقل مرةً محصول البطاطا إلى **قسم التموين العمالي**، كما نقل الصابون وعلب الزيت النباتي. وهذا أقصى ما كان يحسن عمله. وذاع صيته كمدير أعمال معتبر.

في حقيبته كما العادة معاملات وفواتير، وفيها أيضاً وثائق وملفات الأولاد، التي من الضروري الاطلاع عليها والتعامل معها. طبعاً إذا ما توفر الوقت لذلك.

عندما نطق بيوتر أنيسِمَفيتش بعبارة «يمكنكم الانصراف»، وأومأ بيده باتجاه البناء، توقع من القادمين الجدد أن يندفعوا بسرعة لحجز أسرّتهم المعدنية. لكنه أخطأ، والرتل كما كان واقفاً تابع وقوفه. كانت أبصارهم شاخصة نحو البناء، كانوا كما لو أنهم ينتظرون شيئاً ما.

كان المدير يعتقد أن كتلة بشرية كهذه يمكنها أن تتصرف تصرفات غير متوقعة في ظروف متباينة، ولكن أن يتصرف الخمسمئة شخص بنفس التصرف وبنفس الوقت ودون اتفاق مسبق، كان غريباً.

والآن صار الجمع يشبه قنفذاً شائكاً ضخماً. لا مزاح ولا هزار، ولا حتى صوت، لم يصدر عنهم.

لم يختف ذاك القلق المزروع في اللاوعي، الذي نشأ عندهم خلال رحلة السير الطويلة من المحطة إلى مكان إقامتهم المنشود، ولم يتبدد حتى عند وصولهم، لا بل صار أقوى.

إضافةً إلى ذلك فإن تلك التفجيرات المتتابعة أقلقتهم، وذكَّرتهم بأحداث، قد يكون وقت نسيانها قاب قوسين أو أدنى. نُقل الأولاد ليسكنوا هنا بأمان واطمئنان، وكان على هذه الأرض الجبلية المباركة أن تستقبلهم بمحبة وسلام، وأن تُغدق عليهم أشجارها بوفرة ثمارها، وتُمتعهم شمسها الذهبية أواخر الصيف، وتغريد طيورها عند الفجر.

أذكر جيداً شعور القلق الذي انتابنا في الطريق من المحطة إلى هنا، إلى سفوح الغابات الجبلية.

كنا قد ألفنا القطار وعرباته، والطريق ومحطاته، وهذا كان حدثاً طارئاً علينا. وكنا نشعر بأمان نسبي في المحطات وأرصفة القطارات بين المسافرين واللاجئين، وفي الأسواق بين الباعة والمتسوقين، وسط ضجيج القطارات وصخب المسافرين.

كانت روسيا كلها تتحرك، كلها تسافر وتنتقل من مكان إلى آخر، وكنا نحن ضمن دفق تيارها، تياراً من الأجساد، تياراً من أبنائها.

والآن، جاؤوا بنا عبر طريق معبدة نمت في شقوقها العميقة أزهار كثيرة تفتحت براعمها ولم تجد من يجمعها، وعلى جانبي الطريق حقول عباد الشمس وقد فقدت نصف بذورها السوداء وهي تنتظر، وأشجار تفاح نضجت ثمارها وتشققت وهي تنظر إلى الشمس. ولم يأتِ أحد، أي أحد.

وخلال ساعات سيرنا الطويل كلها، لم نلتق سيارة ولا عربة حصان ولا حتى شخصاً عابراً. كانت المنطقة مهجورة بالكامل، فراغ في كل مكان.

كانت الحقول تضج بثمار حان قطافها. فهناك من زرعها، وهناك من اعتنى بها، ونزع الأعشاب الضارة منها. من؟

مررنا خلال مسيرنا الطويل بقرية وقد خلت من أهلها، فهناك من كان يعيش بها...

لماذا تستقبلنا هذه الأرض الجميلة بهذا الجفاء وهذا الخواء؟ ولماذا خلا مبنى المعهد الزراعي بلوحته الغبية التي كُتبت على عجل من أي أحد، وهو بهذا يذكرنا بأنفسنا، يُشعر كل منا بوحدته.

في الحقيقة، نحن أنفسنا كنا نشبه حيوانات تجارب رُميت في صحراء لإجراء تجارب غريبة عليها: «٥٠٠ ش. مشرد». هكذا تُصنف سلالتنا. ولكن ماذا يقصدون بـ «ش»؟ شخص، أم شقي، أم شرير، أم يُقصد بها شاذ؟

تدحرج صوت دوي تفجير آخر في الجبال خلف ظهرنا، وسُمع صوت فتاة من وسط الرتل تبكي، سمعناها تقول: «أريد العودة إلى البيت».

التفت الجميع، وكلهم سمع بكاءها، وبدأ الجميع يهدئون من روعها. قالوا يواسونها:

- ماذا بك، لماذا أنتِ خائفة، انظري، هذا بيتنا، هل تشاهدينه؟ هنا كل شيء لنا، البيت والنهر والجبال... قدمنا لنعيش هنا.

وقفنا عند الجبال التي ما فتئت تُصدر أصواتاً راعدة. كنا نقف على أعتاب حياة جديدة، ولم نكن نستعجل دخولها.

أعتقد أن جميعنا كان قلقاً، ونحمل كلنا نفس الأحاسيس. أما أفكارنا فلم تكن ثابتة، كانت زلقة وغامضة، ولم تكن على الإطلاق تقترب من مفهوم أننا وصلنا إلى ديارنا، وأن هذه أرضنا، وأن كل شيء هنا هو ملكنا.

وما كان ملكنا هنا، لم يكن سوانا نحن فقط. نحن، أي أرجلنا وأرواحنا، أرجلنا المستعدة للهرب دائماً ولو مهما حدث. وأرواحنا التي عنها يقال، أي عن الأرواح أنها غير موجودة...

وإلا ما ذاك الشعور الغامض الذي شعرت به وما ذاك الألم الذي تملكني في تلك اللحظة؟ والذي أذكره جيداً، أذكره بكل تفاصيلة، آلمني، وربما لم أكن وحدي من عانى هذا الألم.

قد يكون هاجس ما ينتظرنا من شقاء في المكان الجديد هو السبب. غير أننا لم نعرف كنهه. نحن وبكل بساطة أردنا العيش بسلام.

-٨-

لا تمدح النهار قبل غروبه، هكذا يُقال.

في هذه الأثناء، في الفناء الخارجي المحاط بالأبنية من جهات ثلاث، وبسياج نباتي شائك من الجهة الرابعة، رُميت الأمتعة والمواد الغذائية التي أُعطيت لهم للسفر، وكانت عدة صناديق من معلبات عليها ملصقات أجنبية، وغالون زيت نباتي زنخ من مخزون قسم التموين العمالي الذي خزنه المدير نفسه، وأكياس هدايا غريبة عليها ملصقات ليست محلية، وكومة من الخرق.

ولحسن الحظ، كانت غرف البناء في الطابقين مزودة بأسرة مفروشة، ومن لم يجد له سريراً، فُرش له مباشرة على الأرض.

كان عدد الفتيات أقل، وقد جرى توزيعهن على غرف الطابق الأول، ووُزع الأولاد على الثاني. أما شبان الصفوف الأعلى، السادس والسابع فقد وُزعوا على غرف أحد جناحي البناء ذي الطابق الواحد، والجناح الآخر تُرك للمطبخ والمطعم. وشغل المدير والمعلمون البناء الآخر ذا الطابق الواحد، وفيه المستودع وغرف خدمية أخرى.

هذا الترتيب الظاهر جرى تحقيقه بغضون عدة أسابيع. وكل ما عدا ذلك رُتب بصورة عفوية، أي بقي دون ترتيب. اشتغل على التوزيع المدير وثلاثة معلمين وأغلب موظفي الإصلاحية. لم يعرف أحدٌ منهم طبيعة الأولاد، ولم يكن ممكناً أن يؤخذ هذا بعين الاعتبار في مدّة قصيرة ولهذا الكم الهائل، الخمسمئة شخص، الذين جُمعوا بعشوائية.

لم يكن لديهم طباخون، كما لم يكن لديهم ما يطبخونه. اكتشفوا ضمن العلب الأمريكية الجميلة معلبات حساء القراص الأخضر. وُزعت علب الهدايا على التلاميذ قبل أن يتم التعرف على محتواها، لضيق الوقت، وقد تضمنت: نص رسالة من اتحاد نقابات عمال بريطانيا، وصحيفة «الحليف البريطاني»، وعدة علب سجائر، وواقيات ذكرية، وأعواد ثقاب كرتونية مسطحة، وإعلانات لجميلات في وضعيات غير عادية.

وإلى أن وصلت إلى ذهن بيوتر أنيسِمَفيتش، وفهم أن المقصود بعلب الهدايا هذه ليس الأطفال على الإطلاق، كان نصف الأولاد يدخن السجائر، وترتفع من أفواههم سحائب

الدخان، وينفخون الواقيات بالونات يلقونها تطير في الهواء... وعُلقت صور الحسناوات على الجدران، ولمزيد من المصداقية كُتبت المسميات بقلم رصاص. واستُخدمت صحيفة «الحليف البريطاني» في التواليت، وحيث إن دورة المياه الوحيدة قد خرجت من الخدمة منذ اليوم الأول، ليس هذا فقط، وإنما كل المكان حولها، فقد صار الأولاد يذهبون إلى محاذاة الجدار قرب السياج الأخضر لقضاء حاجاتهم، وتبعثرت مِزَق الصحيفة البريطانية القاسية في كل مكان، ربما كانت الوحيدة الأكثر فائدة هنا.

استخدم الأولاد علب حساء القراص الفارغة كصحون بعد قص نصف ارتفاعها، واحتفظوا بها ضمن حاجياتهم الخاصة. حضَّروا الملاعق كلٌّ بطريقته، صنعوها بأيديهم من القطع الخشبية. وهي بكل الأحوال غير ضرورية، فلا شيء ليؤكل بها. والطبخة السيئة التي طُبخت في البداية في فرن المطبخ المجهز بأدوات محلية الصنع، كانت رخوة، لا سماكة لها ولم يكن لها طعم، كانت تسمى زَتِروخا، وهي تتكون من طحين الذرة، وماء، وزيت نباتي، وكان يمكن شربها مباشرة من حافة العلبة المعدنية. ولم يدم هذا طويلاً، فقد نفد الطحين بعد مدّة وجيزة، لذلك سرعان ما انتقل الجميع إلى تأمين طعامهم بأنفسهم، غير أن هذا لم يكن جديداً عليهم، ولا على الكوزمينين أيضاً.

اتخذ الأخوان مكاناً مقبولاً لهما في ركن خلف المدفأة، التي لم توقد النار فيها بعد، رغم أن الشتاء قد بدأ يقترب. فهما كانا يتميزان ببعد النظر أكثر من زملائهما. ولذلك تفحصا ممتلكاتهما أيضاً في المخبأ الذي أنشأاه.

لم يكن المخبأ بعيداً عن ضفة نهر سونجا[١]، وهو نهر ضحل ومياهه عكرة، خبَّآ فيه من كيس الحلفاء، أعواد الثقاب الأجنبية، وواقيين ذكريين، وكيساً شفافاً جميلاً، ومفاتيح عربة قطار نشلاها من جيب المرافق عندما كان يشرح لهما أسماء الجبال، وورقة الثلاثين التي فقدت اللون عند طياتها لكثرة استخدامها، وعدة حبات بطاطا من مرافق القطار نفسه، الذي استغفلاه وسرقاها منه.

---

(١) سونجا: هو نهر في القسم الأوروبي من روسيا، في شمال القوقاز، في الشيشان، وأنغوشيا، وأوسيتيا الشمالية، وهو الرافد الأيمن لنهر تيريك. المترجم.

ومقارنة مع مخابئهما في تاميلِنا، فهذا كان أكبر بكثير، وغالباً ما يكون الأكبر أفضل.

أُنشئ المخبأ في جحر حيوان هجر مكان سكنه، والأخوان وسّعاه ليخبئا فيه أشياء أخرى إذا ما ساعدهما الحظ في المستقبل.

وهذا حصل، ولكن ليس بهذه السرعة.

والشيء الآخر الذي أنجزاه في حياتهما الجديدة، هو أنهما أجريا فحصاً لمكان إقامتهما، فتفحصا جميع الغرف والزوايا والعليات والأرض المجاورة.

بدأا تبعاً للعادة من غرفة الخبز، التي كانت فارغة حتى ذاك الوقت، خلت إلا من ميزان وبعض أوزان، كانت تُرى من النافذة ولا شيء آخر. وكان القفل على الباب صدئاً والنوافذ بلا قضبان حديدية.

لاحظ الأخوان في كل هذا أن هناك بعض التقدم بالمقارنة مع تاميلِنا. ويبدو أن وضع المطعم والمطبخ بجوار غرف نوم الأولاد كان مثيراً للاهتمام، ولم يكن فيه بعد نظر. لذلك كان على الأخوين التفكير لإيجاد طريق دخول آمن للمطبخ من هذا الجانب غير المحروس في الحالات الطارئة. على أي حال فإن المطبخ بالمفهوم الذي ألفه الأخوان لم يكن موجوداً بعد.

والفتيات اللاتي طبخن الزَتِروخا منذ مدّة، طبخنها على موقد في الهواء الطلق. ولم تكن طبخة معتبرة ليفكر الأخوان بسرقة كمية إضافية منها.

إضافة إلى أن دخول المطعم وتناول الطعام مرة ثانية وثالثة كان ممكناً إذا ما توفرت الرغبة. ولا سيَّما أن الأخوين استطاعا منذ الأيام الأولى أن يربكا الجميع هنا بتشابههما.

تبادلا الأسرة والملابس، تبادلا الملاعق والصحون، ولو وجدا حاجة في تبادل العادات الشخصية لتبادلاها، طبعاً قدر الإمكان.

حتى إن أحد الأولاد قال ذات مرة وبصدق بالغ:

- وأنتما نفسكما، يا أخويَّ، هل تذكران من منكما من؟ من ساشكا، ومن كولكا؟

ودون أي تردد، أجاب الأخوان أنهما فعلاً لا يتذكران، وهذا ما أربك الآخرين أكثر وأكثر. وانفجر مهجع المنامة بضحك غطى على الصوت البعيد للانفجارات في الجبال، والمؤكد أن من ضحك من كل قلبه كانا الأخوين نفسهما. ثم بدأت موجة من الهبلان، وشارك الكوزمينان فيها وكانا كما السمك في الماء.

تفحص الأخوان غرفة الإدارة، وأعارا الأهمية الكبرى لمستودع الأدوات والمستلزمات بجوارها.

حالياً، لا شيء عند المدير للاستفادة منه، وهذا ما ميز المدير الحالي عن محتال تاملِنا، الذي طبعاً حاول بعض الطلاب السطو عليه أكثر من مرة، لكن كلابه اللعينة منعتهم من تحقيق ذلك.

أما المستودع، فقد تمكنا بصعوبة من إلقاء نظرة إلى ما بداخله، ولم يشاهدا سوى أكياس فيها خرق، وعدا ذلك كان هناك غالون زيت نباتي واحد فقط، احتفظ الأخوان به في ذاكرتهما، ولا سيَّما أن القفل والمزلاج كانا بدائيين، ويمكن فتحهما بإصبع.

وبينما هما متكئان إلى باب المستودع، صادفا ريغينا بتروفنا تخرج من غرفتها. فهي تسكن بالجوار، عند الزاوية في نهاية الممر.

غرفة صغيرة في ملحق البناء، فيها سريران حديديان كما أسرة باقي التلاميذ، وخزانة صغيرة بجوار السرير.

زينت النافذة ستارة جميلة، وعلى الأسرة أغطية ملونة لم تعتد عيناهما على رؤية هكذا ألوان، وعلى الأرض عند العتبة فُرشت سجادة صغيرة، وعلى الحائط عُلقت مرآة، لم تكن كبيرة، بإطار خشبي.

كان هذا بالنسبة للكوزمينين، اللذين دعتهما المعلمة إلى غرفتها، غاية في الأناقة والجمال، عيدٌ أو تحضير لاحتفال، ويستحيل أن يكون الأمر غير ذلك.

وقفا عند عتبة الباب، لم يجرؤا على الإخلال بهذا الترتيب بأحذيتهما أو حتى بمجرد حضورهما، مما اضطر صاحبة البيت إلى دفعهما بالقوة تقريباً إلى الداخل، ودعتهما للجلوس مباشرة على السرير، فلم يكن هناك كراسٍ بعد.

أوضحتْ وهما يدخلان أن ولدَيْها الآن يلعبان في الباحة، والحمد لله أنهما خرجا، فيخففان الزحمة والتدافع، ويتركان البيت نظيفاً. فرشت ريغينا بتروفنا محرمة نظيفة على خزانة السرير الصغيرة، وضعت عليها صحناً صغيراً فيه قطعتا خبز مجفف. أحضرت الركوة عن الموقد، وسكبت الشاي للجميع، وضعت لكل من الأخوين بضع قطع سكر كبيرة كانت مغلفة بغلاف ورقي أبيض، تماماً كتلك التي كانت تغلف الدواء الذي عولج به ساشكا في محطة كوبان.

شرب الأخوان الشاي الحلو بنهم، وقضما من الخبز المجفف قطعاً صغيرة، ذابت وحدها في فمهما دون أدنى عناء، مما أثار فيهما إحساس الجوع الشديد أكثر فأكثر، وهما طالما شعرا به.

جمعت صاحبة البيت شعرها الكثيف الأسود بعقدة، وأشعلت سيجارة ووقفت قرب النافذة تدخن. بالمناسبة كانت النافذة متهالكة وسهلة الخلع إذا ما أراد أحد دخول الغرفة منها.

كولكا صاحب خبرة، فقد اكتشف هذا فوراً.

- أربكتما الجميع بتشابهكما؟ أليس كذلك؟ سألت ريغينا بتروفنا، وهي ترمقهما. - كنت أُصنف الوثائق هنا، ومع أني أدرس وثائق الفتيات، وجدت أوراقكما عندي... توصيف واحد للاثنين. كُتب أنكما متشابهان ليس فقط بالشكل، وإنما بالطباع والأهواء، وكل شيء آخر هو نفسه. هذا هو المكتوب. لم يتعبوا أنفسهم بكتابة توصيفين، فالكوزمينان بكل الأحوال هما شخص واحد في جسدين.

كانت ريغينا بتروفنا ستقول شيئاً آخر، لكنها غيرت رأيها.

- حسناً، فيما بعد، قالت بعد تردد. – بالمناسبة، من منكما من؟ هوْ إز هوْ؟

أخذ كولكا نفساً ونظر إلى الباقي من قطعة الخبز المجفف وقال:

- هذا ساشكا، هو أسرع بالأكل، صبره ينفذ بسرعة، عندي جلد أكثر منه. لكنه أذكى مني، هو يشغّل دماغه. وأنا عملي أكثر.

- أها، يعني أنكما مختلفان... كنت على يقين أنهم لم يعرفوكما. لقد خدعتماهم بألاعيبكما أليس كذلك؟ رغم أن بعض الناس لا داعي لخداعهم، فعندهم كل الأطفال متشابهون. بالمناسبة... تذكرت ريغينا بتروفنا شيئاً ما، وأخرجت باتجاه فتحة الشباك نفساً من الدخان. كانت تدخن بشكل يثير الشهية، تضم شفتيها وتجعلهما كأنبوب يخرج الدخان منهما، وهذا ما جعل الأخوين يتمنيان التدخين. - ذُكر في توصيفكما أنكما دخلتما قسم الشرطة... لماذا يا تُرى، إذا لم يكن ذلك سراً؟

اضطرب كولكا، ونظر إلى ساشكا. أما ساشكا فقد تابع بصمت قضم قطعة الخبز المجفف.

- حسناً... سرقنا خيارة مخللة من إحداهن في السوق.

- خيارة؟ خيارة واحدة؟

- لا، ليس واحدة، بل اثنتين، أنا أخذت واحدة وساشكا أخرى. ليكون لكلينا ما يكفي منها.

أضاف ساشكا بعد أن أنهى أكل قطعة الخبز:

- لا، لم يكن الأمر كذلك، غفلنا ففقدنا تركيزنا. أحدنا كان يجب أن يقف خفيراً. وعليه أن يراقب ويصرخ محذراً... والآخر يأخذ من البرميل خيارة. لكن الثاني، أي الخفير قرر فجأة أن يفوز هو أيضاً بخيارة، وهنا أُمسك بنا...

لم تبتسم ريغينا بتروفنا، بل أخذها التفكير وهي تنظر من النافذة.

أنهت تدخين سيجارتها، رمت عقبها من النافذة، ثم التفتت إلى الأخوين.

- عزيزيَّ، تحلّيا بالصبر. ولدايَ أيضاً يعانيان... وكل الفتيات في مجموعتي يشعرن بالجوع، ليس أقلّ منكما. وها هو المدير سيغادر إلى غودِرميس، قد يأتينا ببعض الأطعمة. وحتى ذلك الحين... يمكنكما زيارتي، تعالا إلي، اتفقنا؟ وأنا سأقوم بواجب الضيافة. سأجد ما أقدمه لكما. لا زالت لدي بعض قطع السكر، وهي تكفي لأسبوع. وسنشرب الشاي.

نهض الأخوان ووعدا أنهما سيعودان لزيارتها. ومع أنهما لم ينظر أحدهما للآخر، فقد كانا يشعران ويعرفان بقرارة نفسيهما أنهما يحملان نفس الإحساس، فهما لن يزورا هذه المرأة الجميلة والطيبة، ريغينا بتروفنا، لسبب واحد هو أنها نفسها تجوع.

أما إذا نجحا في الحصول على غنيمة قيّمة، «جمل بما حمل»، فسيعودان لزيارتها. سيزورانها، ليقدما لها هدية ملكية تستحقها.

إضافة إلى ذلك، فإنهما سيبحثان عن صيدة ويفتشان بشكل أفضل، لأن ريغينا بتروفنا على الأغلب لا تملك مثل هذه المهارات. فهل تستطيع هذه الأصابع الرقيقة أن تخلع قفلاً؟ وهي أيضاً تحتاج وولداها مارات وجوريس، للطعام.

هكذا فكرا عندما ودعاها. وبكل الأحوال فقد تمكن كولكا من الاقتصاد في أكل قطعة الخبز المجفف، ووضع ما بقي منها في جيبه. وهو فيما بعد سيقدمها هدية لساشكا.

-٩-

بعد تفحص الغرف، ومهاجع النوم، والمستودعات، والعليات، وجد الأخوان فُرشاً مطوية خلف الأبواب المغلقة، والأبواب لم تُغلق بإحكام، وعند معاينة السياج الشائك الأخضر، وجدا فيه ثغرتين سريتين. وأعار الأخوان انتباههما الشديد للنهر الصغير، وللبساتين القريبة وكذلك أيضاً لقرية بِرِزوفسكَيا التي تبعد عن مكان سكنهما ثلاثة كيلومترات.

وما اعتقداه أنه عوائق تحول دون تقدم الدبابات في الحقول، كان مقبرة قديمة، وهي ليست مخيفة مطلقاً، فلا صلبان ولا قبور حديثة. أعمدة غرانيتية داكنة اللون، نُقشت عليها نقوش بلغة غير معروفة، ورُسم على بعضها الآخر جيبان للخراطيش، ومثل هذا الرسم شاهده الأخوان مرسوماً على صدر الراعي الوسيم في فيلم «مربية المواشي والراعي»، الذي كان يغني ويصدح صوته عالياً بأغانيه وهو يرعى الأغنام.

تلمّس الأخوان حجر الشاهد الأملس والجيبين المرسومين عليه، وفكرا في الوقت نفسه، أن المشهد هنا في هذه الجبال يختلف عن فيلمهم المفضل الذي شاهداه أكثر من عشر مرات، فهنا لا أحد يغني تلك الأغاني المرحة ولا أثر لمن يرعى الأغنام.

أطلَّ الأخوان خلال الأيام الماضية على القرية عدة مرات، وخلصا بنتيجة أن القرية تحوي سكاناً، وهم يعيشون فيها متخفين غير مطمئنين، فهم لا يخرجون مساءً ولا يجلسون على المصاطب، لا يشعلون الأضواء في منازلهم ليلاً، ولا يمشون في دروب قريتهم، لا يسوقون الدواب، ولا تصدح حناجرهم بالأغاني. لا أحد يعرف كيف يقدر هؤلاء الناس على العيش بهذه الطريقة، لكنهم يعيشون، وهذا هو المهم.

نَفَذَ الأخوان ولأول مرة إلى الحقول من جهة البساتين. ودخلا حقل بطاطا، حفرا حول واحدة منها كعيِّنة، وعرفا أنها قد نضجت وحان قطافها، واتفقا أن يأتيا مساءً.

وبكل هدوء ودون ضوضاء تابعا سيرهما، ووصلا إلى مخزن للتبن، انتظرا قليلاً وأنصتا. انبعث من المخزن صوت سعال، سعال قاس لرجل، وسُمعت همهمة. لم ينتظرا أكثر، عادا أدراجهما. لم يتوقعا خيراً من المزارعين. فقد كان المزارعون في سوق تاميلِنا يضربون بوحشية حتى الموت. الجميع يضرب، ورجال المدينة أيضاً، لكنهم كانوا أرحم.

خرجا مرة ثانية عندما أظلمت وتحررا من التزاماتهما في الإصلاحية، حفرا قلوب البطاطا، وملأا حِضنيهما وجيوبهما بحبات البطاطا، وانسلا بجوار الطريق.

ومرة أخرى لم يريا شيئاً يثير الانتباه، فقط سمعا بعض الأصوات الصماء هنا وهناك خلف الأسوار.

لا كلب ينبح، ولا دجاجة تنق، ولا خنزير يزعق، ولا مقطع أغنية على أنغام الأكورديون، كما هو الحال في تاميلِنا.

لا... شيء... أبداً.

كان أولاد تاميلِنا أحياناً، ومعهم الأخوان أيضاً، يتقصدون الذهاب لرؤية عازف الأكورديون الأحول، والذي كان يبيع البوظة نهاراً على رصيف المحطة، يلاطف الفتيات، ويُجلس بعضهن على ركبته دون خجل، يرفع لهن التنورة دون حرج. يبتسم ابتسامة السكران، وتجحظ عينه السليمة ويسأل وهو يضحك «وماذا عن ذاك الموضوع؟».

كان الأولاد يُحرَجون. ويصمتون. وهو ينهض ويأخذ الأكورديون يمطه، ويملأ الشارع بمقاطع من أغانيه الفاحشة المبتذلة.

كانت بيوت ضواحي موسكو تضج بالحياة.

أما هنا فالحياة تسري خلسة بالخباء. كان الأخوان من قلة العادة، يتهيبان دخول منزل ليست لديهما فكرة دقيقة عنه. فكيف يدخلان منزلاً لا يعرفان صاحبه؟ وما هي مواعيد وجوده؟

لكن المصادفة لعبت دورها، وجاءت تساعدهما.

ذات مرة، كان الأخوان يتجولان في أنحاء القرية، فصادفا رجلاً يحتطب.

أراد الأخوان أن ينسلا من جواره دون أن يشعر بهما، لكنهما تعرفا فيه على مرافق القطار، قصير القامة ذو الشاربين، تغير عليهما شكله، فهو الآن لا يرتدي الزي الرسمي، بل يلبس قميصاً طويلاً وبنطلوناً عادياً. بدا لوهلة أنه أكثر شباباً مما اعتقداه، وهو تقريباً يشبه ذاك العازف.

نظر المرافق إلى الولدين، واندهش. ربما تذكر تلك الحادثة في فارونِج، عندما ساعد التوءَمين في التخلص من البائعة التي تمسكت بأحدهما. وهو أيضاً من عرَّفْهما على جبال كزبيك وإِلبروس ذي الرأسين. وهما... من سرقا منه المفاتيح، وأغلب الظن أنهما سرقاها بحكم العادة، فهي رنانة براقة، تفتح الشهية. فاليد وحدَها تفعل فعلها، ولكن لماذا سرقاها، الله يعلم.

- جئتما؟ سأل المرافق بكثير من الجدية، مظهراً ابتسامة.

- نتمشى، قال كولكا. وأومأ ساشكا موافقاً.

- نعم، الكثير من جماعتكم تمشوا هنا، قال المرافق. - سرقوا نصف محصول البطاطا. خذا معي حزم الحطب هذه وتعالا.

- بطاطا؟ لا، ليس نحن، حسم كولكا الأمر.

- ليس أنتما... ليس أنتما... وأشار المرافق بيده وكأنه يقول لا فرق عنده من يكون. - لكنكما أنتما من سرق المفاتيح. أو أنا مخطئ؟ ثم عاد يدعوهما: - حسناً، تعالا.

كانت عيدان الحطب مجمعة ومربوطة بحزم كبيرة. كلٌّ حَمَلَ حزمة. أوصلوها إلى الطريق العام، وضعوها في عربة خشبية بإطارات صدئة. دفعوها إلى القرية. توقفوا عند بيت أبيض في طرف القرية، وخلفه حديقة مسيجة بأوتاد خشبية. أفرغوا العربة. دخل المرافق إلى البيت، وبقي الولدان ينتظران في ساحة الدار.

في آن واحد استنتج الأخوان الاستنتاج نفسه: الجميع في الإصلاحية كان يفكر بهذه الحديقة، لأنها متطرفة، وقريبة من الإصلاحية. وغالباً، نقل الأشياء من مكان متطرف أكثر أماناً.

وفي أثناء وقوفهما، انشغلا وباهتمام بالغ، بمعاينة الحديقة المسورة بسياج مغلق مرتفع، وعلى طول السور من الداخل مظلة، وتحت المظلة وُضعت أكوام من الحطب والقش وأغصان الذرة، وكانت هناك بعض قطع الحديد، وبين هذه القطع المرمية إبريق نحاسي برقبة طويلة ضيقة اخضرَّ لونه مع الزمن. كان الإبريق جديراً بالتذكر لسبب مجهول حالياً. لم يشاهد الأخوان مثل أرضية الدار هذه من قبل. كانت صُلْبة، ملساء، مدهونة بالصلصال الأصفر. وعند مدخل البيت فُرش جلد ماعز بهت لونه مع مرور الزمن.

أخرج صاحب الدار رأسه أشعث الشعر من الباب، وصاح:

- ادخلا، ما بكما تقفان؟

تلفت الأخوان، وردف أحدهما خُطا الآخر ليتمكنا من الهرب عند الضرورة، تجاوزا المدخل الضيق المظلم، وكان فيه الكثير من الأكواز الفخارية والأباريق النحاسية، عتبا الغرفة وظهر بياض الجدران والسقف، بُيضت تماماً كما تبيض المواقد في روسيا.

في ركن الغرفة، حيث موضع الأيقونة، كانت صورة الرفيق كالينين، رئيس اللجنة التنفيذية لعموم الاتحاد السوفياتي. وفي وسط الغرفة طاولة عارية خشنة، لم يغطها شيء، وهناك أيضاً مقعدان وسرير. وتحت السرير بساط عليه زخارف حمراء على أرضية سوداء. لم يكن في الغرفة شيء آخر. ثُبتت عند المدخل رفوف عليها أدوات لا انسجام بينها، تؤكد للناظر إليها ودون موارية أن من يعيش هنا هو عازب: قدر من الحديد الصب، زبديتان معدنيتان، مَطْبَقِيَّة عسكرية، وكوب معدني اعوجَّ جانبه. وعلى الطاولة إبريق شاي من معدن خفيف، كبير الحجم يسع نصف دلو، سوَّده دخان الموقد المتراكم.

- هكذا أعيش، قال مرافق القطار وابتسم مرة ثانية. - وكما يُقال: أعيش بشكل جيد وأنتظر الأحسن. والتفت إلى الأخوين اللذين كانا قد جلسا متجاورين على السرير، فوق اللحاف الرمادي المتسخ، جلسا كتفاً إلى كتف، ليس فقط لأن المكان ضيق، بل ليسهل عليهما تبادل الإشارات، لتبدو وكأنها حركات عفوية: - جيران، يعني؟ أليس كذلك؟.

هز الأخوان رأسيهما موافقين.

- نسيت اسميكما؟ ماذا يدعونكما؟

قال كولكا:

- أنا ساشكا.

قال ساشكا:

- أنا كولكا.

كما لو أن كذبتهم هذه تحمل كبير أهمية. وعلى الأرجح فعلا ذلك بحكم العادة.

- وأنا إيليا. بهذا الاسم تستطيعون مناداتي.

هز الأخوان رأسيهما مرة جديدة.

- لقد تذكرت تلك الحادثة، عندما هربتما من تلك المجنونة. وأنا ذات يوم تعرضت لموقف مشابه وهربت... لو تعرفان كيف. سأخبركما عن ذلك فيما بعد. هنا أعيش وحدي. لست متزوجاً، أسلق البطاطا في فناء الدار، لذلك صنعت موقداً. أحضِّر عليه الشاي. أتطلع للبقاء هنا، وأخاف أن أُطرد من هذه الجنة، وبئس المصير.

وفوراً سأل كولكا السؤال الذي حيرهما وأثار اهتمامهما:

- ماذا يعني هذا؟ البيت ليس بيتك؟

ضحك المرافق بشدة، وتحرك شارباه.

- نحن لا نملك شيئاً هنا، حتى أصغر الأشياء ليست لنا. هل تعلمان ما اسم هذه القرية؟.

- بِرِزوفسكَيا، أجاب ساشكا:

- بِرِزوفسكَيا! صاح المرافق. - أي بِرِزوفسكَيا هي، إذا كانت تسمى دِيْ تْشُوورتْ. هي حالياً بِرِزوفسكَيا. وكان يمكن أن تكون أسينَفسكايا أو سَسْنوفْسْكايا... وهي في الواقع دِيْ تْشُوورتْ.

أدار المرافق إيليا نظره في الغرفة، معتبراً أن الولدين قد فهما ما يرمي إليه.

أما كولكا فقد أراد أن يعرف بدقة كل شيء. لماذا إذن، جاؤوا إلى هنا؟ وألح بالسؤال:

- وماذا في ذلك، دايْ تشيورت(١)؟ حرَّف الكلمات عمداً.

- هذا بالضبط... الشيطان... مكان خطر يُنذر بالموت... والشياطين هنا في كل مكان.

هز المرافق إيليا رأسه دهشاً من بطء فهم محدثيه، وقال همساً بعد أن انحنى إليهما، وكأن هناك من يسترق السمع. وقد لاحظ الصبيان بالفعل أنه دائم التلفت.

- وأنتم؟ لماذا جئتم إلى هنا؟ حمقى، أغبياء؟ صراصير مدنية؟.

- لم نأت، بل جيء بنا، قال كولكا.

- وإلى أين جيء بكم؟ إلى أين؟

- إلى القوقاز.

القوقاز... لكن القوقاز كبير، تملص إيليا من المتابعة وأضاف. - جيء بكم لتستوطنوا هذه الأرض. مفهوم؟ لذلك جيء بكم... مساكين، بلهاء. جيء بكم لتكونوا سكاناً... وأنا أيضاً، أنا يجب أن أصبح من السكان... وأولئك أيضاً، تلك الخنافس المتململة... وأشار من خلال النافذة إلى البيت الأبيض المقابل خلف السياج النباتي الأخضر.

---

(١) تشيورت: تعني بالروسية الشيطان، وتْشُوورتْ باللغة الشيشانية تعني مقبرة. المترجم.

- وهل هناك من يسكن هذه القرية؟ سأل كولكا فوراً.

- نعم هناك سكان... هم مثلي... لا يملكون شيئاً. كل شيء من تعب وأكتاف الآخرين. ولسبب ما نقر بإصبعه على السجادة الملونة.

- هل هي مسروقة؟ سأل ساشكا الذي فجأة أدرك شيئاً ما.

هز المرافق رأسه بحنق وأضاف:

- إذا لم تكن لك، فهي إذن مسروقة. وأنتم ألا تعيشون في مكان مسروق؟ في المعهد الزراعي؟

لكز كولكا أخاه. فقد تناغمت أفكارهما حول ما يحصل: شيء ما يجري هنا ليس على ما يرام. إما إيليا شخص مهزوز، وهذا لا يبدو عليه، أو أنه يشتبه بهما أنهما اللذان سرقا البطاطا من أرضه. فهو استطاع أن يخمن من سرق منه المفاتيح... ولكن كما يقال: من لم يُقبض عليه بالجرم المشهود، ليس لصاً.

سأل كولكا بحذر، وهو ينظر نحو الباب:

- من أين معلوماتك أننا...؟ نحن لا نبرح مكاننا... ولا نقوم بأي عمل.

ابتسم إيليا المرافق، لكن مع تكشيرة. ونظر إلى الأخوين بقسوة.

- من الضروري أن تتحركا، فكيف ستعيشان؟ عندكم هناك مستودع، وفيه ثياب شتوية... ولا من يحرسها. وكأن مشيئة الإله تريد لكما هذا. وأنا سأشتري منكما، هل تفهمان؟

هز الأخوان رأسيهما بريبة. أليس هذا امتحان لهما؟ يغريهما بالشيء السهل، وحين يوافقان، سيلتقطهما. كان الأخوان متنورين بهذه المسائل، وكانا قد عرفا الشرطة وأساليبها، وسبق أن زُجَّ بهما غير مرة، ليس فقط من أجل الخيارتين.

واستمر إيليا ينفخ بذات القربة.

- سأقتلكم إذا سرقتم البطاطا. أخبروا جماعتكم. لا تحفروا في أرضي، احفروا عند الآخرين، لا علاقة لي بكم هناك... وإذا أحضرتما ثياباً... فسأعطيكما مالاً، وأعطيكما بطاطا... وأشياء أخرى.

- سنفكر. قال ساشكا بطريقة مبهمة، وقد فهم الموضوع بشكل كامل، وربما اتخذ قرراً بشأن الملابس. - هل نذهب، عمو إيليا؟

- دون عمو، ببساطة إيليا، قال إيليا. - مروا، فأنا دائماً هنا، إذا لم أكن في رحلة القطار.

رفع إصبعه مشيراً إلى الشرفة، وسكت مدَّةً طويلة يصغي لشيء ما. وعندما سُمع مجدداً، صوت انفجار قوي في الجبال، قال:

- المستوطنون، مساكين، لا نستطيع إشعال نار، نخاف إشعالها... طبعاً نخاف. هل هذه حياة؟ وركل بحقد جلد الماعز الذي وجده بين قدميه.

- ممن تخاف؟ سأل كولكا مرة أخرى.

- من الشياطين. صاح إيليا ودفعهما نحو الباب.

- ١٠ -

قال المدير كلماته المعهودة: «غريب، أقسم إني لا أفهم ما يجري»، وغادر إلى غودِرميس، لم يكن الأخوان يعرفان ما غودِرميس، ولا أين تقع ولا كيف تبدو. وبعد سفره بدأ الأولاد يتسربون من الإصلاحية، وينتشرون شيئاً فشيئاً في القرية المجاورة. سحبوا إليها الفرش والوسائد وبقايا الموبيليا، وبادلوها بالبطاطا، وحبوب الموسم الماضي من الذرة.

ابتكر ساشكا طريقة لطحن حبوب الذرة. أحضر الأولاد حجراً مسطحاً، وضعوه وسط مهجع نومهم. وقام ثلاثة منهم بالعمل، أحدهم يضع حبة الذرة على الحجر المسطح، وآخر يضرب الحبة بحجر صغيرة، والثالث يلتقط الفتات براحة يده، ويضعه في علبة من علب المعلبات التي سيطبخون فيها الحبوب المكسرة فيما بعد.

استطلع فريق آخر المناطق المجاورة للإصلاحية دون أن يكونوا واثقين من أنهم سيجدون شيئاً. مسحوا الحقول كيلومتراً بعد آخر، بصمت ولكن بعناد، موسعين منطقة نفوذهم، لم يجدوا ما يُستفاد منه، فالذرة لم تنضج بعد، وحقول البطاطا كانت قريبة من القرية، وكان أصحابها قد انتبهوا للأمر، وبدؤوا يقومون بحراستها.

حصل مرةً أن طارد أصحاب الأرض الأولاد بالهراوات، حتى وصلوا إلى مدخل الإصلاحية، إلى عقر دارهم. نجا الأولاد من المطاردة بأعجوبة. لكن أصحاب الأرض أفهموهم ورفعوا صوتهم عند تخوم الإصلاحية ليسمع الجميع تهديداتهم ولربما ليردعهم، توعدوهم: «إذا ما حفرتم في حقول البطاطا بعد الآن، فسنحرق مكان سكنكم ونترككم في مهب الريح».

رد عليهم الأولاد:

- قرويون أوغاد، عودوا أدراجكم، سنسبقكم ونحرق قريتكم.
- حشرات بِرِزوفسكَيا، إلى أين تدبون.
- اسمعوا وعوا، عندما تشتعل قريتكم ستعرفون من نحن، وستفهمون.
- تهددوننا بحرق مسكننا، سنساعدكم بحرقه. صاح الأولاد بصوت واحد. - وليذهب الجميع إلى الجحيم، وليحترق القوقاز، وليصبح هباءً منثوراً. ليفترسوكم هنا، ليُعْمِلوا خناجرهم بكم، بقايا الإقطاعيين القذرين.

وصاح الجميع بصوت واحد:

السكين الحاد رفيقي
وصديقي، الحسام الممشوق
قرشاً قتلكم لا يكلفني
والموت ننتظره بلهفة وشوق

استذكر الأولاد السكاكين والخناجر، وساد الصمت جموع المزارعين، ابتلعوا ألسنتهم بعد هذه القصيدة العصماء، وبدؤوا يغادرون ونظراتهم غاضبة. ولم يعودوا بعدها.

فيما بعد صار المشهد المسائي حول المعهد الزراعي وهجاً من مواقد كثيرة. يجتمع الأولاد في مجموعات، يوحدون مساعيهم، يوقدون ناراً من عيدان جافة وأعشاب يابسة، يطبخون الحساء، غالباً في علب المعلبات.

أدخل الأخوان البطاطا في طبخهم وبعض عرانيس الذرة، التي استبدلاها بفراش أعطياه لمرافق القطار إيليا.

عندها، تفحص إيليا الفراش وهز رأسه، ثم تسلق إلى مكان ما تحت السقف، وجاء بعدة عرانيس ذرة صفراء أصلب من الحجارة، وذكَّر الأخوين مرة ثانية بكثير من الإصرار والجدية بأهمية الملابس: «الألبسة ضرورية. والكثير منها موجود في المستودع، هكذا يُقال... أحضروا ألبسة». بهذه الكلمات ودعهم.

في إحدى الأمسيات، كان الأخوان جالسين عند النار. وعلى الموقد علبة معدنية جهزاها بشريط ليكون مقبضاً. كانا يطبخان فيها جذورَ نوعٍ من أنواع القصب المتوفر بكثرة على ضفة النهر الصغير، كانت الذرة قد نفدت وهي لم تكن لتكفي مدَّةً طويلة.

قال ساشكا وهو يحك رأسه المتسخ:

- أعتقد علينا الهرب، ألا ترى ذلك؟

كولكا لم يسأل: إلى أين؟

فهناك فقط طريق واحد، إلى محطة القطار. إليها غادر فتيان الإصلاحية، مثنى وفُرادى، ولم يعد منهم أحدٌ.

- ألا ننتظر؟

- وماذا ننتظر؟

- عودة المدير... من غودِرميس...

- وقد لا يكون هناك أي غودِرميس. ألا تذكر فيكْ فيكْتَريتشْ. هل كان ليسافر، ليؤمن لنا الطعام؟

- قد يسافر ليجلب الطعام لكلابه.

- صحيح، وهذا... رأى أن الأفق مسدود، فحمل حقيبته، وشمَّع الخيط. فما حاجته إلينا.

صمت الأخوان. وبصمتهم سُمعت هسهسة العشب الجاف وهو يحترق بسرعة في الموقد، لذلك أحضر الأخوان جبلاً من هذه الأعشاب. كانت مواقد النار تتوهج هنا وهناك، ولكن بجوار الكوزمينين في هذه المرة لم يكن أحد.

تذوق كولكا الطبخة بملعقة خشبية من صنعه، جفل وتغضن وجهه وفجأة قال:

- والمستودع؟

كان ساشكا مستلقياً على الأرض وينظر إلى السماء.

- ما به؟ وهل تظن أن شيئاً ما بقي في المستودع؟

- نعم بقي. إيليا قال ذلك وهو يعرف.

- هو يعرف... يعرف كيف يلتقط الجمر بأيد غريبة!

سأل كولكا:

- وهل هذا صعب؟ نكسر القفل...

كان ساشكا ينظر بصمت إلى السماء المغطاة بدخان المساء الأزرق.

- نضربه بحجر، سينكسر بسهولة. أضاف كولكا.

- بحجر؟ لا داعي لأي حجر، قال ساشكا بهدوء. ألا يوجد مزلاج؟

- يوجد مزلاج، أكد كولكا.

- وقوس القفل متطاولة. إذا حُرك القفل إلى جانبه...

- فهمت. صاح كولكا. فهمت. سيكون مجال الحركة للمزلاج أطول.

- هذا واضح لأي كان، قال ساشكا بتكاسل دون أن يتحرك، وهو يتابع تمعنه في السماء. - أما الأغبياء، وأنت منهم، فيضربون القفل بحجر... آثار الضرب والخدوش واضحة عليه.. رؤوسهم فارغة.

صمت الأخوان، واكتفيا بما قالاه، ولم يتبادلا الحديث بعد ذلك. إذا لم تأكل الخبز فلن تشبع من الحديث عنه. اليوم وبمجرد حلول الظلام، سيذهبان إلى المستودع... أما الآن فيجب أن يتناولا الطعام الذي حضراه، ويراقبا المكان حتى لا يسبقهما إلى هذا الأمر أحد.

معروف منذ زمن بعيد أن الأفكار تنتقل بالهواء، وعدم تعرض المستودع للسرقة حتى الآن، لا يدعو للاطمئنان وراحة البال. فبمجرد أن تعقد العزم وتذهب لتنفذ ما فكرت به، ستفاجأ بعشرات الفتيان الذين جاءتهم نفس فكرة القفل والمزلاج. ومثل هذه العجائب تحصل في الطبيعة.

ابتلع الأخوان بسرعة ما حضراه من طعام، خبّآ العلبة المعدنية في مكان آمن، ثم جلسا بين الشجيرات حتى الغسق، يحرسان باب المستودع.

لم يقترب أحد من باب المستودع طيلة مراقبتهما. هل الأخوان هما الأحمقان الوحيدان في هذه الإصلاحية. أملا أن يكون قد بقي في المستودع ما يُستفاد منه. قد يكون هناك من نظفه قبلهم، ولو بشكل قانوني، ليس عبثاً سفر المدير بيوتر أنيسِمَفيتش إلى غودِرميس وهو يحمل كيساً ضخماً. كان يحمل حقيبة وكيساً. هل أخذ ما يمكن بيعه هناك؟

والآن بدأا بتنفيذ ما فكرا به.

ركض الأخوان خبباً، بحذر واحتراس، وصلا إلى المستودع. أدار كولكا القفل إلى الوضع الأفقي، وحرك المزلاج إلى اليسار، وحصلت المعجزة، لا بل المعجزة حصلت قبل ذلك، حصلت في رأس ساشكا العبقري، تحرك المزلاج وفُتح الباب.

وقف الأخوان واجمين للحظة، وقفا ينظران مذهولين إلى فُرجة الباب المظلمة، لم يصدقا أن كل شيء سيكون بهذه البساطة. «افتح يا سمسم».

وها هو الباب يُفتح.

- راقب المدخل، قال كولكا همساً، لكن حماسته أخرجت الكلمات صاخبة، ثم غاص في باب المستودع، غاص في عمقه الخفي الجذاب.

أما ساشكا فأعاد المزلاج، ووضع القفل في مكانه. وابتعد راكضاً يتلفت يميناً ويساراً ليرى فيما إذا كان هناك من يراقبهما، واختفى بسرعة بين الشجيرات ليقوم بالحراسة.

طبعاً، كان ساشكا يتشوق ويتلهف لينظر ولو بعين واحدة، ليشاهد موجودات المستودع. ليشعر ولو لدقيقة واحدة أن له حرية التصرف بمستودع كامل. لا، ليس المطلوب أن تكون كل موجوداته ملكاً له. فما الحاجة لأن يملك شخص واحد أو شخصان كل هذه الخرق؟

جُلُّ ما يريده، أن يشعر بإنسانيته. فهو المحروم من كل شيء، ومعدته دائماً خاوية، اللهم إلا من حساء جذور قصب النهر حالياً. لا يملك شيئاً، وفجأة، يجد نفسه يملك كل شيء. يمشي ملكاً في مملكته، يتلمس أشياءه ويجربها، يرتدي هذه القطعة أو يرتدي تلك، يأخذ منها ما يشاء وقد لا يأخذ شيئاً، يعف عنها، ويتنحى جانباً، فقد شبعت عيناه.

هنا أوقف ساشكا نفسه: ليس من المستحسن التعفف لهذه الدرجة وعدم أخذ شيء على الإطلاق. لا يجوز التفكير بهذه الطريقة، الأفضل أن تأخذ ولكن باعتدال. وأصاب كولكا عندما اعتبر أن الاعتدال لا يلحق الضرر بالآخرين.

كان ساشكا يعرف أن هناك مقولة تقول: لا تفكر بأحد لا تريد رؤيته، فقد تستدعيه بأفكارك. وحصل ما تخوف منه، استحضرهم، ها هم قد قدموا. لا بل قدمن، مجموعة فتيات سرن، ملأت أصوات ثرثرتهن المكان. كن يتحدثن عن المدير، وعن غودِرميس التي سافر إليها.

صارت غودِرميس بمنزلة أرض الميعاد، كان الجميع ينتظر ثمارها وكأن أشجارها تثمر كعكاً. والكعك الموعود هو هنا في هذا المستودع، وليس في غودِرميس، هكذا خطر في بال ساشكا.

وما إن تلاشت بعيداً أصوات الفتيات، حتى بانت ريغينا بتروفنا محبوبتهما ومعها ابناها مارات وجوريس. جلست على درجات المستودع، تراقب طفليها وهما يلعبان، يركضان هنا وهناك، يختبئان بين الشجيرات، أحدهما كاد يطأ رأس ساشكا. لو حصل ذلك، لا سمح الله، أو أحسوا بوجوده... لكانت مصيبة. وكولكا القابع داخل المستودع، لو صدرت عنه حركة أو ضجة، وهو لا يعرف أن ريغينا بتروفنا تجلس قريباً منه على درجات المستودع، تدخن وتنظر إلى البعيد مستغرقة بأفكارها.

وقبل أن تنته ريغينا بتروفنا من تدخين سيجارتها، نادت ولديها وغادرت. أثار وجهها الحزين عند ساشكا الكثير من الشفقة. امرأة رائعة، تعاني أيضاً مثل الآخرين، تعيش في هذه الإصلاحية اللعينة، تكابد الجوع والحاجة. هل من المناسب أن تعيش سيدة جميلة في إصلاحية بين شبان أشرار، تتحمل معهم عناء الحياة؟ ما الذي جاء بها إلى هنا؟ بالنسبة للآخرين فهذا موضوع آخر، هم مثل كبة الشوك المتدحرج[1] في الحقول، حيثما توجههم الريح يتجهون... أحدهم أطلق ذات مرة على أخيه كولكا هذا التعبير، قال له: «يا صديقي، أنت كولكا المتدحرج».

لو عرف كولكا هناك، في الداخل، كم كانت نظرات ريغينا بتروفنا حزينة، لحسب حسابها بشيء ما ليكون من نصيبها.

استغرق ساشكا بأفكاره، وفجأة جفل من فرط المفاجأة، فقد عادت الفتيات أدراجهن. يتناقشن، كانت أصواتهن تُسمع واضحة من بعيد. حديثهن كان يدور حول ما حصل اليوم، فقد اتضح لهن أنه تم إرسال عربة إلى محطة القطار لاستقبال المدير الذي كان قد عاد لتوه من السفر، ذهبت العربة وكان سائقها من شبان المعسكر، لم يهن للشاب أن يترك الفرصة تفوته، فركب أول قطار مغادر، وعاد الحصان والعربة وحدهما دون السائق، وطبعاً دون المدير.

اختفت الفتيات، وظهر شبان ثلاثة من المجموعة الأكبر سناً، كيف ظهروا لا أحد يعرف. لم يكن ساشكا يتوقع أن هذا العدد من الناس يتجول هنا. ولا يرى أن هذا التجوال نزيهٌ.

اقترب الشبان من المستودع، سبقتهم إليه نظراتهم، عاينوا القفل وحركوه، أخرجوا مسماراً، وبدؤوا يعالجون به القفل.

وقف شعر رأس ساشكا. تخدرت يداه وقدماه. ماذا لو فكر كولكا أن من يلعب بالقفل في الخارج هو ساشكا، وماذا لو بدأ يكلمه من الداخل.

---

(١) الشوك المتدحرج: اسمه العلمي (Salsola kali)، عند نضج النبات ينفصل الجزء العلوي منه بفعل الريح، وذلك لأن ساق النبات هشة، ولأن شكله كروي فإنه يتدحرج بسهولة مع حركة الهواء، وينشر بذوره في كل مرة يرتطم فيها بالأرض. المترجم.

ولحسن الحظ، سُمعت أصوات في الجوار القريب. فارتد الشبان حينذاك، وتظاهروا بأنهم يتمشون، دندنوا أغنية، وغادروا. اطمأن ساشكا وشعر بالارتياح، رغم بعض التخوف الذي ألم به، وقال بخبث: «حمقى! شباب كبار لكنهم هُبْل، يتصرفون بأيديهم دون أن يفكروا برؤوسهم، هنا عليهم أن يحركوا أدمغتهم، وليس بالمسامير تُحل الأمور».

وعندما هدأ الجو، طرق كولكا الباب من الداخل.

ثلاث طرقات، لم تكن قوية، ولكن ساشكا أحسها قرع طبل، أسمعت الإصلاحية بأكملها.

هُرع إلى الباب. أخذ يدير القفل إلى جانبه، لكن القفل لا يستجيب. يبدو أنهم نزعوا القفل عندما حاولوا فتحه بالمسمار.

- افتح، همس كولكا من خلف الباب، - افتح بسرعة.

- انتظر لحظة، توتر ساشكا، لا يمكن فتح القفل الشيطاني. وهنا سُمعت بالجوار أصوات تقترب.

تراجع ساشكا عن الباب. لكنه عاد فوراً. كيف يترك كولكا محبوساً داخل المستودع.

وكولكا لم يعد يهمس من الداخل، وإنما صار همسُهُ صراخاً، من غضبه.

- افتح بسرعة، لماذا تتلكأ، استعجل وإلا فسيقبض علينا.

جذب ساشكا القفل بقوة وحرره. وعزم الشد كاد يسقطه. وباستعجاله قرص إصبعه وأدماه.

اندفع كولكا خارجاً من الباب، لم يعرفه ساشكا للوهلة الأولى، كان شخصاً مختلفاً، شكله أقرب لقزم ارتدى معطفاً طويلاً حتى الأرض، لبس حذاءً ضخماً، واعتمر قبعة غطت عينيه. مووك الصغير[1] وليس كولكا. من لا يعرف حقيقته، يخاف منه.

---

(١) مووك الصغير: من قصص الأطفال الخيالية، للكاتب الألماني فيلهلم هوف Wilhelm Hauff االذي عاش حياة قصيرة، لكنه تمكن من دخول تاريخ الأدب. حكاياته الخيالية تُدخل القارئ إلى عالم مشرق من المعجزات والأوهام. المترجم.

أغلقا الباب وأعادا القفل إلى موضعه. لم يبتعدا ثلاث خطوات عن المستودع حتى صادفا ريغينا بتروفنا. لم تكن وحدها وإنما مع تلميذاتها، تحاورهن.

فوجئت بلقائهما، دُهشت. وتوقفت الفتيات يتابعن المشهد.

- ها هما صديقاي، قالت المعلمة. - نحن نحتفل، فالمدير قد عاد، لماذا أنتما لا تزورانني؟.

تململ الأخوان وهما واقفان دون أن ينظرا إلى ريغينا بتروفنا.

بدأت الفتيات يضحكن. هنا انتبهت المعلمة إلى الزي الذي يرتديه كولكا، وانفجرت بالضحك. ربما لو كان الأخوان في ظرف آخر لضحكا أيضاً، لكنهما لم يكونا يقويان على ذلك مطلقاً.

- ما هذه الملابس؟ من ألبسك هكذا؟ سألت ريغينا بتروفنا بحماسة وهي ترمق كولكا. - وبالمناسبة أنت من؟ ساشكا أم كولكا؟

- ساشكا، تمتم كولكا.

لم يكن ينوي الكذب، لكن ذلك حصل بشكل عفوي.

وأضاف ساشكا وهو يمص دم إصبعه المجروح:

- وأنا كولكا. كان هذا استباق لأحداث يمكن أن تحصل في المستقبل للتغطية على أخيه.

- أرأيتن، تذكرن يا بنات... إذا استطعتن، قالت ريغينا بتروفنا بمرح. وتحولت إلى كولكا وانحنت إليه، وبدأت تحدثه بجدية، وحتى بشيء من الصرامة: - اعذرني، كم كنت غبية، لم أدرك فوراً أنك ترتدي معطفاً جديداً. معطفاً، وقبعة... ولكن من أين لك هذا؟

- من المستودع، فجأة أجاب كولكا بكل وقاحة.

وحتى إن ساشكا شرق بلعابه وصار يسعل. الأحسن الآن تشميع الخيط، قبل أن يُكتشف الأمر.

ولكن المعلمة كانت ساذجة بعض الشيء. لم تدرك ما قصده عندما قال من المستودع. وصاحت بلطف:

- هذا جيد. حان الوقت ليوزعوا عليكم اللباس. وهنا انتقلت إلى الفتيات وقالت لهن: - اذهبن، وأنا سألحق بكن.

وذهبت الفتيات.

- بلا ريب، المعطف كبير بعض الشيء، قالت ريغينا بتروفنا وهي تتفحص ساشكا الذي هو كولكا. عدلت ياقته وقبعته. وقالت وهي تتأمله: - سيصبح جيداً عندما تكبر قليلاً.

كانت على وشك المغادرة، لكن شيئاً ما أخرها.

- على الأقل، لا ترتديه الآن، انتظر حتى يأتي البرد، قالت ناصحة. - الجو الآن دافئ... حتى إنه حار، أليس كذلك؟ سيفكر من يراك أنك في حفل تنكري...

- نعم، الجو حار، قال كولكا وكأنه يقر بذلك.

رمقته ريغينا بتروفنا في نهاية الأمر، وألقت نظرة إلى ساشكا، وغادرت مسرعة.

وفي الحال، أسرع الأخوان إلى ثغرة بين الشجيرات. ما تقوله ريغينا بتروفنا صحيح، والمرور بهذا اللباس التنكري في باحة الإصلاحية، فيه الكثير من الخطورة. وخلال عشر دقائق حزما المعطف والحذاء والقبعة في صرة، وذهبا باتجاه القرية، وفي الطريق تحدثا عما عانياه خلال عمليتهما. صاح كولكا:

- دخلت إلى هناك... يا إلهي! المستودع ملآن، كمٌّ هائلٌ من الأغراض! ضعت هناك، لا أعرف من أين أبدأ، حِرْتُ... وفجأة بدأت أسمع أصواتاً...

- هذه كانت أصوات البنات...

- من الرهبة غطيت رأسي بالثياب. جلست قليلاً، بدأ الهدوء يسود. تابعت التفتيش، وإذ بي أسمع خشخشة في القفل...

- وهؤلاء كانوا شبان الإصلاحية.

- الأمور بالنسبة لك كانت واضحة، المشاهد تمر أمام عينيك. أما أنا فكنت أرتجف خوفاً... لبست المعطف، كان ثقيلاً وطويلاً... وضعت القبعة وهي أيضاً كبيرة نزلت في رأسي وغطت عينيَّ... والحذاء ضخم والمشي فيه مزعج... والحر شديدٌ. أردت الخروج بأسرع وقت ممكن، ولو بأي شكل، حتى لو كانت الثياب غير مناسبة... لكنك لم تستطع فتح القفل.

- تعطل القفل، تأذت حركته.

- تعطل... وأنا هناك أحترق... عندما كانت ريغينا بتروفنا تسألني، كنت أتصبب عرقاً، كان ظهري قد تبلل تماماً... كنت أفكر بالهرب، لم أكن أقوى على الانتظار. فقدت الصبر، أحسست أننا وقعنا.

- ولماذا قلت لها من المستودع؟.

- وهل كان هناك حل آخر؟.

- لو فكرت قليلاً لوجدت.

- هذا ما خطر ببالي، ثم ريغينا بتروفنا تعرف أننا لا نملك شَرْوَى نَقِيرٍ، وجيوبنا ملأى بالثقوب...

- هل تعتقد أن إيليا ينتظرنا الآن؟.

- قد لا يكون ينتظرنا. لكنه دائماً موجود في البيت. فهو لا يخرج ليلاً.

- هل يخاف الخروج؟.

طبعاً، يخاف...

- وأنا أيضاً أخاف... فجأة قال ساشكا.

صفر كولكا مستغرباً ونظر إلى أخيه.

- ومما تخاف؟

- لا أعرف.

- كيف تخاف، وأنت لا تعرف مما؟ هل هذا ممكن؟

- طبعاً ممكن. ثم، إذا كان الجميع حولك خائفين... فالأمر أسوأ، وهذا مخيف أكثر.

- حسناً، أنهى كولكا النقاش. - عندما نتخلص من الأغراض، ونتناول طعامنا، سيزول الخوف.

-١١-

تعلقت عينا إيليا بالصرة مذ دعاهما إلى دخول المنزل. أرخى الستائر على النافذة، أضاء مصباح الكاز، وبدأ يفرش المائدة، أحضر بطاطا مسلوقة، وفطائر سميكة من دقيق الذرة، كان إيليا يسميها تشوريكي، وقطَّع اللحم المقدد. حتى اللحم موجود عند هذا الداهية. لم يسبق أن فرش أحد مائدة للأخوين كوزمين بهذا الكرم وهذا التنوع.

نعم، فالأخوان لم يعودا كما كانا، لقد أصبحا بائعين، أصحاب ملك. جاءا ببضاعتهما، وأي حديث ذي نفع يمكن أن يكون بلا وليمة؟

ولم يكتف إيليا بهذا، وإنما وضع على الطاولة زجاجة خمر أيضاً:

- لنحتفل يا أصدقائي. الجود من الموجود. ملأ الأقداح، وطلب من ضيفيه تناول الطعام، ورفع كأسه.

نظر الأخوان أحدهما بالآخر. كلاهما فكر: شرب الخمر مخيف، لكن الخزي مخيف أكثر. للمرة الأولى في حياتهما يولم لهما، ويُستقبلان كشخصين معتبرين. ولأول مرة يُملأ لهما كأس سيفووخا[1] مثل الكبار.

مد إيليا يده بالكأس:

---

(١) السِفوخا: شراب كحولي منخفض الجودة، كثير الشوائب نتيجة التقطير غير المكتمل، يشبه البراندي والويسكي. مستوى الكحول فيه أقل من ٤٠%، له رائحة حادة مميزة للمشروبات المصنوعة منزلياً، وتختلف رائحته كلياً عن الفودكا. المترجم.

- هيا نشرب. وكما يقول مرافقو القطار. نخب النجاح، أليس كذلك؟

تناول الأخوان كلٌّ كأسه، اشتما رائحتها. رائحة تقلب النفس، كأنها من القمامة. رائحة شراب المورس[1] المحلى أفضل بكثير... جرباه مرة عندما قُدّم لهما، كان على الأقل لذيذ الطعم، بالتأكيد ليس كهذا.

لكنهما لم يُظهرا امتعاضهما من رائحته المقرفة. وبالعكس، قرعا كأسيهما مع إيليا بقوة، وكأن جل ما يقومان به طوال حياتهما هو الشرب.

تابعا بأعينهما كيف سكب إيليا الكأس في جوفه دون بلع ودون جهد، مسح قطرات سالت عند ذقنه وتشمم قطعة خبز. ظهر جلياً أنه خبير.

وبمجرد أن لاحظ تأخر الأخوين وتباطؤهما في الشرب قال بمرح:

- كعبه أبيض، عندما نشرب يعني نشرب، هكذا قالت الهرة الصغيرة حين قذفوا بها في الماء لتغرق.

ضحك الأخوان مضطرين. أغلق كولكا عينيه، وبلع بلعة، ثم أخرى. وفوراً شعر أن كل ما في داخله سيتقيؤه. تغلب على نفسه، وبلع عدة بلعات أخرى، إلى أن بدأ يسعل وتنفر الدموع من عينيه.

عاجله إيليا بفطنته، ومد يده إليه بشريحة خبز، وقطعة لحم مقدد، أصابت هدفها، ودخلت فمه بحركة سريعة وببراعة واضحة. بدأ كولكا يمضغ قطعة الخبز باللحم المقدد، واستمرت دموعه تنساب من عينيه، وتقلصات تشنجية تنتاب حلقه. لا يتنفس ولا ينطق بكلمة.

وفجأة، ودون أن يدري كيف حصل ذلك، صار الأمر سهلاً، وشعر بلذة عامرة وسعادة غامرة انتشرت في جسده، وحرارة توهجت في رأسه. نظر إلى ساشكا، ورأى فيه ما لم يَرَهُ سابقاً، كما لو أنه يراه بعيون مختلفة. كم هو شعور رائع عندما تشرب. أما ساشكا فلا زال يتعذب. يمط شفتيه ويقلبهما ويهز رأسه.

---

(١) مورس: مشروب تقليدي روسي مكون من عصير الثمار البرية، مضافٌ إليه الماء والسكر، له رائحة أقل ما يمكن أن يقال عنها إنها غير مقبولة. المترجم.

- وهل كنتما تعتقدان أننا نشرب عسلاً هنا، صاح إيليا بخبث وهو يربت على ظهر ساشكا بعد أن شرب كأسه. وناوله كأخيه قطعة خبز عليها شريحة لحم مقدد ستذوب فوراً في فمه. - كُلا ما دُمتما فتيانًا في مطلع الشباب، فالأيام ستسحب منكما هذه المتعة.

أخرج إيليا من مكان ما علبة كبريت، وبدأ يستعرض التقاليد المتبعة عند عمال القطارات في شرب الخمر، فالزجاجة تُصب في الكؤوس بثلاثة مستويات، ولكل مستوٍ وضع لعلبة الكبريت يناسبه، فإذا كانت علبة الكبريت تقف بأعلى ارتفاع لها، كان هذا مستوى «سائق القطار»، وإذا كان العرض هو ارتفاعها، فهذا مستوى «معاون سائق القطار»، وعندما تكون مستلقية فهو مستوى «الوقاد»... لذلك يسألون عندما يجلسون ليشربوا، بأي مستوى يحبذون تقديم المشروب، أهو بمستوى السائق أم مساعده؟

طلب الأخوان بصوت واحد أن يُصب لهما بمستوى «سائق القطار». فقد أعجبتهما اللعبة.

وبعد نصف ساعة، احمرا، وازدادا جرأة، وسمحا لنفسهما بأخذ دور صاحب المنزل على الطاولة، وأكثر من مرة صرخا في وجه إيليا.

والغريب هنا كان رد فعل إيليا، فقد تحمل كل قلة أدبهما، تحمل كل شيء، كان يبتسم فقط. واضح دون تمحيص أن إيليا رجل لطيف وسلس، رجل طيب، يمكن الاعتماد عليه. يصب إذا فرغت الكؤوس، يرمم الصحون إذا ما قل الطعام فيها، ولا ينظر إلى الصرة، وكأنها غير موجودة.

- الملابس هي خرق، قال بشكل قاطع. - ليس لما في الصرة أستقبلكما، ليس من أجلها، بل لأني أرتاح لكما.

هكذا حلل الموقف.

ويعرض عليهما الشراب، طبعاً بمستوى «سائق القطار». - بصحة الأخوة الشجعان، رغم أن الشجعان سبعة كما في الفيلم، ولكن، وهذا مؤكد أن الواحد منكما

يساوي الشجعان السبعة. مع رائعين مثلكما يمكن القيام بأي عمل. بما فيه المستودع وأشياء أخرى...

- أي مستو... د...، حاول كولكا الرد، لكن الكلمات لم تتركب معه. كان كما لو أنه يعي كل شيء ويسمع كل شيء، لكن شفاهه لم تكن له، كانت وكأنها لشخص آخر، شفاه غريبة، تتمايل مع لسانه المتخشب. - أي مستودع...

أما ساشكا فلم يحاول الكلام، فقط كان يهز رأسه.

- إذاً، هناك أكوام من هذه الأغراض، أليس كذلك؟ حاول إيليا سحب المعلومات منهما، وفجأة صار وجهه وجهين، وثلاثة، وبدأت تتكاثر، ثم تذوب الوجوه بعدها لتختفي. هكذا كانت عينا كولكا ترى. - يجب عليكما إخراج الكثير من هذه الأغراض، سأساعدكما في تصريفها، ولكن أخـــرجوها.

- أخ، يؤكد كولكا ما لا علاقة له بالموضوع. –طبعاً أخ، أنا دائماً سأكون أخاً... وهو دائماً أخ لي.

ويوافق ساشكا بهز رأسه، الذي سقط بين يديه على الطاولة ولم يرفعه.

فكر إيليا بشيء ما، ثم غير لهجته تماماً، وهو نفسه تغير، وكأنه لم يشرب مطلقاً.

- كم أنتما ساذجان... كم أنتما غبيان يا صديقيَّ الصغيرين... والآن، ماذا أفعل بكما؟ وأخذ يتمتم. - لن تصلا إلى مكان سكنكما بهذه الحالة، لن تصلا، أليس كذلك؟ وأخذ يهز كولكا من كتفه.

- أنا... جاهز... لنشرب... بقياس السائق...، قال كولكا محاولاً النهوض، لكنه سقط على الطاولة، وأسقط الكأس بما بقي فيه من خمرٍ. تفاجأ كولكا بما حصل، غمس إصبعه في بقعة الخمر، ولعق إصبعه وأصابه الغثيان.

مسك إيليا كولكا، وجره إلى باب البيت الخارجي.

- أعرف... أنك انتهيت، قال هذا بصوت مختلف، بنبرة غير ودودة على الإطلاق، سنده وسحبه إلى الفناء الخارجي. وتركه يتقيأ، وعاد إلى ساشكا.

أوصلهما فيما بعد إلى حيث يُجمع التبن تحت المظلة.

- ناما هنا. «سائقا القطار»، غداً أوقظكما.

عاد إلى البيت وأغلق الباب بإحكام.

أخذ الصرة فتحها ورمى ما فيها مباشرة على الأرض. التقط قطعة منها، تفحصها بهدوء، طواها ووضعها بجواره على السرير، تناول قطعة أخرى تفحصها، طواها، ووضعها فوق الأولى، وتابع بالطريقة نفسها.

ثم عاد يتفحص القطع مرة أخرى، بالترتيب المعاكس، تلمس كل قطعة، مخمناً ثمنها، المعطف من الجوخ، جديد تماماً، ماركة أجنبية، والحذاء متين، طويل الساق... أما القبعة فهي عز الطلب، مصنوعة في كازان، فراؤها ناعم لطيف الملمس... هذا ليس فراء، هذا هريرة..

مسَّدها، ولانت نفسه.

الجميع يحب الخير، ولكن الخير لا يحب الجميع. مر على إيليا في الحياة الكثير، والآن فقط، بدأ يشعر وكأن الحظ صار بين يديه، لا يجوز أن يفوّت هذه الفرصة.

-١٢-

يُقال: قل لي من تعاشر، أقل لك من أنت.

ترعرع إيليا بلا أهل، طُرد والداه من القرية في الثلاثينيات، وأُخذت أملاكهما. ومذ ذاك اختفيا، وعلى ما يبدو فقد أسلما عظامهما إلى تربة في الطريق إلى سيبيريا البعيدة. بقي إيليا مع جدته. عاش معها، باختصار، عاش بفقر مدقع.

عمل منذ نعومة أظفاره في مزرعة تعاونية، وكانت المزرعة فقيرة جداً.

تذكر إيليا طرفة كانت تُروى في أثناء الحرب، تُروى همساً، ترافقها التفاتات حذرة. ذات يوم، قام السادة الزعماء الثلاثة: تشرشل وروزفلت وستالين برحلة في روسيا، وفي طريق سيرهم توقف ثور. وقف ولم يترك لهم مجالاً للمرور. نزل تشرشل

من السيارة وهدد الثور قائلاً: «تنحى جانباً وإلا أرسلت بارجة تزيلك». والثور لم يرف له جفن. وبدوره روزفلت صاح به مهدداً، أيها الأحمق، إذا لم تحد عن طريقنا سأرسل «القلعة الطائرة» لتقصفك. لكن الثور استمر بعناده ولم يتحرك. وأخيراً نزل أفضل صديق للفلاحين السوفييت، وهمس بشيء في أذن الثور، هز الثور ذيله، واندفع بأقصى سرعة والغبار يتصاعد خلفه. سأل السادة العظماء ستالين، ماذا قلت له؟ وكيف أقنعته؟ وما الذي أخفته به أكثر من البارجة والقنابل؟ فأجاب ستالين: «لم أقل له شيئاً مهماً. قلت له إذا لم يحد عن طريقنا فسأرسله إلى المزرعة التعاونية». وهذه المزرعة كانت هي ذاتها التي عمل بها إيليا صغيراً.

لم يلحق إيليا ويشتد ساعده في أوساط الكادحين، حتى بدأت الحرب. كان صغيراً لإرساله إلى الجبهة، لكنه ينفع في العمل العام، رغم نحوله الشديد. صبي صغير هزيل، حتى أسنانه لم يكتمل نموها بعد.

أقصوه مع جميع أبناء المنطقة بناءً على مذكرة رسمية، شحنوهم في قطار مخصص للبضائع، عبر كل روسيا، على خطا والديه، إلى سيبيريا البعيدة. عانوا عبر طريقهم من الجوع، اقتاتوا من الأعشاب التي اكتسى بها وجه الأرض.

أطعموهم للمرة الأولى في أومسك في مطعم حقير في المحطة، لاحظ إيليا، وحفظ في ذاكرته، أن من كانوا على دراية وتجربة سابقة لم يأكلوا كثيراً، وإنما جمعوا فتات الخبز في أحذيتهم السَوْقاء[1]، وتزودوا بالسميد المطبوخ في مناديلهم القماشية.

وكما توقع، توقف القطار في ضواحي نَفَسيبيرسك، وألقي بهم هناك. بقوا شهراً كاملاً يتسكعون بلا عمل، لا إدارة ولا طعام. بدؤوا يقطعون الطرق، يسطون على الخبز والبطاطا من عربات نقل التموين. يضربون ويهربون. ينظر إيليا الآن إلى أولاد الإصلاحية ويتذكر ما مر معه، كم كان ذاك المشهد يشبههم الآن. روسيا واسعة، فيها الكثير من المعالم الجميلة والأماكن الخلابة، لكنها متشابهة في الفوضى والخراب.

---

(١) السَّوْقاء: نوع من الأحذية طويلة الساق. المترجم.

قرر إيليا مع ثلاثة من أصدقائه العودة إلى الديار، فلم تكن تناسبهم ثكنات العمل. كان إيليا معروفاً بينهم بكنيته زْفِيرِف، وينادونه زْفِريوك.

ركبوا قطار شحن عابر، وانطلق بهم. لكنهم تصرفوا بغباء، لم يتستروا ويخفوا أمرهم، وقبل أن يصلوا إلى الأورال، قُبض عليهم بين محطتين من محطات السكك الحديدية.

وضعوهم في غرفة عامل التحويل الفارغة، أغلقوها ووضعوا حارساً عليها. ومن خلال النافذة شاهد المحبوسون قطاراً ينقل الفحم، طلبوا من الحارس أن يسمح لهم بالخروج لقضاء حاجتهم. والحارس كان شاباً فتياً، فتح لهم. وهم ذهبوا إلى خلف الغرفة، ومن هناك سابقوا الريح إلى ذاك القطار. واختفوا بعد ذلك.

صاروا أكثر حرصاً، كانوا عندما يصلون إلى عقدة سككية، ينزلون من القطار عند مسلك الوصول. يدورون حول القطار مشياً ويقطعون إلى الجهة الأخرى، وينتظرون قطارهم عند الإشارة الضوئية. وهكذا تم لهم تجاوز الأورال.

عاشوا في جوع دائم، وهذا أمر مفهوم. يستجدون أحداً أو يسرقونه. ذات مرة سرقوا حقيبة سفر من عجوز مسافر. لم يجدوا فيها ما يؤكل. لكنهم وجدوا بعض الملابس، سترة ضابط وبنطلونًا من الجوخ وملابس داخلية. جميعهم جرب ارتداءها، كانت حجومها كبيرة جداً عليهم، لا تنفع حتى لحفل تنكري.

اليوم، عاد إيليا بذاكرته، واستذكر كل هذا عندما كان يتفحص المعطف.

أرسلوا زْفِريوك والملابس العسكرية معه إلى قرية مجاورة. لكن إيليا لم يكن ساذجاً كهذين الكوزمينين. فقد عاد بالحليب والبيض والقريشة وبعض المواد الغذائية الأخرى، واستبدل السترة العسكرية بقميص على مقاسه.

وبالقرب من توتايف، التي كانت تسمى سابقاً رَمانَف، قُبض عليهم مرة أخرى وهم في قيلولة بعد أن أتخموا من الأكل. وضعوهم في إصلاحية للأحداث حتى يتم التحقق من هويتهم. وكانت الإصلاحية تحت الحراسة ومحاطةً بالأسلاك الشائكة.

«نحن على بعد خُطا من توتايف، أمام أعيننا ثلاثة معالم: مركزٌ للتجنيد، والمشفى بالجوار، وذاك السجن اللعين»...، هذه كانت أغنيتهم عن إصلاحيتهم. وكان هذا المنظر يُرى من جهة نهر الفولغا.

حتى ذلك الوقت عندما ألقي القبض على إيليا، كان في الإصلاحية ألفا ولد تقريباً. وكانت المجاعة ضاربة أطنابها، فإلى أن يبحثوا ويغربلوا ويتحققوا من هوية كل حدث يكون الله قد أخذ وديعته.

اتفقوا ذات مرة على الهرب. فالإصلاحية تُزوَّد يومياً بالمواد الغذائية، تُفتح البوابة، وتَسمح بدخول عربة يجرها حصان. قرروا فيما بينهم حالما يبدأ الحصان بالخروج أن يندفعوا جميعاً باتجاه البوابة المفتوحة... ثم كل بطريقته. فمن يحالفه الحظ ستكون الحرية بانتظاره.

انتظروا، وصلت عربة تحمل سمكاً يجرها حصان ضعيف، كانوا يصنعون من السمك حساءً، حساء سمك. أُفرغت العربة وفُتحت البوابة، واندفع فتيان الإصلاحية، وترافقت اندفاعتهم بصرخات تخفف الخوف الذي يعتريهم. تزاحمت أصوات الصياح والزعيق مع وقع أقدامهم وهي تسابق الريح إلى الحرية.

أدرك زْفِريوك فوراً عندما رأى أن الجمع قد اندفع في اتجاه واحد، أن عليه أن يأخذ الاتجاه الآخر، مجرى نهر الفولغا.

حدث هذا في شهر أيار، كان الماء مثلجاً، في البداية لم يحس بالبرودة الشديدة، لكنه أدرك بعد مدّة وجيزة أنه لن يستطيع السباحة إلى الضفة الأخرى، وبدأ يغرق...

استفاق ووجد نفسه مستلقياً عند موقد، ومعطف من صوف الغنم يغطيه.

مد رأسه من النافذة، وألقى نظرة، بيت ريفي. عجوزان رجل وامرأة يجلسان عند طاولة، يتحادثان والحديث يدور حوله. المرأة تقول: «دعنا نسلمه ونعدْه إلى الإصلاحية من حيث جاء. هناك يجمعون القتلة، كما يقولون، ألا يمكن أن يكون هذا واحداً منهم؟». ويجيبها الرجل: «كم أنت حمقاء أيتها العجوز الشمطاء. هل كُتب على جبينه أنه قاتل؟ وإذا لم يكن قاتلاً؟ وإذا تعرض ابننا في مكان ما لخطر، فهل يمتنع الناس الطيبون عن مساعدته؟».

تعافى إيليا بسرعة، وأخبره الرجل العجوز أنه يعمل مرشداً للزوارق في النهر. يومها ألقى نظرة إلى النهر، كان هناك من يضرب بيديه الماء، وكان واضحاً تماماً، رغم المسافة، أنه يغرق. أي سباح يسبح في الربيع؟ دُهش العجوز، وأبحر إليه وعندما اقترب منه، كان، إيليا قد فقد وعيه...

ألبسوا إيليا ثياب ابنهم، أعطوه قطعة خبز وشريحة لحم مقدد. وعندما حلَّ الظلام، أخرجه العجوز من البيت، وودعه راسماً عليه علامة الصليب.

- يارَسلافل ليست بعيدة من هنا، قال العجوز. ورِيبنسك قريبة أيضاً، ولكن لا أدري كيف ستعبر الجسر، فهناك حاجز عسكري، قد يقبضون عليك.

لا خوف على زْفِريوك فقد اكتسب خبرة في طريقه. تسلق إلى قمرة سائق قطار وعرض مساعدته في دفع الفحم إلى الموقد حتى ريبنسك، وهكذا أفلت.

وصل إلى قريته الأم. بيتهم الريفي مسكون، والجدة غير موجودة. لقد ماتت جدته. تسلل إلى بيت الجيران، إلى بيت العمة أولغا، كان الوقت ليلاً، وهو من الفحم قد اسود. رأت الجارة ملامحه السوداء من النافذة، فاعتقدت أنه الشيطان يتسلل إليها، وصرخت تلك الصرخة العظيمة، جمعت بصراخها القرية بأكملها.

عاش إيليا أياماً في القرية، نصحه الجميع بالزواج والاستقرار، لكنه فضل الأغنية التي تقول: «سفن تمخر نهر الفولغا كثيرة، والنهر جذاب... لن أتزوج، سأتجنب العذاب، ما الحياة إلا للعزاب».

لكن إيليا لم يكن يقوى على المكوث. قالوا له: قريباً ستُكلف بخدمة العلم، سيأخذونك مرة أخرى. لكنه فضل السفر بعيداً في أرجاء روسيا ومزاولة عمله الذي أتقنه وأحبه، نشل الحقائب، والخبرة لا تنقصه، خاصة عندما يتدافع الناس وسط الزحام عند الصعود والنزول من القطار، أو باستخدام خطاف يرميه من فوق سطح عربة القطار يخطف من الرف العلوي ما تيسر. صغير الحجم، واسع الحيلة، ومحظوظ.

لكنه وقع ذات مرة، قُبض عليه وزُج في السجن.

لكن زْفِريوك اليوم غير زْفِريوك البارحة، فقد نضج أكثر، وصار مثل أي زْفِريوك آخر. وغدا يعرف كيف يخادع، وكيف يكذب.

سحق زجاجاً بحجر، وأخذ نفساً قوياً من المسحوق الذي صنعه. كان الأفضل لو استبدله بالسكر لو كان متوفراً. ملأ الزجاج رئتيه، وبدأ الدم يتدفق من حلقه. نُقل إلى المشفى. والطريق إلى الحرية دائماً من المشفى أقصر. تبين أن المسحوق كان خشناً أكثر من اللزوم، وطالما بصق قطع الدم، واستمر هذا لنحو نصف سنة.

جُند للعمل في منطقة كَلينِن، قرب أَسْتَشْكوف، في قطع الأشجار. ونشر الخشب. عمل للأغبياء، تدفع المنشار بعيداً، ثم تسحبه إليك... وفي أثناء النشر وفي خضم العمل كان يردد كلمات أغنية تقول: «من أجلك، من أجلي، من أجل الدفء».

ذات مرة كان زْفِريوك ذاهباً مع صديق له إلى عمله، رأى في طريقه أسرى ألماناً، يقطعون شجرة في الغابة المجاورة. كان الأسرى يعيشون على أطراف القرية بلا قيود تقريباً، في ملجأ تحت الأرض.

المهم في الموضوع أن الأسرى الألمان كانوا جالسين أمام الملجأ، يأكلون اللحم المقدد. وعندما شاهدوهما صاحوا بهما يدعونهما: «روس، شنيل تعالا إلى الطعام»[1].

رفض زْفِريوك ورفيقه أخذ شيء منهم، لكن المشهد انطبع في ذاكرتهما، الفاشيون الأوغاد يدعوننا إلى طعامٍ هو لنا، وهم يأكلونه. يجودون بما هو لنا.

في طريق العودة، لم يتمالكا أعصابهما، وقررا أن يلقيا نظرة إلى سكن الأسرى. دخلا، لم يجدا أحداً، أين هم يا تُرى؟ ربما في بيوتات القرية، وماذا يفعلون هناك؟ هنا استوحشا أكثر. ماذا يحصل؟ نحن نعيش في تخشيبات، ونأكل ما هب ودب، وهم ينعمون بالدفء، ويتسامرون مع نسائنا.

أخذا كل ما صادفاه عند الأسرى، وقبل كل شيء اللحوم، من لحم عادي ولحم مقدد ومعلبات... أخذا كيس طحين، لكنه كان ثقيلاً يزن قرابة الخمسة عشر كيلوغراماً،

---

(١) بسرعة باللغة الألمانية. المترجم.

لم يستطيعا حمله طويلاً، فعلقاه على شجرة صنوبر قرب الطريق كاحتياط غذائي، ليأخذاه فيما بعد.

وصلا إلى بيت عجوز يعرفونها. اطبخي يا جدتي اللحم واصنعي الخبز، وآتنا بشيء من الخمر المنزلي، سنحتفل اليوم بعيد النصر، قمنا بمهاجمة الفاشيين الألمان، ودحرنا الغزاة. وهذه غنائم الحرب.

لم تفهم العجوز شيئاً، لكنها أعدت الطعام.

أكلا وشربا، وخلدا إلى النوم.

أيقظ شعور غريب زْفِريوك ليلاً، وكأن أسناناً تلمس قدمه العارية بخفة... سحب رجله، وذاك زمجر. قفز زْفِريوك من نومه، يا إلهي كلب في البيت، لم يكن الكلب وحده، كان جنود وشرطي المنطقة خلفه.

استجوبوهما واستجوبوا العجوز. فتشوا كل شيء في المنزل. وضعت العجوز أمامهم كل ما تبقى من الغنائم التي لم تستهلك في الطبخ، لكنها لم تعد الطحين. لا طحين لدي... لم يكن هناك طحين بتاتاً. لم أر في عيني الثلاثة عشر كيلوغراماً أبداً.

شحنوا إيليا ورفيقه على مزلجة، ونقلوهما إلى المدينة. سلكوا طريق الغابة نفسه، الذي سلكه الرفيقان قبل وقت قصير. صاح إيليا، أرجوك أيها الرفيق، قف، أعتقد أنك سألت عن كيس الطحين؟ ذاك هو، انظر، إنه معلق على الغصن.

استشاط رئيس الدورية غضباً، ولم يستمزج مزحته، واعتبره يكذب ويسخر منه. لكنه رأى فيما بعد الكيس بنفسه، وصاح بإيليا: «تسلق بسرعة وآتني به، كما علقته»، رد عليه زْفِريوك مجيباً: «لا، أيها الرفيق، أنا أخبرتك بمكان وجوده، وعليك أن تشكرني، فأنا لن أحتاج الطحين مدّة طويلة. بفضلكم سأجبر على تناول حساء السمك. لذلك فإذا كنت تريده، فتسلق الصنوبرة بنفسك».

تسلق رئيس الدورية، ولم يحصل له مكروه، لكن الأمر كان مسلياً لإيليا.

حكموا على زْفِريوك عام سجن. وفي الشهر الأول من محكوميته صب مسحوق قلم رصاص كوبي في عينيه، فأصابه العمى لنصف عام. دخل المشفى متصنعاً المرض ثم أطلق سراحه.

نما شارباه، وصار يبدو أكبر سناً. وقرر أن يبدأ حياة جديدة.

عندما كان في السجن، أخبره أحد السجناء وهو نشّال معروف حُكم عليه بقضايا سرقة، بأن أرض القوقاز مهجورة. ونصحه بالذهاب إلى هناك، البيوت بقضها وقضيضها، وحديقة حولها، يعطونها مجاناً، بلا ثمن. لكن، لا تخطئ، قل لهم إنك مُهجّر.

ومن المُهجّر إذا لم يكن زْفِريوك؟ هو أيضاً أُبعد عن دياره، هو مُهجّر حقيقي.

التحق إيليا بوظيفة مرافق قطار على الخط الجنوبي، ينقل المستوطنين إلى المكان المقرر لهم. واستلم مسكناً دون أي معاملات. وكان كل شيء كما قيل له، بيت وحديقة... والحديقة مزروعة بطاطا وزارعها مجهول، وتنمو فيها قصبات الذرة وعباد الشمس.

لم يدرك زْفِريوك أنه وقع في الفخ، كما يقع أي حيوان. خانته حاسة الشم. أراد أن يبدأ حياة نظيفة، لكنه انغمس مرة أخرى في مغامرة غير محسوبة العواقب. وأي مغامرة!

فكر بالهرب، لكنه تعب منه. والمال ضروري. وفي هذا التوقيت ظهر الأخوان كوزمين.

استيقظ الأخوان متأخرين. كانت الشمس قد اجتازت منتصف النهار. وصار جو التبن خانقاً.

بصعوبة تجاوزا الخمول الذي هما فيه، واستطاعا دخول المنزل، وكان إيليا قد أعدَّ الفطور، حضَّر الشاي والفطائر، وكان الخمر حاضراً أيضاً.

هز الأخوان رأسيهما رفضاً، ناهيك عن الشرب، لم يطيقا النظر إليه. منظر الزجاجة وحده كان كافياً ليحدث لديهما الغثيان.

شربا الشاي ببطء من فنجان معدني، ورمقا إيليا خلسة، وهو اليوم كان متململاً، مهتاجاً، كثير الكلام على غير عادته. سأل:

- وأنتما لم تغسلا وجهيكما حتى؟ وهذا أمر جيد. إن الغسيل الدائم ضار. قرأت هذا مرة في أحد الكتب. والغسيل يمكن أن يكون بعد الطعام. هل سمعتم بقصة القطة؟ لا؟ سأقصها عليكما. اصطادت قطة طيراً. وما إن جلست، حتى قررت أن تأكله، وكان الطير فطناً، قال لها: «كيف تأكلينني دون أن تغسلي يديك؟ هذا ليس صحياً؟» لم تلحق القطة أن تفلت يديها لتغسلهما حتى طار الطير. ومنذ ذاك الوقت لا تغسل القطة يديها قبل الطعام...

ومرة أخرى، حاول ذو الهمة صاحب الدار أن يصب لهما خمراً، وكأن البارحة شيءٌ لم يكن.

أو بالفعل لم يكن؟ كان في ذاكرة الأخوين فقط البداية، والباقي ذهب أدراج الريح، تذكرا نُتفاً منه، فهذا كان يتفاخر، وذاك كان يصيح، وهذا دعا ذاك إلى مكان ما...

وقد لا يكون هناك لا من صاح، ولا من دعا، لأن كليهما شاهد المشهد نفسه في منامه، مشهداً معتبراً، شاهدا الخيول وهما يمتطيانها وهي تجمح مسرعة إلى مكان ما. كان المشهد مذهلاً. وكان من الصعب فصل الحلم عن الواقع، ولكن المؤكد أن الخيول لم تكن موجودة في الواقع.

هنا تذكر كولكا الأغراض التي أحضراها ونظر إلى زاوية الغرفة، ثم إلى ساشكا. وساشكا فكر بالشيء نفسه أيضاً.

قطع إيليا نظراتهما بسرعة وسأل:

- ماذا؟ هل أضعتما شيئاً؟ وضحك بطريقة غريبة، واهتزَّ شارباه.

- المعطف... أين المعطف؟ سأل كولكا.

- والقبعة؟ أضاف ساشكا. - وذاك الحذاء؟

- الآن فهمت عمَّ تبحثان. قال إيليا بسذاجة، مندهشاً مما يسمعه. - أشياؤكما رُحِّلت إلى مكان بعيد، ولن تستطيعا اللحاق بها.

- ماذا تعني... اللحاق بها؟ سأل كولكا ونظر إلى ساشكا، وحدق كلاهما بإيليا، الذي استمر يبتسم لهما. لكن الابتسامة بهتت، وسأل والقلق باد على وجهه:

- الأغراض... التي أهديتماني إياها؟ ألم أكن مصيباً في فهمكما البارحة؟

- أهديناك؟ سأل كولكا مستغرباً.

- نحن؟ أهديناك؟ كرر ساشكا من بعده.

وحملقا بإيليا وكأنهما يريانه للمرة الأولى.

- ماذا بكما؟ ألا تذكران؟ كيف أهديتماني؟

لكن إيليا رأى بنفسه كيف صُعق الأخوان.

نهض وصب لهما الشاي. وقطّع الفطائر ووزعها. ثم جلس، يهز رأسه مكسور الخاطر.

- أذهلتماني... حسناً، سأحاول تذكيركما؟

وطالما التزم الأخوان الصمت، بدأ إيليا يحكي لهما ما حصل البارحة، كيف بدأ المساومة، وكيف عرض عليهما أن يختارا بين أن يأخذا نقوداً أو يستبدلاها بالبطاطا والذرة. لكن ساشكا طلب اللحم المقدد زيادة عليها. وعندما اتُفق على قطعة لحم مقدد، ودلو من البطاطا، نهض ساشكا فجأة وقال: خذها هدية، غداً سنأتي بغيرها. طبعاً، إيليا رفض ذلك رفضاً قاطعاً، وهنا انضم كولكا إلى أخيه واندفع بشدة لإقناع إيليا أن يأخذ هذه الأغراض التافهة كُرمى لصداقة قوية، ويبعدها عن الأنظار. وهما لا يجدان صعوبة في السطو على المستودع مرة أخرى. فالعملية ليست معقدة كما شرح ساشكا فقط أدار القفل وفتح المزلاج...

استمع الأخوان مطرقين، كانا ينظران إلى الأرض، وإيليا يتحدث. حتى إنهما لم ينظر أحدهما للآخر. لم يتمكن أي منهما أن يتذكر أي شيء مما قيل. ولكن ما دام إيليا يعرف عن المزلاج، فهذا يدل على أنهما قالا ما يقال وما لا يقال وخسرا أغراضهما وهما في حالة سكر.

عرض إيليا عليهما المزيد من الشاي، لكنهما رفضا فقد استعجلا الذهاب إلى الإصلاحية.

- أتفهمكما، الوقت لا ينتظر. انتعش إيليا ونهض وهو يقول: - لا ينتظر. فنهض الأخوان أيضاً. - يمكنكما الاعتماد عليَّ دائماً.. كصديق وفي. قال ذلك وهو يخرج خلف الأخوين لوداعهما في باحة المنزل. - أنا جاهز إذا عزمتم أمركم مرة أخرى. ولن أقبل هدايا بعد اليوم، أرجو أن تعرفوا ذلك. تحركون المزلاج وتأتون بالثياب، و... والدفع نقداً. اتفقنا؟

هز كولكا وساشكا رأسيهما غير مقتنعين. كانا محبطين. فقد سمسرا واستمتعا وحسبا واحتسبا، لكنهما خسرا أخيراً، وحزنا.

وعند الباب الخارجي نظر كولكا بحسرة باتجاه إيليا دون أن ينظر في عينيه، وطلب منه بصوت حزين:

- لو أعطيتنا بعض اللحم المقدد... لأخذناه.

التزم ساشكا الصمت، حتى إنه أشاح بوجهه، وابتعد عنهما، لم يكن يريد أن يرى أخاه مُتذلَّلاً له.

دُهش إيليا، وكان قد أقفل راجعاً. عاد واستفسر:

- لحم مقدد؟ تريدان.. لحم مقدد؟ وصمت قليلاً وهو ينظر مباشرةً إليهما. – أنتما، يا مفترسان، البارحة أنهيتم وجوده. لم يبق سوى الخرقة المملحة مجردة من اللحم.

صمت الأخوان مكسورَيِ الخاطر. فهما لا يذكران سوى قطعة اللحم المقدد التي حشرها إيليا في فمهما عندما شربا الخمر.

- أنتما تأكلان مثل... أنتما تأكلان عن أربعة. أخذ إيليا نفساً، لم يكن هيناً عليه أن يرد صديقيه خائبين. وفجأة انتعش: - انتظرا قليلاً، سأنظر، فلربما...

كان إيليا يقطر كرماً. كرم وعاطفة جياشة. لم يستطع أن يترك أعز أصدقائه يغادران خاليي الوفاض.

توارى في المنزل، ثم عاد يحمل بين يديه قطعة ليست كبيرة من اللحم المقدد، بقدر نصف حجم الكف. وللتو وجد في باحة الدار ورقة كبيرة من أوراق نبات الأركتيوم لفَّ

بها قطعة اللحم. لفها، وأبطأ قليلاً، وتردد في إعطائها، ليظهر أنه يعطي القطعة الأخيرة لديه. قطعة من قلبه، كما يقال. وقال وهو يقدمها لهما:

- حسناً، هذا عربون صداقة... سأجد ما آكله لأعيش.

قال الأخوان، كل على حدة بلا تزامن: شكراً. وذهبا.

وبقي إيليا ينظر في أثرهما. وفجأة صاح:

- أيها المفترسان.

التفت الأخوان. نظر إيليا إليهما وسكت، وكأنه كان متردداً، يقول أو لا يقول، لكنه حسم أمره وقال بصوت منخفض:

- ارحلا من هنا، صدقاً أقول لكما، اهربا بأسرع ما يمكنكما.

-١٣-

لم يذهبا إلى الإصلاحية.

حتى لو أحضر المدير موادَّ غذائية كما قيل، وأعدّوا منه طعاماً ساخناً، لما كان ليكفي. أحسّا بأنهما قد تأخرا، كان عليهما أن يلحقا ويقدما هدية متواضعة لشخص أحباه. وبالتأكيد لم تكن الهدية قدر المقام.

بمجرد أن اختفت القرية عن الأنظار، ترك الأخوان الطريق الترابي المغطى بالغبار الحار الناعم، وانتقلا للسير في الحقل الذي ينتهي بشجيرات يسير على امتدادها نهر سونجا. هنا على ضفة النهر بين الأغصان الكثيفة لشجيرات التوت البري والزيتون ذي الأوراق الفضية الصغيرة، والذي لم يكن مكاناً محبباً للطيور كما لاحظ ساشكا، هنا استلقى الأخوان على العشب.

لم يرغبا بالكلام.

وبعد وقت طويل كسر كولكا حاجز الصمت:

- رأسي يتصدع، كيف الحال عندك؟

استمر ساشكا على صمته كاظماً غيظه.

- يتصدع ويطن... كأنه محرك قطار وليس رأساً. لن أشرب بعد اليوم أبداً... لم أعتقد أن هذا ما سيكون...

لم يتم كلامه، نزل من الضفة إلى النهر، وصار يغرف الماء بيديه ويرشق به وجهه. ثم شرب، واغترف غُرفة في راحتيه، ورغم تسرب الماء من بين أصابعه، حمله لساشكا، وسكبه على وجهه. لم يتحرك ساشكا، وكأنه لم يشعر به.

- هل تعرف صندوق نقل الكلاب؟ سأل ساشكا، دون أن يفتح عينيه. لمعت قطرات الماء على أنفه، وعلى جبينه، وسالت عند صدغه.

- ماذا تقول؟ سأل كولكا دون فضول. - صندوق نقل الكلاب؟ أدرك أن شيئاً مهماً يختمر في رأس ساشكا الذكي. - لا، لا أعرف.

- هو صندوق حديدي، تابع ساشكا بهدوء دون أن يفتح عينيه، كما لو أنه يقص حلماً يراه في منامه. – صندوق يُعلَّق أسفل عربة القطار... عندما نزلنا من القطار في إحدى المحطات، رأيته في القطار المجاور، أشار زْفِريوك إليه بالراية التي في يده وقال: هذا لنقل الكلاب، كان يستخدم قبل الحرب، كانت تُنقل الكلاب في ذاك الزمان، في مثل هذه الصناديق. والآن أصبحت مقبولة للسفر حتى عند الناس.

- شاطر صديقك زْفِريوك. تنهد كولكا.

- وصديقك أيضاً، كلنا في الهوى سوا، قال ساشكا وفتح عينيه. - عندها دخلت الصندوق أقيسه... وحقيقة، يمكن السفر فيه.

فهم كولكا ما يدور في رأس أخيه.

- إذن، حان الوقت؟ سأل وهو ينظر إلى ساشكا. - والإصلاحية؟

- جربناها.

قص ساشكا طرفة عن شخص شاهد في طريقه كومةً قذرة. استغربها، انحنى إليها وجرب طعمها، ثم قال: «حسناً فعلت أني جربتها وإلا لدعست بها».

لم يضحك كولكا. أخذ ورقة من نبات الأركتيوم الكبيرة، وحمى رأسه من أشعة الشمس، واستسلم لغفوة. لم يكن هناك أي داعٍ للضحك، فهما حسب الطرفة قد دعسا فيها واتسخا... اتسخا في الإصلاحية، واتسخا مع إيليا أيضاً.

لم يعد ساشكا يحتمل. ففكرته نخرت رأسه.

- فلنذهب إلى المحطة، اقترح هو.

- الآن؟

- ومتى إذن...

- لربما أولاً... ربما علينا العمل على المستودع؟ كما يقول زْفِريوك...

- لا، لا، زْفِريوك وحش، قال ساشكا ذلك بقسوة. هيا بنا؟ لا تحمل هماً، سنعود اليوم.

فهم كولكا، ما دام ساشكا يفكر بذلك ويستعجل الأمر فهذا يعني أن هذا ما يجب أن يكون.

- ألا نستلقي قليلاً؟ طلب منه. - رجلاي ترتعشان.

- إذاً لنفترق، قال ساشكا بشيء من الجدية. - وهذه بالمناسبة عربة نقل...

اكتشف ساشكا عربة النقل في الوقت المناسب. ولولاها لما وصلا إلى المحطة حتى المساء. ووصولهم لم يكن مؤكداً.

قفزا بسرعة عبر الحقل، إلى الطريق، حيث العربة، وصاحا من بعيد:

- من فضلك يا عم؟ إلى المحطة؟

- عمى الدبب، قال الرجل وأشار بيده يأمرهم أن اجلسا إلى المحطة. - إني في عجلة من أمري، يجب أن أصل على موعد القطار.

لم يكن الرجل كبيراً بالسن، ولا أشيب الشعر، كما لاحظ الأخوان. لكنه كان أكبر عمراً من إيليا. يرتدي سترة حرقت ألوانها أشعة الشمس حتى بهُتت وصار لونها

فاتحاً، أزرارها بيضاء، وعلى رأسه قبعة لها واق للعينين. جلس شبه نائم، وقلما نظر إلى الطريق بعينيه الزرقاوين المضيئتين. يأخذ نظرة بين الفينة والأخرى ليعود بعدها ويغرق في عزلته مع نفسه. ولم يكترث للأخوين بعد أن جلسا إليه.

لكنه أبدى فضولاً حين اقتربوا من مدخل المحطة:

- أنتم من الإصلاحية؟

وما في ذلك؟ سأل كولكا بحذر.

- تريدان الهرب...

- إلى أين نهرب؟

- إلى أين... الجميع يستعجلون الذهاب إلى البيت. قال الرجل ونهز الحصان يحثه على السير.

- قد يكون عند بعض الناس بيت... وقد لا يكون، أجاب كولكا حانقاً. ونظر إلى الرجل.

لكن الرجل كما يبدو لم يكن ينوي النزاع، ولم يبدأ حديثه على الإطلاق من أجل التعرض لهما. رفع قبعته، ونظر إلى الأخوين وغمرهما تماماً بأزرق عينيه، وقال بلطف:

- ما تقوله صحيح. وهذا حق. هو موجود عند بعض الناس... لكن عند من؟ سأقول لكما، هذه الحرب قلبت الجميع، ورمت بهم بعيداً عن حياتهم المألوفة... اختلط الحابل بالنابل، السماء بالأرض، الأحياء بالأموات... والآن، أدرك الجميع فجأة أن الحرب انتهت... صرنا نتكلم عن البيت... صمت دون أن ينتظر رداً. وغاص في عالمه. وفجأة تابع كلامه: - قبل هذا الوقت لم نفكر بأمور الحياة، لم نفكر كيف نعيش، بل كنا نفكر كيف نبقى على قيد الحياة. كنا نأكل ما يسد رمقنا، نأكل لنعيش، لنبقى أحياء. وضرب بمقبض السوط على رجله، وأعطت صوت طرق على الخشب. هنا فقط لاحظ الأخوان أن الرجل بلا رجل، لقد فقدها، معاق يعني. وتابع حديثه: - ... أعطيت جزءاً مني، وكنت مستعداً

أن أعطي الجزء الآخر. وكأني لم أكن أشعر بالحاجة لذاتي. أما الآن فالوضع إلى نهاياته، وصرت أشعر بالأسف على وضعي... وفجأة بدأت أفكر، ما دمت قد بقيت على قيد الحياة، كيف سأعيش؟ أتساءل، أين سأعيش؟ أين البيت؟ أين؟ لا يوجد... قتلوا عائلتي، وحرقوا منزلي. عندما علمت قررت ألا أعود إلى قريتي. كانت العودة إليها كمن يعود ليسكن في مقبرة، ويطفر دمه حزناً كل يوم. كانت العودة قتلاً للنفس... في نهاية المطاف عقدت العزم على العيش... في بِرِزوفسكَيا. ولكن كيف سأعيش... أنتما ما زلتما صغيرين، ولديكما الوقت الكافي لتحققا شيئاً ما. أما أنا فلا وقت لدي. استقريت هنا فاقداً الأمل... لكن نافذة فُتحت ليدخل الأمل منها. هناك، خلف المحطة، أعمل في مزرعة. إذا احتجتموني فأنا هناك، اسألوا عني، اسمي دميان.

قال ما قاله وعاد كما لو أنه يختبئ خلف واقية قبعته. اختفى كما السلحفاة تحت درعها.

عندما ترجل الأخوان عند المحطة، شكراه، وبدا أنه ابتهج، وأومأ برأسه.

- مع السلامة، وشد زمام الحصان. - عموماً، زوروني، إذا لم تهربا... أنا شخصياً لن أهرب. المنطقة غنية ويمكن العيش فيها... الخوف يدمر كل شيء، ولم يبق ما أخاف منه، انقضى خوفي.

قال الأخوان مرة أخرى «شكراً» وذهبا. سارا بتثاقل، فقد انطبعت خشبات العربة البارزة على عظام قعدتهما. وصلا إلى برك المياه الكبريتية، استحما فيها، وصار الوضع أحسن. بل ممتازاً. كان كما لو أن هذه البرك النتنة تحوي ماء الحياة[1] كما في قصص الأطفال الخيالية.

كان ياما كان في قديم الزمان، شباب وصبايا يقطعون مسافات طويلة من العاصمة في أقصى الشمال، قاصدين هذه المياه... كانت سيدات العاصمة تتنزهن هنا

---

(١) ماء الحياة: ماء سحري لديه القدرة لإعادة الحياة لأبطال الحكايات الشعبية الخيالية عند قتلهم. المترجم.

بثيابهن البيضاء ومظلاتهن الملونة وعرباتهن الفخمة، مع ضباط زينت وجوههم شوارب اعتني بها، كل هذا كان فقط ليشربوا من مياه القوقاز، ويعززوا صحتهم ويستعيدوا لياقتهم... عزفت لهم فرقة نحاسية، وأزهرت الويستريا[1]. وبعد الاستحمام في المياه الحارة، يصعد السادة الأنيقون إلى الأعلى، إلى القاعة المستديرة، ويستمتعون بمنظر الجبال البعيدة عند الغروب الذهبي... واستخدمت ريغينا بتروفنا تعبير: يتأملون.

لم يستطع الأخوان التحقق من أن هذا ما كان بالفعل، ربما اخترعت المعلمة هذه الحكاية. المياه كانت بالفعل موجودة هنا وتدفقت قبل وجود الكوزمينين. أما فيما يخص السادة الذين قدموا من موسكو قبل اختراع القطار، من أجل بركة هنا وحفرة هناك، فالأخوان صراحة، كانا يشكّان في صحة هذه الرواية. لكن من أجل الفطائر مثلاً، أو البطاطا والخوخ، فالأمر يستحق. من أجل الطعام ممكن... أما الماء، فهو ماء. إذا لم تتناول سوى الماء فلن يتكون لديك ما يخرج من جسمك إلا الماء.

عندما وصلا لم يكن هناك قطار، وكان ذلك واضحاً قبل أن يقتربا من المحطة، فصعدا إلى تلة تُرى منه حيث تألقت قبة كالثلج ناصعة البياض.

لم تكن القبة بذاك البياض عندما اقتربا منها. كان الطلاء قد تقشر، واتسخت أعمدتها، وامتلأت بخدوش كتابات خُطت باللغة الروسية، وأخرى بالألمانية على الأرجح.

جلس ساشكا على الدرج الحجري، وأخذ يتأمل الوادي. كما الشباب والصبايا في سالف الأزمان.

أما كولكا فقد وجد حجراً حاداً، خطَّ فيه على عمود: «كوزمينا تاميلِنا، ١٠/٩/١٩٤٤».

ابتسم، وهو ينظر إلى ما كتبه. ليعلم الجميع أن الأخوين كانا هنا، وشربا مياهاً معدنية واستحما بأحواضها الساخنة، وتأملا الغروب في الجبال أيضاً، وعندما سيعودان بعد... لنقل... عشرين عاماً، ويكونان قد شاخا مثل صاحبهما دميان، سيستعرضان أمام زملائهما

---

(١) الـ ويستريا (Wisteria): نبات متسلق له عناقيد زهرية وبنفسجية اللون. المترجم.

في دار الأيتام، القبة المستديرة وسيقولان لهم: هنا كنا نتنزه أنا وساشكا... وهنا كانت فرقة موسيقية تعزف، وصبايا يحملن مظلات ملونة يتنزهن مبتهجات.

لم يتم كولكا تخيلاته، فقد ظهر عمود من الدخان خلف المنعطف البعيد عند الجبل الأقرع. أسرع الأخوان يركضان إلى أسفل الجبل، ووصلا تماماً مع وصول القطار.

سار ساشكا على طول القطار ينظر، ويبحث أسفل العربات، وأخيراً وجد ما بحث عنه، ونادى أخاه.

- انظر، وأشار بإصبعه.

صندوق معلق فوق سكة الحديد، ثُبت بالضبط أسفل العربة. صندوق صدئ متسخ متطاول، مثل تابوت.

رفع ساشكا الغطاء، وطلب من كولكا أن يدخله.

- سنسافر؟

- سنسافر، قال ساشكا. وما في ذلك؟

بشق الأنفس استطاع كولكا دخول الصندوق، ثم بعده دخل ساشكا. على ما يبدو يستطيعان السفر عرق ورأس. كان الجدار الجانبي للصندوق مليئاً بالثقوب المستديرة، منها يمكن النظر بعين واحدة إلى العوارض الخشبية والسكة الحديدية والأعشاب المجاورة. والخوف الوحيد هو أن يفلت الصندوق على الطريق، وهنا سيصبح الصندوق بالفعل، تابوت.

- تابوت معدني ثم موسيقا. قال كولكا متحدثاً في ثقب من ثقوب الصندوق.
- سيداتي آنساتي سادتي، وصلت للتو عربة الكوزمينين من العاصمة... من أقصى الشمال... إلى مدينة المياه المعدنية...

ونفخ خده: «بوم، بوم، بوم، بوم...»، وبدأت الفرقة تعزف على شرف وصول الأخوين في صندوق الكلاب.

أما ساشكا فقال:

- سفر مجاني إلى أي مكان تريد، أليس كذلك؟

- وإلى أين تريد؟ سأل كولكا. بوم، بوم، بوم...

- إلى البعيد، البعيد. قال ساشكا. - حتى أبعد من البعيد. دون رجعة.

- ألن يكون أسوأ؟

- أسوأ من الآن؟

بدأ يصفر القطار، وتحركت العربات. واهتز الصندوق بعنف.

رفع كولكا صوته مع سير القطار: «بوم، بوم، بوم...»

أما ساشكا فعرض على أخيه:

- لنسافر، ما رأيك؟

- الآن؟

- وما في ذلك؟

- وريغينا بتروفنا؟

- سكت ساشكا.

- ستبقى وحدها مع طفليها؟ ألا يُحزنك هذا؟ صاح كولكا.

وعلى الفور، رفع ساشكا غطاء الصندوق وقفز منه. وكذلك فعل كولكا بعده. تعثر بالعارضة. نظرا في أثر القطار المغادر، تعقبت نظراتهما العربة التي تحمل صندوقهما، نعم، لقد صار صندوقهما. كانا كما لو أنهما يودعان حلمهما.

باتا ليلتهما على قطار شحن محترق، على السكة الاحتياطية. ولم يصلا إلى ريغينا بتروفنا إلا مساء اليوم التالي.

لكنهما عرجا إلى المستودع أولاً، ومرا بجواره ليتأكدا أن القفل، ذاك القفل نفسه، والمزلاج لا زال في مكانه.

لم تفتح المعلمة الباب فوراً، وعندما تأكدت أنهما، دعتهما للدخول، لكنها أشارت لهما بأن يتصرفا بهدوء، فالطفلان نائمان.

دخل الكوزمينان الغرفة على رؤوس أصابعهما، استرقا النظر إلى سرير الطفلين النائمين، عرق ورأس، بوضعين مختلفين. جوريس على ظهره فارداً يديه ورجليه، ومارات على العكس، متكوراً، غطى رأسه باللحاف. والآن بات واضحاً أن جوريس هو الأكبر سناً.

كانت ريغينا بتروفنا ترتدي فستاناً زهرياً زاهياً، متلألئاً، كما الذهب، مزرراً طويلاً حتى الأرض.

تألقت بشعرها الأسود المرخي، بدت للأخوين أكثر جمالاً. إنها حقاً ملكة.

- اجلسا، لقد انتظرتكما. ما الأخبار لديكما؟ هل أنتما جائعان؟

- لا، أجاب ساشكا عن الاثنين. - لقد أكلنا اليوم.

وضع كولكا على الطاولة قطعة اللحم المقدد ملفوفة بورقة الأركتيوم.

نظرت ريغينا بتروفنا إلى قطعة اللحم المقدد، دون أن تلمسها، ونظرت إليهما. وهزت رأسها.

- لا، لا. شكراً. لن آخذها.

وحيث إن الأخوين صمتا وكانا مرتبكين، أوضحت لهما:

- أنتما عملتما وكسبتما، فهي لكما تأكلانها بالعافية. بالمناسبة ماذا عملتما حتى حصلتما عليها؟

تبادل الأخوان النظرات.

- إذاً، قالت ريغينا بتروفنا. - أظن فهم بعضنا بعضاً. أليس كذلك؟

هزَّ ساشكا رأسه متفهماً. فهو أسرع إدراكاً من كولكا. رغم أن كل شيء واضح ولا داعي لقدرات خارقة. فالمعلمة عرفت منذ البداية بسرقة الثياب منذ التقتهما عند المستودع. لذلك توترت وانتظرتهما. لكنها لم تشي بهما، وهذا مهم.

في غضون ذلك، تابعت المعلمة كلامها:

- لقد بحثت عنكما، استعلمت أنكما لم تقضيا الليل هنا، أليس كذلك؟ الجميع فكر أنكما هربتما، هناك من قال إنه شاهدكما في المحطة... لكني لم أصدق، كنت أعرف تماماً أنكما لن تغادرا بهذه الطريقة. ولم أكن مخطئة.

أدخلت ريغينا بتروفنا يدها في جيب المعطف المعلق على الحائط، بحثت عن شيء ما، لكنها لم تجده، عادت، وجلست.

- يا إلهي، كم هي الحياة صعبة دون سجائر... حتى لو كانت من الأعشاب... حسناً، كنت أبحث عنكما لأخبركما أننا سنبدأ بعد أيام العمل في معمل الكونسروة. لقد عقد بيوتر أنيسِمَفيتش اتفاقاً معهم، سيعمل طلاب الصفوف العليا: من الخامس حتى السابع. لكني سجلتكما أيضاً... على الأقل ستجدون ما تأكلونه هناك. هل فهمتما؟

هز الأخوان رأسيهما وهما غير متأكدين من موافقتهما، فلم يدخل أي مصنع في حساباتهما.

- لكن من فضلكما لا تُخطئا، أنتما عندي في الصف الخامس ولستما في الصف الرابع... سيرسلون الصفوف الدنيا إلى المزارع التعاونية لجمع ثمار التفاح... والآن، اذهبا إلى النوم، وتابعت وهما يخرجان: - لا تنسيا قطعة اللحم المقدد.

ودون كلام، أخذ كولكا قطعة اللحم. وعند الباب وكأنهما تلقيا أمراً، استدار كلاهما.

- في الواقع، نحن...

- ماذا، أنتما؟

- كنا على وشك أن نسافر، بق ساشكا البحصة.

- كلياً؟ لفظتها ريغينا بتروفنا بصوت مكتوم. وانطفأ كل شيء فيها.

- نعم.

- ونحن؟ والآخرون؟

تلعثم الولدان. لكن كل شيء كان واضحاً دون كلام، فهما لم يغادرا، فقط لأنهما كانا يفكران بها.

- صديقيَّ العزيزين... انتظرا. تلقفت ريغينا بتروفنا الموضوع ساخناً وبسرعة بدأت تعالجه. - سنذهب إلى معمل الكونسروة... نأخذ فكرة عنه، قد يعجبكما؟ أعتقد أن أمورنا ستتحسن... ستريان فعلاً أنها ستتحسن.

لم يُجب كولكا بأي شيء، فالأفكار عنده تتأخر قليلاً، ولا تأتي بتلك السرعة. أما ساشكا فقد اكفهر وأطرق، وصرَّح متحدثاً باسمه وباسم أخيه:

- على العموم.. نحن سننتظر. أؤكد لكِ.

قُضي الأمر كما يجب.

- حسناً. ابتهجت قليلاً ريغينا بتروفنا. - عندي لكما مفاجأة... كدت أنسى. تعالا إلى هنا.

أخرجت من درج الطاولة قبعة ضخمة من الفرو، ومن القبعة أخرجت حزاماً من الجلد.

أمعن الأخوان النظر بالقبعة.

- ما هذا؟

- قبعة فرو...

- من أين؟

- من غرفة الخزن ... قد تكون بقايا الأعمال اليدوية. وقد تكون من القرية... لا أعرف. هناك أشياء كثيرة... وجدها الأولاد... كانوا يلعبون بها كما لو أنهم في حفلة تنكرية... أنصتت ريغينا بتروفنا قليلاً لأصوات علت في الباحة ثم تابعت: - أخذتها من أجلكما... هل أعجبتكما؟

تبادل الأخوان النظرات: أدركا خطأهما. فهما فتشا كل الغرف والعليات وغابت عنهما غرفة الخزن. وماذا لو كان هناك ما يمكن أكله؟

سأل كولكا بشيء من الاهتمام:

- ألم يكن هناك زي شركسي بمشط خرطوش على الصدر فوق الجيب؟

- لم أر، قالت ريغينا بتروفنا. - كان هناك خنجر لكنه مكسور، وحزام... تراءى لي أنه قد ينفعكما.

لم يكترث الأخوان بالحزام. لكنهما تناوبا على قياس قبعة الفرو القوقازية. دخل رأس كولكا فيها حتى رقبته، وبدأ يغني بصوت كأنه صادر من جوفه، ناسياً أن هناك أطفالاً نياماً.

أينما اتجهت، فلن أنسى صديقاً

ولو ذهبت وسلكت أي طريق

لن أنسى صديقاً

كان يوماً عوناً لي عند الضيق

- اخفض صوتك، قال ساشكا ونزع عنه القبعة القوقازية ووضعها على رأسه.

- سأكون الحاج مراد، وأنت...

- وأنا بوديوني[1]، صاح كولكا وجذب قبعة الفرو نحوه. - كان بوديوني مع الجيش الأحمر أما حجي مرادك فهو مع الفاشيين.

الحاج مراد مع الفاشيين، كيف هذا؟

- أنهت ريغينا بتروفنا الجدل، وأخذت منهما القبعة القوقازية. وقالت وهي تبتسم:

- عندي فكرة... سأقصها نصفين وأخيط من كل نصفٍ قبعةً لكل منكما لفصل الشتاء. أعرف طبعاً أن... القبعة، بشكل عام... ضرورية للشتاء. ويمكن أن

(١) سيميون ميخائيلوفيتش بوديوني (١٨٨٣-١٩٧٣): القائد العسكري خلال الحرب الأهلية الروسية، مارشال الاتحاد السوفياتي، وواحد من كبار قادته. المترجم.

يأخذ كولكا الحزام لبنطلونه، أنت عندنا كولكا، أليس كذلك؟ استبدل الحبلة به أحسن.

تمعن الأخوان الحزام، فهو رفيع، مزخرف بأبازيم داكنة اللون، إضافة إلى عدد كبير من الأشرطة المتدلية.

ارتدى كولكا الحزام، وكان مسروراً به وقرر:

- سأعلق عليه الملعقة... وأشياء أخرى...

وفي وقت ما سأعلق للزينة مفاتيح إيليا التي سرقتها، لكن أخاف عليها من السرقة، وهل أستطيع تعليق عرانيس الذرة؟ وبدأ يتخيل: كولكا يتمشى في دار الأيتام في تاميلِنا، وعلى حزامه معلق الرمان والليمون، وتتدلى عرانيس الذرة. وقبعة الفرو القوقازية مرمية على مؤخرة رأسه. فليعرف الجميع من نحن، نحن من لا يهاب صعود الجبال، شبعنا حتى التخمة، وعدنا محمَّلين. يقطف العرانيس من حزامه، ويوزعها على أولاد دار الأيتام، وصار يغني:

لكني أعرف أننا ثانيةً سنلتقي

حينذاك معاً سنكون... يا حبيبتي

ودفعت ريغينا بتروفنا الأخوين برفق إلى الباب:

- اذهبا إلى الباحة وغنيا هناك

وذهب الولدان

أغلقت الباب، وعادت إلى المعطف مرة أخرى تبحث في جيوبه، بدأت تلملم ما تجمَّع في جيوبها من فتات التبغ في راحة يدها. تجمَّع القليل ولم تكن كلها تبغاً. لفتها بعشوائية في قصاصة صحيفة ورقية، ودخنتها، ثم خرجت من الباب. وقفت طويلاً على الشرفة تراقب الأولاد في الباحة وتخمن أيهما الكوزمينان. يظهر أن القبعات القوقازية كانت كثيرة في غرفة الخزن، فالكثير من الأولاد كان يرتديها وهم يلعبون حاملين العصي يركض بعضهم خلف بعضهم الآخر، يحاكون الحرب. وكان أحدهم يجر خلفه برقعاً قوقازياً بالياً، تُلمح تحته قدمان عاريتان تضربان الأرض الصلبة.

سحبت ريغينا بتروفنا السحبة الأخيرة من لفافتها، وعادت إلى غرفتها. استلقت وحاولت النوم، لكنها لم تستطع. نهضت عدة مرات، تنظر من النافذة، وتعود للنوم. وأخيراً قررت أن تُشغل نفسها بشيء ما. أخذت المقص وقصَّت القبعة القوقازية إلى جزأين متساويين. كانت تفكر بالكوزمينين، وبالقبعة التي ستصبح قبعتين دافئتين رائعتين. مرَّ الوقت بسرعة، لم تشعر به، ولم تلاحظ كيف انفتح، وبكل هدوء، مزلاج النافذة، كما لو أنه انفتح وحده، ومن هناك أطلت فوهة بندقية سوداء.

ثلاثة أشخاص، أطلوا من الظلام، راقبوا يديها وهي تقص القبعة إلى أجزاء...

-١٤-

استمر ضجيج مهاجع نوم الأولاد إلى وقت متأخر. صراخ، وزعيق، وركض. كانت ريغينا بتروفنا على حق عندما قالت: ينتعش أولاد الإصلاحية عندما يأكلون، ومعلوم أن الطعام عندهم بمنزلة العيد، وأي عيد!

من هنا هذا الهياج وهذه الجلبة: صراخ، زعيق، عواء، نباح، ثغاء، نواء، كل هذا في وقت واحد.

هناك من ساورته فكرة الغناء: انطلقت الأغنية بصوت عالٍ، لكن التناغم غاب عنها، كلٌّ يغني على ليلاه.

سرنا معاً، أنا ورفيقي،
سرنا نحن الاثنان،
تجولنا في البراري،
تجولنا في الجبال.

في البداية لم تكن الأصوات مركزة، كان صوت يعلو هنا وصوت يعلو هناك، ولكن بدأت الأصوات تنسجم وتتناغم، تجمعت خيوطها، واندمجت في صوت واحد، صدح وبدأ يصل واضحاً إلى النوافذ...

وإذ بحجر يهوي عليه، أو، هو، هو، هو.

وإذ بحجر يهوي عليه، ويرتمي رفيقي،

يرتمي رفيقي، يرتمي رَ ... في... قي.

كانت تصل أصوات «أو، هو، هو، هو» بشكل أكثر انسجاماً وأكثر علواً، وذلك لمشاركة الجميع، من كانت أذنه موسيقية ومن لم تكن. كان صوتهم جميلاً. وكان نفسهم طويلاً ومرتاحاً.

أخذته من يده، أو، هو، هو، هو.

مسكته من رجله، أو، هو، هو، هو.

من يده، من رجله، لا يستجيب رفيقي.

تفلتُ في وجهه، أو، هو، هو، هو.

تفلتُ في وجهه، لا يستجيب رفيقي.

لم يردها لي، لا يستجيب رفيقي.

ثم وكما يُفترض، حفرت له حفرة (أو، هو، هو، هو.. يالها من حفرة)، ووري جسد رفيقي الثرى. ثم تهتز تربته (أو، هو، هو، هو)، وينهض رفيقي منها و... «ويبصق في وجهي»، لقد ردها لي. إنه على قيد الحياة. وضحك الجميع، وساد الهرج والمرج.

غنوا أغاني السجون: «جلست حزيناً أراجع شريط الذكريات، وبدأت من عيني تنسكب الدمعات...» لم يكملوا الأغنية. فالدموع لم تناسب مزاجهم الرائق.

انتقلوا بعدها لأغاني الشوارع المرحة، أغاني الشقاوة، الأغاني السوقية المثيرة للشفقة، أغاني اليتامى والسكارى، أغاني المعسكرات والمخيمات والمحطات والقطارات، أغاني الإصلاحيات، أغاني المنفى السيبيري، أغاني المشاغبين، أغاني أوديسا العاطفية، وأغاني الزعران، وأغاني سجون ما قبل الثورة، وبعض أغاني الأفلام، مثل «وداعاً ماروسكا، العاهرة»، من فيلم «لحياة الكبرى».

بالحقيقة هي «ماروسكا الماهرة» ولكنهم هكذا غنوها.

لم يكن في هذه الأغاني، ذاك التناغم. فقد غنَّت كل مجموعة أغنيتها، وسرعان ما كانت تخبو وتنطفئ تماماً.

وعند الفجر دوى انفجار. وكان الظلام لا زال مخيماً.

استفاق الأخوان معاً، بدا لكليهما أن قنبلة سقطت عليهما. هذا كان لهما أمراً مألوفاً في بدايات الحرب في الأشهر الأولى منها.

ومضٌ وَهَجَ من جميع النوافذ، أضاء الجدران، نَبَضَ بلون الدم. وسُمع صراخ البنات في الطابق السفلي.

عدة صرخات انطلقت في وقت واحد:

- حريق... حريق...

كان الأخوان ينامان على سرير حديدي دون فراش، لذلك كانا ينامان بثيابهما، ولولا ذلك لانطبعت شبكة السرير الحديدية على جلدهما، ولوصلت حتى أضلاعهما. وقبل أن يدركا ما حدث، اندفعا مع آخرين نحو المخرج في حالة من الفوضى والذعر. تحطمت البوابة الخارجية، وارتمى المندفعون في الخلف فوق من تقدمهم، وفي خضم الفوضى والظلام هناك من سُحقت أصابع يديه، وهناك من كُسر أنفه.

حالف الحظ الكوزمينين، فلم يتعرضا إلّا لبعض الرضوض البسيطة.

اندلق الحشد إلى الباحة، وانخرط الأخوان مع زملائهما يصيحان ويركضان، كان الظلام قد انقشع، وسطعت أنوار دافئة، وساد الهرج والمرج.

كان الهياج عظيماً، لم يفهم أي منهم أي شيء، الجميع يركض، والجميع يصيح. تبين فيما بعد أن بناءً يحترق، إنه البناء الذي فيه المستودع.

لم يَشْغُل المستودع بال الأخوين، وأول ما خطر بذهنهما بالتأكيد كانت ريغينا بتروفنا وطفليها... أين هي؟ هل تمكنت من الخروج؟

وريثما استعادا وعيهما المتبلد بعد النوم، وبعد بحث مضنٍ في الوجوه بين الجموع، عثرا على معلمتهما وهي تضم طفليها بشدة إليها، وقفت وحدها وسط الجموع الهائجة، تسمرت في مكانها، وكأنها مخدرة، وكان الخوف واضحاً في عينيها الكبيرتين.

- ريغينا بتروفنا، صرخ الأخوان بصوت عالٍ، وأسرعا مباشرة إليها، اصطدما في طريقهما بأحد ما، وأبعدا آخر عن طريقهما. - ريغينا بتروفنا، نحن هنا، نحن هنا.

رمقت الولدين اللذين يصيحان، بطرف عينها فقط، ولم تبد أي علامة على أنها رأتهما، أو سمعتهما، وركزت مرة ثانية إلى النار، كانت ألسنتها تتقافز على بؤبؤي عينيها الواسعين.

اقترب بيوتر أنيسِمَفيتش مسرعاً وصاح:

- أين الدلاء؟ أحضروا الدلاء. غريب، أقسم إني لا أفهم ما يجري. قال هذا واختفى.

ثم ظهر من جديد وفي يده دلو ماء.

اتجه إلى البناء الذي يحترق، واتقى حماوة النار بحقيبته، لم يستطع الاقتراب كثيراً، فقذف الماء على الأرض الساخنة، وسرعان ما تحول الماء إلى بخار.

الآن، وبعد أن تم تجاوز مرحلة الخوف الأولي والشعور بالخطر، لم يعد الأولاد يصرخون خوفاً، ولا حتى البنات، واندفع الجميع في الباحة بنفس الهياج لكن بمرح. كانوا مذهولين بهذا المشهد غير المسبوق. وصار منظر النار ممتعاً لهم.

ارتفعت النار عمودياً إلى الأعلى، كأنها شمعة عظيمة. ضجت ونثرت شررها مطراً مدراراً.

توهج البناء من داخله، بقي هيكله فقط، تعرى تماماً. بدا شفافاً في تلك اللحظة، وصارت تُرى من خلاله ألسنة اللهب في كل جزء من هيكله المتهالك.

فقط بعض الفتيات الأكثر تأثراً، استندن إلى ريغينا بتروفنا المتسمرة في مكانها، كما لو أنها ملاذهنّ الوحيد.

توجه بيوتر أنيسِمَفيتش إلى ريغينا بتروفنا مخاطباً، سألها وهو يصيح:

- ماذا رأيتِ؟ هل رأيتِ شيئاً؟

لم تلتفت ريغينا بتروفنا إلى المدير، وكأنها لم تلحظْه. ثم أدركت بعد وقت قصير أنها المعنية بالسؤال.

- ماذا... رأيت... أجابت ببطء وكأنها تتكلم في نومها، دون أن ترفع عينيها عن النار.

- أسألكِ، صاح بيوتر أنيسِمَفيتش وهو يحتمي من لهب النار بمحفظته. - أرأيتِ، كيف حصل التفجير؟ رأيتِ ذلك أم لا؟ ثم تلك... الأحصنة...

- الأحصنة؟ تمتمت ريغينا بتروفنا. - أي أحصنة؟

- غريب، أقسم إني لا أفهم ما يجري، صاح بيوتر أنيسِمَفيتش، وتوقف فجأة: فقد فهم أن المعلمة لم تكن في كامل وعيها.

اقتربت يفْغِنيا فاسيلَفْنا راكضةً وهي معلمة أخرى، ووضعت قطعة قطن مبللة بالكحول، قرب أنف ريغينا بتروفنا، ومسحت صدغيها بها، وفجأة انهارت ريغينا بتروفنا، وارتمى رأسها إلى الخلف.

نُقلت على إثرها فوراً إلى غرفة نوم الفتيات. وقبلها كان طفلاها قد أُخذا إلى هناك.

شاهد الكوزمينان ما حصل، وهُرعا لمساعدة معلمتهما ريغينا بتروفنا، لكنهما مُنعا ولم يُسمح لهما من الوصول إلى الباب.

- اذهبا، ابتعدا، قالوا لهما. الجميع يشارك في إطفاء الحريق، وأنتما تتسكعان هنا؟

سُمع بكاءٌ خلف الباب، بكاء بمرارة، وسُمعت مواساة فتاة لها.

- من قال إن هناك أحصنة، صوت كئيب نطق هذه العبارة. هراء... صراحةً هذا هراء. لم يكن هناك لا أحصنة ولا قنابل... ربما انفجار ما حصل في المستودع... فهناك الزيت والكاز وأشياء أخرى... حالياً من الصعب معرفة ذلك.

نظر الأخوان كل بالآخر، وذهبا إلى الباحة. كان سقف البناء قد انهار، وارتفعت في السماء كتل النار والمواد المتفحمة. سقط الشرر ببطء وتوهج على العشب اليابس. لم يحاول أحد إخماده. حتى بيوتر أنيسِمَفيتش، بعد أن اقتنع أن النار لن تهدد الأبنية المجاورة، لجأ إلى

الشرفة فوق غرفة الطعام ضاماً إلى صدره حقيبته، وجلس يراقب النار. كانت هيئته مثيرة للشفقة، يقف عاجزاً عن عمل أي شيء، كان كما لو أنه يقول: «غريب، أقسم إني لا أفهم ما يجري».

هذا الرجل الأربعيني، مرت عليه خلال حياته كثير من الكوارث، وإذا كان قد نجا منها فهذا بفضل طبيعته وطول باله وأناته.

غادر المؤسسة العامة لتجارة التجزئة، لأنه اشتم فيها رائحة السجن، كانت المؤسسة تُسرق في وضح النهار، يُسرق منها كل شيء، غادرها بإرادته. نقلوه إلى مديرية التربية والتعليم، وهناك احتالوا عليه، وكلفوه تعليم أولاد جمعوا من دور الأيتام. كانوا ينظرون إليه كما لو أنه فاشل سلفاً، فقد اعتبروه قد انتهى، لأنهم يعرفون أي نوع من الأولاد سيعلمهم، خمسمئة مشروع مجرم، أسوأ الأسوأ. كانوا يعرفون ما يفعلون، غربلوا دور الأيتام وتخلصوا من كل من فُقد الأمل منه. وعندما كان بيوتر أنيسِمَفيتش يجهز القطار، ويبحث عن معلمين، ويتوسل للحصول على الألبسة والمواد الغذائية للأولاد، كانت تنتشر بين شخصيات السلطة في المنطقة فكرة ضمنية مفادها أن مِشْكوف حظه عاثر، والرجل قد انتهى. وأنه لو لم يُحشر في الزاوية لما قبل بهذا العمل، هو في وضع سيئ، ويعرف أن سفره لن يكون أسوأ مما هو عليه. لا مجال لديه للمناورة... لا مفر، كما يُقال!

أصبح واضحاً أن الليل قد انجلى وضوء النهار قد طغى.

ودون أن يكون متوقعاً، وصل صهريج ماء مجهز بمضخة إطفاء يدوية من التعاونية الزراعية.

وفوراً وجد الأولاد عملاً لهم، بدؤوا يضخون الماء من الصهريج، في البداية عمل اثنان، ثم أربعة، يرفعون الذراع إلى الأعلى، ثم يسحبونها إلى الأسفل. وبسرعة تعبوا، وانسحبوا. وفقط الكوزمينان وهما مبللان، حاولا مساعدة الكبار، إلى أن ظهرت فقاقيع بيضاء على راحتي أيديهما، فدفعوهما إلى وقف العمل فوراً، والذهاب للنوم.

غادرا، وفي طريقهما، حاولا الولوج من جديد إلى غرفة ريغينا بتروفنا، لكن الباب كان مغلقاً. وقفا هناك، أصاخا السمع، لكنه لم ينته إلى سمعهما أي صوت من ذاك الجانب. ولم يكن لديهما أي رغبة في النوم.

تسكع الأخوان في الباحة، وهي الآن فارغة تماماً، كان المنظر غريباً، الدخان يتصاعد من بقايا البناء المحترق، وفي لحظة أطبق الصمت فجأةً.

غادرت المضخة وعمَّ الهدوء.

قال ساشكا بصوت خافت:

- كانت قنبلة، أليس كذلك؟

- ولماذا قنبلة؟ سأل كولكا بهدوء.

- إذاً كيف حصل ذلك؟ ألم تسمع تفجيراً؟

- كنت نائماً... أجاب كولكا. - حلمت بأن رأسي يتصدع، ثم أفقت، وقررت أنها كانت قنبلة.

- وماذا عن الأحصنة؟

- أي أحصنة؟

- يقولون إنه كانت هناك أحصنة.

- يقولون إن الدجاج يُحلب، والأبقار تبيض...

- إذاً، أنت لا تصدق؟ وكرر ساشكا: - أنت لا تصدق... هلم بنا.

- إلى أين؟

لم يُجب ساشكا. وأخذ كولكا من يده، وشدَّه إليه. كان الآن مصمماً وحازماً. قاده على طول السياج الأخضر باتجاه ثغرة السياج السرية. اندفع عبر الأشواك أولاً وانتظر أخاه، ثم عاد ومسكه من يده وسحبه خلفه إلى طرف حقل الذرة، الذي كان ملاصقاً للجهة الخلفية للبناء المحترق.

على الأرض الرطبة بين قصبات الذرة المتكسرة، كانت تُرى آثار حوافر الخيل. وفي بعض الأمكنة كانت الأعشاب مقتلعة ومرمية إلى حواف الحقل. حتى إن أجزاءً منها كانت معلقة على قصبات الذرة.

انحنى كولكا ورفع إحدى الفوراغ. خرطوشة نحاسية لامعة، لم يكن هناك صعوبة في ملاحظتها على العشب.

أخذ ساشكا غلاف الرصاصة من أخيه، قلبها في يده، ووضعها في جيبه. فقد تنفع.

- كيف عرفت؟ سأل كولكا وبدأ من جديد ينظر إلى الأرض، باحثاً فيها، لكنه لم يجد شيئاً آخر.

- كيف... طبعاً من الواضح أنه إذا كان هناك من دليل فيجب أن يكون هنا... هم ليسوا مجانين ليدخلوا عن طريق الباحة، فهي مصيدة لهم.

- ومن هم؟

- لا أعرف.

- وتعتقد أنهم من أطلق النار؟

- لا أعرف، أعادها ساشكا مرة أخرى، ونظر إلى الجبال. فقد بدأ نهار جديد، كان صباحاً صافياً خالياً من الغيوم. وكانت الجبال متألقة ساطعة، أضاء قممها ثلجاً ناصعاً. كانت تبدو قريبةً أكثر من المعتاد.

لا الحريق، ولا الخوف الذي رافق الليلة الماضية، لم يهزا هذا الجمال الأبدي الرائع.

- سيكون يوماً حاراً، قال كولكا واستغرق في التفكير. - في مثل هذه الأيام في تاميلِنا، على الأرجح يبدأ دوام المدرسة.

نظر الأخوان أحدهما للآخر، تذكرا فجأة تاميلِنا، فرغم الظروف المعيشية السيئة هناك، كانت الحياة فيها أسهل وأكثر أماناً، منها هنا بين هذه الجبال البديعة.

وصل عند ظهر ذاك اليوم، اثنان من رجال الشرطة، ومعهم رجل عسكري على دراجة نارية.

تجمع الأولاد في الباحة، يتفحصون الدراجة النارية المعجزة ويتجادلون حولها، في هذه الأثناء قابل القادمون المدير وتحادثوا معه عن شيء ما، ثم التقوا المعلمين وداروا حول البناء المحترق، وغادروا تاركين خلفهم ذيلاً من الغبار الأبيض وهم يبتعدون.

لم يسأل أحدٌ الأولادَ أي شيء، وطبعاً الكوزمينان بينهم. لكنهما لو سئلا لما أفصحا عما توصلا إليه.

وعند الغداء في غرفة الطعام، تم الإعلان ليعرف الجميع أن ما حصل لم يكن تفجيراً خطيراً، ولم يكن هناك أي قنبلة، وما حصل كان حريقاً اندلع في المستودع بسبب غير معروف، أدى إلى انفجار صفيحة وقود، وبسببها احترق كامل البناء.

كان بيوتر أنيسِمَفيتش هو من أعلن هذا، كان يقف وسط قاعة الطعام حاملاً حقيبته، وكانت يده الأخرى تمسح العرق المتصبب على جبينه. كانت هيئته تدل على أنه قلق جداً. قال ما قاله وفجأة أضاف:

- غريب، أقسم إني لا أفهم ما يجري، وهذا ما أضحك الأولاد وهم يتناولون طعامهم.

كان الكوزمينان في هذا الوقت أيضاً في قاعة الطعام، كانا للمرة الثانية يتناولان طعام الغداء لهذا اليوم، تعويضاً عن الغداء الذي فاتهم البارحة. والبلاندا[1] بالرز دخلت مراقهم.

توقف الأخوان عند كلمات المدير عن صفيحة الوقود التي يُفترض أنها انفجرت، ونظر كل منهما بالآخر، نظرات ملؤها التأمل، واستمرا في تناول طعامهما.

أنهى المدير كلامه بهذا الخصوص، وانتقل إلى موضوع آخر، فأخبرهم بأن سيارة ستأتي غداً، وستأخذ الأولاد الأكبر سناً إلى معمل الكونسروة. وسيذهب الصغار إلى بستان التعاونية القريب لجمع محصول التفاح. وهناك سيقدم لهم الطعام...

إلى هذا الحد تكون قصة الحريق قد انتهت.

---

(١) البلاندا: نوع من أنواع اليخنة، ولكن دون لحم. المترجم.

جرف تلاميذ الإصلاحية بجرف بقايا البناء المحترق وكنسوه، قطعوا الأخشاب المتفحمة لتستخدم حطباً، وبعد هذا الجهد أُرسلوا إلى النهر ليغتسلوا من السواد الذي طغى لونه على لون جلدتهم من رؤوسهم إلى أقدامهم، وهناك استعانوا بالتراب يدلكون به ليزيلوا السواد الذي ألمَّ بهم.

عرف الأخوان أن ريغينا بتروفنا نُقلت مع ولديها للسكن بشكل مؤقت في المطبخ، بعد وضع بطانية كحاجز في أحد زواياه. لكنها لم تكن هناك. وأخبرتهما الفتيات في المطبخ بأنها نُقلت إلى المشفى وطلبت منهن بأن يعتنين بولديها. وأوصتهن بمساعدة الكوزمينين.

هز الأخوان رأسيهما متفهمين.

- ومتى ستعود؟ سأل كولكا.

- بعد عدة أيام. لماذا تسأل؟

- لا شيء. هي مريضة، أليس كذلك؟

- لا، قالت الفتاة. - ولكن هذا إجراء احترازي.

ذهب الأخوان، وخلصا إلى نتيجة مفادها أن الفتيات يكذبن، فلو لم تكن ريغينا بتروفنا مريضة لما تركت ولديها بأي شكل من الأشكال. وكونها وعدت بأنها ستعود قريباً، فهذا يعني أن مرضها ليس خطيراً وهو أمر مطمئن. ولكن من سيدافع عنهما عندما يطردونهما من معمل الكونسروة لصغر سنهما، سيصعب لاحقاً إقناعهم أن نقص الملح أدى إلى صغر حجمهما. ولذلك لا تنمو أرجلهما ولا أيديهما، ولا أسنانهما... ورأسهما أيضاً لا ينمو.

ومعروف دائماً أن تأمين بعض المواد مثل الملح والكبريت والصابون في أوقات الحروب أمر صعب، وهذا ما تعرفة ربات البيوت جيداً. ويعرفه أولاد دور الأيتام أيضاً، لذلك كثيراً ما احتالوا وحضَّروا ألواح الصابون، فكانوا يجمعون من الحمامات، بقايا الصوابين الرقيقة، يذيبونها على قالب خشبي، ثم يبيعونها.

بدل أعواد الثقاب، كانت الكاتيوشا، وهي حجرة صوان، وقطعة حديد، وبعض الحك. أما الملح فلم يجدوا طريقاً لاختراعه. قيل إن حجر ملح ضخماً موجود في حظيرة

حيوانات، ذات مرةً تمكن الأخوان من الدخول إليها، وعندما شاهداه جثيا، ولعقا الحجر المالح، وكأنه قطعة حلوى كبيرة، لم يكن هناك مجال حتى للتفكير بتحريكه، فهو ضخم جداً.

حقيقة لم يختلف كثيراً طلاب الصفوف الأعلى عن الكوزمينين، لكنهم تميزوا عنهما بالشكل الخارجي، تميزوا بالغرة في تسريحة الشعر، وكانت الأغاني تمجدها، مثل أغنية، «غرته، غررت بي وأغرتني، تموجت فسحرتني»... وتميزوا بتدخينهم السجائر، فكانوا يسحبون دخانها إلى أعماقهم، كما يفعل الكبار. وكانوا ينظرون إلى الفتيات بازدراء، وينعتوهن بالمغفلات. وكانوا يبصقون على الأرض من بين أسنانهم الصغيرة المتباعدة، التي أبت أن تصبح أكبر بأي شكل من الأشكال.

وألثغت أسنانهم المشوهة بعض الأولاد، وكان ميتيوك[1] الذي يعرفه الأخوان أشدهم لثغاً.

- استيقظت صباحاً، كان رأسشي يؤلمني، رأيت الطعام، فأُصشبت بالغشثيان.

ضحكا من لثغته، وصارا يتندران بطريقة حديثه: «هذا ميتيوك الذي أُصشيب بالغشثيان، عندما أكل صشحن السشلطة».

وهكذا، في صباح اليوم التالي، وفي وقت مبكر منه، عندما كانت الأرض والحقول لا زالت تبث نسائم لطيفة نظيفة لا يعكرها الغبار، دخلت باحة الإصلاحية سيارة خضراء جديدة، من طراز «ستودبيكر»، كانت الكتابات الأجنبية تملأ جوانبها وغطاء محركها، وباب مقصورة القيادة فيها. ألقيت جوانب الشاحنة إلى الداخل فصارت مقاعد خشبية على طول جسمها.

قفزت صبية من مقصورة القيادة وأغلقت الباب بقوة، كانت ترتدي بنطالاً، كما الرجال، وسترة مبطنة وقبعة وضعتها بشكل مائل. لكن الأولاد كلهم عرفوا فوراً أنها سيدة، وبعد دقيقة عرف الجميع أن اسمها فيرا.

---

(١) ميتيا وميتكا وميتيوك: كل منها هو لفظ تحبب لاسم دميتري. المترجم.

فيما بعد صارت تأتي صباح كل يوم بسيارتها، ولسبب ما كان دائماً هناك شيء يضحكها ولا سيَّما حين تشاهد الأولاد كيف يتسابقون، ويرمون بأنفسهم في صندوق الشاحنة من الخلف. كانت شخصاً مرحاً، تصيح بهم وهي تضحك: «شدو الهمة يا شباب، الآن سنذهب إلى العمل. لن يتمكن خط الإنتاج من الحركة والدوران دون مساعدتكم».

ولكن ما المقصود بخط الإنتاج؟ وكيف يمكن تحريكه؟ وكيف يدور؟ هذا ما عرفه الأولاد فيما بعد، أما بالنسبة للسائق فيرا، فمع أنها كانت ترتدي لباس الرجال، والأسوأ أنها كانت تلبس بنطالاً، فقد وقع جميع أولاد الإصلاحية، فرداً، فرداً، بحبها. كانوا يتحدثون عنها بإعجاب، وكان كل منهم يحلم سراً أن تكون معجبة به، وربما فكر بالزواج منها عندما يكبر. وبالتأكيد جميعهم بما فيهم البنات أيضاً، أراد أن يكون سائقاً في المستقبل كما فيرا.

في صباح اليوم الأول، وكما توقع الأخوان، حاولوا إنزالهما من السيارة. ولا سيَّما أنها امتلأت بالكثير غيرهم من الصغار. وكانت كل يوم تمتلئ بهم، وكل يوم تأتي معلمة لتُفرغ الشاحنة من الأطفال الأصغر سناً، الذين يحلمون بالسفر في السيارة، حتى لو اضطرهم الأمر أن يعودوا أدراجهم من المعمل سيراً على الأقدام.

تخلصوا من الأصغر سناً، لكنهم لم يستطيعوا التخلص من الكوزمينين. فقد صرخا بصوت واحد، بكل ما عندهما من عزم، وأعلنا أنهما أعمر مما يظهرا عليه، ولا يعني بأي شكل من الأشكال أنهما أصغر سناً إذا كانا ينامان في مهجع الأطفال، ونقص الملح في طعامهما هو ما منع جسداهما من النمو، ولا يجوز أن يعدّ النمو مقياساً للعمر.

ربما لو تعاملوا مع كل منهما على حدةٍ، مثل بقية الأطفال، لأمكن التخلص منهما وسحبهما من السيارة، ولكنهما كانا متعاضدين، تعلق أحدهما بالآخر، تغلبا بتعاضدهما على كامل الإصلاحية.

طلبوا أن تنطلق السيارة بهما، بعد أن يئسوا من إنزالهما.

ضحكت فيرا مستحسنة القرار، تفحصت فيما إذا كان الجميع جالساً، نظرت نظرة ماكرة باتجاه الأخوين كوزمين، دخلت إلى مقصورتها، أدارت مفتاح التشغيل، أقلعت بالسيارة، وانطلقت بها إلى الأمام.

ابتهج الأولاد بهذه الرحلة، وبهذه القيادة الرائعة للشاحنة. وصاحوا بحماسة وصفروا، كانت حناجرهم الثلاثين تصيح، وفيرا غارقة بالضحك، تأخذ نظرة بين الفينة والأخرى إلى البلور الخلفي لترى من خلاله زعران الإصلاحية، كما صارت تصفهم فيما بعد، وتعطي السيارة سرعة إضافية.

لم تكن الشاحنة تسير، وإنما كانت تطير على طريق أغبرٍ، وسط أشجار وشجيرات بيَّضها غبار الطريق، تاركة خلفها ذيلاً طويلاً من الدخان.

هذا ما كان في رحلتهم الأولى، يصيحون ويزعقون من تدفق المشاعر الصبيانية.

أطل العمال من نوافذ المكاتب، التفت الجميع عند مدخل المصنع، كان خبر وصول أولاد الإصلاحية هو الحديث المحوري بينهم.

قفزت فيرا من السيارة، أزاحت قبعتها إلى الخلف وصاحت وهي تضحك: «انزلوا يا شباب، سأسلمكم الآن بالعدد، استلام وتسليم».

لم يستلمهم ولم يتحقق منهم أحد. وفيرا ذهبت بالسيارة فارغة، ودخلت إلى أرض المعمل عبر بوابة حديدية ضخمة، وسُمح للأولاد بالدخول عبر بوابة ضيقة في المدخل.

دخلوا فوجدوا أنفسهم في باحة ضخمة معزولة عن العالم بجدران حجرية مرتفعة، اكتظت الساحة بسلال الفواكه وصناديق الخضار. فيها البندورة، والخوخ، والتفاح، والإجاص وفيها تلك الكوسا الغريبة نفسها التي أكل منها الأخوان مرةً حتى أتخما منها، ظناً منهما أنها خيار. لم يقم أحد بحراستها. فقط كانت بعض النسوة العاملات، بمراويلهن الزرقاء المتسخة، وقد بدا عليهن الانشغال، كن يلتفتن إلى الفتية الصاخبين وهن مسرعات الخطا، ويختفين خلف جدران البناء الطويل. ربما تقصدن المجيء ليلقيا نظرة إلى شباب الإصلاحية المرسلين لمساعدتهن. فالرجال في المعمل لم يتجاوز عددهم العشرة.

سحب الأولاد بحذر شديد من السلال الفاكهة، كانوا حريصين ألا يراهم أحد، هذا أخذ خوخة، وذاك حبة بندورة، يلقونها فوراً في أفواههم ويبتلعونها. بيد أن امرأة مرَّت بجوارهم قالت لهم وهي في طريقها: «كلوا، لماذا لا تأكلون، لا تستحوا. هذا كله نظيف وقد تم غسله بشكل جيد». قالت كلمتها ومضت.

هنا بدأ السحب، بدأت حركة غير طبيعية، زادت من حرارة المكان. اندفع الجميع باتجاه السلال، يأخذون منها ويحشرون في أفواههم، في جيوبهم، وحتى في أحضانهم. جمعوا التفاح والإجاص والخوخ والبندورة، كل حسب قربه من أي سلة، تضخموا وانتفخوا وزاد وزنهم.

ملؤوا بطونهم، ملؤوا قمصانهم، أكلوا حتى لم يعد مكان لم يتسرب منه ما يأكلونه، إذا ما استُثْنِيَت آذانهم وعيونهم.

لم يستعجلهم أحد كما العادة، ولم يؤاخذهم أحد على تصرفهم. ما كان محزناً ومهيناً هو أن يكون هناك الكثير، ويبقى بعد كل ما فعلوه الكثير. حتى إنهم لو أرادوا قضم أو العض على كل ثمرة مما في السلال، أو لنقل سرقتها من باحة المعمل، لما استطاعوا، إنه شيء مستحيل.

رغم الاعتقاد السائد عند أولاد الإصلاحية، وكان اعتقاداً مقدساً وراسخاً لديهم، أن لا شيء مستحيل إذا كان الموضوع يتعلق بالأكل.

ما لم يستطيعا أكله فوراً لصغر بطنيهما، كانا يعطيان وقتاً لأمعائهما لتهضم ما أكلاه ثم يعودان للأكل ثانية. وما بقي يأخذانه لأصدقائهما في الإصلاحية، وبالتأكيد يدخران منه مونة للقادم من الأيام... بتجفيفه أو بأي شكل آخر.

هكذا فكر الكوزمينان عندما ملأا حضنيهما بالخوخ. ولكن عندما انضغط الخوخ الناضج، وبدأ يتخرب، وتخرج أحشاؤه، ويسيل عصيره، كان لا بدَّ من إزالة ما انتزع منها من تحت القميص بمنتهى الحذر ورميه بعيداً.

لو خوخة واحدة على الأقل كانت عند أولاد تاميلِنا، حتى لو كانت تلك المنزوعة ناهيك عن سلة..

وُزعت الأعمال على الجميع، وكان عملهم بالتحديد في فرز الخوخ. كان الأولاد يوضبون الخوخ في قوارير ضخمة، يحضرون العديد منها كل يوم، سعة الواحدة مئة ليتر، كانوا يتأكدون من نظافة الثمار، يفرزونها حسب نضجها. ثم يصبون سائلاً نتناً في قوارير الخوخ الموضبة، بعد ذلك تبدأ الثمار تخسر لونها، وتخسر نضارتها، تأخذ شكلاً تعافه النفس، تبهت، تبيض وتغدو غير صالحة للأكل.

الخوخ بهذا الشكل، كما شرحوا لتلاميذ الإصلاحية، يمكن تخزينه حتى الشتاء. وعندما ينتهي الموسم، يُعالج الخوخ، ويُغلى ويصنع منه المربى.

عموماً، ورغم الشرح الوافي لمآل الخوخ بعد صب السائل النتن عليه، لم يعجب شباب الإصلاحية أن يتم على مرأى من أعينهم وبمشاركتهم الفاعلة تخريب المواد الغذائية، لم يستطيعوا التصالح مع هذا. إذ إن الخوخ بعد صب هذا السائل يصبح غير صالح للأكل، فهو قد فسد. ولم يكن ممكناً إقناعهم بإمكانية أعادته ليصبح صالحاً للأكل.

عمل الأولاد فيما بعد في فرز التفاح والبندورة بطيب خاطر. فهنا لم يُصب أي سائل عليها، ولم يخربوها أو يفسدوها. بل جاء رجال ضخام، ونقلوها في حاويات إلى بوابة الورشة.

كانوا رجالاً ضخام الجسام، طِوال القامة، نحو المترين، لون عيونهم أزرق، وشعرهم أشقر، وكانوا مرحين. يحملون السلال الضخمة وكأنهم يلعبون، يضعونها على أكتافهم، لا يكلّون ولا يتعبون، هكذا لاحظهم الكوزمينان.

والعمة زِيْنا، التي تقف على باب الورشة، التي نُقلت الحاويات إليها، لم تكن تعجبهما في البداية. فهي لم تكن شابة، وكانت دائمة العبوس، ترتدي مريولاً متسخاً أزرقَ وخماراً أبيض معقوداً من الخلف.

راقبت العمة زِيْنا أولاد الإصلاحية عن كثب، أبعدت الفضوليين منهم عن الباب، كان صياحها يملأ الساحة:

- ما هذه الأشكال. من أين جاؤوا بهذه الحثالة؟ هذا يدعو للخجل، إنه عار، ما كان لعينيَّ أن تنظرا إلى هذه الوجوه.

كان صوتها حاداً، يُسمع في جميع أنحاء ساحة المعمل.

مرة كانت تصيح كعادتها، وفجأة عندما كان ساشكا على مقربة منها دعته إليها. سألته:

- من أين أنت يا صغيري؟

- أنا؟ استفسر ساشكا، دون أن يقترب منها، فهو لا يعرف ماذا ينتظره إن اقترب من العمة زِيْنا. – أنا من تاميلِنا.

هزت رأسها. وكأنها تعرف أين تقع تاميلِنا. أو قد تكون فهمت الاسم بالمعنى الذي يوحي بالتعذيب والسجن.

- وأين هم أهلك؟

هز ساشكا كتفيه، واستدار. فهو عن هذا النوع من الأسئلة لا يجيب.

- هل أنت وحيد؟

- ولماذا يجب أن أكون وحيداً، أجاب بلا نفس. – نحن اثنان.

- كيف هذا، كيف اثنان؟ من معك لتكونا اثنين؟ استجوبته العمة المزعجة.

- أنا وأخي.

- يا لبختك، قالت العمة، ونظرت بالاتجاه الذي أشار إليه ساشكا. كان كولكا جالساً عند السلة يأكل حبة بندورة. - هل أنتما توءمان؟

فكر ساشكا قليلاً وهز رأسه. لم يكن يعرف معنى توءمان، لكنه توقع أن يكون معناها اثنان.

- ناده، دعه يأتِ. طلبت العمة زِيْنا.

ألقت نظرة كئيبة إلى كولكا وهزت رأسها.

- مفهوم. سأضع فيما بعد، علامة تميزكما. حسمت الأمر لنفسها وكأنها كانت تفكر بصوت عالٍ. وأومأت لهما بيدها ليدخلا...

كانت بوابة الورشة مغلقة، فهذا وقت الاستراحة.

قادتهما العمة زِيْنا إلى المنطقة المحرَّمة، حيث انتصبت مراجل ضخمة تغلي، وتصفر، بارتفاع بناء من طابق واحد. عند كل مرجل سلم حديدي يؤدي إلى الأعلى.

أجلستهما العمة زِيْنا على صندوق تحت السلم، وأخرجت مرطباناً، فيه ما يشبه السميد المطبوخ، أصفر اللون، أقرب ما يكون إلى إسهال الأطفال.

- كُلا هنا، ها هي الملاعق. لا تتجولا في الورشة، مفهوم؟

هزَّ الأخوان رأسيهما، وركزا اهتمامهما في المرطبان.

وقبل أن تغادر، أوضحت العمة زِيْنا لهما:

- هذا متبل... متبل الباذنجان. عادة ما يؤكل مع الخبز، ولكن الخبز غير موجود. لذلك، كُلا بلا خبز...

تركتهما العمة زِيْنا وذهبت. وهنا انقضَّا. وبدأت الملاعق تضرب وتجرف. هكذا وبسرعة البرق وقبل أن يعيا ما حصل، قُضي الأمر، وانتهت العلبة ولم يبق شيء. لم يكن هناك حاجة للمضغ، فهي جاهزة للهضم، طرية، ناعمة، دافئة، رائحتها الحلوة أعطتهما شعوراً بالراحة والاسترخاء.

مسحا العلبة بأصابعهما ولعقاها، كانا يتناوبان في حشر كل منهما إصبعه. نظفا زجاج المرطبان الأخضر وصار يلمع. وبعد دقيقة واحدة فقط على غياب العمة زِيْنا، كان الكوزمينان يجلسان، يحدقان بأعين جائعة في المرطبان الفارغ. بالتأكيد أرادا المزيد.

نظرت العمة زِيْنا إليهما، ثم إلى العلبة، تنحنحت حياءً، ولكن الدهشة كانت واضحة.

- أبطال العالم، بالسرعة.

مدت يدها وناولت ساشكا شريطة حمراء.

- سأميزك بالشريطة. ثم توجهت بكلامها إلى كولكا: وأنت بلا. كانت تنظر إلى كولكا وكأنه شيء ثانوي، نسخة عن أخيه، يكرر شكله، وكان يمكن ألا يكون بتاتاً.

أخذت الشريطة من يدي ساشكا، وعقدتها حول رقبته.

- هكذا. أما بالنسبة للمتبل فلا مزيد. سيكون فيما بعد... سيأتي يوم، سيكون فيه... اذهبا، واعملا. وأشارت إلى مكان العمل.

كأنها لم تُحسن التعبير أو لم يكن كلامها واضحاً كما ينبغي، ولكن الفكرة وصلت لساشكا، وأوصلها فيما بعد إلى كولكا، هي وعدت بإعطاء متبل الباذنجان في اليوم التالي.

لكن العمة زِيْنا في اليوم التالي وكأنها لم تلحظ وجود الأخوين. وعبثاً حاول ساشكا المرور أمامها ليلفت انتباهها، حتى إنه سلم عليها، وهي فقط هزت رأسها بكل صرامة، ولم تقل شيئاً. وبالعكس صرخت بصوت حاد أسمعتْ مَنْ به صَمَمٌ.

- أنتم، أيتها الأقزام، أيتها الأشكال التعيسة، اتركوا السلة، دعوا الرجال الكبار يحملوها.

لم تعر العمة زِيْنا اهتمامها للأخوين، لا في اليوم الثاني ولا في اليوم الثالث. وعندما توقفا عن التفكير بها ونسيا أمرها، وخلال الاستراحة وصلت إليهما بنفسها، وكانا جالسين خلف أحد الصناديق، يأكلان البندورة، التي لم تعد تُطاق بالنسبة لهما، ومرةً ثانية دعتهما إلى الورشة.

وضعت العمة زِيْنا مرطباناً على الصندوق تحت السلم الحديدي الذي أصبح مألوفاً للأخوين، وخرجت. أما محتوى المرطبان فكان شيئاً آخر هذه المرة، لم يكن متبل بيت الجان كما أطلق عليه ساشكا متجاهلاً اسمه الأصلي، وإنما كان مربى زكي الرائحة، حلو المذاق، ليس حلواً فقط بل شديد الحلاوة. كان المرطبان ممتلئاً بشكل كامل.

ومرة ثانية، ورغم نية الأخوين عدم الاستعجال، أنهياه في ثوانٍ معدوداتٍ. ولكن العمة زِيْنا كانت مستعدة هذه المرة، وأحضرت لهما واحداً آخر، وثالثاً فيما بعد.

كولكا وساشكا لم يصمدا عند المرطبان الثالث، أخذا يتباطأان.

هذا طبعاً، لم يفل من عزيمتهما ولم يعنِ أبداً أنهما لن يستطيعا أكله، أو لنقل: أن يرفضا ويتخليا عن المرطبان الرابع.

هما فقط، صارا يأكلان ببطء أكثر، صارا يتلذذان بالطعام، كما يحلو للبعض أن يقول. ربما سيتلذذان بالمرطبان الرابع أكثر، لكنه لم يعط لهما.

لم تنته الاستراحة بعد، جلست العمة زِيْنا معهما وسألتهما:

- ماذا تقولان أيها البطلان؟ هل كانت لذيذة؟

هز الأخوان رأسيهما موافقين، ونظر كل منهما إلى الآخر بنظرة ذات مغزى.

الحقيقة أن ساشكا وكولكا تبادلا الملابس في وقت سبق مجيئهما. هذا كان معداً ليس للعمة زِيْنا وإنما للتشويش العام. والشريطة الحمراء كانت معلقة هذه المرة على رقبة كولكا، وليس ساشكا.

دققت العمة زِيْنا النظر بالأخوين، وفجأة نخست ساشكا بإصبعها وقالت له:

- لماذا نزعت الشريطة؟ هل اعتقدت أني لن أميزكما؟ أستطيع التعرف إليك في أي مكان، أنت مختلف تماماً.

لم يستطع أحد في أي وقت من الأوقات أن يميز الأخوين بعضهما من بعضٍ، أما العمة زِيْنا، الحارسة ميزتهما. هذا أذهلهما معاً. جلسا أمامها متخمين، شاكرين، وكان يبدو عليهما القليل من الحياء.

لكن العمة زِيْنا لم تحاول معاتبتهما أو لومهما. وسألت:

- وهناك... في تاميلِنا... بلدتكم... تاميلِتكم... ماذا كانوا يطعمونكم؟

ارتبك الأخوان. كان سؤالاً غريباً. في ذهنهما أن الإطعام في أي مكان هو واحد، يطعمون الشيء نفسه إذا أطعموا، بالاندا.

- بالاندا. قال ساشكا.

كانت العمة زِيْنا توجه كلامها دائماً له.

- بالاندا؟ سألت العمة زِيْنا، - هل هذا يخنة؟

اضطرب الأخوان مرة أخرى.

كيف يمكن أن يكون هناك من لا يعرف ما هي البالاندا! البالاندا هي البالاندا! مرق عكر، قد تكتشف فيه قطعة بطاطا أو... أو كتلة سميد تجمعت ولم تذب، وهي لذيذة جداً. أما ذاك الأرز، حساء الأرز، فقد قُدم لهما منذ أيام وجرباه أوّل مرة في حياتهما.

- هل أطعموكما ماماليغا؟ سألت ثانية العمة زِيْنا.

- ماليغا؟ استفسر ساشكا. - لا... لا... كانوا يطعموننا زَتِروخا.

- زافاروخا؟ استفسرت العمة زِيْنا. - هي كالماماليغا لكن المرق فيها أكثر... وتنهدت. - ونحن أيضاً نُقلنا... من كوورسك.

حدق الأخوان بالعمة زِيْنا مستغربين. لم يفهما فوراً كيف يمكن نقل الأشخاص البالغين، الذين يفترض أن يكون لهم القرار.

وتابعت العمة زِيْنا:

- وصل المفوض، وأمرنا بجمع أغراضنا وحزمها... وعندي أخت مريضة، وبنت صبية لكنها حمقاء، عقلها ليس على ما يرام، حصل أن اغتصبها أحد النازيين. وهكذا جمعنا حاجياتنا، وأي أغراض عند الفقراء لجمعها، ارتدينا ملابسنا. وبدأنا نبكي، وماذا نبكي... الأقبية التي عشنا فيها، أم الأرض التي زُرعت ألغاماً فامتلأت عشباً، لا مزروعات فيها ولا حيوانات، ولا قطط حتى. وضعونا في قطار شحن، ونقلونا. ونحن نبكي، الجميع يبكي. قال لنا المفوض: «كفى بكاءً أيتها النسوة، فأنتن الآن ذاهبات إلى الجنة»... ونحن حسمنا أمرنا، فما داموا يبشروننا بالجنة فهذا يعني أنهم يسوقوننا إلى الإعدام. فنحن كنا تحت الاحتلال، والدولة تبحث عن الخونة، ومن نام في حضن نازي فهو خائن... وابنتي نامت حتى لو كان غصباً. وبدأت العربة كلها بالصراخ والعويل.

انتبهت العمة زِيْنا ونهضت. فالحركة بدأت في الورشة، والاستراحة على وشك الانتهاء.

- وصلنا إلى الجنة، إلى هنا، والحق يقال، الوضع جيد. حتى إن الحياة ممكنة. فقط لولا هؤلاء الـ... هي لم تقل من، لكنها أشارت بيدها، وكأنها تهوي بالسيف، تضرب به. - الخوف يحيط بنا، نحن خائفون... خائفون جداً... مررنا بمثل هذا من قبل... أنتما ما زلتما صغيرين، وهذا كلام لا يلزمكما...

التفت ساشكا في إثر العمة زِيْنا التي غادرت، وسألها:

- أخبرينا، من هم؟ من؟

نظرت العمة زِيْنا حولها بسرعة، وهمست وهي تدفع بهما إلى عمق أكبر تحت السلم:

- اللعنة عليهم، يسمونهم شيشاناً. ألم تسمعوا بهم؟ هم كانوا مثلنا تحت الاحتلال النازي، وخانوا مثلنا، ربما بناتهم دللنهم، لا نعرف. جرفوهم من أماكنهم، مثلنا تماماً، وضعوهم في قطارات الشحن وشحنوهم دون أن يتركوا لهم مجالاً لجمع حوائجهم. هكذا يُحكى... نقلونا إلى القوقاز، ونقلوهم إلى الجنة في سيبيريا... يُقال... إن بعضهم ... هنا صار صوتها أخفض، وبصعوبة كانت كلماتها تُسمع أو تُفهم من الكوزمينين. - بعضهم، لم يعجبه أن يُسَفَّر، فهرب واختبأ في الجبال. ومن هناك يقومون بأعمال انتقامية، يقطعون الطرق، يسرقون الناس ويخيفونهم. هكذا.

كانت العمة زِيْنا تسرد كلماتها الأخيرة بسرعة وهي تتلفت حولها ثم بدأت تدفع بالأخوين من تحت السلم وتقول لهما:

- اذهبا من هنا. إذا عرفتما الكثير فستشيخان بسرعة، هيا اذهبا.

عاند ساشكا ولم يُرد الذهاب.

- إذن هم من أشعل النار... بتلك القنبلة اليدوية. قال وهو فخور باكتشافه.

تلفتت العمة زِيْنا مذعورة وصاحت فجأة ملء صوتها:

- وماذا تريدون أن تشاهدوا هنا؟ ماذا؟ ألم تروا مصنعاً من قبل؟ اذهبوا واعملوا، لا وقت للثرثرة.

ولأنها لا تريد سماع المزيد، أخرجتهما إلى الساحة.

-١٦-

ودون سابق إعلان، شرعت المزرعة التعاونية بالدعوة لمبادرة مجتمعية، فعلاقة تلاميذ الإصلاحية مع السكان المحليين وصلت إلى مرحلة متوترة جداً.

نصب القرويون كميناً في مزرعة البطيخ، لشاب من الإصلاحية، ضربوه حتى أشرف على الموت. وانتقاماً له قبض شبان الإصلاحية على شاب وفتاة من سكان القرية، يمارسان الحب في حقل الذرة القريب من الإصلاحية. ربطوهما معاً ظهراً لظهر، وهما

عاريان، وبهذا الشكل أخذوهما إلى القرية. وعندما بدأ الناس يتراكضون إليهم، اختفى شباب الإصلاحية في الأدغال القريبة.

وبدأت.

عاد بيوتر أنيسِمَفيتش من مجلس المزرعة التعاونية حزيناً، ضاماً حقيبته إلى صدره، مكرراً عبارته الوحيدة: «غريب، أقسم إني لا أفهم ما يجري».

جمع المعلمين، وأخبرهم كل ما سمعه في المجلس، وفي النهاية قدم اقتراحاً:

- ماذا لو... مثلاً... ماذا لو اجتمعنا وتحدثنا مع التعاونية الزراعية؟ أو ماذا لو أقمنا لهم حفلاً، نقدم فيه بعض الأغاني؟ اسمعوا كيف يصيح الأولاد في مهاجع النوم.

- يمكن تقديم الأغاني، ويمكن تقديم بعض الرقصات، قال المجتمعون. - هنا كلهم فنانون، وأغلب الشبان بارعون بألعاب الخفة: لا يصنعون شيئاً من لا شيء.

لكن المدير لم يلتقط الدعابة، وطلب بنبرة حزينة ضاماً حقيبته كأنها طفل إلى صدره:

- إذن... تعالوا نؤلف جوقة... ونقدم الشعر. سأخبر القرويين أننا سنقدم لهم حفلاً، وهم بالمقابل... ربما... ربما يقدمون ضيافة... باختصار، صافي يا لبن، وسلام فيما بيننا.

لم يوافق أولاد الإصلاحية على شق السلام والصداقة وما إلى ذلك. يعتقدون أن هذه فكرة ولدت ميتة. ويعتقدون أيضاً أنهم سرقوا وسيسرقون، وماذا يمكنهم غير ذلك. أما بالنسبة للضيافة فهذا لقي الاستحسان والقبول، ولذلك وُجد الكثير من ذوي المواهب وهم مستعدون لتقديم مواهبهم.

أدخل الكوزمينان نفسيهما في هذا النشاط، وذكرا أنه سبق لهما الغناء في جوقة. وهما مستعدان ليقدما أي أغنية باسم تاميلِنا. وتم تسجيلهما.

ثم أضيفا إلى برنامج الفرق. وجرى اللقاء في مطعم الإصلاحية.

ألف شبان مدينة ميتيشه فرقة، وكان عددها كبيراً: غنوا «مشيئة ستالين نفحت فينا روح البطولة». وغنوا أيضاً: «طيري أغنية النصر وحلقي...». هاتان أغنيتان رسميتان، ثم أغنية طربية: «في طريق السفر».

وافقوا على الأغنية الأولى، وأشادوا بالثانية، والجميع كان يعرف أغنية «في طريق السفر» لدونايفسكي.

- وماذا بشأن أغنية دونايفسكي، ألا توافقون عليها، رد شبان ميتيشه. سنغنيها أفضل من دونايفسكي.

نهض شبان ميتيشه ووقفوا صفاً: وضعوا رجلهم اليمنى في الأمام وبدؤوا يطرقون بها بإيقاع، ويغنون بهدوء وانسجام تام: «توم تا، توم تا، توم تا...».

البداية أعجبت الجميع. كانت الطَرقات كما لو أنها تصدر عن عجلات قطار. ثم جاءت الكلمات.

ركب جندي قطاراً،

جندي عادي،

أنيق ووسيم،

في الجيش كان جندياً

وعند النساء جنرالاً.

جلس عند النافذة

تمتم لحناً:

تاتسي توتسي

لانتسي درانتسي

ارتسين غيرتسين بيرتسين

دري تسا تسا.

- ما هذا؟ غريب، أقسم إني لا أفهم ما يجري؟ سأل بيوتر أنيسِمَفيتش وهو ينظر إلى الجوقة الغريبة. - من غيرتسين هذا؟ وما هذا الجنرال؟

سكتت الفرقة مكسورة الخاطر.

- ألا نعطيهم فرصة، فليكملوا لنرى؟ طلب أحد المعلمين.

- يكملون؟ دُهش بيوتر أنيسِمَفيتش. ولوح بحقيبته مستغرباً.

لكن الفرقة فهمت كلامه وتلويحه بالحقيبة على أنه سماح لهم بمتابعة الأغنية. ومن جديد قام شبان ميتيشه كما لو أنهم تلقوا أمراً، وقدموا رجلهم اليمين، وبدؤوا غناءً متناغماً: «تومْ – تا، توم- تا، توم – تا».

تابعت الفرقة بكل ما عندها، عاقدة العزم على أن تُعجب المدير:

وضاع الجندي،

في أحضان السيدة.

- كفى، كفى. صاح بيوتر أنيسِمَفيتش. حتى إنه نهض، وحقيبته يضغط بها أسفل ذقنه. هذه لا. الأغنية الأولى تكفي. عن روح البطولة.

- ولكن لدينا أغانٍ أخرى، ألا تسمعوها؟ صاح بعض أعضاء الفرقة.

- أي أغانٍ غيرها؟

- لدينا الكثير، قالوا: - لدينا «بلا ثمن»، «موورکا»، «فالكا العاهرة، ماذا بكِ تتبخترين»...

- لا، هذا يكفي، قال بيوتر أنيسِمَفيتش. - احتفظوا بالباقي لأنفسكم.

غادرت الفرقة بخيبة أمل، تاركة المكان لشبان مدينة لوبِرتسي.

رقص شبان لوبِرتسي على أنغام أغنية «التفاحة» وغنوا معها: «آه، يا تفاحةً سقطت وتدحرجت، والحياة في القوقاز غارت واندثرت».

- ارقصوا دون غناء، قال المدير، وأخذ نفساً عميقاً. - بلا كلمات ستنجح معكم أكثر.

مثَّل شبان مَجايسك مشهداً مسرحياً تحت اسم «الأفعى»: اختلف تلاميذ المدرسة في كتابة توصيف يشرح تخوفهم من لسع الأفعى، هكذا كتب أحدهم، وصحح له آخر، بل لدغ الأفعى... وأُخذ بالرأي الثاني(١).

وانتقى شباب كَشيره جوقة كاملة من البنات، غنوا أغنية تحكي قصة فتاة رافقت حبيبها إلى أرض المعركة...

- ذهبت بنتاً، وعادت امرأة، صاح أحد شبان الإصلاحية.

لم يلتفت أحد لهذه المزحة الساقطة، وقُبلت الأغنية.

قدم شابان من لوبلِنو تقليداً ساخراً.

- تقليد ساخر؟ ابتهج المعلمون. هذا شيء جيد.

قدما في البداية أغنية وضعا فيها كثيراً من إحساسهما تقمصا شخصية طائر اللقلق وهو يغني ويقول: «أنا هنا في سماء غريبة كأني ضيف ثقيل...» ويشيران من النافذة إلى السماء. كانت الأغنية تتحدث تماماً عن شباب الإصلاحية. وبعد المقطع الأول تحولا فجأة بصوتهما وتصرفاتهما إلى شخصين معاقين.

- من مال الله، أعطوا ما تستطيعون، اقتربوا... ساعدونا، بروبل، باثنين.

طلبت اللجنة منهما ألا يغنيا عن المعاقين. الأحسن كانت فقرة اللقلق، وافق شباب لوبلِنو، لكنهم طلبوا أن يضيفوا مقطعاً في الأغنية عن هتلر على منوال أغنية: «سيدتي المركيزة، كل شيء في أحسن حال»(٢). قُبلت الأغنية دون سماعها.

---

(١) الأفعى لا تلسع ولا تلدغ وإنما تعض، ويقال عضة الأفعى. المترجم.

(٢) «كل شيء في أحسن حال، سيدتي المركيزة»: أغنية فرنسية فولكلورية اشتهرت قبل الحرب العالمية الثانية، وقد تعود نشأتها إلى العصور الوسطى، وتحكي قصة سيدة غابت عن مزرعتها مدة من الزمن، وعندما تواصلت مع العاملين في المزرعة، طمأنوها وقالوا لها إنَّ كل شيء في=

طلب شباب رامِنسكَيه أن يلقوا قصيدة «أرى القوقاز من علٍ» لبوشكين، ومقطع من قصيدة باركوف، عن أحد النبلاء وكان اسمه لوقا، أحب لوقا زوجة تاجر. وتحولت هذه القصة إلى مأساة حقيقية.

رُفضت مأساة لوقا، وقُبل الباقي.

وعرض شباب كَلومنا، أن يغنوا أشعاراً قروية عن الفلاحين. تشبه ما تغنيه فرقة بيتنيتسكي.

وأجاب بيوتر أنيسِمَفيتش على طلبه بالموافقة، على أن يقدموا أغنية واحدة فقط.

غنى تلاميذ كَلومنا بعمق عاطفي واضح وكما يُغنى في الجوقة الوطنية، ببعض النواح على أنغام موسيقا معروفة، «عند الغروب يتمشى شاب أمام دارنا»:

عملتُ في مزرعة تعاونية،

كسبتُ في اليوم خمسة روبلات.

غطيت بها مؤخرتي

ولم يبق ما يستر باقي الأجزاء

- لا، هذه الأغنية... ليست مناسبة... لعمال المزارع التعاونية... قال بيوتر أنيسِمَفيتش ذلك بسرعة، وتنفس الصعداء عندما علم أن المهمة أنجزت. - انتهينا؟

وهنا خرج ميتيوك، وهو الألثغُ، ووقف أمام اللجنة.

- وأنا، إن سشمحتم أريد أن أقدم شيئاً على المسشرح.

=أحسن حال، إلا أن الحصان قد مات، وفيما عدا ذلك فكل شيء على ما يرام. استفسرت السيدة عن سبب موت الحصان، فأجابوها أن حريقاً حصل في البيت، وامتد إلى الإسطبل، وفيما عدا ذلك كل شيء في أحسن حال، وهكذا هي تستقصي وهم يجيبون إلى أن اكتملت الصورة وعلمت أن زوجها الذي سمع بخبر إفلاسه وضياع كل أمواله، قرر الانتحار، وعندما أطلق النار على رأسه سقط، وأسقط بطريقه الشمعدان، واندلعت النيران، وفيما عدا ذلك، فكل شيء على ما يرام. المترجم.

- أنت؟ دُهش بيوتر أنيسِمَفيتش. - غريب، أقسم إني... لثغ هو الآخر دون أن يقصد.

- ولماذا غريب، لم يفهم ميتيوك. أنا سشأقدم خدعاً وألعاباً سشحرية...

- سحراً؟ الجميع استحسن الفكرة.

- سشحراً وألعاب خفة، قال ميتيوك. ودون أن ينتظر الموافقة، سأل المديرَ:

- أين هي سشاعتك؟

اعترض بيوتر أنيسِمَفيتش بفتور وقال:

- لا علاقة لك بساعتي.

- ساعتك صارت معي، قال ميتيوك وأخرج ساعة المدير من جيبه.

- غريب، أقسم إني لا أفهم ما يجري. صاح المدير وأخذ نفساً عميقاً. - أرجوك، في الحفل... عند المزارعين، لا ... لا تأخذ شيئاً. وإلا.. هذا سيؤدي إلى مشكلة... سيعتقدون أننا أتينا كالعادة... لتنظيف جيوبهم.

- وممن يمكن أن آخذ؟ سأل ميتيوك ببراءة.

- ممن تريد، عاد المدير وكرر. - لكن ليس منهم.

- حسناً، قال ميتيوك، ونظر نظرة فيها الكثير من المعاني إلى حقيبة المدير.

وفي هذه اللحظة دخلت مجموعة من الشباب إلى اللجنة، وكل منهم يصيح:

- وأنا أيضاً يمكنني القيام... بالخدع والألعاب السحرية.

- هل تريد أن أقضم كأساً زجاجية، أو مصباحاً؟

- هل تريد أن أبكي الجميع وأجعل دموعهم تتساقط.

- وأنا أستطيع قراءة الكف. أعرف ما سيحدث في المستقبل.

رفع المدير حقيبته وكأنه يحتمي بها، وصرخ:

- أعدكم في المرة القادمة، أن يكون هناك قضم ومضغ كؤوس. أما الآن فلا كؤوس لدينا. وبالنسبة للدموع فهي تسيل عند الجميع دون الحاجة إليكم. إلى اللقاء. إلى اللقاء، يا أصدقاء.

-١٧-

بعد أسبوع. حُوِّل جميع تلاميذ الإصلاحية، باستثناء الفتيات، للعمل في وُرش المعمل. وُزعوا كلٌّ باتجاه. كُلف بعضهم بغسل المرطبانات، وهذا كان يتم في حوض غسيل دوَّار، يتألف من مشابك، تُعلق المرطبانات الزجاجية على المشابك رأساً على عقب وهي تدور. في بداية الدورة تتعرض المرطبانات لنوفرة من الماء الساخن من نتوء معدني في نهاية المشابك، ثم لتيار قوي من البخار، وعندما تكتمل الدورة تصبح المرطبانات ساخنة جداً، ولإزالتها عن المشابك تحتاج لقفازات سميكة. وفي هذه المرطبانات الساخنة، يُصب المربى وهو يغلي.

سُرقت القفازات منذ اليوم الأول، سرقوها من أنفسهم. صاروا فيما بعد، يمسكون المرطبانات الحارقة بأطراف أكمامهم، إن كان لأكمامهم طول يكفي، ولأغلبهم لم يكن.

أحب الأولاد المغسل، فبالقرب منه كان يُطبخ المربى.

القسم الآخر من أولاد الإصلاحية، ومعهم الكوزمينان، أُرسلوا إلى خط الإنتاج. هو نفس الخط الذي ذكرته السائق فيرا المرحة. أُحضر الأولاد، أطلعوهم عليه، عرفوهم على أجزائه، من بدايته حيث ترمى محتويات السلال من البندورة لتطفو في حوض ماء كبير. ومن الحوض يخرج سير ناقل، وهو شريط مطاطي عريض. يقف الأولاد على جانبي الخط لانتزاع أي عيدان أو أوراق أو ثمار عفنة، أو أي شائبة أخرى عنه بسرعة ومهارة للحؤول دون السماح لأي شيء بالمرور غير المادة الأساسية وهي هنا البندورة. وكانت تقف في نهاية الخط امرأتان تراقبان خط الإنتاج، وتتابعان العمل بدقة وحزم.

يميل الشريط الناقل شيئاً فشيئاً، مرتفعاً برفق، ليقترب من السقف، حيث شبكة إضافية من الأنابيب تصب تياراً قوياً من الماء لغسل أي أوساخ محتملة.

ثم يتوارى الشريط الناقل خلف صندوق معدني ضخم، ينطلق من أسفله وفي جميع الاتجاهات تيار صافر من البخار الساخن. ويخرج من الجهة الأخرى للصندوق خرطوم قصير يصب في وعاء واسع تياراً ملتهباً أحمر من رب البندورة يتجشأ بخاراً تخرج منه رائحة رب البندورة المميزة.

كان الوقوف عند الشريط الناقل طوال النهار مملاً.

لكن في الحقيقة لم يكن وقوفاً طوال النهار، فأحياناً كان يتعطل الشريط الناقل، وأحياناً تتأخر البندورة... أو ينقطع البخار، أو حتى تفصل الكهرباء. وعندما لا يحدث أي شيء من هذا ولا يتعطل الشريط مدّة طويلة، كانت توضع العصي فيه قصداً فيتوقف.

عندها كان الأولاد وفي مقدمتهم الأخوان كوزمين يسرعون في الذهاب إلى الركن البعيد من وُرش المعمل، بجوار غرفة غسل المرطبانات، حيث يُطبخ مربى الخوخ في مراجل ضخمة معزولة عن محيطها بحواجز فولاذية.

كانت رائحة المربى هذه تجذب أولاد الإصلاحية، كما النحل إلى العسل.

كان الكوزمينان يصلان قبل الكثير من الآخرين.

متبل الباذنجان «بيت الجان»، لا كلام، لذيذ جداً، طعم ولا أروع. كُلْ ما يحلو لك، ولو دلاءً، لكنها أكلة سرعان ما تفقد سحرها، ويُمَلُّ منها.

دبس التفاح، حامض قليلاً، رُفض بسرعة.

الفليفلة المحشوة، لذيذة ومشبعة، لكنها لا تُطبخ دائماً، يطبخونها من وقت إلى آخر.

أما المربى... فهو أكل أهل الجنة. إذا استطعت حشر رأسك في مرطبان المربى فستلعقه كله وسيرشح العسل من جلدك.

لا تمر طبخة دون إشراف دقيق من أولاد الإصلاحية.

كان الحمالون طوال القامة، يصعدون بصخب إلى أعلى السلالم الحديدية، يُسقطون محتويات السلال الثقيلة من الخوخ في المراجل. الخوخ نفسه الذي تنظفه فتيات الإصلاحية في باحة المعمل.

ثم وعلى السلالم نفسها، التي كانت تئن تحت وطأة خطوات الرجال الثقيلة، يصعدون ثانية وهم يحملون أكياس القنب الرمادية، يمزقونها فوق المراجل تماماً، ويسقطون فيها السكر الناعم، ويرمون الأكياس الفارغة على الأرض.

كان الأولاد يتلقفون هذه الأكياس وينزحون حبيبات السكر منها.

ذات مرة، أمال أحد الحمالين الكيس قبل أن يصل إلى حافة المرجل، ربما دون قصد منه، فسقط المنُّ الإلهي من السماء واستقبلته راحات الأولاد، شلالاً حلواً أبيض.

حشوا أفواههم بحبات السكر الناعمة، وبدؤوا يستمتعون بذوبانها. ملؤوا جيوبهم منها. حتى إن الدبابير والنحل لاحق شاحنتهم وهم عائدون إلى الإصلاحية.

ولكن اللحظة الأكثر مهابة واحتفالية، هي لحظة بدء تعبئة المربى. عندما ينسكب السائل سميكاً لزجاً، بني اللون لامعاً، تفوح منه رائحته الزكية. يُصَبُّ في مرطبانات زجاجية سخَّنها البخار. وإذا انفجر أحدها لسبب غير مقصود، يهرع الأولاد للإمساك بالزجاج المكسور الساخن، وبالمربى الكثيف الحارق المتسرب منها، وبسرعة كانوا يأكلونه، معرِّضين أنفسهم للحروق وللجروح. والعجيب أن لا أحد أبداً، تعرض لجرح أو لحرق.

كانت تُغلق المرطبانات التي تمتلئ بالمربى، بأغطية تنكية ذهبية اللون تتلألأ كأنها ذهبٌ. ووظفوا ميتكا لتقديم الأغطية، ويا لحسن حظه، ميتكا نفسه الذي يُصاب بالغثيان. كان هنا محط حسد الآخرين من زملائه في الإصلاحية، بسبب موقعه المميز هذا.

عملية إنتاج المربى برمتها، من المرجل وحتى المستودع، كانت تخضع لمتابعة الأخوين الدقيقة، وصارا يعرفانها عن ظهر قلب. هذا لم يكن فقط، فضولاً وحب استطلاع بلا هدف.

درس الأخوان المسألة وخَلُصا إلى نتيجة مفادها أن المربى، ولا سيَّما في أوعية محكمة الإغلاق، يمكن أن يُخزن لوقت طويل، وبذلك يمكن أن يصبح عوناً جيداً لعوز الشتاء وجوعه. إذن فهما كانا يفكران بالشتاء، لكن رغبة لديهما تولدت الآن لنقل بضع مرطبانات لتخزينها في مخبئهما، للاستعمال الشخصي، وبالتأكيد حسبا حساب ريغينا بتروفنا وولديها.

في هذا الصدد، اتفقا مع ميتيوك، وبمجرد أن تخلو الورشة من العمال ويبقى وحده مع العامل الذي يغلق المرطبانات، وتكون قد تجمعت خلف ظهر العامل كمية كبيرة من المرطبانات على الطاولة الطويلة المطعمة بالحديد، في هذه اللحظة يبدأ ميتيوك بإطلاق صفير عالٍ للحن الأغنية المشهورة «عزيزي الرفيق ستالين، تعال وزرنا في تعاونيتنا...». في هذه الحالة كان الكوزمينان بالتناوب يترك أحدهما مكان عمله على خط الإنتاج ويسرع لتلبية نداء الأغنية، ما دام الرفيق ستالين نفسه على الأرجح لن يستطيع تلبية الدعوة بهذه السرعة.

الأهم في هذا الموضوع، هو أن يُوَفَّق بإخفاء المرطبانات قرب خط الإنتاج بسرعة قبل أن يراه أحد من العاملين.

لم يُحسب حساب الحمالين. فهم فقط كانوا يبتسمون، عندما تلتقي أعينهم مع أحد الأولاد وهو يحشر مرطباناً في جيبة.

وفي أكثر من مرة، كما لو أنها كانت مصادفة، كانوا يظللونه ويسترونه بأجسامهم الضخمة.

قسَّم ساشكا عملية نقل المربى إلى ثلاث مراحل.

المرحلة الأولى - إخراجها من قسم المرجل بعد أن تكون قد عُلبت والعمل على تخبئتها بشكل جيد. الثانية - نقلها أمام أعين العمة زِينا الحادة، وإخفاؤها مرة أخرى بشكل موثوق في ساحة المعمل. الثالثة، وقد تكون الأهم، إيصال المربى عبر الجدار الأصم المحيط بالمعمل إلى بر الأمان. إلى الحرية.

بعد بدء العملية بعدة أيام، استطاع الكوزمينان إنجاز المرحلة الأولى لسبعة مرطبانات مربى مختومة، خُبئت وأُخفيت تماماً.

بجوار الشريط الناقل لخط الإنتاج، الكثير من الأنابيب المعدنية المتشابكة، فضلاً عن الزوايا والفتحات. ولذلك عند الضرورة يمكن إخفاء ليس سبعة مرطبانات وإنما سبعة آلاف. ولن يكون باستطاعة أي تحرٍّ أن يجدهم في أي تفتيش.

في هذا النوع من الأعمال كان أَخَوَانا كما الآخرين من أولاد الإصلاحية، فريدين، متخصصين ماهرين.

ولحمل المرطبانات من مخبئهما في الورشة ونقلها أمام ناظري العمة زِيْنا، وهي المعروفة بدقة ملاحظتها، التي لم تكن شريرة كما يبدو، لكنها كانت مُروَّعة بما يكفي، ولذلك كان حرص ساشكا مضاعفاً، واقترح على أخيه أن يسيرا متعانقين. إلى السيارة، ومن السيارة إلى المطعم، ثم إلى الباحة.

- لماذا، والجو حار دون عناق، قال كولكا دون أن يفهم ما يرمي إليه أخوه.

- يجب أن تتحمل.

- ولماذا؟ سأل كولكا مرة أخرى.

- لأن... وفقط. قال ساشكا وأضاف. - عندما تمشي معي ستفهم. سنرى كم من الفراغ سيبقى بيننا.

استفسر كولكا مظهراً اهتمامه:

- والعشاق... لماذا يسيرون متعانقين؟

فكر ساشكا وقال:

- لا أعرف.

ومنذ اللحظة بدأ الأخوان يمشيان متراصين كتفاً إلى كتف، ماسكاً أحدهما الآخر من كتفه. نساء المعمل اللاتي وقع نظرهن عليهما صرن يتحدثن عنهما: «كم هما متحابان، سكب الماء عليهما لن يفرقهما»[1].

من كان يتوقع أنه لو سُكب الماء عليهما وافترقا، لكان ظهر تحت قميصيهما مرطبانان كاملان، كانا يتوضعان الواحد فوق الآخر. هذا ما تدربا عليه في حقل الذرة خلف الإصلاحية، واختبراه داخل الإصلاحية. ولم يكن ممكناً تحت أي ظرف من الظروف ملاحظة وجود المرطبانين أبداً عندما كانا يمشيان متعانقين، ربما كان هذا ممكناً بالجس ولكن من سيأتي ويمد يده ليتلمسهما.

والحق يقال، فإن العمة زِيْنا اشتمت في ذاك اليوم أمراً مريباً عندما مرَّا وهرَّبا فيما بينهما المرطبانين الأولين.

---

(١) مثل روسي. المترجم.

كثيراً ما مرَّ أمامها فيما مضى متعانقون، ولا شيء. ولم يحصل أن أوقفت أحداً أو سألت. ولكن حدس المرأة هنا، فقد شعرت بشيء ما غير طبيعي، صاحت العمة زِيْنا، وصوتها سمعه كل من كان في المصنع:

- هيْ، أنت. تنادي ساشكا، طبعاً. هي تعرفه بلا شريطة حمراء من أي مسافة.

- قلت لك تعال إلى هنا. ماذا بك، كثر مرورك من هنا.. ماذا هناك.

اقتربا معاً، لم يرتخي تشابكهما. كان المرطبانان يبرّدان جلدهما مع كل شهيق وزفير، وتتحسس أضلاعهما الزجاج الأملس، وأحياناً كان المرطبانان يصطكان بعضهما ببعضٍ.

ألقت العمة زِيْنا نظرةً على الأخوين وقالت:

- لماذا تلتصقان بعضكما ببعض؟ أتذهبان معاً بهذا الشكل إلى التواليت؟

بقي كولكا صامتاً، فالعمة زِيْنا لم تسأله، وهي لن تسأله ولن تعترف بوجوده على الإطلاق، ومن جهة أخرى فعند ساشكا الخبر اليقين، فهو سريع البديهة، ويعرف ماذا وكيف يجيبها.

وأجاب ساشكا على الفور بهدوء وطمأنينة، أن المشي بهذا الشكل في الساحة يناسبهما أكثر ليتبادلا الكثير من القصص والأسرار. والأذن بهذا الشكل أقرب.

بشكل عام، لم يكذب ساشكا، فقد كان بالفعل بين الأخوين أسرار، لكن الموضوع لا علاقة له بالأذن.

- ما أحلاكما. قالتها العمة زِيْنا بشيء من المشاكسة. - أثرار، وماذا إذا عرفت أثراركما؟ ماذا بعد؟ تابعت النظر إليهما وهما يغادرانها ولكنها لم تلحظ عليهما أي شيء. أما الأخوان فلم يستعجلا السير، وعندما تجاوزا الباب الخارجي أسرعا ليختفيا عند أول منعطف خلف المعمل.

هنا، في الساحة الخلفية للمعمل، مكب نفايات، لم يصله عمال المعمل أبداً. مرطبانات، صناديق مختلفة، عربات محطمة، براميل وخردة كثيرة غيرها. هنا يمكن إخفاء مرطبانات المربى جيداً.

بقيت المرحلة الأخيرة، ليصل المربى إلى بر الأمان.

ولمجرد الفضول وحب الاستطلاع، ورغم أن احتمال النجاح كان ضعيفاً، اختبر الأخوان الباب الرئيسي. لكن العجوز الحارس وبندقيتها الفارغة، ومع أنها لم تكن سريعة البديهة كما العمة زِيْنا، لكنها صاحت بهما: ما الداعي لأن تخرجا مجتمعين هكذا، امشيا مثل الناس، بالتتالي كما الآخرين.

طبعاً هما يستطيعان السير كما الآخرين، لكن عندئذ لن يكون بإمكانهما نقل المرطبانات.

كان عند ساشكا طريقة أخرى: رمي المرطبانات عبر السور الحجري. لكن السور كان عالياً وارتفاعه يقارب المترين.

أسرع كولكا ذات مرة بعد انتهاء العمل، وخرج قبل الآخرين، وبقي ساشكا في الباحة الخلفية للمصنع، وبدأ يرمي مرطبانات فارغة عبر الجدار.

من أصل خمس مرطبانات، استطاع كولكا الإمساك بواحد فقط. تبادلا الأماكن، لكن النتيجة لم تكن أفضل. لم يمسك ساشكا بأي منها على الإطلاق. ولم يستطع تقديم أي اقتراح آخر أو إيجاد طريقة أخرى. كان كمن فُرمل رأسه عن التفكير.

كما لو أن الأمر دون قصد منه، أعطى كولكا قبضة مليئة بالسكر الناعم لساشكا وقال له: سمعت أن السكر يساعد المخ على طبخ الأفكار بشكل أسرع. تماماً كما يُطبخ المربى في المرجل.

لكن السكر لم يؤثر بأخيه. وبالعكس، اكتأب وصار أكثر ضجراً ومللاً، ووهن حتى إنه هزل ونتأت عظام وجهه.

صار يتجول في الساحة خلف المصنع وحيداً، أو يقف مطولاً يتحدث مع العمة زِيْنا. وما الفائدة من هذه الأحاديث، كان كولكا واثقاً تماماً أن الحديث معها حول هذا الموضوع عقيم ولا مجال لإقناعها به. صحيح أن المرطبانات مخبأة بشكل جيد، لكن الوقت يمر وهو ليس في صالحهما... ماذا لو تراجع المعمل، واستغنى عن خدماتهم، ولم يعد لهم طريقٌ إلى المصنع. فكل يوم يمكن أن يصبح الأخير.

مرةً قال ساشكا:

- أتعرف... لقد كانوا هنا أيضاً.

- من؟ سأل كولكا، لكنه أدرك على الفور من. - الشياطين؟

هكذا كان إيليا يسمى الشيشان.

- نعم، الشياطين. فرسان مسلحون بالبنادق على أحصنتهم... أطلقوا النار واختفوا بسرعة في الجبال. رأتهم العمة زِيْنا. تقول إنها كادت تموت رعباً.

- هل قُتل أحدٌ؟ سأل كولكا.

- لا أعرف. ولماذا برأيك صمتت ريغينا بتروفنا؟

- لماذا؟

- هي أيضاً رأتهم، ولذلك مرضت. تقول العمة زِيْنا إن هذا يحدث بسبب الرعبة.

- ريغينا بتروفنا لا شيء يخيفها، قال كولكا.

- ألا تخاف على أطفالها؟ والانفجار؟ ألا تعتقد أنه يخيف؟

كان الأخوان جالسين على صندوقين في الباحة الخلفية للمعمل، بجوار مخبئهما. وكان الماء ينساب بين الأعشاب في جدول عبر الساحة، قرب قدميهما. كان الماء قذراً أصفر، وكانت رائحته نتنة، فقد كانت تُرمى نفايات الورش فيه.

- وماذا بعد؟ هل وجدت طريقة؟ سأل كولكا.

- أي طريقة؟

- أنت تعرف ماذا أقصد. سنبقى هكذا نجلس عند المخبأ؟

حك ساشكا رأسه وقال:

- الهرش يقملني... هذا يعني بلغة مأوى الأيتام أن القمل يهرشه. وقال دون أن يكون للموضوع صلة: - تعال نسافر، ما رأيك؟

- الآن؟

- لنقل، غداً. ها هي العمة زِيْنا تقول: لولا أن لديها عائلة لهاجرت منذ زمن. لكنها ملتزمة بعائلتها، وكان قد ضمها المعمل إلى عماله. أما نحن فلا التزام لدينا.

- وماذا بشأن ريغينا بتروفنا؟ سأل كولكا.

وأطرق ساشكا يفكر.

- ماذا لو لم تعد؟

- ستعود، قال كولكا مؤكداً. - أطفالها هنا.

- ماذا لو أنها قد ماتت؟

- لا، قال كولكا مرة أخرى. - سننتظرها وسنجمع مرطبانات للطريق. بقي علينا أن نخرجها من هنا.

كان ساشكا صامتاً ينظر إلى الجبال البعيدة الباهتة، ويراها بصعوبة خلف ضباب شاحب أزرق. أضاءت الشمس دون أن تنشر حرارتها، وعم السكون إلا من صوت خرير مياه الجدول وطنين الدبابير.

ولربما لم يكن هناك أي شياطين؟ تساءل كولكا آملاً ذلك. - والشرطة ألا تقوم بالقبض عليهم؟ سابقاً كانوا يسكرون ويفجرون. والآن توقفوا.

لم يقل كولكا ذلك لأنه واثق، بل قال ما قاله لأنه أحب العيش في القوقاز.

بالتأكيد، فقد تحقق حلمه، وحلم ابن آوى السرمدي هو الطعام. أين يمكن له أن يأكل بحريته كل هذا السكر، أو متبل «بيت الجان»، أو المربى؟ قالت العمة زِيْنا إنهم نقلوهم إلى الجنة، وبالفعل هي الجنة، هنا في المعمل.

ولا داعي للنحيب إذا ما قُرر ضمهم إلى المعمل. وحلم كولكا ألا يُفسخ هذا الارتباط مع الإصلاحية. وعندما يكبر، سيطلب من المعمل أن يضموه إليه إلى الأبد. عندها ستكون بداية الحياة الحلوة بالنسبة له. سيعمل مع الحمالين في حمل أكياس السكر. ومن يحمل السكر لن يعانيَ من نقصه ولن يكون من الخاسرين.

نظر ساشكا إلى كولكا وفهم بماذا يفكر.

- حسناً، قال لأخيه. - سننتظر.

- والمربى؟ ماذا عن المربى؟ ماذا سنفعل؟ لم يهدأ كولكا.

ثبت ساشكا نظره في الجبال، ثم نقله إلى السور، الذي تسرب ماء الجدول النتن من تحته.

- سنعومها.

- ماذا؟ لم يفهم كولكا.

ضحك ساشكا.

- سنطلقها في مجرى الماء، أقصد، المرطبانات، أتفهم؟

- كيف هذا؟

- كيف... لا أعرف. سنتوصل إلى ذلك، وعده ساشكا. واجه وجهه الشمس وأغمض عينيه، وبدا وكأنه يفكر بشيء ما.

كانت رائعة فكرة ساشكا. أن يربطا المرطبان إلى خشبة ويرمياه في الجدول ليجرفه الماء، وكان عليهما طبعاً أن ينتظرا عند الطرف الآخر من السور لالتقاطه...

جرباها على أرض الواقع، أخذا خشبة وربطا ثقلاً إليها، غرقت. بحثا عن لوح. واللوح هو الآخر لم ينجرف فقد علق بالأعشاب، تباطأ ثم توقف لعدم قدرته على الالتفاف.

ترك ساشكا فكرة الألواح الخشبية. قضى جل وقت الاستراحة في الباحة الخلفية في البحث عن بديل للألواح، بحث في كل مكان، بين الأعشاب، في الزوايا. جال بعينيه هنا وهناك، عما يبحث، هو نفسه لا يعرف. وأخيراً عثر في مكب النفايات على حذاء بلاستيكي «غالوش»(١)، كان كبيراً جداً، لم يكن واضحاً من يمكن أن يكون هذا العملاق الذي يعود له هذا الحذاء. قد يكون غوليفر(٢) مر من هنا.

---

(١) غالوش galosh: حذاءٌ يُلبس فوق الحذاء العادي. المترجم.

(٢) لوموبل غوليفر: بطل رواية رحلات غوليفر Gullivtr's Travel للكاتب البريطاني جوناثان سويفت. تروي حكاية طبيب إنكليزي غرقت سفينته التي يعمل عليها. سبح الطبيب إلى الشاطئ، ووصل مجهداً، فاستغرق في نوم عميق، ولمّا أفاق وجد نفسه مقيداً بعدد هائل من الخيوط القوية ومحاطاً بمجموعة ضخمة من الأقزام. المترجم.

حمل ساشكا الغالوش إلى الجدول، وضع فيه حجراً بحجم قبضة اليد تقريباً، ووضعه في الماء.

تخطّى الغالوش كل العوائق، كل الاختناقات، وعبر سابحاً أسفل السور، ثم تجاوزه، وهناك خلف السور انتظره كولكا.

عندها ملأ ساشكا مرطباناً بالرمل ووضعه في الغالوش البلاستيكي. انقلب المرطبان وغرق.

أعاد ساشكا المحاولة بمرطبان الرمل، ولكن في هذه المرة ربطه بشريط، محكماً ربطه بالغالوش.

حملته الماء، مر بسرعة، وسبح خارجاً. فقط بعض الرمل تسرب. هذه ليست قضية، لا مشكلة مع الرمل، فليتسرب الرمل، هكذا قرر الأخوان. لا قلق على المربى، فهو مغلق بإحكام. المهم ألا يغرق، المهم أن يطفو، فلو غرق فلا مجال لإخراجه من القاع. يجرفه التيار ويحشره بين جفنات القصب، وهناك يستحيل العثور عليه.

في إحدى الأمسيات، بعد انتهاء العمل، خرج كولكا مع جميع الأولاد من بوابة المعمل الرئيسية، وراح يركض باتجاه الجدول. كان على أولاد الإصلاحية بكل الأحوال الانتظار طويلاً خارج المعمل حتى تأتي السيارة لتقلهم.

كان المكان الذي يخرج منه الجدول مهملاً، مهجوراً، وكان يبعد قليلاً عن البوابة الرئيسية.

لذلك كان على كولكا الركض بكل ما أوتي من عزم، فجدار المعمل امتد لمسافة لا تقل عن نصف كيلومتر.

صفر كولكا، كما كان متفقاً، وكأنه يقول أنا هنا عند مجرى الجدول... يمكنك مباشرة العمل، أطلق سفينتك.

صفر وراح ينتظر. حتى إنه استلقى على الأعشاب، لتكون الرؤية أفضل.

مر بعض الوقت. امتدت دقائق لا معنى لها، لأن الماء لم يحمل ما له معنى.

وفجأة، وعندما ملَّ الانتظار، وقطع الأمل، نهض وبدأ ينفض التراب عن ملابسه، وهنا رآه، رأى الغالوش الأسود. كما لو أنه هدية القدر، يخرج من تحت الجدار، طافياً على سطح الماء... كبارجة إنكليزية ثقيلة، رأى صورة لها مرة في كتاب. يسبح وتيار الماء يحرف مساره، ويستدير، فكان يسير على مختلف جوانبه، ولكن الجمل بما حمل، وما حمله هو مسافر عزيز بقبعة ذهبية.

فك كولكا المرطبان، ومن فيض مشاعره قبله، طبع قبلة على هامته الذهبية، وقبلة أخرى على قاعه البارد. ومسكه عند خده، وقربه من أذنه يسمع حركة انسياب المربى فيه.

يختلف منظر المرطبان الآن وهو حرٌّ طليقٌ، عن ذاك الذي كان داخل أسوار المعمل، إذ لم يكن ملكاً خاصاً بعد.

ومسد الغالوش بيده، داعبه، كما لو أنه حي، وهمس له:

- غالوش لطيف... غالوش ذكي... رائع. أنتَ حبيبنا.

وأطلق الأخوان عليه فيما بعد اسم: غلاشا.

وفي يوم من الأيام، دخل الأخوان غرفة البنات. توددا لهن، وطلبا منهن إن كان بإمكانهما الخروج مع طفلي ريغينا بتروفنا للنزهة.

سمحت لهما البنات. ولكن مدّة قصيرة وفي مكان قريب...

جاء الأخوان بأخويهما الأصغرين وهما يتلفتان حولهما إلى ضفة نهر سونجا الأصفر، أخرجا مرطبان المربى الثمين من المخبأ، فتحاه. وأجلسا الطفلين على العشب، وبدأا يطعمانهما. كان لديهما ملعقة واحدة، لذلك أطعماهما بالدور، ملعقة لجوريس وأخرى لمارات.

أكل الطفلان بهدوء دون أن يستعجلا. كانا يلعقان الملعقة بكثير من الحرص، وكانا ينظران بين الفينة والأخرى إلى المرطبان، وكم بقي فيه. ومع أنه كان واضحاً أنهما أحباه كثيراً، وكيف لا، وهو طعام أهل الجنة. هما لم يطلبا أن يطعما ملعقة أخرى، بل انتظرا متى تُقدم لهما.

وسرعان ما أعلنا أنهما شبعا.

أخذا نفساً عميقاً، ونظرا نظرة أخيرة إلى المرطبان، وسألا:

- هل سيكون هناك المزيد فيما بعد؟

- سيكون، وعد كولكا. - ستأتي غلاشا بالمزيد، بالتأكيد.

- من تكون غلاشا؟ سأل جوريس.

نظر ساشكا إلى كولكا وقال:

- غلاشا، هي غلاشا. إنها لطيفة جداً.

- هل هي أمك؟ سأل مارات؟

- لا، قال كولكا. وأخذ نفساً عميقاً.

- كم اشتقت لأمي، اشتكى مارات. نفتقدها كثيراً والحياة دونها سيئة.

- طبعاً سيئة، أكد كولكا.

- وهل ستأتي أمكما؟

- لا أعرف، قال كولكا، وبدأ يُغلق المرطبان.

ودون أن ينظر إلى الطفلين، لحس قطرة مربى كانت قد بقيت على حافة المرطبان قبل أن يغلقه.

- ستعود كل الأمهات، قال الطفلان.

استعجل الكوزمينان، أنزلا الطفلين إلى الماء، غسلا شفاههما، خديهما، يديهما، كلها كانت بالحلو. وفي الطريق إلى الإصلاحية أنذراهما ألا يتحدثا عن المربى، الذي ستحضره غلاشا، واتفقوا أن يكون الصمت تاماً... وإلا فستزعل غلاشا.

والطفلان وعدا.

أعادا الطفلين نظيفين متوردين فرحين إلى البنات.

وسأل كولكا مرة أخرى:

- متى ستعود ريغينا بتروفنا؟

- قريباً ستعود، قالت البنات. وكان واضحاً أن هناك ما يخفيانه.

بالمناسبة، لقد وفت غلاشا بوعدها ونقلت المربى، وعندما كان الأخوان في زيارة لمخبئهما ذات يوم، أدخل ساشكا يده في ثغرة المخبأ وتلمس المرطبانات وراح يعدها، فوجد أنه قد تجمع لديهما أحد عشر مرطباناً.

أحد عشر، قال همساً لأخيه، الذي وكالعادة عندما يأتيا إلى المخبأ يبقى الآخر يراقب.

لو عرفوا في تاميلِنا كم يملكان. لو عرضت عليهم هذه الثروة، لفقدوا عقولهم.

من أجل حفنة من السكر كانوا يبيعون أنفسهم عبيداً، كانوا يلعقون وريقات الزيزفون مخاطرين برؤوسهم وهم يتسلقون أشجارها، ليفوزوا برحيقها الحلو في فصل الربيع. أكلوا البطاطا المجمدة، ليس فقط بسبب الجوع وإنما لحلاوتها. أما عن الحلوى فقد نُسجت الأساطير، لم يرها أحد البتة. والمربى أيضاً لم يره أحد أبداً.

أحد عشر، كرر كولكا لأهمية الموضوع. - وكيسا سكر فارغان أيضاً.

اصطحبا الأكياس الفارغة، ليسهل عليهما حمل أغراضهما حين يقرران الهرب.

-١٨-

الضباع، تبقى ضباعاً.

للأخوين أربع أعين، ولضباع الإصلاحية أربعمئة. كل أعينهم كانت تراقبهما.

تَرَصَّدوهما إلى أن رصدوهما وأوقعوا بهما.

كان الأخوان حريصين أشد الحرص ألا يلفتا نظر أحد إلى مشروعهما، كانا يطلقان غلاشا بهدوء وسرية، ورغم ذلك فقد تم رصدهما.

وحدث ذات يوم، وبينما كان كولكا واقفاً عند الجدول، ينتظر غلاشا، رأى أحد زملائه من الإصلاحية يركض باتجاهه. ومن باب الاحتياط، أنزل كولكا بنطاله. ليجعله يعتقد أنه هنا لقضاء حاجة.

- إنهم يبحثون عنك. صاح الولد القادم.

- من يبحث عني؟ سأل كولكا وألقى نظرة إلى الجدول، لا قدر الله أن تأتي غلاشا الآن سابحة، عندها سينكشف كل شيء.

لم يتوقع أن كل شيء كان قد تكشَّف منذ زمن بعيد، والمؤامرة ضدهما قد نضجت.

- أخوك يبحث عنك، هو هناك، عند الساحة الخلفية، ساشكا، أليس كذلك؟

- أنا ساشكا، قال كولكا.

رفع بنطاله، وألقى نظرة أخيرة إلى الجدول، ثم إلى الولد وراح يركض على طول السور. وصل مسرعاً إلى البوابة وهناك التقى أخاه ساشكا.

- ناديتني؟ قالها كولكا وهو يلهث، وبصعوبة يتنفس.

- أنا؟ ناديتك؟ دُهش ساشكا. - لم أنادِك. وأين غلاشا؟

- غلاشا؟ هل أطلقتها؟

- وأنت ألم تستقبلها؟

حدق كل منهما بالآخر ودون كلمات صار واضحاً: تم الإيقاع بهما.

سارا متثاقلين إلى موقف الشاحنة، سأل كولكا بفتور:

- ألن نستعيد ما أخذوه؟

- ابتسم ساشكا، ونشق من أنفه. - ليس الأسف على المرطبان، ولكنهم خربوا العملية برمتها... هل فهمت؟

التزم الأخوان الصمت لما جرى. وحتى في السيارة التي أقلتهم، لم يلتفت ساشكا إلى أحد، ولم يتفحص وجوه زملائه، ولم يحاول أن يخمن من لعب هذه المزحة السمجة معهما.

إذا حَكَّمَ الكوزمينان المنطق فلا يجوز أن ينزعجا من أحد، وإنما يجب أن يلوما فقط نفسيهما. لقد كان عليهما أن يتفلّتا من أي محاولة مراقبة. وهذا يعدّ الهم الأول والشغل الشاغل لأي فرد من أفراد الإصلاحية، إذا أراد العيش والبقاء على قيد الحياة.

وقطعان الإصلاحية أرادوا العيش أيضاً، وها هم يطوقون الفريسة، وهم الآن يمزقونها...

طبعاً أعادوا غلاشا، لكنهم لم يعيدوا المربى. قسموه فيما بينهم على الفور، في ذات المكان قرب الجدول، قبل قدوم السيارة لتقلهم، وأكل كل منهم حصته حتى آخر رمق. وكأنهم لم يكونوا في المعمل، حيث كان بإمكانهم تناول ما يريدون وقدر ما يستطيعون. ولكن لا، فذاك المرطبان المحرر بدا لهم أطيب ألف مرة.

وانطلقت عمليات سحب المرطبانات من المعمل، وبرع شباب الإصلاحية بنقلها أكثر بكثير مما كان عليه الأخوان من قبل. أخفوا المرطبانات في جيوبهم وأحضانهم، ولذلك وعلى غرار الأخوين كوزمين، شكّلوا ثنائيات، وصاروا يتجولون مترافقين متعانقين.

لم يكن بوسع عاملات المعمل إلا أن تندهشن من الأُلفة والمحبة التي صارت تجمع أيتام الإصلاحية. يا إلهي، كل اثنين مترافقان متعانقان، يا لحلاوة هذا المنظر وجمالهم، كم هذا مريح للنظر... إنهم وبكل بساطة ملائكة.

كانت الملائكة تسحب وتسحب. لم تكن تبرز الأجنحة من تحت ثيابهم، وإنما برزت أغطية المرطبانات.

وفي النهاية فكروا بطريقة يخرجون بها المرطبانات بالسلال. فقد كانت السلال الفارغة الكثيرة تعيق العمل في الورش، لذلك كانوا يخرجونها من وقت لآخر إلى باحة المعمل. ومعها أيضاً كانوا يخرجون أكياس السكر الفارغة والعربات المعطلة.

فوجئ ساشكا عندما لاحظ ذلك. هنا تكمن أهمية التشاركية وتكامل الأفكار وتراكم الخبرة. فهو وحده لم يكن ليصل به التفكير إلى السلال، لكن شباب الإصلاحية توصلوا لذلك. صارت المرطبانات حالياً تُجمَّع في الساحة الخلفية، ولذلك تشكّلت هناك مستودعات كاملة.

صارت غلاشا تعمل بعدة ورديّات، وأطلقوا عليها لقب الحذاء السحري، يبدو أن هناك من قرأ الحكاية. وبالتأكيد لا مجال لمقارنة الحذاء السحري في الحكاية الخيالية

مع هذا الحذاء السحري الحقيقي، فهذا لا يعطي سعادة خيالية، بل سعادة حقيقية تترجم إلى مرطبانات حلوة المذاق، بأعدادها وأغطيتها الذهبية.

بداية كان الأخوان قلقين على مصير غلاشا، ولا سيَّما كولكا، هل أغرقوها، أو ربما أضاعوها، أو مزقوها...

وذات يوم قال ساشكا لهم:

خذوها واحتفظوا بها، استخدموها كما تشاؤون.

وعندما سمع كولكا، اندفع إليهم ليأخذها منهم، وبصعوبة تم إقناعه بوقف اندفاعته. حتى إن دموعه انهمرت. كيف يمكن إعطاؤهم غلاشا الحبيبة اللطيفة؟ كيف يمكن تقديمها لهم هكذا، هدية دون مقابل؟ كان الأفضل إعطاؤهم مرطبانات المخبأ كلها، فلا ثمن لها بالمقارنة مع غلاشا.

كان غضب كولكا شديداً لدرجة أنه صرخ بوجه أخيه قائلاً:

- هل فقدت صوابك؟ هل جننت؟ وأدار إصبعه عند صدغه. مظهراً كيف انقلب دماغ ساشكا، وكيف فقد عقله.

أما ساشكا فسأل ببراءة:

- وهل الجنون ظاهر على وجهي؟

حدق كولكا بأخيه، ومسح دموعه الحمقاء. لا، لم يكن ظاهراً جنون ساشكا. فهو يبتسم كما كان ساشكا القديم يبتسم، وعيناه كانتا كما تلك. لكن ما تغير، هو ما في رأسه، شيء ما تغير فيه، لم يعد يفكر بشكل صحيح، قد يكون المربى خرّب عقله. لأنه أكل منه الكثير. كان كولكا في الفترة الأخيرة يتقصد إطعام أخيه الكثير من المربى... أيمكن أن تكون أجزاء دماغه قد تلاصقت بعضها ببعضٍ من أكل الحلو؟

- ولكن غلاشا هي لنا، لنا. صاح كولكا يائساً. - كيف سنعيش دونها؟

- اهدأ... قال ساشكا، وانتبه الاثنان فقد يكون هناك من يسمعهما.

لم يسمع أحد جدلهما. فقد كانا في الباحة الخلفية، حيث كانت لهما السيادة الكاملة. يتحاوران وخرير الجدول النتن يُسمع بجوارهما، والأعشاب التي نمت بين النفايات والأوساخ ارتفعت مخترقة الصناديق القديمة المرمية منذ أمد طويل، منذ ما قبل الحرب ربما.

أخذ ساشكا نفساً عميقاً وزفره بصوت عالٍ:

- سنعيش كما عشنا دون غلاشا. كفى.

- كفى؟ ذُهل كولكا. - نحن... لم نصدق أننا بدأنا.

- بدأنا وانتهينا، قال ساشكا بكل هدوء. - الآن علينا أن نهدأ ولا نقوم بأي عمل.

قال ذلك بلهجة حازمة قاطعة جعلت كولكا يبتلع عبارته التالية، والتي حضَّر ليقولها من حنقه.

وثق كولكا دائماً برجاحة عقل أخيه. وربما هذه المرة الأولى التي يفقد فيها ثقته بصواب رأيه. وعندما نظر ساشكا إلى كولكا، قرأ كل ما لم يقله.

- افهمني، لقد حفروا عميقاً، أقصد ضباع الإصلاحية. ألا ترى أنهم يستعجلون؟ يحرقون سفنهم، إنهم لا يفكرون بالمستقبل. عاهراً أكون إذا لم يسقطوا مع غلاشا إلى القاع... وتابع: - ألف، عين، ألف، دال...

أ.ع.أ.د، تُفك هكذا: أكون عاهراً أبد الدهر. ووضع ظفر إبهام يده تحت سنه العلوي ثم تحت الحنجرة. أي أعطي سني للنزع، وأقدم رقبتي للـ... هكذا كان القَسَم. أما بالنسبة لمن يسمعه ممن لا يعرف فك رموزه فلن يخدش حياءه بالمعنى الخفي.

لم يكن ساشكا يستخدم في أقسامه عبارات كهذه. لذلك كان من الممكن تصديقه.

ولكن كولكا سأله:

- ألا يستحسن أن نخبرهم؟

- وماذا ستقول لهم؟

- ماذا تفعلون... هذا يكفي. قريباً سينتبهون، وستكون الطّامّة الكبرى، علينا جميعاً...

- عليهم وحدهم، صحح له ساشكا.

- عليهم جميعاً... وهذا سيخرب كل شيء.

- حسناً، قل لي، قال ساشكا ذلك بكل هدوء.- هم سيصدقونك فوراً... ولكن لماذا أنت نفسك لم تصدق ذلك، آ؟ كنت الآن تجادلني ولم تكن أفضل من أصغر جرو منهم... أقصد ضباع الإصلاحية.

تنهد كولكا. من الطبيعي أن يكون صعباً التخلي عن ثروة مجانية، تدفقت بين أيديهم... بعد أن تسربت إليهم عبر الجدول.

ومن من الأولاد سيمتنع ويرفض الاستفادة والشتاء على الأبواب، وفي ذهنهم جوع الشتاءات الماضية، فقد عرفوه بالتجربة، وهو ينتظرهم عما قريب؟ سيطعمهم المعمل لشهر أو شهرين، ثم ماذا؟ سترتاح أسنانهم فيها بعد ويمكنهم الاستغناء عنها ووضعها على الرف.

تمسَّك ساشكا بموقفه بحزم. فكان يعتقد أن أولاد الإصلاحية أطلقوا العنان لأنفسهم، ولا يوجد بينهم كبير، وهذا ما يميز اللص المحترم عن ابن آوى... لا قيم ولا ضمير. حتى عند اللصوص يجب أن يكون الضمير حاضراً. خذ حاجتك واترك للآخرين. اعرف كيف تتوقف عندما تأخذ حصة لك من مال الآخرين. إن أخذ القليل من الكثير، ليس سرقة وإنما نوع من القسمة. هكذا قال الكاتب الكبير... نسي ساشكا اسمه. وهذا ليس مهماً، فتجربة الكتابة قد خبرها وألِفَ كتابها.

لم يعد أولاد الإصلاحية يخجلون ينقلون وينقلون، قبل مدة، تدحرج مرطبان من تحت ثياب أحدهم في السيارة. كانوا يهربون المرطبانات عبر الجدول تحت الجدار على أعين الجميع. ومرةً ألقي من فوق الجدار صندوقٌ كاملٌ بوساطة الحمال الأطول.

ابتسمت السائق فيرا وحرفت حاجب قبعتها، وقالت مازحة:

- يا قراصنة، يا زعران، كم جمعتم اليوم؟ أشعر أن سيارتي ثقيلة، فهي بصعوبة تسير.

كانت فيرا ترى كل شيء. لكنها لم تبلغ شيئاً عن أحد. بعبارة أخرى، لم تبع أحداً.

مر أسبوعان تقريباً، منذ أن ابتعد ساشكا وأبعد أخاه عن المرطبانات.

سارا وادعين هادئين، هما لم يسرقا، لكنهما لم يعيقا الآخرين. مرةً حصل أن أخرج شابان من الإصلاحية سلة يُفترض أن فيها أكياس فارغة إلى ساحة المعمل.

أوقفتهما صاحبة النظر الثاقب، العمة زِيْنا:

- ماذا دهاكم، الجميع ينشغل بنقل الأكياس، اتركاها هنا، سأنقلها بنفسي... اذهبا واعملا عملاً مفيداً.

- نحن... نساعدكِ... بصعوبة قالا هذه الكلمات. كانت السلة ثقيلة، ثقيلة جداً، حملا فيها ما لا يقل عن خمسة عشر مرطباناً، من جشعهم على ما يبدو، حشرا بين الأكياس كل هذه المرطبانات. احمرا خجلاً، ولم يعرفا ماذا يفعلان.

- لست بحاجة لمساعدتكما، قالت العمة زِيْنا. - سأنقلها بنفسي.

وقف الشابان واجمين مرهقين، أتعبهما الحمل الثقيل، فالسلة تشدهما إلى الأرض، وحملها كان أكثر مما تتحمله فبدأت تتشقق. وبالفعل انشق أسفلها وانفصل عنها، وسقطت المرطبانات محدثة رنيناً على الأرض البيتونية، وتناثرت بقع الضوء المنعكسة عن الأغطية الذهبية في الاتجاهات كلّها.

كانت المرطبانات كثيرة. تدحرجت على الأرضية غير المستوية، ومرطبان منها تدحرج وتوقف بالضبط عند قدمي كبير المهندسين، الذي صادف مروره بالجوار. انحنى المهندس العجوز والتقط المرطبان، وضع نظارته بإطارها المعدني ونظر إلى الملصق.

- مربى الخوخ، المعايير الدولية لرقابة جودة الصناعات الغذائية ٣٦-٧٢، جمهورية روسيا الاتحادية الفيدرالية السوفياتية، كان يقرأ وينظر حوله: توقفت الورشة كلها عن العمل، الجميع كان ينظر إليه. وكان المرطبان الأخير لا زال يتدحرج على أرضية الورشة، كأنه يفر هارباً، وهذا ما كان يفكر به الشابان اللذان قاما بهذا العمل المشين. - هذه سرقة؟ سأل المهندس ونظر باتجاه المرطبان المتدحرج. - هذه حقيقة سرقة؟

هنا، اتخذا قرارهما، تركا السلة وهربا. عبرا باب الورشة الحديدي، مرا بالساحة، عبرا الباب الرئيسي للمعمل... لم يحاول أحد اعتراضهما للقبض عليهما، ولماذا القبض على اثنين صادف أن ضُبطا بالجرم، وآخرون كثر سرقوا ولم يُضبطوا، هذا كل ما في الأمر.

بعدها مُنع جميع أولاد الإصلاحية من العمل في المعمل.

-١٩-

وصل رتل الأولاد مساء يوم الأحد إلى نادي بِرِزوفسكَيا، للقاء السكان المحليين، لم يكن الرتل يشبه ذاك الذي تشكّل عندما نزل الأولاد من القطار منذ أمد قريب، كان يختلف عنه تماماً، كانت ضخامته آنذاك تثير الدهشة.

تزامن الحفل المقرر بمبادرة السكان المحليين مع فضيحة المصنع.

والأصح القول إنهم استعجلوا إجراء الحفل بعد حادثة سرقة المرطبانات وذلك من أجل إذابة الجليد والتخفيف من العداوة بين المزارعين والإصلاحية. فقد تمكن الأولاد خلال شهرين من وصولهم إلى هذه الديار من إزعاج الجميع وإغاظتهم.

كان النادي الصغير يقع بالضبط وسط القرية، وهو بناء من الآجر، مؤلف من طابق واحد، تزين واجهته عدة أعمدة. وكانت لا تزال تظهر آثار شظايا على الأعمدة التي طُينت ودُهنت على عجل.

كانت القاعة رحبة، تتوزع فيها على صفوف، مقاعد خشبية قابلة للطي. لم يكن هناك ستارة على المسرح. كانت هناك عدة درجات إلى يمين ويسار المسرح. وعلى الجدار الملاصق لخشبة المسرح من الجهتين كانت تبدو للعيان كتابات كُتبت لكن بلغة غريبة عن اللغة الروسية، طُمست بألوان زيتية وغطيت جزئياً بصور الزعماء. بدا المشهد وكأن الزعماء القادة يحجبون خلف ظهورهم الشعارات التي أطلقوها هم أنفسهم، لكنهم كانوا خجلين من اللغة غير المرغوبة التي كُتبت بها.

وفي أقصى يسار خشبة المسرح منصة خشبية طُليت باللون الكستنائي.

والغريب أن الحضور من المستوطنين كان كثيفاً، وأغلبهم كان ثملاً، يتحدثون بحماسة، ويتبادلون أطراف الحديث بصوت عالٍ من صف إلى صف. باختصار كانت القاعة صاخبة.

تسرب أولاد الإصلاحية إلى الأماكن الشاغرة. ولكن وبدافع الغريزة أو التقليد السرمدي للمشردين، حين يكونون في مكان غريب، يتوقون للبقاء كتلة واحدة ويتجمعون في مكان واحد، ليكونوا على أهبة الاستعداد، فلربما تعرضوا لطارئ.

شقوا طريقهم إلى المقدمة، وجلسوا رأساً على الأرض بين الصف الأول وخشبة المسرح. ومن لم يتسع له المكان، وقف بجوار الحائط مستنداً إليه، وهذا أيضاً يعدّ احتياطاً دفاعياً، واحتلالاً للممرات الجانبية.

اعتلى المدير بيوتر أنيسِمَفيتش خشبة المسرح، واتجه نحو المنصة، وبحوزته حقيبته المعهودة. صفق له بعض من رآه يعتليها. وكما يُفترض فقد كان للمدير لقبٌ يطلق عليه وراء الكواليس، وكان هذا اللقب «أبو شنطة». كان الأولاد يقولون مثلاً: «قام أبو شنطة بحملة تفتيشية في مهجع النوم». وهنا ومنذ قليل علق أحدهم وبصوت مسموع:

- سيقدم أبو شنطة تقريره. عن إنجازاتنا.

ضحك الأولاد الجالسون في المقدمة. فإنجازاتهم كانت معروفة.

أرجأ المدير كلامه حتى هدأت الضجة وتوقفت موجة الضحك. بدأ الكلام دون أن يستعمل ورقة. هنأ الفلاحين - المهجرين الجدد، بالعام الأول لإقامتهم على الأرض المحررة من العدو الفاشي، وأكد أنه كان عاماً صعباً. وتمنى للجميع التوفيق والنجاح في جني المحاصيل وبداية حياة جديدة. ولا سيَّما أن المحتل الألماني الفاشي قد هُزم، وجنوده يفرّون من أرض المعركة. وقريباً، قريباً جداً ستكون ساعة الحساب، والحسم النهائي للمعركة. هذا تماماً ما قاله زعيم البروليتاريا العالمية: «قضيتنا عادلة، والعدو سيُهزم، والنصر حليفنا».

صفق الجميع. لم يكن التصفيق «لأبي شنطة» وإنما كان طبعاً للزعيم.

- أولادنا في الإصلاحية، تابع المدير، قدِموا إلى هذه المنطقة أيضاً، ليساهموا في استصلاح هذه الأرض الطيبة، بعد سنوات من حياة الجوع والتشرد، ليبدؤوا حياة عمل وإبداع جديدة، كما يعيش جميع العمال السوفييت... قريباً سيبدأ عامهم الدراسي، وهم سيساعدون الفلاحين في أعمال الحصاد وجني المحاصيل.

- بالتأكيد هم يساعدون. صاح أحدهم من القاعة. وانتشرت ضحكات لطيفة. - ...وأولئك الذين يتمون الخامسة عشرة من عمرهم ويغادرون الإصلاحية، ينتقلون للعمل في المزرعة التعاونية أو في معمل الكونسروة، تابع المدير محاولاً عدم سماع التعليقات. - لذلك فإننا سنعيش متجاورين مدّة طويلة، نحن وأنتم. أعتقد أن لقاءنا اليوم سيساعدنا على فهم بعضنا الآخر بشكل أفضل، ويعطينا فرصة لتكوين الصداقات... ولذلك فإن المزرعة التعاونية وكبداية، خصصت لنا أرضاً لنعمل بها، كمنشأة إنتاجية، صحيح أنها بعيدة بعض الشيء ولكن لا بأس. فعند شبابنا عضلات فتية، سيركضون ليصلوا إليها... إذنْ، صار عندنا قاعدة غذائية، هناك المزروعات والأبقار والماعز... وغيرها... شكراً.

كان التصفيق في القاعة خفيفاً. فالحديث عن الجيرة طويلة الأمد مع أولاد الإصلاحية لم يثر حماس الجمهور. علاوة على اقتطاع جزء من الأرض والماشية لهم. ولكن الجميع صفق بحماسة عندما أضاف المدير وهو يغادر المنصة أن الأولاد هم بلا شك بارعون ومنهم فنانون وممثلون حقيقيون وهم حضَّروا لجمهور المزارعين حفلهم الفني الأول.

صعدت إلى المسرح فرقة ميتيشه، وهم عشرون شخصاً. قدمتهم المعلمة يفْغِنيا فاسيلَفْنا، وقالت إنهم سيقدمون أغنية عن الرفيق ستالين. أومأ المدير مستحسناً تقديمها.

وبدأت الجوقة:

طيري أغنية النصر إلى الساحة الحمراء وحلقي،
وبالأرض الحبيبة ومزارعها التعاونية تفاخري
ليتدفق القمح أنهاراً في العنابر،
وليهنأ ستالين بنجاح العمل المثابر.

قام شباب جوقة الكورال الجالسين في المقدمة وبدؤوا فجأة يرقصون، يمثلون دور المزارعين المبتهجين بالنصر، داروا ودار فيهم النادي، وصفق الجمهور المسرور لهم بحرارة، وبدأ شباب الجوقة ينحني للجمهور، ليس بتلك البراعة التي رقصوا فيها. ولكن وبما أن التصفيق لم يتوقف، ولم يتقدم أحد ليعلن الفقرة التالية، وقف شباب ميتيشه ينتظرون. ثم وكما لو أن أمراً صدر، قدموا رجلهم اليمنى إلى الأمام، وبدؤوا يغنون: «توم-تا، توم-تا، توم-تا، توم-تا...».

ركب جندي قطاراً،

جندي عادي،

أنيق ووسيم،

نهض المدير وشق طريقه نحو المخرج.

طبعاً، أدرك الشباب أن «أبا شنطة»، لا يريد سماع أغنية لم يوافق عليها. لكن السبب لم يكن هذا. أو بالأحرى ليس هذا فقط.

كان الأمر عاجلاً، لم يعرف به أحد، كان من الضروري التوجه إلى الإصلاحية مع السائق فيرا، والمشاركة في التفتيش، فوفقاً لبعض الافتراضات، تم إخفاء مرطبانات المربى المسروقة من المعمل في منطقة الإصلاحية.

كان الحفل عذراً مناسباً لإبعاد الأولاد جميعهم عن الإصلاحية، الجميع بلا استثناء، للقيام بإجراءات التفتيش والعودة إلى النادي قبل أن تنتهي الحفلة، فقد كان من المفترض أن يقوم الفلاحون بعد انتهاء الحفل كبادرة حسن نية وكدليل ورمز للصداقة بإقامة وليمة عشاء على شرف أولاد الإصلاحية.

لم يعرف أحد بهذه العملية، والكوزمينان كبقية الأولاد لم يعرفا شيئاً عنها ولم يتوقعا أي شيء بهذا الخصوص. حتى ساشكا بعيد النظر، كان غافلاً عن هذا الموضوع، وجل ما كان يهمه في هذه اللحظات هو متى سيُسمح لهما بالصعود إلى المسرح.

كانا يلفان ويدوران في غرفة ضيقة أشبه بالممر خلف المسرح، وكانت المعلمة يفْغِنيا فاسيلَفْنا تنادي مشاركي الفقرة التالية.

- هيا، شباب كَشيره... أسرعوا. وشباب لوبلِنو، تجهزوا.

- ونحن؟ متى سنغني؟ تقدم الكوزمينان من المعلمة.

- ما اسمكما؟

- كوزمين.

- كلاكما؟

- ماذا، كلاكما؟

- وما اسم كل منكما وحده؟

- نحن سنغني معاً.

- حسناً... قالت المعلمة يفْغِنيا فاسيلَفْنا. - يعني أنكما ثنائي من نفس العائلة؟ انتظرا.

نظر الأخوان أحدهما للآخر ولم يتفوها بأي شيء. قالت عنهما من نفس العائلة مع أنهما لم يزعجاها بشيء. وهما كانا قد التقيا يفْغِنيا فاسيلَفْنا – يفغيشا – مرة، لكنها قد تكون نسيت هذا اللقاء. حدث هذا عندما زارا مرة ريغينا بتروفنا، وصدف أن لديها ضيفين، يفغيشا هذه والمدير، كانوا يشربون الشاي. التفت الثلاثة إليهما، والكوزمينان كما لو أنهما يُعرضان أمام لجنة تتفحصهما، يقفان وسط الغرفة، ولم يكن من المناسب المغادرة على الفور.

ضحكت ريغينا بتروفنا وقالت وهي تشير إليهما، ها هما صديقاي، من المستحيل تمييز أحدهما من الآخر، ويدعيان كوزمين. ولا داعي لحفظ اسميهما بشكل منفصل، فهما لن يتركا لأحد المجال ليميزهما، سيشوشان على من يحاول ويضيعانه. ستضيعانه، أليس كذلك؟ سألت هي الأخوين. وهما هزا رأسيهما موافقين. والجميع ضحك بطيب خاطر. وضحكت أيضاً ريغينا بتروفنا، ولكن ليس كزميليها، اللذين ضحكا من باب المجاملة والتسلية، وكانت ضحكتها هي ممزوجة بعاطفة صادقة كما لو أنها قريبتهما.

لم يحاول الكوزمينان التذكير بنفسيهما، فهما كانا فقط يريدان أن يعرفا إن كانت فقرتهما لا زالت قائمة ولم تسقط سهواً.

في هذا الوقت، توجهت مجموعة من الأشخاص إلى الإصلاحية، كان بينهم المهندس التقني في معمل الكونسروة، ومدير الإصلاحية، وجندي يحمل جهاز كشف الألغام.

فتش الجندي باحة المعهد الفني بكل دقة. ولم يكتشفوا سوى بعض القطع الحديدية، وأجزاء من سيارات قديمة، لم يجدوا ما يبحثون عنه.

اقترح أحدهم أن يعودوا ثانية ويفتشوا مهجع نوم الأولاد الأكبر سناً، بعد أن كانوا قد نكشوه وقلبوا عاليه سافله، ولم يجدوا شيئاً.

عاد الجندي وفحص المكان، سار فيه عدة مرات من زاوية إلى أخرى، ولكن دون جدوى. كانوا على وشك المغادرة، عندما سمع الجندي في سماعات أذنيه صفيراً ضعيفاً، وكان هذا الصفير يشير لوجود كمية قليلة من المعدن.

حرك الجندي الصحن الكاشف بالذراع الطويلة الموصولة به في أرجاء المهجع، ثم نزع سماعات الرأس وأشار إلى الزاوية البعيدة.

أحضروا عتلة يدوية، وبدؤوا نزع ألواح الأرضية الخشبية، التي كانت سميكة وقوية، ولم تستسلم بتلك السهولة.

كان بيوتر أنيسِمَفيتش يراقب هذه العملية مشككاً، ألقى نظرة خاطفة إلى الساعة، وسأل الجندي:

- ألا يمكن أن تكون مخطئاً؟ وانتقل بكلامه إلى آخر: - غريب، أقسم إني لا أفهم ما يجري. حسناً أخبروني، كيف يمكنهم أن يخبئوا شيئاً هنا. لا أدوات لديهم... ولا شيء...

- حسناً، وافقه المهندس التقني وعدل نظارته المعدنية. - سننتهي الآن، هذا آخر مكان نبحث فيه، إن لم نجد هنا شيئاً، فسنغادر فوراً. وهذا يعني أن أولادك بمنتهى الذكاء، وهم بهذا يثبتون أنهم أشطر منا.

- أو أشرف منا. قال المدير. - وهم لم يسرقوا شيئاً.

- باستثناء الستة عشر...

- باستثنائها... أخذ المدير نفساً وهو يكرر ما قاله المهندس.

في هذا الوقت كان أحد الأولاد من رامِنسكَيه يقرأ الشعر:

وحدي في الأعالي، والقوقاز تحت ناظري،
وأنا فوق الثلج، على حافةٍ عند المنحدر،
ونسر من بعيد سما، بعليائه يحاكيني،
حام، لا بل طفا، وما انحدر.

قال ساشكا لكولكا:

- هذه الأبيات[1] تتحدث عن الرفيق ستالين.

- كيف هذا؟ لم يفهم كولكا. هو دائماً يتأخر في فهم المغزى.

غضب ساشكا، وبدأ يشرح:

- هو يقف أعلى الجبل... وحده، مثل النصب التذكاري، هل فهمت؟ هو عظيم، أي إنه وحده يقف على الجبل... وهناك نسر، أترى، لم يكن أعلى منه، يخاف أن يعلو أكثر، هما متساويان. وهو يقف، وينظر إلى الاتحاد السوفياتي، ليتمكن من رؤية الجميع، الجميع. هل فهمت؟

تابع الولد القراءة:

... في الوادي طحالب هزيلة،
وأحراج شجيرات يابسة،
وفيه بساتين غنّاء، ومروج خضراء،

---

(١) كتب بوشكين هذه القصيدة عام ١٨٢٩. المترجم.

هنا تثرثر طيور، وتعربد أيائل.

وهنا في الجبال أناس يسكنون.

هنا في هذا المكان من القصيدة، ولسبب ما، ساد صمت رهيب في القاعة، لكن القارئ المنهمك في قراءته لم يلاحظ ذلك، وتابع ينشد أبيات الشعر المعروفة.

... وعلى المنحدرات الخضراء تسري النعاج،

وينزل الراعي إلى الوهاد الزاهية،

حيث يندفع نهر أراكفا[1] بين الضفاف الظليلة.

ويتخفى فارس بائس في الثغور...

سُمعت همهمة غريبة بين الصفوف في القاعة. وفجأة بدأت تُسمع كلمات مبعثرة، وصارت تنتقل بين الصفوف، كلمات لم تُدرك في مغزاها، ولكن ما فُهم منها كان يدور حول شيء واحد: «هذه القصيدة عن الشيشان، عنهم، عن الأوغاد».

تحمس الحضور لدرجة أنهم نسوا أن يصفقوا. صفق الأولاد وحدهم لأنفسهم.

... وأخيراً، نُزعت ألواح الأرضية، وصرّت مساميرها الطويلة، وانفتحت فيها حفرة أمام أعين اللجنة، وومضت في عمقها أغطية المرطبانات الذهبية. كم كان عددها، مئات، آلاف؟ لم يكن سهلاً معرفة العدد فوراً.

كانت المرطبانات مرتبة بعضها فوق بعض على الأرض، وُسِمَ غطاء كل منها بعلامة تدل على صاحبها: حرف ورقم. حتى لا يحصل خلط فيما بعد.

قفز التقني إلى الحفرة، وضبط نظارته المعدنية، نظر حوله، وهو غير مصدق أن هذا ممكن. رفع رأسه إلى المدير وطلب منه قلماً وورقة.

---

(١) أراكفا: نهر شرق جمهورية جورجيا، ينشأ من المنحدرات الجنوبية للسلسلة الرئيسية لجبال القوقاز. المترجم.

- سنقوم بكتابة ضبط. البضاعة هنا تفوق كميتها ما هو موجود في مستودعات المعمل. سنصادرها رفيق مِشْكوف، أليس كذلك؟

شحُب لون بيوتر أنيسِمَفيتش فوراً، وبسرعة فتح محفظته وأخرج منها ورقة. وقال بصوت خافت:

- غريب، أقسم إني لا أفهم ما يجري...

عندما اعتلى الكوزمينان خشبة المسرح، ساد القاعة صمت طويل. نظر الأخوان إلى الصف الأول، حيث جلس أولاد الإصلاحية، ثم حملقا في الفراغ، وبدأا:

صقران في الفضاء الرحب يتحادثان

فوق الروابي، فوق أشجار السنديان

هذان صقران معروفان

لينين وستالين يسميان

طبعاً هي أغنية حزينة، تتحدث عن صقرين يودع أحدهما الآخر، كان أحدهما يحتضر ويوصي الآخر، والثاني يقسم بأن لا يحيد عن الطريق.

وصان عهده،

ولم ينقض قسمه،

قسم الكفاح والنضال

صان الوطن، وأسعد البشر...

أنهيا الأغنية بنجاح، كانت الأغنية في غاية الروعة، إنها أغنية مؤثرة جداً. ولإضفاء جو من المرح تابعا بأغنية مرحة هوب سا سميكَم[1]. وهي أغنية مناسبة ليغنيها ثنائي.

أديا المشاهد بحرفية وغادرا المسرح والجمهور يهتف لهما مستحسناً ما قدماه.

---

(١) هوب سا سميكم: من أشهر أغاني الشوارع في عشرينيات القرن الماضي. المترجم.

لاحظ الأخوان وهما يغادران خشبة المسرح، أن المدير بيوتر أنيسِمَفيتش يشق طريقه إلى مقعده عبر الأولاد الجالسين على الأرض. ضاماً حقيبته إلى صدره. من يراه، لا يمكن إلا أن يلاحظ أن وجهه لم يكن حزيناً فحسب بل كان ممتقعاً، داكن اللون.

أخذ نفساً عميقاً، وجلس على مقعده، واستعد للاستماع، دون أن يخطر بباله أن الحفل قد شارف على نهايته.

- حان وقت السحر والخدع وألعاب الخفة. قدمت يفْغِنيا فاسيلَفْنا هذه الفقرة على خشبة المسرح، ملوحة بيدها المتشبثة ببرنامج الحفل، مستدعية ميتكا إلى المسرح.

كان ميتيوك قد لف رأسه بمنديل كبير وجده في غرفة خلفية، وصار يشبه درويشاً شرقياً، لكن أولاد الإصلاحية تعرفوا عليه وبدؤوا يضحكون على الفور:

- هذا ميتيوك، إنه ميتيوك، المصشاب بالغنشيان.

تظاهر ميتيوك بأنه لم يسمع شيئاً مما قيل، ومثَّل دور الساحر. رفع يديه إلى الأعلى، وحركهما في الهواء، فظهرت تفاحة في راحة يده. عض ميتيوك التفاحة بأسنانه، وعلق أولاد الصف الأول:

- ما هذا، إنه مذهل، وهل يمكنك إحضار مرطبان مربى؟

جفل المدير من هذه الكلمات، والتفت مذعوراً.

تابع ميتيوك بشهية أكل التفاحة، ثم مرة أخرى بحث في الهواء وحرك أصابعه، فظهر بينها غطاء ذهبي من تلك الأغطية التي يغطون بها مرطبانات المربى في المعمل. ثم كثرت الأغطية بين أصابعه، وصارت تتساقط على خشبة المسرح، واثنان وقعا في القاعة بين الجمهور.

- سرقها من المعمل... سرق الأغطية من المعمل. قال أحدهم بصوت عالٍ، لكن الجمهور أسكته.

- دعنا نتابع، لا تزعجنا، وتشوش علينا المشهد.

- والآن سشأقدم الفقرة الرئيسشية. نبههم ميتيوك ونظر إلى القاعة. - عند أحدكم الذي يجلسش في المسشرح، سشآخذ منه شيئاً عبر الأثشير...

عادت الحيوية إلى القاعة، وبدأ الحاضرون يتفحصون جيوبهم.

انكمش المدير ورمق ميتكا بكثير من القلق والخوف. ربما ندم الآن أنه سمح له بهذا العرض.

مسحت عينا ميتكا القاعة برفق، وتوقفت عند المدير، وركزت على محفظته، حتى إن ميتكا مد يده افتراضياً إليها.

ضم بيوتر أنيسِمَفيتش المحفظة إلى صدره بشدة.

ابتسم ميتيوك بخبث. وظهرت في يده قطعة من الورق.

- ها هي، صاح ميتيوك وراح يلوح بقطعة الورق في الهواء. - إنها من المحفظة.

- أثبت أنها منها. صرخت جموع القاعة، أما المدير فقد ألقى نظرة إلى محفظته. كانت مقفلة بإحكام بكلا القفلين.

- هل تسشمح لي؟ أأثبت لهم؟ سأل ميتيوك المدير.

- طبعاً أسمح لك، أثبت لهم، ولوح بيده بضجر موافقاً. دون أن يخفف من شدة ضمه لحقيبته إلى صدره.

- سشأقرأ، قال ميتيوك وانغمس في قطعة الورق. - قمنا اليوم، الخامسش من تشرين الأول، بتفتيش منطقة الإصشلاحية، وبالأخصش، مهجع نوم أولاد الصشفوف العليا... وتم نزع الأرضية واكتشاف مخبأ يحوي...

- توقف، صرخ بيوتر أنيسِمَفيتش، حتى إنه نهض من مكانه من فرط اضطرابه. - هذه الورقة من أوراقي.

- اقرأ، اقرأ أيها الساحر، صاحت القاعة.

- ... واكتشاف مخبأ يحوي، أعاد ميتيوك قراءتها بوضوح، - خمسشمئة مرطباناً من مربى الخوخ المعلب معملياً...

- أعيدوا لي الورقة. صاح المدير.

لكن الأولاد اندفعوا يخرجون، ربما كانوا يفكرون بإنقاذ ما يمكن إنقاذه من ثروتهم. ومن جهة أخرى، ما هذا الحفل الذي عنوانه الصداقة، ويستغيبونك ليفتشوا مكان نومك.

وبدأ المزارعون يخرجون هم أيضاً، يتضاحكون فيما بينهم ويعبرون عن امتعاضهم: يا عيب الشوم، يا لهم من محتالين، سرقوا خمسمئة مرطبان باسم الصداقة.

ووسط ضجيج الخارجين وجلبة المقاعد، لم يكن ممكناً سماع صوت يصرخ وينادي في الصفوف الخلفية: «صمتاً، من فضلكم، صمتاً».

وفجأة صمت الجميع وهم في ذهول، والتفتوا إلى مصدر الصوت: ماذا هناك، يصرخ كالمذبوح، ربما تعرض للسرقة هو الآخر؟

ووسط الصمت الحاصل، سُمعت بشكل جلي، أصوات حوافر خيل، أعقبه صهيل أحصنة وصيحات حلقية. ثم صوت ضربة عنيفة كأنها جاءت على سقف القاعة، اهتزت الجدران، وتساقطت الطينة الإسمنتية. كان الانطباع الأولي أن البناء ينهار. انحنى الناس بشكل تلقائي، وبعضهم انبطح على الأرض.

وساد صمت مطبق. اصاخ الجميع السمع، وانتظروا ما يمكن أن يحصل، وهم ينظرون إلى السقف. ولكن لم يحصل شيء. عندها بدأت الناس تتحرك، وعندما استعادوا رشدهم بدؤوا ينظرون حولهم مرتبكين. وفجأة اندفعوا نحو الباب الخارجي دون اكتظاظ ودون صياح، حتى دون أي كلمات على الإطلاق، خرجوا واختفوا، تاركين أولاد الإصلاحية خلفهم في عتمة النادي.

- هرب أصدقاؤنا الجدد، أليس كذلك؟ بلسان سليط انطلق صوت، وسط الصمت المطبق.

وهنا جاء صوت بيوتر أنيسِمَفيتش.

- على جميع تلاميذ الإصلاحية البقاء في النادي. صاح المدير وهو ينظر إلى الباب الخارجي. - سنخرج بشكل منظم، عندما ... عندما... عندما...

- علقت أسطوانة «أبي شنطة»، قد يكون من الخوف. همس ساشكا.

وكولكا هز رأسه. وهو أيضاً كان ينظر إلى الباب.

وتناهى إلى سمعهم من الشارع صراخ جعلهم جميعاً يجفلون.

- لقد فجروا السيارة. سيارة فيرا، وهي فيها، وهناك بيت يحترق.

- والناس؟ سأل المدير بصوت أجش. لم يكن مفهوماً أي ناس يقصد. الذين كانوا هنا وهربوا، أم... الذين... - هل هناك أحد؟ ارتفع صوت المدير ثم انقطع.

أعاد أحد الأولاد الخبر عن السيارة وعن فيرا... وعن البيت الذي يحترق.

وصل المدير بحذر شديد إلى الباب واسترق النظر إلى الخارج. ثم ألقى نظرة أخرى، وأصاخ السمع للأصوات القادمة من الشارع. وقال دون أن يكون حاسماً، وفي صوته خشونة وحشرجة.

سنخرج... يعني... إلى الخارج... غريب، أقسم إني لا أفهم ما يجري...

توجه الأولاد نحو المخرج، دون أن يندفع أي منهم إلى المقدمة.

كان الشارع خالياً، مظلماً، لم تضئ نافذة واحدة في بيوت القرية. هل غادرها سكانها؟

في الساحة، خلف النادي، اتقدت النار في سيارة «ستودبيكر»، التي كانت تنقل الأولاد إلى المعمل. جمد الأولاد وهم يحدقون بالنار. ربما كان الجميع يفكر الآن بفيرا.

لم يتوقف المدير وكأنه لم يلحظ السيارة المشتعلة، تقدم إلى الأمام، واندفع الجميع خلفه. وفي مكان عند أطراف القرية خلف الأشجار لاح لهم وهج نار. وعندما اقتربوا أكثر، صار واضحاً أن هناك منزلاً يحترق.

جفل كولكا، وقال:

- هذا منزل إيليا.

وسأل ساشكا:

- هل تعتقد أنه هناك؟

- وكيف لي أن أعرف.

- ربما هرب... وربما... لا؟

ونظر الأخوان أحدهما للآخر. كان في عيني ساشكا، التي كانت تنظر إلى البيت وهو يحترق، ألسنة نار تتراقص.

التفت المدير وصاح بشكل هستيري نوعاً ما:

- ممنوع على أي أحد الاقتراب من أي مكان. فقط كونوا معي، هل هذا مفهوم؟

ولأنه صرخ بذاك الصوت المرتفع، ولأن لحن الصوت لم يأتِ حاملاً الطابع الرجولي المميز، التزم الأولاد الصمت وانكمش بعضهم إلى بعضٍ.

الصورة كانت هكذا. المدير يسير في المقدمة، والمحفظة أمامه يحملها كالدرع.

لم يكن في مشيته ترددٌ، بل كان فيها بعض الترنح وعدم الثبات، وكأنه نسي كيف يمشي. ربما كان يستشعر دعم الأولاد خلف ظهره، وهم أيضاً يشدون عضدهم به ويشعرون به سنداً قوياً، فهو أقرب الناس إليهم، يحميهم ويخفف عنهم.

الحمد لله، أن أحداً منهم، لم يكن باستطاعته في هذا الوقت رؤية ملامح وجهه. فالظلام حالك خاصة بعد الحريق الساطع.

مشينا متجمعين في كتلة متراصة صامتة. لم تتلاءم أعيننا بعد مع سواد الليل، ولا زالت تحتفظ على شبكياتها بألسنة اللهب الحمراء. وعلى غير العادة فقد كان يمكن أن تبدو ألسنة النار في أي مكان من الظلام. حتى إننا كنا نسير بكثير من التؤدة والحذر، حتى لا تصدر أحذيتنا أصواتاً. حبسنا أنفاسنا، وحاولنا ألا نعطس أو نسعل.

من كان يسير في المؤخرة، كثيراً ما كان ينظر خلفه، ولذلك سعى المتخلفون إلى السير في الوسط، هذا كان يبدو لهم أكثر أماناً. كل شيء حولنا كان يُشعرنا بالخطر: الليل وظلامه الثقيل الدامس، وأدغال الذرة الكثيفة على جانبي الطريق، والتي تنبعث منها الكثير من الأصوات بفعل نسائم غير محسوسة.

ماذا عرفنا، وماذا تمكنا من إدراكه من كم الأخطار التي كانت تحيط بنا، من حجم المخاطر التي كانت تحدق بنا؟ لم نكن نعرف شيئاً ولم ندرك شيئاً.

وشوشات، وصمت وتكتم حول أمور كثيرة، لا يمكن الجزم بحقيقة ما حصل فيها، وتخضع فقط للتكهن، مثل ذاك الحريق المؤسف الذي تعرض له مستودع الإصلاحية.

لكننا كنا ساذجين، غافلين، لم نكن ندرك أننا زائلون، حتى إن الخطر لم يكن واضحاً لنا، ولم يكن يعني لنا أكثر من لعبة.

علمتنا الحرب أن نكافح لنحافظ على وجودنا، لكنها لم تعلمنا على الإطلاق أن نترقب الموت.

من سيبقى على قيد الحياة، وينجو، وتتقدم به السن، سيتذكر هذه الأحداث فيما بعد: صهيل الأحصنة، والأصوات الحلقية الغريبة، والانفجارات، والسيارة التي كانت تحترق وسط قرية مهجورة، وعبور مناطق غريبة ليلاً.

كنا خائفين، ليس لأننا قد نموت. كنا كمثل وحش عندما يُحكم الحصار عليه في مكان ضيق، ولا يُسمح للضوء بالنفاذ إليه. ونحن كنا نشبه الوحوش الصغيرة التي أحست الخطر على جلدها، دُفعنا إلى هذه الليلة، إلى حقول الذرة هذه، إلى الانفجارات والحرائق.

لكن هذه الكلمات، هي كلمات كتبت بعد أربعين عاماً من أحداث خريف عام أربعة وأربعين. هل من الممكن أن أستخلص من ذاتي وأنا أجلس في شقة مريحة في موسكو، ذاك الشعور بالرعب اللامتناهي، والذي كان يتناسب طرداً مع عددنا، فنحن كنا كثر والرعب بيننا كان أشد وأقوى منا جميعاً. كان الخوف يتضاعف عند كل منا، فهناك الخوف الذي نواجهه مجتمعين، وهناك خوف يشعر به كلٌ منا وحده، خوفه الخاص به، الذي يمسكه من رقبته.

تذكرت شيئاً واحداً، كانت ذاكرة الجسد، الأكثر حقيقة من أي شيء آخر، تذكرت كيف انقصفت رِجلايَ من الخوف، ولم يكن أمامهما خيار آخر، إلا متابعة المشي، والركض، ففي هذا الركض تراءت لنا النجاة.

كان الخوف شديداً، وكانت هناك رغبة جنونية في الهرب والسفر والاختفاء في مكان ما، ولكن فقط مع الجميع وليس بشكل فردي. وطبعاً كنا على وشك الصراخ، لكننا كنا صامتين، ولو أن أيّاً منا صرخ فجأة، أو بدأ يعوي، كما يعوي ذئب حوصر من جميع الجهات، لبدأنا الصراخ والعواء جميعنا، عندها بالتأكيد، كنا سنفقد عقولنا.

بكل الأحوال، فإن تلك الرحلة في ذاك الليل المميت، كانت دافعنا إلى الحياة ولم ندرك هذا في حينه. أردنا أن نعيش، أن نأكل ونتنفس ونركض ونكتب ونعمل...

لكن الحظ لم يحالف الجميع.

-٢٠-

في تلك الليلة قرر الكوزمينان الهرب.

ساد الذعر الإصلاحية بأكملها، من المدير بيوتر أنيسِمَفيتش حتى آخر ابن آوى من الصفوف الدنيا، وهذا أصاب الأخوين أيضاً.

ما أذهلهما وحيرهما ليس الانفجار بحد ذاته، الذي حدث وسط القرية مساءً، ولا اشتعال النيران في «ستودبيكر»، رغم غرابة مشهد احتراق الحديد، وإنما كان بيت إيليا زفيريوك الذي التهمته النيران.

كان زفيريوك هو أول من حذرهم من الخطر.

حذرهم المغفل، ووقع هو نفسه ضحية الخطر الذي حذرهم منه. ثبُتَ أنه لا يمكن لأحد أن يهرب من قدره. راوغ واحتال حتى احترق. ورغم أن مسار التفكير اتجه بهذا الاتجاه، إلا أن شعوراً بالأسف لإيليا يبقى مسيطراً. لم يبق في الذاكرة النصب والاحتيال في ممارساته وإنما ذاك الموقف، عندما دافع عن الأخوين ورفع يده بوجه ذاك الشاب، الذي كان يلاحقهما وسط صياح الباعة في فارونِج. وهنا أيضاً في هذه القرية، على هذه الأرض الغريبة، من يمكن أن يدعوهما إلى منزله، إن لم يكن إيليا... وعندما ودّعهما، قال لهما محذراً أن اهربوا، فالوضع هنا سيسوء.

وإلى أين يهربون؟ الكلام سهل. لكن الوضع الآن تغير، فقد صار بحوزتهم هذا الكم من مرطبانات المربى، وهذا غيَّر الحال.

الآن بمرطبان واحد، ستسمح لهما أي عاملة قطار بدخوله والجلوس في مدخل العربة، وقد تُدخلهم إلى داخل العربة، ليس كالمشردين على الأرض أو في صندوق الكلاب، وإنما بسرير كما الناس الأكابر.

عرف الأخوان وشعرا بالشيء نفسه، رغم أنهما لم يتبادلا النظرات، أحسا بأن كل شيء حولهما يحترق، ومن لم يستشعر قرب النار من الإصلاحية فهو إما أعمى وإما غبي... وهي تتحضر الآن.

لم ينم أحد في تلك الليلة. والأخوان أيضاً.

شبان الصفوف الأعلى في مهجع نومهم الممزقة أحشاؤه. نظروا بكآبة إلى مخبئهم العميق، الذي فتحوه بأنفسهم، ورائحة العفونة والجرذان تنبعث منه.

انقبض قلبهم من هذه اللوحة التي أمامهم، تجمدت عروقهم. هكذا بالضبط تَجْمد جرذان الحقول عندما تُفاجأ في أواخر الخريف وعلى أعتاب موسم الجوع الشتوي، بأن مخبأ الحبوب الذي جمعته قد دُمر.

لم يكن الكوزمينان يعرفان بأمر المخبأ لكنهما توقعا أن يكون سرداباً كبيراً. استنتجا أن لمثل هذا الدفق العظيم من المرطبانات يجب أن يكون له مخبأ كبير. لكنهما لم يستحسنا مثل هذا المخبأ.

فالجنود الذين يقومون بنشاط سري خلف خطوط العدو، يتحركون وفق قاعدة الترويكا، هذا ليكون احتمال القبض عليهم أقل.

أما ضباع الإصلاحية فيسرقون معاً، ويخبئون كل ما يسرقونه معاً وفي مكان واحد، ولذلك قُبض عليهم معاً، وخسروا كل شيء.

لكنّ الشقيقين كانا الليلة قلقين على مخبئهما وليس على مخبأ غريب.

وكانا قد قررا، وبمجرد أن تهدأ الأمور، أن يجمعا ثروتهما ويضعاها في أكياس ويحملاها على ظهريهما ويتمشيا بها حتى المحطة... ثم إلى القطار، والفرار، الفرار، الفرار.

صار واضحاً لهما وبشكل خاص على ضوء الحريق هذه الليلة، أن عليهما أن يفكرا بنفسيهما، أن يفكرا في خلاصهما.

وفي منتصف الليل عندما غرقت الإصلاحية أخيراً بنوم ثقيل مضطرب، إلا الذين أصيبوا بالأرق، انسل الشقيقان من خلف الإصلاحية، وتسللا عبر الفتحة في الجدار الشائك، التي ضاقت الليلة على غير العادة. وشقا طريقهما إلى ضفة النهر.

وعندما أصبحا قريبين، ومن خلف الشجيرات، شاهدا أنوار مصابيح وامضة، وسمعا أصوات رجال.

خفق قلباهما وتسارعت ضرباتهما، ورجفت أوصالهما حتى وصلت إلى أكعابهما. حسبا الأمر أنهم قد تمكنوا منهما ووصلوا إلى مخبئهما، وهم الآن يفتشونه. فمن فتش مهجع النوم تحت ألواح الأرضية، ماذا يمنعه أن يفتش هنا قرب النهر؟

لكنهما عندما اقتربا أكثر، فهما أن مخبأهما في مأمن، ولا علاقة له بما يجري.

وكما يقال كلٌّ يغني على ليلاه.

كل ما في الأمر أن جنوداً وصلوا إلى ضفة النهر على دراجاتهم النارية، قرروا أن يستريحوا قليلاً. لم يشعلوا ناراً لكنهم أضاؤوا بعضهم لبعض بمصابيح دراجاتهم النارية، يتحدثون ويمزحون وهم يتحركون أمام دراجاتهم. ورغم المسافة التي تفصل الأخوين عنهم كانا يشمان رائحة البنزين.

بصوت عالٍ كان الحديث يدور عن ممر ضيق في الجبال، حيث كَمَنَ لهم قطاع طرق، وأغلقوا عليهم الطريق بالحجارة، وبدؤوا يرمونهم بالرصاص من تلة مقابلة.

قفز الجنود بسرعة تاركين الممر الضيق، كانت خسائرهم دراجة نارية بعربتها الجانبية وإصابة أحد الجنود برضوض على الرأس والكتف.

تمكن الكوزمينان من إلقاء نظرة إلى المقاتل الجريح. كانت تقدم له الإسعافات الأولية، وهو يتأوه، ويسب ثم صرخ بصوت عالٍ، حتى إن الأخوين جفلا:

- البَسماتُ(١) الأوغاد، يجب إعدامهم جميعاً، كما كانوا قطاع طرق منذ مئة عام، كذلك هم الآن قطاع طرق ورؤوس. هم لا يعرفون لغة أخرى، أولاد القحبة... كلهم، يجب إعدامهم، كلهم. ليس غريباً أن الرفيق ستالين طردهم ووضع رجله في مؤخرتهم. يجب تنظيف كل القوقاز منهم. خونة، عملاء. باعوا أنفسهم لهتلر.

ضُمدت جراح الجندي، وسكت بعدها، أما الآخرون فكل منهم ذهب لقضاء حاجته بين جفنات الشجيرات، لم يتوقف الحديث، لكنه أخذ منحى آخر، وصار عن الحرب بشكل عام، وأن نهايتها، رغم ضراوة المعارك الآن، قاب قوسين أو أدنى، وهي ما زالت مستمرة حتى الآن. وأن حظهم السيئ الذي لم يذهب بهم كما رفقائهم الذين يقتحمون أوروبا، وجاء بهم إلى هذه البقاع، ويا للسخرية، يقتحمون البيوت الفقيرة في ممرات الجبال الضيقة... ويدخلون بمعارك مع العجائز والأطفال.

أقنع الجنود بعضهم على المبيت، وبدؤوا بترتيب أمورهم تحضيراً للنوم. أدرك الأخوان أن الجنود لن يتركوا المكان. اليوم لن يرحلوا. وهذا يعني أن الهروب قد تأجل ليوم آخر. الهروب دون المرطبانات قضية خاسرة. أينما توجها دون احتياطاتهم الغذائية، يعني الجوع ثم التسول ثم السرقة... وفي النهاية الشرطة.

ومن سيترك مثل هذه الثروة بمحض إرادته ويهرب؟

قال كولكا: لن أبرح المكان، أنام قرب المخبأ، أموت ولن أخطو خطوة تبعدني عنه. الذود عنه، وبذل الروح رخيصة عند ضفة النهر بجواره أهون عليَّ من تركه.

---

(١) البَسماتش: مجموعات مناهضة للعهد السوفييتي الأول منذ عام ١٩١٧ حتى ثلاثينيات القرن الماضي، كانت غالبيتهم من قطاع الطرق والمجرمين. وحتى الآن يطلق هذا التعبير على الحركات التي قوامها مجرمون وقطاع طرق. المترجم.

قررا أن ينتظرا الصباح. وهو كما تقول الأمثال الشعبية، أكثر حكمة من المساء.

وكان الصبح قد أقبل، وبدأ الفجر ينسج خيوطه الأولى وينثرها عبر الجبال غير المرئية بعد، ونسمات الصباح الرقيقة تداعب حقول الذرة بين الفينة والأخرى.

وعلى الإفطار عند الصباح صار معروفاً أن المعلمة ريغينا بتروفنا قد عادت من المشفى.

سمع الكوزمينان الخبر في المطعم، تبادلا النظرات. وفكر كلاهما بأنهما محظوظان. فالسعادة، كما يُقال، إذا غابت، قد تأتي المعاناة لتساعد في البحث عنها.

أسرعا إلى مخبئهما على ضفة النهر. كان الجنود قد غادروها، وتركوا خلفهم على العشب، قطع القطن المدمى، وبعض أربطة الضماد، وأعقاب السجائر.

أدخل كولكا يده في الحفرة: تمام، المخبأ سليم، جميع المرطبانات بلا استثناء في مكانها. باردة، ناعمة، ثقيلة حتى باللمس.

لو عرف الجنود بجوار أي كنز خلدوا إلى النوم.

والآن، وحتى الليلة القادمة، موعد الهروب المؤجل، كان عليهما بالتأكيد لقاء معلمتهما ريغينا بتروفنا. صحيح أنها عادت، وأكدت الفتيات لهما عودتها وبأنهن رأينها، لكنها لم تظهر لهما في أي مكان. وكيفما حاول الأخوان أن يسترقا النظر من نافذة غرفتها خلف المطبخ، ويتأكدا من صحة الخبر، لكن نظرهما لم يقع عليها.

عانيا كثيراً، تسكعا طوال اليوم، ولم يحصلا على شيء.

ومساءً حين قال كولكا إن الوقت قد حان للهروب، ولا طاقة لديه للانتظار أكثر. أعلن ساشكا فجأة وبشكل حاسم أنه دون ريغينا بتروفنا، ودون أن يراها، لن يتزحزح من مكانه. كولكا يقدم روحه في سبيل المخبأ، وهذا ساشكا لن يغادر دون أن يرى معلمته، ولا يهتم البتة بالمخبأ، لا يهتم بالأحد عشر مرطباناً والكيسين معهما. لا يهتم بكل هذا. ولا يستطيع الذهاب دون ريغينا بتروفنا وولديها. وإلا فهما يكونان قد أنقذا نفسيهما، وتركا شخصاً مثل ريغينا بتروفنا لتموت هنا.

يجب أن يهربوا معاً، هكذا فُهم الحديث.

وضاعت ليلة أخرى للهروب.

خف الإحساس بالخطر الأولي، وذاك الذعر النفسي، الذي عانى منه جميع تلاميذ الإصلاحية، وهدأ الخوف الذي أصابهم، وبدأ ينحسر. وحتى جنازة السائق فيرا في اليوم الثالث لم توتر أعصاب الأخوين.

وعند الصباح وصلت لنقل طلاب الصفوف العليا إلى المعمل، سيارة زيس[1]، وهي شاحنة متهالكة، ترتج كلها، وهي أقرب إلى عربات الجر.

لم تمتد المقاعد على جانبيها، وإنما كانت موضوعة بالعرض، وكانت تتأرجح لأنها لم تُثبت.

كل هذا لم يكن معتاداً لتلاميذ الإصلاحية. سائق صامت، عجوز، كئيب، وهذه المقاعد غير المريحة، وحتى طريقة القيادة الحذرة التي تم بها نقلهم، وكأن السائق ينقل زجاج، ليس هكذا، كانت تنقلهم الرائعة فيرا.

أسف الأولاد على السائق فيرا، كانت قريبة منهم. وهي بكل الأحوال لم تكن غريبة عنهم، فقد كانت تتفهم وضع الإصلاحية وطلابها، ولم تشِ بأي منهم في أي وقت من الأوقات. كانت جميلة ومرحة، تقود السيارة، وهي بمنتهى اللطافة. كانت وكأنها عاشت قرناً في الإصلاحية.

والغريب أن لا أحد من شباب الإصلاحية أراد الذهاب في جنازتها، ولم يشرح أحد سبب عدم ذهابه.

وفقط عندما أُعلن أنه من المنتظر إطعام الجميع في مطعم المعمل، حتى إنه سيقدم لهم اللحم، وافق الجميع. وللعلم فإن طبق اللحم لم يُعرض عليهم قبل الآن. ذهب الأولاد بما فيهم الكوزمينان.

---

(١) زيس: ماركة سيارات روسية كان اسمها ГАЗ (غاز) عام ١٩٢٥ ثم تحول إلى ЗиС (زيس) منذ عام ١٩٣١ حتى ١٩٥٦ ثم إلىЗиЛ (زيل). وجميعها هي الأحرف الأولى لاسم المصنع المكون من ثلاث كلمات. المترجم.

بغض النظر عن الغذاء، فقد كانت للكوزمينين أسبابهما الخاصة، فهما أرادا الذهاب إلى ساحة المعمل الخلفية، إن أمكنهما ذلك، ففرصة كهذه لن تُتاح لهما مرةً أخرى، ليتأكدا من وجود عدة مرطبانات خبّأاها تحت الصناديق، قبل الأحداث الأخيرة.

فلربما قُدر لهما أخذها قبل الهروب المنتظر.

أقيمت مراسم الجنازة كما كان متوقعاً في ساحة المعمل مباشرة.

عند النعش الذي اختفى خلف جموع الواقفين، كانت تقف مجموعة من النساء اللاتي يلبسن المناديل البيضاء، وبعضهن تبكي.

شوهد شبان الإصلاحية من البوابة الخارجية، فبدأت النسوة يستدرن ويتنحين جانباً، أفسحن لهم الطريق ليتقدموا.

ومع أن الأخوين كوزمين لم يرغبا في ذلك، وجدا نفسيهما تماماً أمام نعش مسطح مصنع من ألواح خشبية خشنة دون طلاء. هذه الألواح كانت للأخوين على مستوى عيونهما.

في النعش، حيث حدق الأخوان النظر، بعد أن وقفا على رؤوس أصابعهما، يدفعهما الفضول، وينتظران ما يرعبهما، كانت المسجاة امرأة جميلة، مستلقية، كأنها نائمة، شفتاها مزمومتان، شعرها ضارب إلى الحمرة، وخصلات شقراء تحيط بوجهها الهادئ والغريب.

لم تكن المرأة المسجاة تشبه بأي حال من الأحوال السائق المرحة بالقبعة والملابس الرجالية.

هذه لم تكن فيراهم، هذه كانت واحدة أخرى، هذا ما فهمه الأخوان على الفور. وأشاحا نظرهم عنها. وأطرقا رأسيهما، وصارا ينظران إلى قوائم الطاولة التي وضع عليها نعش المتوفاة.

كانت الطاولة المصنوعة من الحديد والمغطاة حالياً بشرشف، معروفة لهما في المعمل. عليها كانت تُصَفُّ مرطبانات المربى الزجاجية، التي منها كان الأخوان عندما يدير العامل الذي يغلق المرطبانات ظهره يأخذان ما تيسر.

تمنى كلا الأخوين أن ينتهي هذا الواجب الممل بسرعة وينتقلا بهدوء إلى الباحة الخلفية للمعمل. إلى حيث مرطباناتهما.

من الدموع والعويل، من الآهات والنشج حولهما، من كل هذا الحشد، أصابهما صداع، كذاك الذي أصابهما عندما كانا في قسم الشرطة بعد أن قُبض عليهما في السوق.

وأخيراً قام مهندس عجوز، بلباس العمل، وبدأ يروي للجميع أشياءَ عن فيرا، كان يتحدث وهو ينظر إلى وجه المرحومة. قال إن فيرا كانت صبية صغيرة، أكملت التاسعة عشرة منذ مدّة قصيرة، لكن مر عليها خلال حياتها القصيرة الكثير، والأهم أنها نجت من الاحتلال الفاشي. كان النازيون يدفعون الناس إلى العبودية، لكنهم لم يتمكنوا من ذلك مع فيرا... ثلاث مرات هربت عن الطريق، وعادت إلى بيتها ثلاث مرات. في آخر مرة اختبأت في خزانة الملابس، انتزعها الأعداء منها.

وفجأة صار الأمر عند الأخوين مضحكاً عندما تصوروا الخزانة وقد جلست فيها السائق فيرا. لكن الجميع كان ينظر إلى المهندس، ويستمع بانتباه وجدية.

كانت فيرا في المعمل بطلة انتاج، رغم أنها اضطرت للقيام بعمل صعب مخصص للرجال وهو قيادة السيارة. كانت تنقل المنتجات إلى المحطة، تأتي بالأولاد إلى المعمل.. وأشار العجوز بيده إلى الكوزمينين، وهما ارتبكا. وصارا يفكران: وماذا في الأمر أن تقود السيارة، متعة أكثر مما هو عمل شاق.

- نامي يا ابنتي بسلام، لن ننساكِ، أنهى العجوز خطبته وأحنى رأسه. وأضاء شعره القصير الشائب فضةً على أشعة الشمس.

بدأت النساء تنشج، وملأ نحيب العمة زِيْنا بصوتها المرتفع كل المعمل، اتضح من عويلها ورثائها لها أنهما كانتا من قرية واحدة، جاؤوا بهما معاً واجتمعتا هنا.

اندفع الحمالون إلى النعش. وبوجوه مبهمة، وبسهولةِ حملِ ذرة غبار، رفعوا نعش فيرا، حملوه إلى الشاحنة التي أقلت شبان الإصلاحية إلى المعمل.

بدأت الأوركسترا تعزف، آلة إيقاع وآلتا نفخ، ومن قرعات الصنوج وطرقات الطبل القوية، بدأ الأخوان يشعران بألم في الصدر.

جلست النسوة على مقعد جانبي على طول الطاولة والنعش عليها، بضع نساء والعمة زِيْنا معهم تندب. وغادرت الشاحنة.

والجميع بدأ يغادر.

وقف المهندس العجوز وسط البوابة يتحدث وعينه على أولاد الإصلاحية.

- اذهبوا... اذهبوا! لن نعمل اليوم.

لم يعطوهم أي لحم. وكما يقال: عادوا بخفي حنين. وذهب الأخوان.

سارا على الطريق، وناقشا ما شاهداه. وكانا متفقين على أن المرحومة لم تكن تشبه فيرا، ولم تكن صبية صغيرة كما وصفها المهندس العجوز. وأن عمر التسع عشرة بنظر الأخوين هو عمر يندرج ضمن من تقدمت بهم السن كما اعتقدا. وهما ليسا صبيين صغيرين، ومع ذلك فلو جُمع عمريهما فإنهما سيكونان أكبر بقليل من عمر فيرا.

وقال كولكا لأخيه إنه حين كان واقفاً قرب النعش، سمع صوتاً هامساً خلف ظهره، أن فيرا كانت تنتظر بالشاحنة انتهاء الحفلة لتنقل أولاد الإصلاحية إلى العشاء... ولم تنتبه كيف ظهر الفرسان. هم على الأغلب، لم يلاحظوا وجود فيرا، لكنهم شاهدوا الشاحنة. وعندما رموا قنبلة على الشاحنة، تمكنت فيرا من القفز من السيارة المشتعلة، وركضت عدة أمتار ثم سقطت. وفُهم فيما بعد أن إصابتها كانت في قلبها مباشرة... كيف استطاعت إذن أن تركض والإصابة في قلبها؟

تروّى ساشكا قليلاً. ثم قال لكولكا:

- لا أصدق. قال ذلك وسكت.

- ما الذي لا تصدقه؟ سأل كولكا. لا تصدق أنها أُصيبت في قلبها؟ لا تصدق؟ أليس كذلك؟

بقي ساشكا صامتاً.

- وهل تعتقد أنهم يؤلفون قصصاً.... عن إصابتها في قلبها؟

وصلا إلى ضفة نهر سونجا مختصرين قسماً كبيراً من الطريق بسيرهم في الحقول. وهم الآن يجلسون على العشب هناك.

ارتسمت في زرقة السماء المضيئة المائلة للبياض جبالٌ. لم تكن واضحة إطلاقاً، كانت كأنها سراب جبال. بدت وكأنها موجودة، وهي موجودة بشكل لم يكن بالإمكان الجزم بحقيقة وجودها.

- لا أصدق شيئاً، قال فجأة ساشكا. وسكت قليلاً ثم تابع، - لم أعد أفهم شيئاً. كانت فيرا. كانت تنقلنا، كانت تتحدث إلينا... ثم، فجأة. اختفت. أين اختفت؟

اعترض كولكا مندهشاً:

- أين؟ ... دُفنت.

- أنا لا أتحدث عن ذلك.

ضيق ساشكا عينيه ونظر إلى الأفق البعيد. رقرق الماء الأمغر(١) على الأحجار، ودارت فراشة فوقها.

- انظر هذه... وأشار ساشكا إلى الجبال. - هي أيضاً تغيب، وتظهر، لكنها دائماً موجودة. أليس كذلك؟

- وماذا في ذلك... سأل كولكا.

- وهذا... النهر... أيضاً، هو دائماً...

- وماذا بعد؟

- ولماذا الناس؟ هم كذلك؟

- بكلامك تقصد فيرا؟

قطب ساشكا جبينه باشمئزاز:

- أقصد الجميع. بما فيهم أنت وأنا. هل شعرت بالخوف عندما كنت تقف عند النعش؟

---

(١) الأمغر: هو اللون الضارب إلى الحمرة. المترجم.

- لا، قال كولكا. - لم أشعر بالخوف. فقط... لم أكن مرتاحاً.

لم يستطع العثور على كلمة أخرى. ومع ذلك ارتعد.

- وفي تلك الليلة؟ عندما سرنا عبر الحقول؟ هل كنت خائفاً؟

- نعم كان ذلك مخيفاً، اعترف كولكا.

- وأنا كنت خائفاً. لكني لم أكن أعرف ممَّ أنا خائف. كنت خائفاً وفقط.

- حسناً، ألم تكن خائفاً... منهم؟

- لا، قال ساشكا وهو يتنهد. لم أكن أخافهم... تملكني الخوف من كل شيء. من التفجيرات، من النار، من حقول الذرة... وحتى منك.

- مني؟

- أجل.

- مني؟ سأل كولكا مرة أخرى مندهشاً.

- لا، ليس منك، وإنما من الجميع... وأنت معهم. كنت خائفاً بشكل عام. تهيأ لي أنني تُركت وحيداً. هل تفهمني؟

لم يفهم كولكا ولم يقل شيئاً. وعند المساء ذهبا لزيارة ريغينا بتروفنا.

-٢١-

بادئ الأمر أرادا أن يأخذا بيدهما مرطباناً من المربى. لكنهما عدلا عن هذه الفكرة. فكثير من الأحاديث المتداولة في الإصلاحية هي عن هذا المربى. ثم يأتي الأخوان ويظهران وبيدهما مرطبانٌ.

ذهبا مساءً، بعد الجنازة، كانت ريغينا بتروفنا في البيت. رتبت سكنها في الزاوية البعيدة من المطبخ، وأحاطته بستارة جميلة وهي عبارة عن حرام صوفي مقلم باللون الأصفر.

سُرَّت ريغينا بتروفنا كثيراً بهما.

- عزيزيَّ الكوزمينين، استقبلتهما، ودعتهما للجلوس على السرير. - هو إز هو؟ وأشارت إلى ساشكا، المتمنطق بالحزام المهدى منها، وسألته: - طبعاً، أنت كولكا؟

ضحك الأخوان، وهنا فهمت أنها أخطأت.

- حسناً، قالت، - انشغلت منذ وصولي في غسل الملابس، تكوَّم الكثير منها... رغم أن طفلي كانا مع البنات، لكن الكثير من الملابس المتسخة قد تجمعت. سأترك كل شيء، كل شيء... الآن سنشرب الشاي... مع الشوكولا. جئت بأنواع فخمة منها.

تبادل الأخوان النظرات، وأومأا برأسيهما معاً. وعلى الفور سألتهما المعلمة:

- أو أن الشوكولا لا تثيركما؟

رفعت الطست برغوة الصابون وحملته بعيداً. وعادت وجلست مقابلهما.

- ماذا هناك بشأن المربى؟ هل هبشتما منها الكثير؟ بالتعبير الذي يستخدمه زملاؤكما. هبشتما، وخبأتما؟ هل ما أقوله صحيح؟

- وماذا في ذلك؟ تمتم ساشكا. - وخبأنا أيضاً.

ضحكت ريغينا بتروفنا، وسمع الأخوان ضحكتها اللطيفة المذهلة، كما لو أنها موسيقا. لحق الأخوان منذ اللحظة الأولى أن يتفحصا معلمتهما، وكلاهما لاحظ أنها فقدت كثيراً من وزنها، وبدا وجهها الجميل أصلاً، وقد تشرب سماره الطبيعي بعض الشحوب. وفقط شعرها ازداد كثافةً وصار منفوشاً أكثر، لم يكن شعراً وإنما لبدة(١) جامحة، لُف بعقدة على عجل. والآن، وعلى مرأى الكوزمينين، وهي تنظر إلى انعكاس صورتها في زجاج النافذة، فالمرآة التي كانت، ربما احترقت، وبحركة خفيفة، أزالت دبوس الشعر، فانهمر شعرها على كتفيها شلالاً داكناً، أعطى وجهها لوناً أكثر شحوباً، وجعله مدبباً.

---

(١) اللبدة: شعر متراكب بين كتفي الأسد. المترجم.

- سأتركه يتنفس، قالت، وهي تلقي برأسها إلى الخلف، ليستقر شعرها خلف ظهرها. سأحضّر الشاي. ونتحدث بعدها.

أحضرت ريغينا بتروفنا إبريق الشاي والفناجين، وصحن فيه قطع الشوكولا، كانت قطعاً صغيرة بالضبط كأنها خنافس بنية صغيرة.

- تفضلا، وقربت إليهما صحن الشوكولا. - هذه القطع لذيذة جداً مع الشاي.

أخذ كل من الأخوين واحدة. ساشكا وضعها فوراً في فمه ومضغها، أما كولكا فقد لحسها وتركها بيده.

- الآن فهمت، فأنتما لم تغشاني، وضحكت ريغينا بتروفنا مرة أخرى. - ساشكا، هو بالفعل ساشكا. رغم أنه يرتدي حزام كولكا. والآن احكوا لي... أنتما تريدان إخباري بشيء ما؟ أليس كذلك؟

نظر ساشكا إلى كولكا وهز رأسه.

- كيف عشتما يا عزيزيَّ؟ خفت أن تكونا قد هربتما. فأنتما أردتما الهرب؟ اعترفا؟

- أردنا، قال ساشكا.

- كان الوضع مخيفاً، أليس كذلك؟

لم يجب الأخوان. فهذا أمر مفروغ منه.

نظرت ريغينا بتروفنا إليهما نظرة طويلة متأملة، وهما أطرقا برأسيهما.

- وأنا تعرضت لهذا الخوف أيضاً، قالت ببساطة.

- هل... رأيتِهِم؟ سأل ساشكا معلمته وهو يحدق بها.

- نعم، رأيتهم.

- أرأيت، صاح ساشكا بأخيه. - لقد كنت أعرف ذلك.

ملأت ريغينا بتروفنا أكواب الأخوين بالشاي وأعادت ملء كوبها. اقتربت من النافذة وأخذت نفساً من سيجارتها. لاحظ الأخوان عندما كانت تشعل سيجارتها، أن يديها ترتعشان.

- الحمد لله، أني استطعت تأمين سجائر، قالت وهي تنظر من النافذة وأخذت نفساً عميقاً. - نعم رأيتهم، ذاك اليوم، لم أستطع النوم، كانت الغرفة مضاءة، وانشغلت أنا في قصِّ القبعة. وعندما نظرت من النافذة، شاهدت ثلاثة يقفون عند الشباك... ومعهم صبي أيضاً. كانت النافذة مفتوحة، كما هي الآن، حتى إني لم أفهم شيئاً. يقف ثلاثة ينظرون إليَّ، إلى يديَّ، وأنا أقص القبعة، وأنا أنظر إليهم... ثم...

سحبت ريغينا بتروفنا مرةً أخرى، نفساً عميقاً من سيجارتها، وأخرجت سيجارة أخرى، أشعلتها من الأولى، وألقت العقب من النافذة.

ومجدداً بدأت تدخن وهي صامتة. سحقت سيجارتها الثانية في صحن السجائر، وعادت إلى الطاولة.

- صديقيَّ العزيزين، ماذا بكما... لماذا لا تأكلان الشوكولا؟

- شكراً، لقد أكلنا، قال كولكا عن الاثنين. - وماذا بعد؟

استغرقت ريغينا بتروفنا بالتفكير، ضغطت بأسنانها على شفتها. وكأنها تذكرت، ونظرت إلى الأخوين.

- تماماً. تماماً... لكن، لا تخبرا أحداً بهذا، اتفقنا.

هز الأخوان رأسيهما.

- أوصوني... حتى إن رجال الشرطة أمروني ألَّا أخبر أحداً. سأكمل، صوبوا بندقيتهم مباشرة إلى هنا، وأشارت إلى جبهتها. - والصبي سحب يد الرجل من ساعده، أعتقد أن الرجل والده. فغيرت الرصاصة اتجاهها ولم تصبني. صرخ الصبي بشيء ما، عندها نظر الرجل إلي، وصرخ بوجهي، باللغة الروسية: «أخرجي من هنا، بسرعة... خذيهم معكِ...»، ووجه بندقيته مشيراً إلى الأطفال. وصلت إلى الباب، ثم عدت وحملت الولدين إلى صدري... وكل هذا الوقت وهو يصوب بندقيته نحوي، كانت تتحرك سبطانة بندقيته كيفما تحركت... ربما خافوا أن أصرخ؟

وما إن خرجت إلى الساحة حتى حصل الانفجار... احترق كل شيء في الغرفة، وقبعة الفرو أيضاً. ثم فقدت الذاكرة. لا أتذكر شيئاً. فقط علقت هذه الكلمة: «أخرجي». وعلق مشهد البندقية وهي تلاحقني. والآن أنا أراها.

- لكنهم قتلوا فيرا، قال كولكا. - كانت في كبين الشاحنة. أصيبت في قلبها، قفزت وركضت قليلاً ثم سقطت.

- ربما أشفقوا علي... لا أدري لماذا؟ وأنا في المشفى، طوال الوقت كنت أفكر بهذا. وعندما حققوا معي، طلبوا مني ألا أخبر أحدا عن هذا. وبالأحرى ألا أتحدث بأي شيء على الإطلاق. سيقبض على اللصوص والمجرمين والأمر في نهاياته. كنت أفكر... أنني أخطأت، لم يكن علي أن أتصرف بقبعة الفرو، هذا لا يجوز.

- لماذا، لا يجوز؟

- لا أعرف. لا يجوز وفقط. كانوا ينظرون إليها... بشكل غريب... وكأني أقص شيئاً حياً...

- وهناك جنود كانوا هنا، قال كولكا، - يلاحقونهم.

سأل ساشكا:

- وأولئك... الثلاثة، هل هم مخيفون؟

- حتى إني لم أفهم. لسبب ما، نظرت ريغينا بتروفنا في النافذة. هم أناس كجميع الناس. كان أحدهم بلباس مدني، واثنان كأنّهما باللباس العسكري... بلا رتب، على ما أعتقد. والصبي كان كما أنتما... أسمر... كانت دائماً عيناه علي... كان أبوه يصوّب، ومرة ثانية أشارت إلى جبهتها، والصبي مسكه من مرفقه.

- وهل كان هناك أحصنة؟

- لم أرها، قالت ريغينا بتروفنا. - ربما كانت.

نظر ساشكا إلى كولكا وأخرج غلاف رصاصة أصفر.

- انظري، ووضعها على الطاولة. هذه من ذاك الطلق الناري.

نظرت ريغينا بتروفنا من بعيد، بخوف إلى غلاف الرصاصة. وسألت والقلق باد عليها، وعيناها تنظران في عيون الأخوين:

إذن ستهربان... إلى أين؟

نظر الأخوان أحدهما إلى الآخر ولم يجيبا. كولكا أراد العودة إلى ضواحي موسكو. وساشكا دعاه ليكملا الطريق إلى الجبال. وكان الحل بينهما أن ينتظرا أول قطار وليأخذهما إلى حيث يتجه.

نهضت ريغينا بتروفنا، وأشعلت سيجارة أخرى.

ستضيعان، قالت بحدة. - الأحسن أن نغادر معاً، لكن ليس الآن، حالياً لا أستطيع. لا زلت أشعر بالتعب.

ودون أن تنهي سيجارتها رمتها. هي صارت كثيراً ما تشعل السيجارة وترميها، الأخوان لاحظا هذا. لذلك فلا يكفيها كل ما خزّنته منها، مهما كان عندها.

وسألت وهي عند النافذة:

- هل سمعتما بشيء يدعى المنشآت الإنتاجية؟

- وما هذا؟ قال كولكا. أما ساشكا فأومأ برأسه.

- سيرسلونني إلى هناك. فهذا يساعدني على الشفاء. هناك بقرتان، وبعض الماعز وعدة عجول. أتذهبان معي؟

- وماذا سنفعل هناك؟ سأل ساشكا. لكنه كان يعرف أنه جاهز ليذهب مع ريغينا بتروفنا إلى أي مكان. وهذا يعني أن كولكا أيضاً جاهز ليذهب. وفيما بعد سيفكرون إلى أين سيهربون، ولكن معاً.

- سنرعاهم... نراقبهم، نطعمهم... هذا ما فكروا به ليريحوني. لكني أخاف الذهاب بمفردي.

- وهل هي بعيدة؟ سأل ساشكا مرة ثانية. هو أراد أن يوجه سؤالاً آخر لكنه سأل هذا.

- في الجبال، ليس في هذه الجبال، وإنما في تلك... على الجانب الآخر من سكة الحديد، قالت ريغينا بتروفنا ذلك بسرعة، مدركة على الفور ما يرمي إليه ساشكا، هناك لا يوجد أحد. فهم لا يذهبون أبعد من المحطة... وبالأحرى حتى الآن لم يذهبوا.

وكولكا جل تفكيره كان عن المخبأ.

- وهل سنعود إلى هنا؟

- إلى هنا؟ بدأت ريغينا بتروفنا تشعل سيجارتها لكنها لم تستطع إشعال أعواد الثقاب. - طبعاً. وسيكون لدينا وسيلة نقل خاصة بنا. سننقل الحليب وأشياء أخرى للأولاد هنا.

- «ستودبيكر»؟ استفسر ساشكا.

- هذا سر، قالت ريغينا بتروفنا.

كولكا لم يكن قلقاً بشأن السيارة، وإنما كان جل همه محصوراً بالمخبأ. فالابتعاد عنه مدّة طويلة هو أمر سيئ. فهنا قريب منه، والوصول إليه لا يستهلك الكثير من الوقت، تذهب إليه متى أردت، تمد يدك، تجس المرطبانات، تعدها، وتشعر بالراحة والاطمئنان. أما هناك... فقد تكون نائماً بهناء، وترى في أحلامك الأحد عشر مرطباناً، وكل غطاء من أغطيتها يلمع، كما العملة الذهبية. والواحد منها هو جواز مرور إلى الجنة. ويأتي أولئك ومعهم جهاز كشف الألغام، يقلبون الأرض كما قلبوا تلك الأرضية...

وبينما كان كولكا قلقاً بشأن المخبأ، سأل ساشكا ماذا بشأن الولدين؟

- سيذهبان معنا، قالت ريغينا بتروفنا. وأعادت: - لكن أخاف الذهاب معهما وحدي. سنعيش كلنا معاً. كأي عائلة... مفهوم؟

لم يفهم الأخوان ماذا قصدت بالعائلة. لم يتمكنا من فهم كنهها. فكلمة «عائلة» بحد ذاتها كانت غريبة عنهما، حتى إنها كانت توحي لهما بشيء من العدائية لحياتهما.

العالم عند الأخوين مقسوم إلى قسمين، قسم له عائلة، وقسم بلا عائلة. وهذان القسمان هما حتى الآن ليسا منسجمين.

-٢٢-

عندما تركا المعلمة وغادرا، كان كولكا لا يزال يشد في قبضة يده على قطعة الحلوى التي وفرها. ليلاً، تجادلا ببعض الأمور الصغيرة.

كلاهما أراد الرحيل، لم يكن بينهما خلاف في هذا. كولكا أراد أن يتم هذا بأسرع وقت، ودون أي نشاطات إنتاجية ومزارع. وماذا سيستفيدون من الأبقار والماعز؟

اقترح ساشكا الانتظار بعض الوقت، فريغينا بتروفنا ضعيفة حالياً، ولم تُعافَ تماماً من مرضها، هي بذاتها أعربت عن هذا، وهي لا تستطيع الهروب معهما حالياً. وعندما تصبح أقوى سيغادرون معاً.

ثم، قد يكون هناك ربح ما من المنشأة الإنتاجية، يضيفونه إلى مخبئهم. فهم لم يتوقعوا شيئاً من معمل الكونسروة، وكان يكفيهم أن يشبعوا خوخاً، ولكن حصل شيء آخر.

كان ساشكا ذكياً، هذا واضح. فقد درس كل شيء مسبقاً.

تنهد كولكا بعمق ووافق على مضض.

وهو أيضاً كان يدرك أن لا أحد ينتظرهم في أي مكان. والقطارات كثيرة. إذا لم تغادر بهذا، فبإمكانك السفر بغيره... من لا يملك شيئاً لن يخسر شيئاً، فإذا احترقت هذه القرية، يمكن الانتقال إلى سواها.

قبل أن ينتقلا إلى المنشأة الإنتاجية، عرجا إلى بِرزوفسكَيا، استطلعا بيت إيليا.

احترق كل شيء، البيت والملحق، والأشجار حول البيت. كان البستان فارغاً. ربما حفر الجيران أرض البطاطا. وربما ساعدهم في هذا أولاد الإصلاحية.

بين الأعشاب والأشواك المغطاة بالغبار، أو هذا ما يبدو للوهلة الأولى، وهو طبقة من الرماد الأبيض، كانت تنتأ عربة معروفة للأخوين بعجلاتها الصدئة. كان ينقل إيليا بها الحطب.

اقترب كولكا منها، دفعها برجله. تحركت قليلاً. دفعها كولكا مرة ثانية... ثم انحنى، وجد حبلاً ربطها به وجرها.

- اتركها. قال ساشكا. - ما الفائدة منها؟

- قد نحتاج إليها؟

- بماذا؟

لم يجب كولكا. لكنه سحب العربة حتى نهر سونجا، وخبأها هناك بين الجفنات.

- هل تزعجك؟ سأل أخوه.

- لا تزعجني. قال ضجراً.

- وأنا لا تزعجني. فلتبقى هنا. وأضاف، - لن نخسر شيئاً فهي لن تحتاج إلى طعام.

لم يكن كولكا قادراً مثل ساشكا، أن يفكر بالأمور ويعد لها بشكل مسبق. لم يكن دماغه يعمل بهذه الطريقة. لكنه كان يدرك أن أي شيء مرمي، يجب لمه، ثم التفكير فيما بعد بمدى الاستفادة منه.

لقد أسف الأخوان لمآل إيليا وما حصل ببيته، صحيح أن إيليا زفيريوك كان نصاباً ومحتالاً، لكنه كان مرحاً، كان كأنه قريب لهما.

حرَّك كولكا برجله الرماد، وقال وهو يتأمله:

- كأنه كان يتوقع أن يقتلوه ويحرقوا بيته.

- لماذا؟ سأل ساشكا. - لماذا اختاروه هو بالذات، ولم يختاروا أحداً آخر؟

- لأن البيت متطرف...

- وماذا في ذلك؟ لقد فجروا السيارة في منتصف القرية.

- ربما عرفوا أنه نصاب؟

- وكيف هذا؟

- بسيطة، قال كولكا. انظر هذا البستان... هو لم يضرب معولاً في الأرض. جنى رزقاً ليس له، حصد ما زرعه الآخرون.

- وجيرانه؟ أليسوا مثله غرباء؟

- لكنهم مزارعون...

- وما الفرق!

- ولماذا يحرقون؟

- ولماذا يحرق الفاشيون؟

- الفاشيون؟ ما هذه المقارنة... هم ليسوا فاشيين.

- ومن هم؟ هل سمعت ماذا قال عنهم ذاك الجندي؟ قال كلهم عملاء، خانوا وطنهم. ستالين أمر بإعدامهم كلهم.

- والصبي... ذاك عند النافذة؟ هو أيضاً عميل؟ سأل كولكا.

لم يجب ساشكا.

لم يصل الأخوان لتوافق في هذا الموضوع.

أثارا الرماد، ونظرا في الجوار، لم يكن أحد مهتماً ببيت إيليا المحترق. ربما كلٌّ منهم يفكر فقط بنفسه، لا يفكرون ولا يهتمون بالآخرين.

أخذا العربة وذهبا.

وفي الصباح الباكر سافروا، لم تكن الشمس قد أشرقت بعد. في منتصف الساحة، وقف حمار رمادي صغير بعينين حزينتين. كان مشدوداً إلى عربة بعجلتين. وضعوا على العربة الصرر وأواني الطبخ، وأكياس الحبوب، وزجاجة فيها زيت نباتي.

خرج المدير بحقيبته المعتادة.

كان شكله يقول إنه لم ينم الليلة.

نظر إلى ريغينا بتروفنا، وإلى ولديها، الذين كانا يتذمران، فقد جرى إيقاظهما باكراً.

والكوزمينان أيضاً وقفا هناك، كانا يتثاءبان ويرتجفان.

- وهؤلاء؟ سأل المدير، مشيراً إلى الأخوين كوزمين. - هما سيذهبان معكم؟

- نعم، قالت المعلمة. وهي أيضاً نظرت إليهما. - هذان الأخوان اللذان أخبرتكم عنهما.

قطب المدير حاجبيه، ولسبب ما لمس حقيبته.

- كوزمين.. كوزمين.. من أين أنتما؟

- من تاميلِنا، تمتم ساشكا. كان الأفضل القول من رامِنسك، ولكن ريغينا بتروفنا هنا وهي تعرف... نظر إلى كولكا وفهم عما كان يفكر. ليس غريباً أن يتذكرهما «أبو شنطة». لذلك عليهما الإسراع بالخروج من هنا بإرادتهما.

وفي هذه الأثناء فتح المدير حقيبته، فتش فيها لكنه لم يجد ما يبحث عنه.

كأن هناك كانت رسالة... قال هو. - عما... كأنها عن مطبخ... لا، لا أتذكر.

- فتش جيداً. نحن سننتظر. هذا جيد أنهم يتذكرون الأولاد ويكتبون لهم... قالت ريغينا بتروفنا، ونظرت بمودة إلى الأخوين، اللذين يرتجفان ويتجولان حول العربة. فهما قد عرفا مضمون هذه الرسالة، وكم هو ضروري البحث عنها. والأحسن لو أنهم لم يتذكروهما.

عاد المدير مرة ثانية إلى حقيبته، لكن لا شيء، لحسن الحظ لم يعثر على شيء.

- حسناً... ستقل الأفواه اثنين. قال هو، ثم انتقل إلى ريغينا بتروفنا. - هذه ورقة... من المزرعة التعاونية. وهناك شخص سيعرفك على المكان... ألن يكونا عبئاً عليكِ؟

- هما صبيان مطيعان، قالت ريغينا بتروفنا. - سيساعدانني.

نظر المدير إلى السماء، وأخذ نفساً عميقاً:

- لو كان لدي وقت... لذهبت معكم... وأين مني وهذا، بعد قليل سأذهب إلى المعمل لإقناعهم بقبول عودتهم... ثم إلى غودِرميس، للبحث عن مدرسين... قريباً ستبدأ المدرسة... ويجب تأمين مواد غذائية... غريب، أقسم إني لا أفهم ما يجري. انتهى بهذه الخلاصة، ورفع يديه مباعداً بينهما.

عند المدير الكثير من الأمور غريبة وغير مفهومة، وعند الأولاد هناك أيضاً ما هو غير مفهوم عن «أبي شنطة» والمواد الغذائية والمدرسة... أو حتى المعمل... لقد كان واضحاً وضوح الشمس أن المعمل لن يقبل بعودتهم مرة ثانية. وهذا لم يستوعبه المدير ولم يكن مفهوماً عنده، فهم سيسرقون المعمل كما يشربون الماء، سيقومون مرة ثانية بتنظيفه.

- زورنا عندما يكون لديك الوقت. دعته ريغينا بتروفنا مرة ثانية، وبدأت تستعد للسفر. سنقدم لكم الحليب.

- سأرسل الأولاد ليجمعوا الذرة. وأنتم عندما تبردون عودوا. مع السلامة.

لوح المدير بيده مودعاً وذهب إلى المطبخ. فقد بدأت الفتيات المناوبات عملهن، وابتدأ اليوم.

أجلست ريغينا بتروفنا طفليها على العربة بطريقة يستطيعان فيها أن يتابعا نومهما. دست لهم الخرق تحت رأسيهما. وأخذت الحمار من لجامه، وسارت على الطريق.

في البداية ساروا بحيث تكون ريغينا بتروفنا في المقدمة، فهي تخاف أن يذهب الحمار بالعربة إلى الحقل، وخلف العربة كان يسير الكوزمينان.

لكن الحمار كان مطيعاً في دحرجة العربة على الطريق، وكان فقط يقص الهواء بأذنيه الحادتين. ولم يمض وقت طويل حتى تركته ريغينا بتروفنا، وسارت بجواره.

أحياناً كانت تتوقف، تشعل سيجارة، وكانت تومئ للأخوين بيدها أن يتابعا، فهي ستلحق بهم.

لكنهما كانا يوقفان الحمار وينتظرانها. رغم أنهما على طريق واضح لكن الأرض مزروعة، فلربما فجأة يقفز عدو من بين الزرع.

لبست ريغينا بتروفنا للطريق لباساً غير عادي، حسب فهم الأخوين. قميص رجالي فاتح مطوي الأكمام، وبنطال داكن اللون يبدو أيضاً رجالياً. لم ير الكوزمينان معلمتهما بهذا الشكل قبل هذه المرة، لكنهما لم يعلقا عليها. بنطال السائق فيرا كان أسوأ.

وعندما فصلتهما مسافة عن ريغينا بتروفنا قال كولكا لأخيه:

- الرسالة كانت عن الحفريات...

- ماذا لو كان فعلاً قد أضاعها؟

- لا يضيع عند «أبي شنطة» شيء، هو يحتفظ بكل شيء في حقيبته.

انحنى ساشكا، والتقط حصاة عن الطريق، ورماها جانباً.

- فليحتفظ بها، أما نحن فسنهرب.

- والمخبأ؟ سأل كولكا.

- نأخذ المخبأ معنا... ونهرب به. نظر خلفه إلى ريغينا بتروفنا وقال: فقط ننتظر أن تتعافى ريغينا بتروفنا.

ساروا بهدوء، لا هم استعجلوا ولا أبطؤوا، وصلوا إلى المحطة عند الغداء. كان يقف على السكة الاحتياطية قطار شحن، تُفرَّغ حمولته من المعدات العسكرية: بعض المدافع الصغيرة المطلية باللون الأخضر الفاتح، وسيارات ويليز[1] وعربات تجرها الأحصنة.

أبطأ الأخوان سيرهما، وحدقا بالمدافع. رغم أنهما شاهدا على مدى الحرب معدات مختلفة لجيشهم الوطني ومعرضاً في موسكو في بارك كولتوري للأسلحة الألمانية المستولى عليها. ولكن هل يمرر رجل حقيقي هذا المشهد دون أن يستمتع بمشاهدته. لماذا كان السلاح دائماً شيئاً جميلاً. الأكثر خطورة عادة هو الأجمل. كانت المدافع رائعة.

على الأرضية الخشبية المائلة، وقف الجنود يدخنون، كانوا يتحدثون بصوت عالٍ. لمحوا ريغينا بتروفنا، فالتفتوا جميعهم إليها في الوقت نفسه، كما لو أنهم تلقوا أمراً.

---

(١) ويليز Willys: سيارات للجيش الأمريكي مخصصة للطرق الوعرة خلال الحرب العالمية الثانية. المترجم.

الأولاد يتفحصون المدافع، والجنود يحدقون بالمعلمة الشابة الجميلة.

لم يرق هذا الكوزمينين.

- ما بك توقفت، نهر ساشكا الحمار وجلده بالعصا. - ألم ترَ قبل الآن قافلة عسكرية وجنود.

قفزت العربة بصخب على السكة والعوارض، وراحت تتنقل بين سكك المحطة.

انظر إليهم. أي سكان متخلفون. ناس بدائيون، انطلق صوت بأثرهم.

تبادل الأخوان النظرات ولم يقوما بالرد. الجنود يجهلون أن الأخوين وريغينا بتروفنا والولدين هم جميعاً ليسوا من سكان المنطقة. والبدائيون في أي جغرافيا يمكن أن يشاهدوا صوراً لهم، عادة شبه عراة وبالريش يتزينون!

ساروا على الطريق المؤدي إلى الجبال، وصعدوا خلف القبة المستديرة، إلى أنقاض المصحة، وأخذوا استراحة هناك.

اختار كل من الأخوين حفرة منفصلة ليستحم بها، وخلعا ملابسهما. وغمست ريغينا بتروفنا طفليها في الماء وتركتهما يلعبان، وذهبت إلى المسبح المربع، وهناك وحيدة ربطت شعرها بقميص عقدته حول رأسها وسبحت.

عندما سُمعت صرخاتها، ظن الأخوان دون أن يستطيعا رؤيتها من كثافة البخار، أنها تناديهما، وهما صرخا بالمقابل وهتفا، ركضا يقفزان من حفرة إلى حفرة، ويغطسان في كل منها بصخب.

وفجأة بدأت:

- يا أولاد، ساعدوني يا أولاد، بسرعة، إلى هنا.

ألقى الأخوان عليهما بعض الثياب على جسدهما المبلل وانطلقا مسرعين باتجاه صوتها. هما أدركا على الفور أن المعلمة تتعرض لهجوم من الشيشان.

لكن لم يكن هناك شيشان.

عند حافة المسبح وقف جندي، كان ينظر إليها دون أن تطرف له عين، نظر إلى ريغينا بتروفنا. وهي ريغينا بتروفنا جلست في الطرف الآخر من المسبح مغمورة بالماء حتى ذقنها، ترمق الجندي بكثير من الخوف.

يبدو أنه جاء بأثرهم، من هناك، من المحطة. كان ساشكا الواصل الأول، وقد تمكن من التقاط حجر أثناء ركضه. وقف بين الجندي والمسبح، وصدف أن وقفته أضاءت إبزيم شريطة الجندي مباشرة في عينه.

ماذا تفعل هنا. صرخ ساشكا، محركاً رأسه. - لماذا تختلس النظر؟ من دعاك إلى هنا؟

هنا قفز كولكا من الطرف الآخر.

- لماذا أنت هنا؟ اذهب بسرعة، وإلا فسأخبر قائدك.

دُهش الجندي أن يرى أمامه صبيين متماثلين ولهما الصوت نفسه. لكن دهشته كانت هادئة، وما لبث أن نسيهما، وعاد ثانية يحدق بالمعلمة. ونشق من أنفه كما الأطفال، ثم أخذ نفساً، وانصرف. لكنه وهو في طريقه التفت عدة مرات، ليس إلى الأخوين فهو لم يُعبّرهما، بل إلى المرأة، كانت نظراته إليها وحدها.

- هيا اذهب. صاح ساشكا خلفه، ولوح بالحجر. أما كولكا فقد خلع حزامه الجميل كما البحار في ذاك المشهد السينمائي.

توقف الجندي فجأة، عندها أدرك الأخوان أنه سيعود ويلقنهم درساً... لم يكن هناك داعٍ للصراخ خلفه، فهو كان قد عزم على المغادرة.

في الواقع فإن الأخوين يتقنان طريقة في العراك، فأحدهما يأتيه من الخلف متسللاً، ويرمي بنفسه خلفه عند قدميه، والآخر يدفعه من صدره... فيطير عدوهم، ويرتمي رأساً على عقب. لكن هذه الطريقة قد لا تكون مفيدة مع جندي.

والعض كان سلاحاً آخر.

هذه طريقة مجربة. فقد كمن لهما في تاميلِنا شخص متخلف عقلياً، ضخم الجثة من الأشقياء، واستفرد بكل منهما على حدةٍ، وأشبعهما ضرباً، كانا في تلك الفترة يحفران

النفق بالتناوب. وذات مرة ومن فرط يأسهما هجما عليه، وأخذا يعضانه، ومنذ تلك الحادثة صار يتجنب الأخوين، ويهرب من طريقهما، كما لو أنه يهرب من كلب مسعور. فبمجرد رؤيته لهما كان يُحوّل مساره لمسافة أكثر من كيلومتر.

لكن الجندي لم يعد، ولم يشتبك معهما. وإنما وللمرة الأخيرة نظر إلى ريغينا بتروفنا، بنظرة لا تخلو من الأسف، وتنهد. وكان رده على صياح ساشكا فقط أن رفع كتفيه بارتباك وغادر بأقصى سرعة.

هل يمكن أن يكون قد خاف وعيد كولكا بإخبار قائد وحدته؟

وبينما كان الأخوان محتدمين غيظاً، خرجت ريغينا بتروفنا خلسة من الماء، وارتدت بنطالها، وأسرعت إلى طفليها. اللذين كانا يلعبان حول العربة دون أن يدركا أي شيء.

وبعد هذا الذي حدث، عادت الحياة إليها، صارت أكثر كلاماً ومرحاً. ربما كان لماء المسبح الساخن دور في ذلك.

واستغربت خوفها المفرط، واستعجبت صراخها الذي أرعب الجميع.

- هل أخفتكما؟ سألت هي الأخوين. ثم قالت: - أنتما الآن فارسي، وشفيعي، وحارسي.

شعر الأخوان بالحرج.

حتى إنهما أحسا أن الجو صار حاراً خانقاً.

لم يصدف أن كانا يوماً مدافعين عن أحد ما. هما فقط كانا يدافعان عن أنفسهما. تبين لهما أن ذلك شيء جميل.

- وماذا كان يريد؟ سأل ساشكا بشكل مثير للقلق. هو لم يهدأ بعد ما حدث. - ربما أراد السرقة؟

نظرت ريغينا بتروفنا في ذاك الاتجاه، حيث ذهب الجندي وابتسمت بغرابة.

- لا أعرف. لكنه ظريف... ولماذا صرت أصرخ، وأخفتكما... مثل فتاة صغيرة. وأنتما برأيي، أخفتماه. كنتما رائعين.

نظر الأخوان أحدهما إلى الآخر وظهرت عليهما علامات الخجل. لو عرفت ريغينا بتروفنا أنهما في لحظة جَبُنا.

مدت المعلمة يدها في القدر، وأخرجت صرة. كانت تحوي شطائر خبز وزبدة.

- هذا لكما بدل الأوسمة، قالت وهي تضحك.

كم هي جميلة الآن وهي تضحك وقد تورد خداها.

هجم الأخوان على الخبز، ورغم أن الزبدة قد ذابت منذ وقت طويل، كان الخبز قد تشبع بها، لقد كانت لذيذة جداً. وأعطي الطفلان قطعة واحدة مناصفة بينهما.

كانت الطريق معبدة لعدة كيلومترات بعد المصحة، ثم تحولت إلى طريق مرصوفة بأحجار بيضاء على أرض متصدعة وآثار حرق عليها.

لم تكن الجبال هنا كتلك الجبال خلف الإصلاحية. هنا هي جبال جرداء، لا أشجار فيها، ولا شجيرات، كانت فقط نباتات برية وأعشاباً يابسة. وتجمعت الأشواك ونباتات أخرى لا فائدة منها في مناطق ضيقة، على طول الجداول.

نظر الأولاد بحسرة في المحيط الجديد، وفكروا بالجبال المطلة على الإصلاحية، رغم أنها كانت محظورة عليهم، كانت ذات منظر جميل، غنية بأشجار الجوز والإجاص البري والخوخ الأصفر. أما هنا فحبات شجيرات الزيتون البري صغيرة، وهي قابضة الطعم، لا يمكن تذوقها.

وريغينا بتروفنا التي أصبحت أكثر حيوية، وصارت كما لاحظ الأخوان، تدخن أقل، هي أيضاً كانت تتفحص المكان بكثير من الدهشة.

أعادت أكثر من مرة عبارة، الجبال التوراتية. لم يفهم الأخوان ما المقصود من هذه العبارة. لكنهما توقعا أن يكون قصدها أنها جرداء. هكذا أفهم ساشكا أخاه كولكا: «المكان خالٍ تماماً، لا شيء مطلقاً، اسم آخر للمنطقة الجرداء، لكن التعبير بحد ذاته غير لائق».

ضحكت ريغينا بتروفنا، وقالت لهما: إن التوراة هي قصة طويلة جداً جداً... كتبها اليهود.

- العتالون؟ سأل كولكا.

- لماذا عتالون؟

- العتالون في المعمل. كانوا يهوداً.

- لكنهم كانوا طيبين. أكد كولكا.

- ولماذا يجب أن يكون اليهود سيئين؟ سألت ريغينا بتروفنا بشيء من الاهتمام، وانشغل فكرها بشيء آخر. وقالت فجأة: - لا يوجد شعوب سيئة، بل يوجد أشخاص سيئون.

- والشيشان؟ انفجر ساشكا. - قتلوا فيرا.

لم تجب ريغينا بتروفنا.

في هذه الأثناء انعطفت العربة انعطافتها الأخيرة، وانفتح أمام أعين المسافرين بعد أكثر من عشر ساعات سفر، واد واسع منبسط بين الهضاب، فيه كثير من المساحات الخضراء، وبدا من بعيد بناءان صغيران أبيضان.

اتضح فيما بعد أن البنائَيْنِ هما بناء واحد، وهو عبارة عن غرفة صغيرة من اللبن. والآخر هو سقيفة يمكن الدخول إليها بالعربة. وهذا ما فعلوه.

أقيم تحت هذه السقيفة موقد من الآجر، وانتشرت مجموعة كبيرة من الأدوات، مجارف، ومناجل، ومعاول، ورفوش.

- وصلنا، قالت ريغينا بتروفنا وهي تنظر حولها. لم يستقبلهم أحد. وتابعت: - هنا سنعيش، وأشعلت سيجارة على عجل. كانت مرتبكة بلا شك.

جاء إليهم رجل يعرج. عرفه الأخوان على الفور، جندي سابق، ركبوا معه على عربة حصانه. لم يكن الآن يرتدي سترته الباهتة، بل قميصاً طويلاً، وكان حاسر الرأس أصلعَ.

بمشية متمايلة اتجه نحو الواصلين، وهو أيضاً عرف الأخوين. مد إليهما يده، وعرَّف عن نفسه: دميان. وأومأ برأسه من بعيد للمعلمة مرحباً.

- جئتما إذاً؟ سأل. كان يعاملهما كأنهما كبيران. وكأنه لم يلاحظ وجود ريغينا بتروفنا.

- جئنا، رد ساشكا على دميان كما لو كانا بنفس العمر. - سنعمل في المزرعة.

وأضاف كولكا:

- ونرعى الماشية.

لم يستغرب دميان قدوم الأولاد للعمل في الزراعة. ليس كما فعل المدير. فهو قد أثنى على الفكرة، وهز رأسه مستحسناً.

- كيف لا... وكما يُقال: إذا كان لا بدَّ من المعركة، فلنبدأ القتال، اكتب الموجودات. أتركُ لكم، بقرتين، وسبعة عجول، وثلاث عنزات... هل تعرفون على الأقل، كيف تحلبون البقرات؟

- نتعلم، قالت ريغينا بتروفنا واقتربت أكثر وهي تمسك سيجارتها في يدها.

ألقى دميان نظرة إلى يدها الممسكة بلفافة التبغ، ثم إلى بنطالها العريض، ومسح صلعته السمراء.

- عفواً يا آنسة: هنا نعمل... وكما نقول بلهجتنا: نكد، المطلوب هنا العمل وليس نفث الدخان.

- حسناً، سنكد، ببراءة أجابت ريغينا بتروفنا وابتسمت للكوزمينين. لكنها تخلصت من لفافة التبغ. وانشغلت بأطفالها.

- وماذا هناك؟ استفسر دميان من الأخوين. - ألا يوجد في المدرسة الإصلاحية من هو قادر على العمل؟ لماذا يرسلون إناثاً لهذا العمل؟

ومع أن الأخوين كانا سعيدين بأن يكون الحديث معهما كما يكون مع رجال، لكن التهجم على ريغينا بتروفنا لم يستطيعا استساغته. وهما على أساسٍ شفيعاها المدافعان عنها.

اكفهر وجه كولكا، ونظر ساشكا بقسوة في عيني دميان، وكأنه يراه للمرة الأولى.

- حالياً ريغينا بتروفنا في نقاهة من المرض... قال ساشكا. - تضررت من التفجير الذي أصاب مكان سكننا... هي لتوها خرجت من المشفى، ووجودها هنا ضروري للشفاء.

- أما العمل فسنقوم به نحن. قال كولكا محدقاً به. ولإعطاء كلامه وزناً اخترع كذبة:

- المدير أمرنا بمساعدتها، وقال لنا: هي وحدها لا تستطيع، والاعتماد عليكما...

بدا أن دميان قد أُحرج. وصار كثيراً ما يهز رأسه، وبدأ يشرح، موجهاً حديثه لريغينا بتروفنا، وذكر أنه أزال الأعشاب الضارة، وقطع الكثير من القصب. واقترح عليهم السكن في الغرفة المصنوعة من اللبن، فالجو هناك أدفأ. لكن سيتعين عليهم الطبخ على الموقد في الخارج، والوقود سيكون روث البقر. وعرفهم على بعض الأدوات الموجودة في المزرعة مثل حجر الرحى لطحن الذرة. وذكر لهم أن بعض مساكب البندورة والخيار لا زالت موجودة، وهي على الأغلب قد تعفنت، وهناك أيضاً القرع والملفوف والشوندر والبطاطا... وتوجد بعض جفنات العنب التي استوحشت تماماً، تزحف على الأرض فلا أحد يعتني بها ويرفع لها الدعائم... وهناك زُرع قصب السكر، وأشار إليه، ستجدونه دون عناء... ستجدون كل شيء في الوقت المناسب.

بحلول المساء، أسرج دميان حصانه، ودَّعهم. وقبل أن يغادرهم أخرج كيس التبغ، ببراعة وبحركة واحدة من يده، لف لفافة «رجل المعزاة». وقدمها لريغينا بتروفنا، كانت هذه بادرة للمصالحة.

- تفضلي، قالها دون أن ينظر في وجهها. - رغم إنني شخصياً لا أتحمل النساء المدخنات... لكن ما العمل فهي موضة انتشرت مع الحرب.

- لا داعي لأن تتحمل، قالت ريغينا بتروفنا مبتسمةً. - هما من سيتحمل. وأشارت إلى الكوزمينين.

- وماذا لو عدت. رمى دميان كلماته بشقاوة. - ماذا تقولون؟

- نرحب بالجميع، قالت ريغينا بتروفنا، وأشعلت لفافتها «رجل المعزاة» من جمرة في الموقد، وحملتها عند منطقة انحنائها كما يُحمل الغليون. كانت تريد أن تضيف لكنها بدأت تسعل.

- ضحك دميان مبتهجاً.

- قوية، أليس كذلك؟ وصاح معرباً عن ارتياحه. - هذا لا يشبه دخان الدلع الذي تدخنونه في المدينة. هذا دخان خاص، صناعة محلية، رائع، بنفسي حضرته.

أخرج من جيبه ورقة صحيفة، مزق منها نصفها، وسكب من الكيس حفنة من التبغ البني الخشن.

- استخدميها، وناولها للمعلمة. - دخنيها عندما تضجرين.

وصافح الأخوين مودعاً.

- وأنتم فنانون... ممثلون حقيقيون... نعم... كدت أموت من الضحك، في نادي المزرعة التعاونية... ثم استدرك وتغيرت لهجته وقال بنبرة مختلفة: - لكني أشعر بالأسف الشديد على فيرا.

مشى يعرج إلى العربة، وانحرف إلى جنبه ليكون أكثر رشاقة في الصعود إلى العربة، وجلس على حافتها، ووضع قبعته على صلعته، ونهر الحصان، فمشى فوراً. غادر دون أن يلتفت وكأنه ليس مهتماً بشيء أو بأحد.

ارتفع غبار خفيف فوق الطريق، وظل عالقاً مدّة طويلة، وأعطته الشمس الغاربة لوناً ذهبياً.

-٢٣-

استقرت ريغينا بتروفنا وطفلاها في الغرفة المصنوعة من اللبن. وتمكنت بطريقة ما من جعل السرير يتسع لثلاثة أشخاص، وفُرش للكوزمينين على الأرض. لكنهما رفضا. فالغرفة صارت مزدحمة والمكان خانق. جهزا أرضية من القصب لفراشهما في

زاوية تحت السقيفة، ألقيا كسراً من القصب ذي الرائحة اللطيفة على الأرض، وفرشا عليها فراشهما. وجدران السقيفة نُسجت من نفس القصب، لكنه من القصب الجاف، لذلك كان له حفيف وصرير في الليل.

بادئ ذي بدء، فتشا عن القصب الذي دعاه دميان الأصلع بقصب السكر. وقدماه لريغينا بتروفنا وطفليها. أكلوا جميعهم حتى انتهى فجأة كل ما أحضراه. هذا القصب اختراع لذيذ في المزرعة، امضغ وابصق طوال اليوم.

وجدا شجرة العنب أيضاً، كانت أغصانها مفروشةً مباشرة على الأرض، وإذا رُفعت هذه الأغصان يمكن إيجاد عناقيد العنب البنفسجية مسجاة على التراب.

قطف ساشكا منها وجربها على لسانه، فالتوى وجهه وانكمش.

- كم هو حامض.

ولكن كان لريغينا بتروفنا رأي مختلف. فقد طلبت منهما قطف أكبر كمية ممكنة، بقدر ما تتسع له السلة.

وفوراً، وعلى مرأى من الأولاد، وضعت العناقيد في حوض كبير، غسلتها ثم بدأت تسحقها بحجر مسطح. وسال العصير العكر. غمس الأخوان إصبعهما في العكارة وتذوقاها، انقلبت أمعاؤهما.

سكبت ريغينا بتروفنا العصير بزجاجة كبيرة، أغلقتها، ووضعت الزجاجة في القبو.

- سيكون نبيذ للعيد، قالت.

- أي عيد؟ استفسر الأخوان.

- لا أعرف، قالت هي. - سنخترعه.

- وهل تُخترع الأعياد؟ سأل ساشكا. -قرأت أن الأعياد تأتي وحدها.

- أحياناً تأتي وحدها... وأحياناً...

نظرت المعلمة باهتمام إلى الأخوين وسألتهما:

- وأنتما، متى ولدتما؟

- ماذا؟ سأل الأخوان بصوت واحد. لم يفهما السؤال.

- متى يكون يوم ميلادكما؟

تبادل الأخوان النظرات، وحدقا بالمعلمة من جديد.

- يوم ميلادنا؟

- طبعاً، قالت وهي تبتسم. - عند الجميع يوم ميلاد، عند كل من في العالم، حتى عند الأبقار، والعجول، والماعز، يوجد تاريخ خاص، متى ولدوا. في اليوم والشهر والسنة... وعندكم بالتأكيد يوجد. لكنكما نسيتما متى، أليس كذلك؟

تنهد كولكا ونظر إلى أخيه ساشكا. فدماغه أقوى، فليتذكر هو.

لو كان السؤال كم مرطباناً مثلاً، في المخبأ، لأجاب كولكا. أما لهذا السؤال...

لكن ساشكا بقي صامتاً.

- نحن بأنفسنا سنخترع تاريخاً، قالت ريغينا بتروفنا. - وسيكون لديكما عيد. ما رأيكما؟

سأل كولكا مندهشاً:

- وهذا متى؟

حسبت ريغينا بتروفنا بعض الشيء في سرها وهي تحرك شفاهها.

- حسناً، دعنا نقلْ، بعد أسبوع. لنقل في السابع عشر من تشرين الأول. هل يناسبك؟

- لا أدري، قال كولكا.

وقال ساشكا:

- لا أعرف.

- ومتى سنسافر؟ استفسر كولكا.

- إلى أين؟

- إلى أي مكان.

- ألم يعجبكما المكان هنا؟ سألت ريغينا بتروفنا، موجهة كلامها الآن لساشكا.

تردد في الإجابة.

فكر ساشكا. هنا يعجبهما... وهناك حيث كانا لا يعجبهما...

خُيل له أن «أبا شنطة» سيتركهما هنا للأبد. وليس مطلوباً منهما الذهاب إلى المدرسة، سيتعلمون كما دِميان، كيف يدخنون «رجل المعزاة»، كيف يفرمون التبغ، كيف يجزون العشب، وكيف يأكلون قصب السكر.

وبعد ذلك سيتزوج أحدهما ريغينا بتروفنا وسيطعم طفليها. بيد أن هذا ليس واقعياً، ومن المؤكد أن الطفلين سينموان ويكبران أيضاً. وسيرعيان قطيعاً كاملاً.

- حسناً، قالت ريغينا بتروفنا. - نحتفل بعيد الميلاد، عندها سنقرر. اتفقنا؟

صوتها الدافئ ولطافتها هدَّأا الأخوين. ووافق كلاهما على الانتظار حتى العيد. وهما كانا قد خبرا العيد وعرفاه من تجربتهما: كانوا ينادونهما إلى المطعم، ويعطوا كلاً منهما قطعة خبز مجفف إضافة إلى قبضة بذور محمصة. والله مع دواليبك، اكرج بعيداً...

لو شاء الأخوان أن يخترعا عيداً لاخترعاه بأنفسهما. فرأس ساشكا الذكي، كفيل باختراع أعياد مهما شئت. ولا داعي لفبركة أي مواليد.

يُقال إن اللقطاء في دور الأيتام يولدون كغيرهم من الأولاد، ماذا لو كان هذا القول هو محض خزعبلات، وحكايات لا أساس لها من الصحة؟ ماذا لو كانوا يتوالدون من ذاتهم مثل البراغيث، أو مثل القمل والبق في البيوت الفقيرة؟ في البداية لا يكون لهم وجود، ثم تنظر في شق أو صدع فتُفاجأ بأنهم قد ظهروا هناك. من العدم يبدؤون. يدبون دبيب الخنافس، من وجوههم غير المغسولة تتعرف إليهم، ومن الحركة المميزة لالتقاط ما يدب على أجسادهم، تتأكد أن هذا أخ لك، أخ مشرد ظهر للنور لتوه. يقال إنه سبب كل الأمراض المعدية، ومنه يأتي العث والجرب وغير ذلك، ومنه الموت ينتشر... والبلد يكفيها ما فيها،

وأصلاً لا يوجد مواد غذائية تكفيها، والجريمة تزداد وتزداد. حان الوقت لرش المسحوق الفارسي، أو الكاز، أو مبيد الحشرات لقتلهم كما الصراصير. أما الأشقياء منهم، فيرسلون فوراً إلى القوقاز، ويرش خلفهم على سكة الحديد خلف القطار غبارٌ مبيدٌ كيلا تبقى لديهم ذاكرة تعود بهم. وها هي كما ترى لم تبق. والجميع مرتاح. والضمير وسادة من حرير. جاؤوا من العدم وإليه يعودون. فكيف يقال إنهم يولدون، رحماك يا ربي.

تحمل الأخوان الكثير في حياتهم. ويمكنهما تحمل يوم الميلاد بشكل من الأشكال. فقد واجها الكثير من العقبات، وهذه ليست أكبرها. ثم متى سيكون هذا مرة أخرى.

الغريب أن الوقت في الإصلاحية كان يمضي بطيئاً. كان الأولاد يتسكعون طويلاً بانتظار وقت تقديم الطعام. أما هنا فالأيام تطير بلمح البصر مثلما عربات قطار تمر أمام عينيك مسرعةً.

وكل هذا لأن الكوزمينين انهمكا في العمل.

تناوبا على الذهاب إلى نبع الماء عند أسفل المنحدر، لنقل الماء اللازم للمنزل. وعند النبع يمكن غسل اليدين والوجه أيضاً، ولكن هذا أمر لم يحبذه الأخوان بتاتاً، عدا عن أن الغسل بالماء البارد مضر بالصحة، فهو يُضعف الجلد ويبلل الثياب.

وبشكل عام، هذا إجراء لا داعي له.

وسَوق الماشية إلى المرعى، هو من مهامهما. أما حلب البقرات فلم تسمح ريغينا بتروفنا لهما به. وهي بالسر حاولت حلبها، لكنها أخفقت. ركلت البقرة الدلو برجلها... شكراً أنها لم تركل رأسها.

زوركا وماشكا هما اسما البقرتين. هكذا قال دميان.

زوركا لها وركان مدوران، لونها بني، وهي وديعة سهلة الانقياد. حاول الأخوان حلبها. أما ماشكا فهي نحيلة مبقعة بالأبيض والأسود، مشاكسة وعصبية، لا يمكن الاقتراب منها، لكنها فيما بعد اعتادت وبدأت تسمح للمعلمة وساشكا وحتى للطفلين، بالاقتراب منها، غير أنها بقيت حذرة، تتلفت عند أي حركة. أما كولكا فهي لم تحتمله أبداً. فعندما تلحظه من

بعيد، تمط رقبتها وتتجه بأنفها المبلل باتجاهه وتبدأ بالشم. وإذا اقترب أكثر تضرب الأرض بحافرها الأمامي. وتوجه قرنيها إلى الأرض، وتبدأ بالخوار، أي بالشتم.

استاء كولكا حقيقة من ماشكا، كان يهددها بقبضته من بعيد. ويبتعد.

حاول الأخوان خداع البقرة، فتبادلا الملابس وتظاهر كل منهما بأنه الآخر. لكنهما لم يستطيعا خداع البقرة، كما لم يستطيعا خداع العمة زِيْنا.

استخدم الأخوان الرحى، وهي عبارة عن حجرين صلبين مستديرين يوضع أحدها فوق الآخر. كان الأخوان يطحنان فيها حبات الذرة. يُدار الحجر العلوي، وتوضع حبات الذرة في فتحة. ويخرج من الشقوق بين الحجرين خليطٌ أبيض، ناعمٌ وخشنٌ. ثم يُنخل فيفصل الدقيق الناعم وهو الطحين، عن الأكبر حجماً الذي تُصنع منه طبخات كثيرة وكلها لذيذة.

يمكن صنع الفطائر، أو السيالات، ويمكن طبخ المامليغا. كان الأخوان يحبان كل هذا، وكانا يستحسنان كل ما له علاقة بالطعام. لكنهما لم يطيقا تدوير الرحى.

في البداية تناوبا على تدويرها. ثم بقي ساشكا وحده. فكولكا كما قال، لم يعد يطيق صبراً.

لكنه كان يجمع الحطب وروث البقر بارتياح. بينما لم يكن ساشكا يطيق النظر إلى الروث. من الأسهل عليه أن يدير الرحى مئة مرة على أن يجلب واحدة من روث البقر.

صحيح أنهم يسمونه روثاً، قال ساشكا، لكنه بكل الأحوال يساوي الـ ... عند الإنسان. لو عرف ذلك أيام كان في الإصلاحية لجمع كل ما تركه أولاد الإصلاحية قرب السياج، ولجمع الكثير من هذا الشيء الثمين. ولكان يكفي وقوداً لمئة عام قادمة.

عندما كان الرز متوفراً كانوا يطبخون الرز بالحليب، أما الآن فيطبخون القرع.

في البداية عندما دحرجا كرة القرع من البستان، كانت الواحدة بحجم أحد الطفلين، والأخوان كانا يدوران حولها. حتى جاءت ريغينا بتروفنا وقطعتها إلى حزوز صفراء. وفوراً سحب كل منهما حزاً وبدأا الأكل. قضما، قضما، ثم ألقياها. اعتقدا أنها

ستكون مثل البطيخ لكنها كانت مثل الجزر شكلاً، أما الطعم فكان مختلفاً، لم يكن مستساغاً.

وأعلنا فوراً للمعلمة، أنهما لن يأكلا من هذا الرأس العملاق.

- هذا ليس رأساً وإنما قرع. صححت له.

- لا يهم. فلتأكلاه زوركا وماشكا، أو العجول. فهم لا يفهمون، ولن يميزوا.

ضحكت ريغينا بتروفنا، وتوعدتهما:

- ستطلبان المزيد منها عندما أُتمُّ طبخها.

- لن نطلب، رد الأخوان. - ولماذا تحتل هذه الرؤوس العملاقة مكاناً لها في البستان، ضخمة وجوفاء... مليئة بالبذور.

وضعت ريغينا بتروفنا قطع القرع في صينية كبيرة، وأدخلتها في الفرن، وطبختها على الفحم. طبختها، وقرأت عليها تعويذات سحرية، وصمتت بخبث.

وعند الغداء، وضعت لكل منهما قطعة، وقالت: تذوقاها عزيزيَّ البائسين الحسَّاسين.

فكر الأخوان: قطع محمرة، رائحتها زكية. أخذا قطعة صغيرة، تذوقاها، طيبة، ثم قطعة أخرى أكبر، لزجة كالعسل تُمَدُّ على قطعة الخبز... بكلمة واحدة، لذيذة جداً.

أكل الأخوان، وألقيا نظرة إلى الصينية، كم بقي فيها من القطع؟ هددتهما ريغينا بتروفنا بإصبعها مازحة، لكنها قدمت لهما المزيد. فالأخوان عزيزا النفس وهما وحدهما لن يطلبا. كان هذا اليوم عيداً للجميع، فقد كان يوماً للأكل دون توقف.

لحس كولكا أصابعه وقال:

- إنه لشيء رائع أن تنمو مثل هذه الرؤوس العملاقة في القوقاز.

بهذه الكلمات كان يمدح القوقاز، وفي الوقت نفسه يمتدح ثمرة القرع. ساشكا كان صامتاً. لكنه سجل ملاحظة دون أن يعلنها، إنهما في هذا الأمر اقترفا خطأً، وشعرا بالإحراج.

صنعت ريغينا بتروفنا من الحليب سميتانا[1]، وصنعت قريشة في كيس خاطته من الشاش. أعطتهما حليباً ليشربا. لم يستسيغا طعمه. شرباه لكنهما لم يكونا سعيدين به. كانا يهربان عن الطاولة عندما يكون الحليب موضوعاً عليها.

- مسكينان أنتما يا عزيزيَّ، تحاول ريغينا بتروفنا إقناعهما، وهي تصبُّ لهما الحليب الساخن في فنجانيهما. - أنتما لا تقدران مدى الفائدة التي يمكن أن تحصلا عليها من شربكما للحليب. هذا أحسن ما اخترعته الطبيعة لكما.

- ونحن خارج الطبيعة، قال كولكا بعناد. وساشكا هز رأسه. - نحن وحدنا، لا انتماء لنا.

أنتما الطبيعة... وأي طبيعة! كوارث! ضحكت ريغينا بتروفنا وجلست وحدها تشرب. قطّعت الفطيرة إلى أجزاء ووزعتها على الجميع. - قولا لي من فضلكما، لماذا تصبحون خارج السيطرة إذا كان عددكم كبيراً؟ أنتم كما العاصفة الرملية، لا يمكن احتواؤها، ولا تهدئتها... وعندما تكونان وحدكما، وبإضافة فطيرة، أنتما غير، أحسن. ليس كثيراً طبعاً. ولكن أحسن، بالتأكيد أحسن...

- بلا أولاد الإصلاحية، نحن أفضل، شرح ساشكا. - عندما يأتون سيخربون ويسرقون كل شيء، الرؤوس العملاقة والحليب والفطائر.

- وأنتما؟ سألت ريغينا بتروفنا. ومسحت شفاه طفليها البيضاء، وأنفيهما الأبيضين، فقد غطسا بالحليب كما القطط عندما تلعق الصحن بلسانها.

- ماذا نحن؟

- كأنكما لا تعرفان؟ قالت ريغينا بتروفنا.

أراد ساشكا أن يقول إنه لا يعرف، لكنه تردد. فقد كان وأخوه بالأمس قد جهزا مخبأً، ووضعا فيه ثلاث فطائر، ظنا أن المعلمة لن تلاحظ. وملأا زجاجة بالطحين وخبأاها أيضاً.

---

(١) سميتانا: أحد المنتجات اللبنية، تشبه القشدة، وتصنع بتدوير الحليب. المترجم.

مسحت ريغينا بتروفنا آثار الطعام عن الطاولة. وانتظرت، كان واضحاً أنها تنتظر جواباً من الأخوين، كما تنتظر العصافير الصيف، قطبت حاجبيها الأسودين، ليبدو عليها الغضب. جلست عابسةً، سندت خديها بيديها ونظراتها تمر بجوارهما، تحدثت عن خيبة أملها، فهي كانت تعتقد أنها تعيش حياة عائلية، وكل شيء لديهم هو ملك للجميع ومشترك بينهم... وقد تصرف بعضهم بشكل غير لائق، فهو يسرق نفسه، يسرق من أملاكه الخاصة. وهذا ما لم تستطع ريغينا بتروفنا فهمه أبداً. كيف يمكن أن يسرق شخص المائدة التي يملكها؟

لم ينبس الأخوان ببنت شفة، نهضا وذهبا. في البداية ذهبا ليتشاورا، ثم إلى المخبأ المطمور.

عادا، وأعادا كل النعمة التي خبأاها، أي الفطائر وزجاجة الطحين، ووضعاها على الطاولة.

وأُغلق على الموضوع تماماً، ولم يُذكر مرة أخرى.

وعلى أعتاب يوم ميلادهما، وضعت ريغينا بتروفنا العجين لتحضير الفطيرة. وطلبت منهما أن يدحرجا من البستان قرعاً وليختارا الأكثر صفاراً، وأن يرعيا الماشية، ويعتنيا بالطفلين.

وهي، أسرجت حمارها وذهبت به إلى المحطة. وتأخرت بالعودة، لكنها عندما عادت وضعت على الطاولة علبتي لحم معدنيتين. استبدلتهما بالحليب على أحد القطارات العابرة.

والأصح علبة لحم واحدة، أما الثانية فهي علبة بيضاوية ولها مفتاح على جانبها، وهي نقانق أمريكية معلبة.

والأخوان كانا يعرفانها، يدخلان الشريط المعدني في المفتاح، ويلفان الشريط حول المفتاح، فينفصل الغطاء عن العلبة، وتحت الغطاء... يا إلهي... هذا هو العيد، هكذا يجب أن تكون الأعياد. ومن أجل مثل هذه المعلبات كان الأخوان مستعدين أن يتحملا يوم ميلادهما كل يوم.

لم يغادر الكوزمينان الطاولة، بقيا يستمتعان بالنظر إلى العلبتين ويستنشقان عبيرهما، يتمسحان بجوانبهما اللامعة والباردة. حاولا لحسهما لكن طعم المعدن لم يختلف عن طعم أي شيء غير معدني، إلا بلسعة اللسان ولا شيء أكثر من ذلك.

وفجأة وصل دميان على عربته، رغم أن أحداً لم يدعُه. طبعاً هو لم يعلم بيوم الميلاد، لكنه أحضر معه قطعة من اللحم المقدد ملفوفة بقطعة قماش ومرطبان مربى، طلبه من زملائه في المعمل.

استقبلت ريغينا بتروفنا دميان بتحفظ، لكنها رحبت وسُرت بمرطبان المربى، وقالت: سأقوم بصنع أحلى فطيرة.

نظر الأخوان إلى المربى بلا اكتراث. لا يمكن إدهاشهما بهذه المرطبانات. لو أنهما يستطيعان إضافة علبة لحم أو علبة نقانق بيضاوية بمفتاح، إلى ما يحويه مخبؤهما. أما ما هو هنا فسيؤكل بسهولة وسيساعد في ذلك دميان. وأي حاسة شم عنده، فقد وصل في الوقت المناسب.

ومع أن دميان جاء على ما يبدو بعمل، كان يتحرك في المطبخ مثل المكوك، معيقاً ريغينا بتروفنا في عملها. حكى لها أشياء عن مزرعته، وعن البطاطا وكيف زرعها، وعن البطيخ وكيف سقاه، وضرب بالتفاح المحلي، وأثنى على تفاح منطقته الذي يسمى تفاح أنتونَف.

- أنا رجل قوي وشاطر، لكن لا امرأة لدي، كان يتحدث وهو ينظر إلى ظهر ريغينا بتروفنا. - أقوم بالأعمال المنزلية وحدي وأنا قادر على ذلك، ولكن البيت بلا امرأة كالمنزل بلا مدفأة. كل شيء موجود لكن الحرارة مفقودة. وأرى أيضاً أنه ليس سهلاً عليكِ مع طفليكِ الصغيرين... أليس كذلك؟

ودون أن تستدير، وقفت عند موقد النار، عند الأثافي، ولم تقل شيئاً.

ثم وفجأة طلبت أن تشعل سيجارة:

- اصنع لي تلك... «الرجل»...

كانت يداها في العجين، لف دميان لها «رجل المعزاة»، وضعها في فمها، وأحضر قصبة تحترق لتشعل منها. خلال ذلك كان ينظر في عينيها مستفسراً.

نفثت ريغينا بتروفنا الدخان وألقت نظرة باتجاه الكوزمينين، اللذين يحرسانها هنا.

- أنا زوجة طيار... هل تعلم ماذا يعني هذا؟ هذه مهنة... قالت هي. - عندنا في الضاحية قبل الحرب هكذا كان يُقال: مهنتها «زوجة طيار». وداع... انتظار... ثم مرة ثانية وداع... عندما كنا نجتمع، زوجات الطيارين، كنا متشابهات إلى حد ما. كانت الأحاديث عند باقي النساء عن الثياب والمجوهرات وتصفيفات الشعر، أما نحن فكنا نتحدث عن الطائرات وعن رحلات الطيران. زوج إحدانا سافر إلى الشمال، وزوج أخرى إلى أمريكا... هذا كان مألوفاً. ودائماً كنا نتحدث عن الحرب، لأن هذه الطائرات كانت تحمل القنابل، ولذلك سميت ناقلات القنابل. وعلى الرغم أن هذا كان سراً عسكرياً، عرفنا الكثير عن الطائرات، كم عدد القنابل التي تحملها، وكم سرعتها، وإلى أين ستطير إذا حصل أمر طارئ.

حين بدأت الحرب، أرسلوهم فوراً إلى ضواحي لينينغراد، وطاروا من هناك ليقصفوا برلين. كان الطريق من هناك أقصر. عاد زوجي من أول عملية، استقبلته. عندها كان طفلانا صغيرين جداً. وكان علينا نحن زوجات العائدين أن نزور العائلات التي لم يعد أزواجهن. هذا ما كان يحصل. كم كان هذا رهيباً أن تذهب إلى البيت الذي لا يعرف بعد ما حصل. وتتظاهر أنك مررت مصادفةً.

ثم فيما بعد أغاروا ثانية على برلين، ولإعطاء العملية وقعاً خاصاً، كان أمر العملية من ستالين شخصياً. وهناك كانوا قد تحضروا لهذا النوع من العمليات بعد العملية الأولى التي فاجأت الألمان لدرجة أنه لم يكن يخطر ببالهم أبداً أن يجرؤ الروس على أن يطيروا إليهم في عقر دارهم... وزارتني زوجات الطيارين الآخرين... نُقلت فيما بعد القاعدة، وضاحية الطيارين إلى المؤخرة، فقد كان الألمان يقتربون، ولم أجد أنه عليَّ أن أتبع الطيارين إلى مكانهم الجديد، فأنا أرملة، وأَجُرُّ خلفي مثل هذا الذيل.

بصقت ريغينا بتروفنا «رجل المعزاة» على الأرض ودعستها برجلها.

- ذهبت إلى دار الأيتام، فالتعامل مع الأطفال الغرباء يجعل التعامل مع أطفالي أسهل. وبسبب المجاعة، قررت السفر إلى هنا... اعتقدت أن الحياة هنا ستكون أسهل...

فاض القدر وانسكب من حافته، وتأسفت ريغينا بتروفنا لهذا الإهمال، وصرخت:

- فار، أرأيتم إلى ما أوصلنا إليه كثر الكلام.

اندفعت بسرعة إلى الموقد، وقام دميان وراءها يركض، محاولاً مساعدتها.

- دعيني أحمل القدر، سأحمله. وأخذ يتحرك ويتململ هنا وهناك حول ربة المنزل.

- أنا طباخ ماهر، اطلبي ما ترغبين وأنا سأطبخه لكِ، لا تخطئي بي.

أحسنت ريغينا بتروفنا التعامل مع النار، ومسحت جبينها بظهر يدها، وسألت:

- وهل يمكنك دِميان إِيفانيتش تقشير البطاطا؟

وعلى الفور، أُجلس دميان الأصلع لتقشير البطاطا، والكوزمينان اللذان كانا يتابعان والغيرة تقتلهما، ليس فقط من أجل علب اللحم على الطاولة، وإنما من الضيف الثقيل وتراكضه حول معلمتهما، أُرسلا لجلب الحطب، ولجمع الروث الجاف. فهم اليوم بحاجة للكثير منها.

- أرأيت، قال كولكا، متلفتاً حوله، عندما صارا بعيدين بعض الشيء، وقطعا البستان. - ما إن رأى علبة اللحم حتى لصق بالمطبخ... «أنا ماهر، أنا شاطر». كلنا شاطرٌ عندما نرى علب اللحم. صلع رأسه من شطارته.

- الصلعان شاطرون، أكد ساشكا.

- فليكن، يكفينا ما عندنا.

- علبة اللحم، ليست هي ما كان يرمي إليه.

- ليست علبة اللحم؟ أتعتقد أنه يريد رأس القرع؟ سأل كولكا.

- لا... ما نحمله على أكتافنا هو رأس القرع، نحن لا نفهم شيئاً. أرأيت كيف بدأ يتحدث عن بيته...

- وماذا يجب أن نفهم؟ استغرب كولكا. - خسيس ودنيء ويقول إن بيته بلا موقد.

- خسيس ودنيء... هذا صحيح هو خسيس ودنيء، أكد كولكا. - لكنه عندما ضمّن حديثه الموقد، فوراً كشفته... هو يريد الزواج.

حدق كولكا بأخيه منشدهاً. حتى إنه نسي روث البقر، الذي يبحث عنه. فقد صدمه اكتشاف ساشكا.

- ممن يريد الزواج؟

- ممن يا تُرى... ألا تعرف.

سكت كولكا دون اقتناع. فكر بالخبر. واستنتج بشكل مفاجئ:

- ألا تعتقد أنه قد تقدم به العمر؟ قد يكون شارف الثلاثين...

- وماذا في ذلك؟ وهي أيضاً؟

- ريغينا بتروفنا مختلفة، قال كولكا بثقة. هي جميلة. - يمكن أن يتزوجها جنرال... أو مارشال.

فكر كولكا وصحح له:

- يمكن أن نتزوجها نحن.

- هي لن ترضى، قال ساشكا.

- ولماذا لن ترضى؟

- غبي أنت يا كولكا. صاح ساشكا ممتعضاً. - وكيف تتزوجها وأنت ما زلت صغيراً؟

- لكنني أكبر. تمتم كولكا بعند.

- حتى تكبر، يأتي مثل هذا الخسيس والذكي، يقفز هنا وهناك بجوارها، ويقص عليها حكايا عن البيت بلا موقد، والبطاطا... ثم يأخذها بعيداً.

- وأنا لن أوافق. قال كولكا. - أقتله.

- تقتل دميان؟

- حسناً، سأسممه. سأدس له السم في الفطيرة، قال كولكا بعناد. - وأسمم حصانه.

نظر بالاتجاه الذي يُرى فيه دخان المطبخ الأزرق خلف الشجيرات، وصرخ بأعلى صوته:

عيشته عيشة بليده

من يعش برجل وحيده

طبعاً من هذه المسافة لم يكن بإمكان الأصلع دميان أن يسمع هذه القصيدة العصماء. ولم يهدأ بال الأخوين بعد إلقاء كولكا قصيدته بهذا الصوت الصارخ.

-٢٤-

العيد هو العيد، ما داما وافقا فعليهما أن يتحملا ويتحليا بالصبر.

في النهاية عندما عاد الأخوان من جمع الحطب، وشاهدا ريغينا بتروفنا وقد تزينت، وارتدت فستاناً جميلاً، وانتبها إلى أنها لم تكن تُعر الأصلع دميان أي انتباه، وكانت تنظر فقط إلى ساشكا وكولكا. هنا أدركا وفهما أنها لن تتزوج منه، هذا مستحيل ولن يحصل أبداً، حتى لو كان ماهراً أكثر بثلاث مرات. ولن يجني من محاولاته سوى الخيبة، وسيعود إلى منزله بخفي حنين.

والكوزمينان هنا، وسيبقيان هنا.

وبسبب المحنة والمخاوف التي تعرضا لها، لم ينتبه الكوزمينان فوراً إلى المائدة التي أُعدت على شرفهما. كانت طاولة عامرة. فلو عرضوا كل ما خبأاه في مخبئهما حتى آخر مرطبان لما ظهرت بهذا الجمال الذي شاهداه على هذه المائدة.

فقد زين الطاولة المغطاة بمفرش أبيض، أنواع كثيرة من الأطعمة غير المسبوقة في أطباق، أو على أوراق نبات الأركتيوم الكبيرة مباشرة، قد تكون هذه الفكرة من إبداع ريغينا بتروفنا وطفليها. هنا أقراص الخبز من دقيق الذرة، مقمرة وشهية، وهنا شرائح اللحم المقدد

زُينت ببعض حلقات البصل، وهناك نقانق العلبة البيضاوية، المقطعة إلى شرائح زهرية صغيرة، وطبعاً الخيار المخلل، وقد التصقت به بعض وريقات الشبت[1] الناعمة، وكذلك البندورة والثوم وشرائح من الرأس العملاق التي صارت محببة لهما، شويت جوانبها جيداً على الجمر، وبرز العسل اللزج منها.

وتألقت على الطاولة قطع السكر، وتلألأت بلوراتها مثل قمم جبل كزبيك. ونُثرت أيضاً هنا وهناك حبات الشوكولا والسكاكر بطعم القهوة، وأيضاً انتصب مرطبان المربى.

وقالب كاتو أيضاً.

وعن قالب الكاتو يحلو الكلام بشكل منفصل.

كان القالب مستديراً مرتفعاً، فهو متعدد الطبقات، ولا زال دافئاً، وكما يقال يتنفس.

كان أعلاه مزينة أطرافه بالخوخ وقطع التفاح، وفي وسطه كُتب بالكريما البيضاء: «كولكا، ساشكا، ١٧/ ١٠/ ١٩٤٤ تهانينا».

وغُرزت فيه إحدى عشرة قصبة ذهبية، كما لو أنها شمعات.

هذا لم يكن كل شيء، هذا فقط ما لحقت نظرات الأخوين من لمحه، فقد طُلب إليهما أن يكونا أول الجالسين، على هذه المائدة الساحرة.

ارتبكا فجأة. وظهر الخجل على محياهما.

لم يضيّعا البوصلة أبداً عند رؤيتهما للطعام، كانت القاعدة عندهما تقول إذا ما وُضع الطعام على الطاولة فيجب ببساطة تناوله. أما هنا فقد ضاعا، ولم يعرفا كيف يتصرفان.

سرت موجة من النمال صعوداً وهبوطاً على ظهر ساشكا، وبدأ من هول اضطرابه يشعر بالبرد. أما كولكا فكان على وشك أن يجلس بجوار المقعد، مبهوراً من هذا المشهد غير الإنساني.

---

(١) الشبت: نبات عشبي يشبه الشمرة. المترجم.

وأخيراً جلسا. وأجلسا الطفلين. وجلس الأصلع دميان بشكل جانبي، فقد أعاقته رجله الخشبية، لكنه جلس وتكيف معها.

ومن مكان ما خلف ظهره، أخرج دميان مصطنعاً ابتسامة، زجاجة سَمَغون[1]، فهو لم يكن يعرف بيوم ميلاد الأخوين، لكن الذئب الأصلع قد احتاط للأمر. ملأ كأساً له وكأساً للمعلمة، لم ترفض. أراد هو أن يصب أيضاً للأخوين، لكنها مانعت وقالت: «لا، هذا ممنوع».

ماذا لو عرفت كيف شربا عند إيليا آنذاك، على ذاك المقياس، مستوى «سائق القطار».

ذهبت ريغينا بتروفنا إلى القبو، وأحضرت عصيراً في مرطبان مغلق، مسحته بقطعة قماش وسكبت كوبين للأخوين. ومن أحد الكوبين استقت هي أولاً رشفةً.

- هذا ما يمكنهم شربه. قالت هي. - اشربا، لكن ليس دفعة واحدة، اتفقنا؟

هز الأخوان رأسيهما في الوقت نفسه، ونظرا في عينيها، كانتا كبيرتين، داكنتين، متلألئتين، وعميقتين، بكلمة واحدة مذهلتين، تأخذان العقل. نظر الأخوان مباشرة في عمقهما.

لكن ريغينا بتروفنا استطاعت الصمود أمام نظرتهما، وقابلتهما بابتسامة هادئة، كما كانت تبتسم دائماً.

وصار واضحاً وضوح الشمس أننا لن نحتاج إلى رجل أصلع هنا. كان يجهل من يواجه. زورنا إن أردت، لكننا دونك نحن أفضل. هكذا يجب أن يُقال للجميع، للصُّلْع وللعُرْج وللخِساس... جميعهم، دون استثناء.

أشعلت ريغينا بتروفنا قصبة من الموقد، وأشعلت كل القصبات المغروزة في الفطيرة أيضاً.

ثم قالت:

---

(١) سَمَغون: نوع من المشروبات الكحولية المحضر منزلياً. المترجم.

- انفخا.

- ماذا؟ استفسر الأخوان.

انفخا النار. صاحت بصوت عالٍ. - هيا؟

نهض الأخوان ونفخا، انطفأت النار وارتفع الدخان فوق الطاولة.

- رجال حقيقيون، قالت ريغينا بتروفنا مبتهجة، وبإحساس بالغ رفعت كأسها. - أهنئكما يا أولاد، كونا دائماً طيبين، سالمين، كونا كما أنتما الآن، وسأبقى دائماً أحبكما. شفيعيَّ العزيزين.

نظر الأخوان أحدهما إلى الآخر، هذا هو بيت القصيد، هذا ما انتظرا سماعه. هي تحبهما. ولا تحب الصُّلْع. وبدأا يشربان النبيذ الحامض. وفجأة صار يعجبهم. وشربا ما في الكأس، وطلبا المزيد.

- هذا ليس عصيراً. صاحت ريغينا بتروفنا. - هذا نبيذ. لا يُشرب بكثرة.

- أما نحن فسنشرب. قال كولكا مجيباً. - هذا سيتكرر كل شهر؟ أليس كذلك؟

- ما هذا الذي سيتكرر؟ سألت ريغينا بتروفنا.

- العيد؟ يوم الميلاد؟

- انظري ماذا يريدان. قال دميان وهو يضحك، ضارباً راحة يده بالخشب الذي استبدل به رجله.

وضحكت المعلمة.

- لا، يا عزيزيَّ، قالت: - هذا مرة واحدة في السنة... ولكن، بشكل دائم.

- بشكل دائم؟ عاد وسأل كولكا. وعند العشرين؟

- طبعاً. وعند الثلاثين والأربعين...

- حينئذٍ سنكون كباراً في السن، قال ساشكا، - وسننسى.

- لن تنسوا شيئاً...

قفزت ريغينا بتروفنا بحيوية، وكأنها فتاة صغيرة، واختفت قليلاً في الغرفة، ثم عادت فوراً، حاملة شيئاً ما في يديها. اقتربت، ووضعت أمام كلا الأخوين صرة ملفوفة بجريدة.

- وهذا أقدمه باسمنا أنا وطفلي.

وجلست تنظر إلى الأخوين بعينين متألقتين. اليوم حقاً كانت فاتنة وساحرة. فستان أنيق، وتسريحة شعر رتبته، وجمعته في عقدة جميلة. وعلى جيدها عقد جُمعت خرزاته من ثمار البرية الحمراء... حتى إن دميان لم يستطع كتم إعجابه عندما شاهدها، وبدأ يطوي لفافته «رجل المعزاة» بعصبية.

ولم يكن هذا المشهد ليمر بسلام عند الأخوين في أي وقت آخر، ولكنهما الآن كانا مشغولين كل بالصرة التي أهديت إليه.

لم يحصل الأخوان على أي هدية قطّ، إلا تلك المرة عندما أعطوا كلاً منهما قطعة خبز محمص، وبعض حبات بذور عباد الشمس، وقالوا لهما إن اليوم عيد... بلعا قطعة الخبز دون أن يمضغاها، وفصفصا البذر. بقي هذا في ذاكرتهما، أرادا المزيد، لكن أملهما خاب، لم يُعطيا.

والآن، لا يعرفان ما يفعل كلٌّ بصرته، يفتحونها أو لا يفتحونها، أو يجب أخذها فوراً إلى مخبئهما وإضافتها إلى موجوداته. قبل أن يغيروا رأيهم ويستعيدوها.

فهمت ريغينا بتروفنا كل شيء.

- سنرى الآن معاً ماذا هناك...

أخذت الصرة من ساشكا، الذي كان يجلس بالقرب منها، وفتحت الجريدة.

كان هناك في الأعلى قميصٌ جديدٌ، أزرقُ، بياقة وأزرار. وتحت القميص بنطلون. وأيضاً كان لونه أزرقَ. وله جيوب. وهناك أيضاً حذاء عالٍ، أصفر اللون، بأربطة صفراء، ولسان عريض. وفي الصرة أيضاً منديل رسمت عليه مربعات مثل دفتر الحساب، وقبعة دائرية بنقوش ملونة. كانت القبعة تسمى تيوبيتيكا. وفوراً قال ساشكا: تيوتيوبيكا. وضحك الجميع.

وفقط كولكا كان عابساً وهمس بهدوء شديد، كأنه يحدث الصحن: «وأنا؟».

نسي أن عنده تماماً مثل أخيه في الصرة التي أمامه.

وضحك الجميع مرة أخرى، وبدؤوا يفتحون الجريدة التي لفت بها صرته، وتبين أن كل شيء عندهما متماثل، ولكن بلون مختلف هو اللون الأخضر.

وطُلب منهما أن يقيسا الثياب عليهما. تنحنحا وهما متوتران وذهبا يتلفتان خلفهما إلى زاوية بعيدة ليغيرا ملابسهما.

وخلال كل هذا المشهد لم يقل الأخوان بعضهما لبعضٍ أي كلمة، فهما كانا يعرفان تماماً ما يفكر به الآخر وما يعاني منه كل منهما.

كان ساشكا من فرط ارتباكه، يشعر بحكه في ظهرة، حتى إن بقعاً حمراء ربما برزت عليه. هذا أدركه كولكا. وعند كولكا نفسه، فجأة بدأت ترتجف رجله اليسرى، ولم يستطع إدخالها في البنطلون.

قال يائساً:

- اذهب أولاً، فأنت الأذكى!

فقال له ساشكا:

- وأنت أيضاً لست غبياً. لماذا سأذهب أولاً.

- أنا خائف، اعترف كولكا. - لم أمشِ هكذا قطُّ.

- وأنا أيضاً، هل تعتقد أن هذه الملابس تليق بي أو أنها لا تلائمني؟

نظر كولكا إلى ساشكا وفكر، «يا إلهي، كيف يمكن ارتداء هذه الثياب والمشي بها كل يوم. إنه أمر مزعج للعين. وبشكل عام، هذه ليست ثياباً لأولاد الإصلاحية، تُسرق فوراً. من يرهما لن يعتقد أنهما من الإصلاحية بل هما نصَّابان. فهل يمكن أن يرتدي إنسان عاقل كل هذه الأشياء الثمينة. نظهر بها الآن، ثم إلى المخبأ، وبعد ذلك إلى السوق، سيشتريها التجار بأسرع وقت».

لكن كولكا لم يقل شيئاً من هذا القبيل، هو فقط كان يرى نفسه بأخيه. أخذ نفساً وقال:

- رائع.

- وأنت أيضاً.

- وكأنك لست أنت، وإنما فون بارون[1].

- هل تشعر أنه ضيق عليك؟ سأل ساشكا.

- أين؟

- في كل مكان، يضغط... ربما يجب إزالة الأزرار؟

- يمكن نزعها، قال كولكا وهو يفكر، - حرام نزعها فهي جميلة ولامعة.

تبادلا الأحاديث مدّة طويلة، وأبطأا في الخروج، إلى أن ملَّ الحضور الانتظار، وجاؤوا إليهم بأنفسهم. قال دميان وهو يباعد ذراعيه من فرط إعجابه واهتمامه: «إنهما يبدوان من الأكابر». ووقف الطفلان مذهولين إعجاباً. أما ريغينا بتروفنا فضربت كفاً بكف، وبدأت ترقص بمكانها.

- ما هذا يا أولاد؟ قالت. - كم تبدوان متشابهين، والآن بالفعل لن أستطيع معرفة من منكما من؟ أنت كولكا؟ ووضعت إصبعها على ساشكا.

ضحك الأولاد. ولم تشعر ريغينا بتروفنا بالارتباك بتاتاً. فهذه المرة كانت تمزح.

لنذهب إلى الطاولة، أمرت بلباقة، وذهبوا وهم يلتفتون إلى الأخوين، كما لو أنهم كانوا خائفين أن يهربا. - عندما تبدأان الطعام سأعرف هو إز هو.

عند هذه الكلمات ولسبب ما ارتبك دميان الأصلع، واقترح أن يشربا كأساً أخرى.

بعد ذلك ذهبوا في نزهة صغيرة، وعندما رأى دميان القطيع، استعرض أمامهم خدعة. أشعل لفافة تبغ، وأظهرها لمعزاة من بعيد. ركضت المعزاة على الفور إليه،

---

(١) فون بارون: اسم يطلق على حديثي النعمة. المترجم.

وأخذت اللفافة في فمها. وخرج الدخان من منخريها... ثم أكلت اللفافة والدخان يخرج منها.

- لماذا تسخر من هذه الحيوانات المسكينة؟ سألت ريغينا بتروفنا. لكنها كانت مرحة، وقالت ما قالته دون أن تظهر أنها تعاتب أو تؤنب. وقالت: تعالوا نفكر باسم لكل عجل عندنا.

تركوا الاختيار الأول أن يكون للأخوين ما داما هما اليوم المحتفى بهما.

لم يتأخر الأخوان، فسميا أحد العجول وهو الأكثر جشعاً «ابن آوى»، والآخر «الطفيلي». والعجلتين، واحدة «الحلوة»، والأخرى «الفوضوية».

ريغينا بتروفنا لم تُعجبها هذه الأسماء، لكنها لم تقل شيئاً. أعطيا ما قدرا عليه من أسماء. لكنها اقترحت أن تُطلق على العجلين الآخرين اسمي الكوزمينين.

- وهل هذا ممكن؟ سأل ساشكا.

- ولِمَ لا. عجلان كما العجول، هما ودودان في طبيعتهما. وإذا ما سرقا شيئاً، أعاداه. عجلان طيبان بشكل عام.

وبينما كان الجدل دائراً حول الأسماء، غمز دميان الأعرج، وذهب إلى شجيرات في طرف الحديقة، وعاد منها حاملاً بطيخة كبيرة.

اعتقد الأخوان في البداية أنه يحمل بين يديه قرعاً، لكنهما وبعد أن تمعنا قليلاً، إنها مقلمة، نعم إنها بطيخة، بطيخة حقيقية.

عندها بدأ الجميع بالرقص، وبدأ الطفلان ينطان، يريدان فقط لمس البطيخة.

- من أين لك هذا؟ سألت ريغينا بتروفنا بمرح ولباقة. هل عندك مخبأ أيضاً؟

ابتسم دميان وهز برأسه الأصلع.

- للأسف فقد نسيت أن أقول لكم عن حقل البطيخ... وعندما غادرت، ظننت أنهما سيفتشان المكان... وأشار إلى الأخوين. - هل يجدانه أم لن يجداه. أما هما، ورغم أنهما خبيران لم ينجحا.

تبادل الأخوان النظرات، وفكرا في الوقت نفسه كيف غاب عن ذهنيهما حقل البطيخ، وهذا حقيقة عار. فتشا كل شيء، قصب السكر، وشجرة الجوز، وهذه الثمرات التي صارت حباته عقداً على جيد ريغينا بتروفنا، والتي اتضح أن اسمها بارباريس. ولكن البطيخ، وبهذا الحجم... نعم لقد عاقبهما الأصلع عقاباً شديداً. ألحق بهما العار في كل الإصلاحية. غير أنه يمكن أن يكون يكذب، فهو قد جلبها معه من البيت ويتباهى الآن.

لكن دميان أدرك أيضاً أنه ذهب بعيداً في مضايقته. وضع البطيخة على الطاولة، قطعها ووزعها على الجميع، وأعطى الأخوين أحلى ما في البطيخة، قلبها.

- أعتقد أنكما لم تأكلا أطيب منها.

- أليست مصنوعة من الحديد؟ سأل كولكا متحامقاً.

- ماذا؟ كيف يمكن أن تكون مصنوعة من الحديد؟ بطيخة كما البطيخ.

عندها قال الأخوان: إن هناك نكتة بهذا المنوال... ويمكنهما أن يحكيا لهم كيف التقى صديقان يكذبان على الدوام.

- حسناً، أخبرانا، طلبت منهما بكل سرور ريغينا بتروفنا.

نهض الأخوان ووقفا متواجهَيْن.

كولكا: لم أترك مكاناً لم أذهب إليه... أنا زرت كل العالم.

ساشكا: وهل زرت باريس؟

كولكا: نعم.

ساشكا: وهل شاهدت برج فلافل؟

كولكا: لم أره فقط، وإنما أكلت منه.

ساشكا: كيف أكلت منه؟ وهو مصنوع من الحديد.

كولكا: حسناً، وأنت؟ هل كنت في القوقاز؟

ساشكا: نعم، كنت.

كولكا: وهل شربت كوميس[1]؟

ساشكا: ماذا؟

كولكا: أقول كوميس، هل شربته؟

ساشكا: لا، لن أدعك تفعلها بي، فهو من الحديد مصنوع.

ضحك الأخوان وجميع من كان حولهما. وصفق الطفلان بيديهما رغم أنهما لم يفهما شيئاً. وأشادت ريغينا بتروفنا بالطرفة، لكنها صححت لهما خطأ وقعا به، فهو ليس برج فلافل وإنما برج إيفل، سمي باسم بانيه إيفل.

انتقم الأخوان للبطيخة المخبأة، وأكلا منها بكل سرور. وهما الآن لن يتركا منطقة في الحديقة تخفى عليهما، سيفتشون كل منطقة القصب، سيبحثون عن البطيخ في كل مكان. هذا إذا لم يكن دميان يكذب، أما إذا كذب، فالنكتة كانت جواباً مباشراً.

وهذا ما فهمته ريغينا بتروفنا. ولكنها أرادت أن يمضي هذا اليوم على خير وينتهي بسلام. واقترحت أن تغني. فأي معنى لعيد دون غناء؟ وافق الأخوان فوراً. وبدأا يغنيان بحماسة:

جلست حزيناً أراجع شريط الذكريات

ومن عيني بدأت تنسكب الدمعات

تدحرجت على خدي، على وجهي النحيل

وسقطت قطرات ممتلئات.

لكن ريغينا بتروفنا حركت يدها بطريقة كأنها تدفع بهما وبأغنيتهما جانباً. وبدأت تغني هي.

غادر القوزاق السوق إلى ديارهم،

كذبوا على غالا وأخذوها معهم،

---

(١) كوميس: هو شراب من حليب الإبل.

غالا، غالا، الصبية،

كذبوا عليها، وأخذوها مـ - عـ - هم،

هنا سعل دميان، نظف حنجرته، وفجأة بدأ يغني، كان صوته عالي النبرة، رقيقاً، حاداً، أذهل الأخوين ونال إعجابهما.

هيا، غالا، تعالي معنا، نحن القوزاق،

سيكون لك دار أجمل، وكثير من الأرزاق.

التقط الكوزمينان وريغينا بتروفنا بسرور الأغنية، وتابعا بنفس المنوال:

يا حسرتي عليك، يا غالا الصبية

كذبوا عليها، وأخذوها معهم.

خرج الأصلع دميان، وغاب قليلاً، ثم عاد ومعه بلالايكا(١). لم تكن عادية، فالأخوان لم يريا مثلها قبل الآن، فهي بذراع طويلة، وطويلة جداً.

- وجدتها في البيت، تباهى بها دميان ونقر على أوتارها الثلاثة. - كان الشيشان يعزفون عليها، ويستمتعون بنغماتها، كانوا يسمونها الهارمونيكا الخشبية... هم بالفعل أغبياء. كيف يمكن أن يطلق عليها هارمونيكا، إذا كانت بالالايكا. آلة بهذه الرقة تحتاج إلى تعامل خاص معها.

ضحك ضحكة سكران، ومر بأصابعه مرة أخرى على الأوتار، مصدراً أصواتاً قصيرة وغليظة، وفجأة ضرب جميع الأوتار براحة يده، وقلب كرتي عينيه إلى الخلف، وبدأ يغني بطبقة عالية:

في الغابة الخضراء خلف النهر، أعلى الجبل

مزرعة صغيرة فوق النهر فوق التلل

تعيش أرملة في ريعان الصبا والعنفوان

وعصفور في الغابة يغني أحلى الألحان

---

(١) بالالايكا: آلة وترية روسية. المترجم.

غنى، وتوقف قليلاً، ونظر إلى ريغينا بتروفنا. ومرة ثانية ابتسم ابتسامة سكران عريضة، وتوهجت عيناه.

كان دميان يغني بصوت هادئ، وكان أداؤه رائعاً. كانت أغنيته وكأنها عن ريغينا بتروفنا وعنه هو، وعن هذه المزرعة، حيث هو الآن في ضيافتهم... ومن ضيق صدرهما من جمال أدائه، نهض الكوزمينان بهدوء على رؤوس أصابعهما، ومدا رأسيهما ينظران في فم دميان وهو يغني... كم كان صوته قوياً وصافياً، وكم كان قادراً على التحكم السلس بطبقات صوته الجميل. وهكذا، عزفت بيديه البلالايكا الشيشانية بأوتارها الثلاثة، على الطريقة الروسية. كان هذا بمنتهى الروعة.

في تلك اللحظة، غفر الأخوان للماكر الأصلع: البطيخة المخبأة، والعنزة المدخنة، وحتى مضايقاته لمعلمتهما ريغينا بتروفنا.

وما أذهل الأخوين ما اتضح لهما للتو أن أغنية كهذه، لا تنتمي لأغاني السجون، وإنما عن أرملة ما، تُغنى بطريقة جميلة، تستطيع دغدغة الأحاسيس، وتعطي شعوراً بتغلغل الصقيع حتى العظام.

لم يعرفا شيئاً مشابهاً لهذا من قبل، ولم يشعرا بمثل هذا الشعور أبداً. وبدأ الحزن يلفهما عندما اقتربت الأغنية من نهايتها، تركتهما كلماتها حزينين، وصارا قاب قوسين أو أدنى من البكاء، ولكان هذا تعاطفاً زائداً... هذا حصل عندما كان التاجر والصياد على الطاولة جالسين عند الأرملة، يعزفان ويغنيان، وحبيبها يراقب هذا المشهد من النافذة ويرى كل شيء، ويصبر على كل شيء... لكنه في نهاية الأمر لم يعد يحتمل، قتلهم جميعاً. كما لو أنه شيشاني. هذا ما كان وفقاً لأغنية دميان.

ومنذ ذلك الحين، لا أحد في المزرعة

إلا العندليب وحيداً، يغني أغانيه الحزينة.

جلس الجميع في صمت واجمين، ذهلوا من هذه الحكاية المروعة، ومن شاب بهذه الجرأة، باسم الحب يقتل أرملة.

أخذت ريغينا بتروفنا طفليها إلى النوم. وعادت تتابع السهرة.

بعد الغروب بقليل، وقد بدأ الظلام يعمّ، كان الجو هادئاً ودافئاً، وكان صادقاً يضفي بعض السعادة رغم مسحة الحزن. ومع أن الأخوين لم يدركا بعد هذه السعادة، لكنهما قد يعرفاها في وقت لاحق، إذا أدركاها. وإذا بقي لديهما متسع من الوقت ليُدركاها.

يا إلهي، كم هي الحياة قصيرة، وكم هو صعب التفكير بالقادم من الأيام، خاصة عندما نعرف كل ما سيحصل.

أذكر تماماً، هذه السهرة الخيالية في مزرعتنا الواعدة في عمق سفح من سفوح جبال القوقاز. والغريب أن اليوم الذي اخترعته لنا الرائعة ريغينا بتروفنا، صار يوم مولدي طوال حياتي. أتساءل أحياناً، هل يمكن أن يكون ذاك اليوم هو يوم مولدي الحقيقي؟ نظرت حولي، أتطلع ما التغير اللافت الذي حصل في العالم. لكن كل شيء كان كما كان، السماء مبهمة بحلول المساء، لكنها صافية بلا غيوم. والعشب دافئ، دفأه النهار. ورائحة الشيح اليابس المشبعة بالمرارة والحزن، المكتسبة من صلابة هذه الأرض، تملأ المكان. وحصان دميان الوديعُ، الذي يرعى في مكان ليس ببعيد، يبدو ظلاً داكناً، والجبال خلفه خلفيةً له، لكنه لا يحلّق شامخاً كما في اللوحة المعروفة، بل حانياً رأسه إلى الأرض. وبذلك يُكمل الحصان الصورة المسالمة لحياتنا.

أنا كنت أعرف. بالتأكيد كنت أعرف، أن الحياة لا تكون بهذه الحلاوة ولا تكون جميلة بهذا الشكل. وما دام هذا قد حدث، فهذا لا يبشر بخير، فكثيراً ما تنذر الأفراح بمزيد من الأتراح. وبالضبط آنئذٍ صرت أتوقع الأحزان، عندها فقط أدركت أنني حي، وأنني بالفعل موجود، وفيما بعد سأموت. أذهلني هذا الشعور المؤلم، بسرعة الزوال، الذي تعرفت عليه فيما بعد، صدمني طوال حياتي التالية، مثل الصاعقة، مثل الشظية التي أصابت صميم قلب السائق فيرا. يا إلهي كم أتمنى ألّا أموت أبداً. لكن في وقت لاحق أدركت بعدما قرأت مقالاً علمياً، أن «جينات الموت» استيقظت في تلك اللحظة في داخلي، وهي التي تُمنح لكل البشر الأحياء، لكنها لا تُظهر نفسها قبل ذلك، وتظهر فقط في المراحل الأولى من الشباب، في لحظة ما خاصة... ثم تتابع فيما بعد طوال الحياة. أما الأطفال مثلي قبل ذلك، يعيشون دون أن يواجهوا أي شيء على أنه زائل، ولذلك هم خالدون.

في وقت مبكر من صباح اليوم التالي، ولم تكن الشمس قد بزغت من خلف الجبال، بدأ دميان يستعد لرحلة العودة. فرش العربة بالقصب، ووضع عليها رأسَيْ قرع أصفر كبيري الحجم.

حالما لاحظت ريغينا بتروفنا من نافذتها استعداده للرحيل، خرجت على عجل وهي تزرر قميصها.

- ألا تأخذ معك في طريقك كوزمينيَّ؟ سألت. - فنحن بحاجة إلى بعض المواد الغذائية.

لم تنظر إلى وجه دميان، وحرصت أن تُظهر بُعد المسافة بينهما.

كان هذا بسبب ما جرى مساء البارحة، أو بالأحرى ليل البارحة، عندما طلب دميان النوم على الأرض في غرفتها، بحجة البرد، ثم تسلل إلى فراشها، كما لو أنه أخطأ الفراش بداعي السكر، لكنها طردته. وأخرجته من الغرفة. رتب أمور نومه على القصب بجوار الأخوين المستغرقين بالنوم. طوال الليل كان يدخن لفافات تبغه. انتظر طلوع الفجر. استذكر ذاك اليوم عندما كان في المشفى العسكري في ضاحية من ضواحي مدينة بيسك، كيف جاء إلى النهر ليُغرق نفسه، فقد وصلته رسالةً تُخبره أن الألمان قتلوا زوجته وطفليه، وحرقوا منزله. وهو نفسه كان قد أصبح معاقاً، لم يستطع عقله تحمل كل هذا، وشعر أن وجوده لم يعد يعني أحداً... وهو حتى هذا الوقت كان يتبع لقيود المشفى ولم يُخرّج بعد.

وهكذا، جاء إلى النهر، حاملاً صنارة ليبدو أنه يصطاد السمك، والنهر كان قوياً، هادراً ومياهه سريعة، ليس كما في سهول روسيا، وإنما دوَّارات وأمواج تتكسر على الضفة. وضجيج النهر كان يطغى على كل ما حوله.

مال برأسه إلى النهر الهادر، وبدأ رأسه يدور. يا إلهي، ما هذه الحياة، ماذا تعني بعد أن انطفأت شعلة الحياة بداخلي.

وفجأة ظهرت على الضفة الأخرى، المرأة الطبيبة، الجراح التي قطعت رجله في المشفى... كيف ظهرت على ضفة النهر؟ هل كانت تتمشى؟ رأته وقالت... «هل ترغب... ببعض الكحول، دميان إِفانيتش؟ هلمَّ، لقد احتفظت ببعض منها». وافق. شرب كأساً وبدأ يشعر ببعض الارتياح. أشعل سيجارة. وهي تصب كأساً أخرى. «اشرب، لا تخف. إلى أين ستسافر بعد المشفى»؟. شرب نصف الكأس الأخرى. وتمتم: «لا أعرف». وقال في سره: «كدت أغادر... من حيث لا يعودون».

وفجأة قالت، «في القوقاز أرض غنية، وهي فارغة، لا أحد يزرعها. والأرض تنتظر رجالاً. لماذا لا تحاول، ثلاثون عاماً هذا ليس عمراً، يمكن اعتباره سن البلوغ عند الرجال، لا تخف فقد تلتئم كل الجراح».

«كل الجراح»، عادت وقالتها ثانية. «يمكنك الزواج والإنجاب، قد ترزق بدزّينة من الأطفال».

لم تكن المرأة الطبيبة كبيرة بالسن، كانت متزوجة، وزوجها منفي، يعيش في كنفها، وربما تعيش في كنفه، عمل في قطع الأشجار، وهو عمل شاق مرهق، وإذا تفكرنا بهما فحياتهما كانت أيضاً قاسية. أما دميان نفسه فهو رجل حر، ويمكنه تحمل شظف العيش وصعوبات الحياة. حَسَبَها، فرأى أن الوضع لن يكون أسوأ. وبالفعل، ماذا لديه ليخسره. وقرر السفر، وهناك أذهلته الجبال غير المألوفة، والأرض السوداء الطيبة، تغرز عوداً وبالحال تظهر عليه البراعم والأزهار.

استلم بيتاً، ليس معروفاً لمن تعود ملكيته، رتبه وعزّل القبو، سوّى الطريق إلى البيت، مهده ورصفه بالحجارة. وزرع أشجار الحور على جانبيه.

أصلح السقيفة، ونظف البئر، وجهاز التقطير المشابه لما كان عنده في قريته، وقطَّر فيه زجاجة كبيرة من الخمر. نظر حوله، كل شيء موجود، ولكن شيئاً ما ينقصه. وما يمكن أن يحتاج إليه وهو وحده؟ حفنة من الذرة وبعض القمح، ولن يحتاج إلى أكثر من ذلك. إلا إذا صار عنده زوجة وأنجبت له أطفالاً، وصار الدار لهم ملعباً، واقتنى ماشية، وصارت تخور بقرة، وتصيح ديكة. ويستقبلونك بالإبريق عند مدخل البيت، يسكبون لك الماء، وينظرون كيف تغسل العرق عن وجهك بعد يوم عمل طويل.

بدأ يشرب. ولم يتغير شيء. ظلت دوامة النهر تخطر بباله. صار يراها في يقظته، يغلق عينيه فتختفي، ويختفي كل شيء، صار يعتقد أن كل ما حوله وهم. هنا تكمن القضية. هذا كله وهم، وهو يتخيل كل هذا، يتخيل أنه يعيش... أعادته تلك المرأة الطبيبة إلى الحياة... ولكن ورغم أنها امرأة حكيمة، لم تلحظ كل ما بداخله. وهذا ما آل إليه. فعندما سافر لأول مرة إلى المزرعة الإنتاجية، كان نظره دائماً إلى سكة القطار، يريد أن يعرف كثافة القطارات التي تمر. فهنا لا توجد دوامات في الأنهر، ولكن توجد سكك حديدية قدر ما تريد. تستلقي وهذا لن يستغرق وقتاً. إضافة إلى أن القطار يقطعك قبل أن يصل صدى صوته من الجبال. وفجأة تظهر المعلمة وولديها في المزرعة.

- لم تجبني، دميان إِفانيتش، ألا تأخذهما؟ سألت وهي تضيق عينيها فالشمس في مواجهتها..

امرأة جميلة، رقيقة، كل ما فيها رائع، صدرها، يداها، رجلاها، وشعرها، حدث ولا حرج، كشعر ساحرة، يمكن لفه حولها وربطه بعقدة منه. أما وجهها فآية، دون أحمر شفاه، لكنها للأسف تدخن، الغبية. لكن يمكن جعلها تقلع عنه. بالسوط أو بشيء آخر.

- وأنتِ ما بكِ؟ استفسر بشكل بعيد عن اللباقة. - أم إني أخفتكِ لتفقديني ثقتكِ؟ تظنين أن دميان طائش، خفيف العقل، وتعتقدين أني شخص سيئ، أليس كذلك؟

- ولماذا هكذا تظن... أنا أثق بك، دميان إيفانيتش. يبدو أنني بتكويني... غبية، كما ترى. قالت هي هذا وعيناها نصف مغمضتين من الشمس ولم تنظر إليه. - لقد تعب ابني البارحة، كان مريضاً... قد يكون أفرط في الطعام. حملته طوال الليل. وإلا لذهبت أنا. ولا داعي لأن أرسل المحتفى بهما، فإني أخاف عليهما.

وقفت وكأنها مذنبة. كانت تثير الشفقة.

- سأجلب لها حقنة، قال، - علمتني جدتي طريقة لعلاج هذه الاضطرابات، تأتي بحويصلة الدجاج، تُجفف وتُطحن، ثم تُحقن. تُشفي من جميع الإسهالات.

- شكراً، قالت ريغينا بتروفنا بصوت منخفض.

وبقيت واقفة، تنتظر.

- أما عن الولدين، فلا مانع من أخذهما، فالعربة كبيرة. ولكن كيف سيعودان؟

- ألا يمكنهما العودة معك؟

علّق هو:

- ذهاب وإياب في يوم واحد. لن يسمحوا لي.

- توصلهما إلى المحطة. قالت ريغينا بتروفنا بانفعال. - فقط إلى المحطة وأنا على الحمار ألتقيهم... هل هذا ممكن؟

وذاك تنحنح، ومسح صلعته. استدار واتجه صوب العربة. ودون أن يلتفت رمى كلماته وهو يسير:

- أيقظيهم، فالوقت ينفد.

أسرعت ريغينا بتروفنا، وبدأت توقظ الأخوين، وهما اللذان أُرهقا البارحة، لم تتمكن من إيقاظهما بقيا نصف نائمين، ليسا بوعيهما. هزتهما محاولة إعادة الوعي إليهما، سكبت لهما الماء ليغتسلا، أمرتهما بأن يأكلا شيئاً ما، لكنهما رفضا أن يتناولا أي طعام.

أعطتهما شنطة وضعت فيها كيسين قماشيين للحبوب، والشنطة نفسها للخبز. كما وضعت فيها زجاجة حليب وبعض الشطائر. وإذا تيسر لهما وشربا الحليب، يمكنهما ملؤها زيتاً نباتياً في طريق العودة.

- ألن تنسيا؟ سألت الأخوين.

هزا رأسيهما، وهما يتثاءبان. لم يتمكنا بتاتاً من الاستيقاظ. وكان تحت إبط كل منهما صرة، هدية البارحة اصطحباها معهما.

- وهذه لماذا؟ دُهشت ريغينا بتروفنا. - أتريدان تركها في الإصلاحية؟

حرك الأخوان رأسيهما يميناً وشمالاً. لا، فهما ليسا غبيين، ليأخذا هذه الثروة إلى الإصلاحية.

- إلى المخبأ، أليس كذلك؟ حزرت هي. لم يجب الأخوان. فهو أمر مفهوم أن يكون إلى المخبأ.

- الأحسن تركها هنا، نصحتهما ريغينا بتروفنا. - لن يلمس أحد ملابسكما. أعدكما. ما رأيكما؟

تبادل الأخوان النظرات وأعطياها الصرر.

- اذهبا... ومسحت على رأسيهما، أحدهما باليسرى والآخر باليد اليمنى. - إذا ما سألكما المدير فقولا له إن أحوالنا جيدة، وكل شيء متوفر. ويمكنه إرسال تلاميذ الإصلاحية لجني المحاصيل.

- وما الفائدة منهم، قال ساشكا وهو يدير ظهره. وهز كولكا رأسه موافقاً.

رافقت ريغينا بتروفنا الأخوين إلى العربة وأجلستهما في مؤخرتها.

- اعتنِ بهما دميان إفانيتش، فالوضع هناك لا زال سيئاً... وأنا كما وعدت، غداً ألتقيهما.

فتش دميان في كومة القش، وأخرج منها قبعته البالية، وضعها على رأسه وجذبها حتى جبهته، ونظر من تحت حافتها، نظرات ثاقبة إلى المعلمة. كانت عيناه بتأثير الضوء الصباحي، زرقاوين تماماً، وطفوليتين.

- ولماذا أعتني بهما، فهناك كل شيء على ما يرام. عندما قدمت إلى هنا، كنت أقيِّم الوضع كما لو أني على الجبهة. كانوا ينقلون المقاتلين إلى الجبال بالشاحنات. ينقلون وينقلون. كما لو أنهم يهيئون لحصار مثل حصار ستالينغراد. وكانت الشاحنات تعود... محمّلة أيضاً...

- محمّلة؟ ماذا يعني محمّلة؟ سألت ريغينا بتروفنا، وقد شَحُبَ وجهها فجأة. - أحياء؟ أرجو ذلك.

- منوع. تملص دميان. - البارحة لم أرغب في الكلام، لم يكن في سياق الحديث. أعتقد أنهم انتهوا منهم. والحياة عادت هادئة...

اكفهر وجه ريغينا بتروفنا.

- عفواً، أنت هكذا، كأنك... تبدو سعيداً...

- وهل عليَّ أن أبكي؟ انزعج فجأة. - الأحسن أن نقضي عليهم من أن يقضوا علينا. أو عفواً، أردتِ أن يكون العكس؟ هل قصَّروا في إخافتك؟

هزت ريغينا بتروفنا رأسها، ونظرت إلى الأخوين.

- أنا حقيقةً، لا أريد شيئاً، ولكن لماذا القتل؟

- يبدو أنهم لا يتمكنون منهم بطريقة أخرى. باعوا أنفسهم لهتلر. عندهم قتل الروسي همٌّ وطني.

- وماذا لو جردوك منزلك؟ سألت ريغينا بتروفنا بصوت هادئ.

- وهم جردوني. ضحك دميان فجأة كما لو أنه ساذج. لكن من غير الممكن أن يكون هذا مضحكاً له. - عندما كان عمري ستة عشر عاماً أخذوا الحصان مني، كان محسوباً على الإقطاع، لم أقل شيئاً. أعطيتهم إياه. وقلت لهم شكراً، دونه الحياة أسهل. وها أنذا أذهب إلى المزرعة راكباً... ولا زلت على قيد الحياة.

- لا أدري... ليس هذا حديثنا، تنهدت ريغينا بتروفنا. - أنتم ببساطة قسَّت الحرب قلوبكم. كلكم قست قلوبكم. وهذا أمر مخيف... بكل الأحوال اعتنِ بهما من فضلك... هل تسمعني؟

استدار دميان، ونهر الحصان.

جلس الأخوان متعانقين وأرجلهما تدلت من العربة، وهما ينظران إلى ريغينا بتروفنا.

- سألاقيكما غداً عند الغداء. صاحت خلفهم ولوحت لهما بيدها.

رد الأخوان بصوتين مختلفين: اتفقنا.

أما دميان فلم يجب ولم يلتفت. كما لو أن هذا لم يكن يعنيه. هو فقط قاد الحصان، وراقب الطريق بانتباه من تحت حاجب قبعته، وهو صامت.

التزم الصمت طول الطريق.

عرف الأخوان فوراً، لماذا هو صامت، دق الباب فجاءه الجواب. رُفض طلبه، رغم جمال صوته. لن يكون عريساً، هذا أصبح مفهوماً.

وعندما دخلا إلى حقل الذرة على حافة الطريق، لقضاء حاجة، قال كولكا بصريح العبارة:

- طردته وأبعدته.

- أشعر بالأسى نحوه، قال ساشكا. - صوته جميل جداً.

- ألن يحتجزنا المدير اليوم؟ غيّر كولكا الموضوع. - فالرسالة عنده.

- قد يكون نسينا... هناك ما هو أهم.

- الأهم، أخذ المخبأ، قال كولكا. - أعتقد أنه علينا الهرب.

- وريغينا بتروفنا؟

- وما بها ريغينا بتروفنا؟ وعدت بعد العيد.

- ولنفترض أنها لن تغادر؟

- وماذا في هذا؟

- أتأسف لها...

- لا تتأسف، فالمتأسفون حولها الآن كثر.

صار ساشكا يزرر بنطاله، وغدا متوتراً فقطع الزر. وقال وقد خرجا إلى الطريق:

- كما تريد، لكني لن أتخلى عنها.

- بتاتاً؟

- بتاتاً.

- هكذا، بتاتاً؟ أعاد السؤال كولكا مندهشاً. - معي؟ ألا تذهب؟

هز ساشكا رأسه رافضاً.

يمكن القول إنهما أفرطا في الحديث، تحدثا بما فيه الكفاية. واتضح للمرة الأولى في حياتهما كلها، أنه يمكنهما أن يتخذا قراراً بمحض إرادتهما أن يفترقا.

لم يصدق كولكا أذنيه. ولو قيل له هذا، لما صدقه. لا يمكن فصلهما، لا يمكن تقسيمهما، هناك مفهوم في علم الحساب، لا يقبل القسمة... هذا المفهوم يتحدث عنهما بالضبط.

أدرك كولكا أن ساشكا قد جُن. وتمنى من الله ألا يستمر هذا الجنون مدّة طويلة... لكنه ألقى بالأفكار السوداء بعيداً، أما ساشكا فقال:

- عندما نعود، سنقرر. اتفقنا؟ وأعطاه الحزام الفضي ليستعيض به عن الزر المفقود. هو نفسه ما أهدته ريغينا بتروفنا.

- اتفقنا. وافق ساشكا. ربما كان يعتقد أنه لن يكون هو من سيغير رأيه وإنما كولكا. لكنه حزم أمره بالحزام.

وفيما بعد استلقيا على العربة، وغطا في نوم عميق.

أفاقا عند الغسق، ولم يُدركا فوراً أين هما. كانت العربة منفصلة، والحصان يرعى بجوارها بين قصبات الذرة. ولسبب ما كان دميان جالساً على الأرض، ويتلفت حوله. كان وجهه مرتبكاً وحتى يمكن القول إنه كان شاحباً.

رفع الأخوان رأسيهما، وهما يحكانه وينظران حولهما.

- أنتما!، ناداهما دميان بصوت خفيض ورفع لهما يده. - تعالا إلى هنا... لكن بهدوء، بكل هدوء.

قفز الأخوان من العربة على مضض، واقتربا منه.

- وأين الإصلاحية؟

لكن دميان لوح بيده بشكل غريب، وأشار لهما بالاقتراب منه أكثر وبأن يجلسا.

- هل هو مريض؟ سأل ساشكا مندهشاً من هذا السلوك.

وأضاف كولكا:

- وأنا أيضاً أفرطت البارحة في الطعام، عندي موسيقا كاملة في بطني، أوركسترا.

بدأا يضحكان، التفت إليهما دميان وصرخ بهما:

- اهدأا، قلت لكما... ها هي الإصلاحية، وأشار بيده إليها. - لكن لا أحد هناك...

- كيف لا أحد. سأل الأخوان، وهما يحدقان في دميان. - كيف لا أحد؟

- لا أحد، وفقط. قال همساً وبشكل قاطع. - اذهبا إن أردتما. لا تظهرا أبداً على الطريق... هل تفهمان؟

- لا... لماذا؟

- أقول، كونا أكثر حذراً، فهمتما؟ استطلعا وعودا. أنا هنا سأنتظركما.

وقف الأخوان مشدوهين يفكران.

لم يصل بهما التفكير إلى شيء. استدارا دون أن يتناقشا، وذهبا. سارا بحرية كأنهما يتنزهان، لم تكن هذه الأماكن غريبة، كانت مألوفة لهما. كان الدافع الأقوى لهما هو أن يصلا إلى مخبئهما، هل لا زال على حاله؟ هل بقي سالماً؟

بعد خمسة إلى عشرة أمتار، خفّت كثافة قصبات الذرة، وصار يمكن مشاهدة الإصلاحية، بيت كبير من طابقين. لكن الصمت الذي لف المكان أدهشهما. لم يُسمع صوت واحد، بينما كانت تُسمع على بعد كيلومترات أصوات وصراخ وضجيج كثير.

- ستتسلل؟ سأل ساشكا، مشيراً إلى ثغرة السياج.

- وأنت؟

انتقلا إلى الهمس، رغم أنه لا سبب يدعو إلى الخوف. فقط في هذا الصمت الرهيب لم يكن من الممكن التحدث بصوت مرتفع. وما يتعلق بدميان، فقد بدا للأخوين في اللحظة الأخيرة، عندما جلس على الأرض بوضعية غريبة، أنه قد شرب أيضاً بعد سكرة البارحة، ولم يستعد بعد وعيه. ويمكن أن يتهيأ له ليس فقط إصلاحية فارغة، وإنما شياطين خضر بين الأعشاب.

اندفع الأخوان عبر ثغرة السياج، ووجدا نفسيهما عند الجدار الخلفي للبناء المؤلف من طابقين.

كان البناء هادئاً، لم يبرز أحد من نوافذه. قد يكون جميعهم في المطعم؟ وربما هم يجمعون المحاصيل من الحقول؟

سارا على طول جدار البناء، واستدارا عند زاويته، وهناك تسمرا في مكانهما.

كولكا الذي سار في الخلف، ارتطم بساشكا. نظر كلاهما بدهشة إلى الساحة. بدت لهما غريبة. كانت مليئة بأشياء كثيرة، كما لو أنها كانت حالة إخلاء. كان المنظر يوحي بأن هناك من أراد إخلاء البناء، فأخرجوا كل شيء منه، كدسوا الأسرة والفرش والمقاعد والطاولات، ثم تركوا كل شيء وفروا.

هدوء مريب. صمت الأموات. إلا من صوت طرقات متواترة كصوت الجرس، يصدر من فوق، كأنه من السماء: بوم، بوم...

ارتعد الأخوان، كانا كما لو أنهما في جنازة، لم يكن يختلف الأمر كثيراً عن مراسم الدفن. تحركا ببطء وهما يتلفتان، دخلا إلى الساحة، هسهس تحت أقدامهما الزجاج المكسر. كانت النوافذ محطمة. والأبواب مُخَلَّعة ومرمية على الأرض.

نتأ سرير من إحدى نوافذ الطابق الثاني، برز مسنده الأزرق، وبفعل الريح كانت صرعة نافذة كُسر زجاجها تضرب به. ومن هنا جاء صوت الجرس الجنائزي.

انحنى ساشكا، ورفع وعاءً معدنياً صُنع من المعلبات الأمريكية. قلَّبه، ورماه. تدحرج على الزجاج وعلى الأرض، وبقي طويلاً دون أن يستقر، ظل يتدحرج، يرافقه صوت قرقعته المعدني، كما لو أنه حُقن آلياً وتُرك، فاستمر في حركته حيناً. وهناك حيث استقر على بعد عشر خطوات تقريباً، ظهر شيء داكن على الأرض.

انظر، قال كولكا، وهو يقلب في يده ما وجده. - هذا قفل... قفل لـ ...

أراد أن يقول: «هذا قفل لحقيبة». لكنه لم يلحق، لأن الشيء الأسود على الأرض كان الحقيبة نفسها.

تلك الحقيبة الشهيرة، المعروفة لجميع أولاد الإصلاحية. بجانبيها المنتفخين، وقفليها اللامعين. حالياً أحدها كان منزوعاً من مكانه، هذه الحقيبة التي حملها بيوتر أنيسِمَفيتش. كان يحملها دائماً، لم يتركها أبداً في أي مكان وتحت أي ظرف.

صُعق الأخوان وهما ينظران إلى هذه الحقيبة، وما وصلهما وتوصلا إليه من صور مفاجئة للدمار.

فإذا كانت الحقيبة نفسها موجودة، والمدير غير موجود، فهذا يعني أن ما حدث لا يمكن وصفه بأقل من كارثة وقعت.

ربما حصل قصف ما؟ ربما إنزال لجنود ألمان؟ ربما... ربما...

بدأ الخوف يتغلغل فيهما، حالياً لا مبرر له، وهو موجود في اللاوعي، ويعمقه عدم الوضوح.

جلس ساشكا، وبحذر شديد تلمَّس الحقيبة بيديه، كما لو أنها لم تكن حقيبة وإنما كانت كائناً حياً.

وفجأة دوى صوت قوي بجوارهما، صرخ كولكا كالمسعور: «احذر، هيا نهرب».

وانطلقا يركضان.

على الزجاج، على ألواح الأبواب الخشبية، على الفرش المنكوشة وقد خرجت ذيول القش من داخلها... إلى زاوية البناء، وعبر ثغرة السياج، دون أن تمسهما شوكة واحدة، إنها المعجزة. اقتحما حقل الذرة، وأبعدا قصباته التي اعترضت طريقهما.

ما الذي أخاف كولكا، بل أخافهما، لن يتمكنا من تفسيره. ربما أسقط الهواء قطعة معدنية ما، ووتر أعصابهما.

كلما ركضا مبتعدين، زاد الخوف عندهما حتى أصبح رعباً.

تهيأ لهما أنهما وحدهما، ولا وجود لأي دميان هنا. ماذا عليهما أن يعملا في هذه الحالة؟

لكن دميان، لحسن الحظ، كان جالساً في مكانه، حيث تركاه. فقط التفت بكثير من الخوف عندما ظهرا.

ودون أن يتحرك، دون أن يغير وضعيته، نظر إليهما مباشرة من تحت واقية قبعته:

ماذا؟ ماذا رأيتما؟ سأل وبدأ يلف «رجل المعزاة». لم تستجب يداه له، وسقط التبغ من يده على ثيابه وعلى العشب.

كانا يلهثان بشدة، أَمِنَ الخوف أم من الركض. وهما الآن ينظران إلى يديه العاصيتين المهتاجتين، ويتنفسان بصعوبة.

أخيراً أشعل لفافته، سحب الدخان منها عدة مرات بشدة، كان يحدق بنقطة خلف الأخوين الواقفين أمامه. رمى لفافة التبغ بعيداً ونهض فوراً، دون مساعدة.

ينبغي الذهاب، نطق بصوت أجش.

ليس معلوماً من كان يقصد بكلامه، ذاته أم الأخوين معه. لم يقل بعدها أي كلمة، تحرَّك إلى منطقة كثيفة الزرع، لم يكن يبدو عليه العرج.

هُرع الولدان خلفه، لكنهما فجأة توقفا، التفتا إلى العربة والشنطة وإلى الحصان الذي يرعى بمفرده.

التفت دميان وضرب الهواء بيده.

ليذهبوا إلى الجحيم، تمتم. ربما ثانية، لم يكن يوجه كلامه إلى الأخوين. - لا وقت لدي، يجب أن أحافظ على حياتي.

- ماذا تقول؟ سأل ساشكا.

لكن دميان أعطى إشارة الصمت، واضعاً اصبعه على شفتيه. واتجه إلى حقل الذرة، محاولاً تجاوز كل منطقة مفتوحة بإلقاء نظرة يقظة، ربما كما يفعل رجال الاستطلاع والاقتحام في الحرب.

عرفا عندها فوراً، أنه ينوي التوجه إلى بِرزوفسكَيا. إي إلى بيته.

لم يعد يتوجه إلى الأخوين، ولم يتذكرهما.

هو فقط مرة واحدة التفت عندما كسر ساشكا غصناً دون قصد منه، التفت إليه بحدة، وأظهر له قبضة يده.

صمتاً، لا أريد أن أسمع صوتاً.

وعلى الفور تعثر كولكا بساق يابسة فخشخشت. عاد دميان إليهما، أومأ للولدين أن يأتيا إليه، ولوى رأسي الأخوين بعنف إلى الأرض. وهمس متوعداً في أذنيهما.

غبيان، هل سئمتما الحياة. إذن، اذهبا... سيكسرون رقبتيكما دفعة واحدة.

من؟ سأل ساشكا، وقد اتسعت عيناه.

لم يسبق له رؤية مثل هذا الرجل الغاضب أو بالأحرى الخائف. فهو دائماً كان يعتقد أن الكبار، ولا سيَّما الجنود السابقين لا يمكن أن يخافوا.

من، من. قال دميان بنفس اللهجة الغاضبة هامساً. - وأنتما ماذا بكما؟ ألم تفهما؟ إنهم هنا، يتجولون بالجوار. وأخذ ينظر حوله.

ترك الأخوين، وبدأ يعرج، ولكن ببطء، ربما تعب، هم جميعاً تعبوا.

وفوق التعب، كان الإسهال يزيد وطأته على كولكا. كان يمكن أن يقول له أولاد الإصلاحية: إن البحَّار عملها في ثيابه، من خوفه.

كان يتوقف كل دقيقة، يجلس، ويشد، وينظر في الغسق المتزايد، بعيون شاكية إلى ساشكا الذي ابتعد عنه. وساشكا، رغم معرفة كولكا بأنه لن يتركه، كان يستعجل خلف دميان، كيلا يضيع منه، ملتفتاً مرة إلى الأمام ومرة إلى الخلف.

ودميان نفسه كان كما لو أنه لم يكن يعرف بمعاناة كولكا، حتى إنه لم يكن يلحظ وجودهما، تسلل عبر قصبات الذرة، يربض ويرصد حوله كما اللصوص.

وفي لحظة حدثت أشياء كثيرة:

كان دميان في المقدمة، وفجأة قفز إلى جهة أخرى واختفى. وكولكا الذي عانى المغص، جلس مرة ثانية، وشد ما استطاع دون أن يَخرج منه شيءٌ. رأى أن ساشكا اندفع في أثر دميان، وومض حزامه الفضي، ثم اختفى ولم يعد مرئياً.

ثم ظهر دميان من جديد. مشى وهو يعرج، ويضرب بقدمه الخشبية، دون أن يخاف عليها. وصاح بمن خلفه، إلى ساشكا على الأرجح:

دعنا نركض متباعدين، لننتشر... هكذا يصعب عليهم الإمساك بنا.

سقط دميان مثيراً ضجة في حقل الذرة واختفى. وضاع ساشكا أيضاً ولم يظهر. بقي كولكا جالساً وحده.

وفي لحظة حصل ما لم يستطع كولكا ادراكه بسرعة، ولم يُترك له الوقت الكافي ليعي ما يحصل، ولا حتى ليرفع بنطاله. بجواره ظهر له فوق قصبات الذرة رأس حصان. بقي كولكا جالساً كما كان، نظر إلى رأس الحصان، والحصان حدق به بعين حمراء مشككة. وفجأة فوق الحصان صاح فارس لم يلحظه كولكا فوراً، بل شاهد ظله الداكن، وبصوت جهوري حلقي صاح: «غْخْيِيْ، غْخْيِيْ، غْخْيِيْ»، هنا فقط استوعب ما يحصل.

ارتمى كولكا على الأرض، وأغمض عينيه. صار يسمع كيف يتحرك الحصان باتجاهه، كيف يدفع بصخب قصبات الذرة في طريقه. بدأ يشخر ويتنفس مباشرة في رقبته، فتح عيناً واحدة، ورأى مباشرة عند وجهه رجل الحصان مضطربة تتخطاه، وسحق حافره ساقاً لينة، ارتدت الساق، ولسعت كولكا على وجهه بقوة، وطارت حفنة من التراب، وانتثرت على شعره وظهره.

أدرك أن الخطر جاثم وقد عثروا عليه، ينبغي له أن يثب ويهرب، قبل أن يُقبض عليه. لكن وبمجرد أن تزحزح لينهض، فزع الحصان فجأة شخر، وارتد بحدة، واندفع إلى الجهة الأخرى.

ركض كولكا على رجليه المتصلبتين الفاقدتين الحس مثل عكازين، وهو يرتجف كله. بخطوات صغيرة عبر النباتات المزروعة، ماسكاً بنطاله بيديه. وها هي الصيحات الحلقية في مكان ما بقربه، خلف ظهره مجدداً: «غْخْيِيْ، غْخْيِيْ، غْخْيِيْ».

تلا هذا ضجيج ولغط، فوقع حوافر... فمطاردة.

صار يركض، ويقفز بشكل مضحك ماسكاً بنطاله. لم يكن يعرف إذا ما كانوا يلاحقونه أم لا، فهو لم يكن يسمع إلا أنفاسه وخشخشة قصبات الذرة التي تعترض طريقه. ثم انتهت أنفاسه. وخارت قواه. وسقط في حفرة صغيرة، ولم يكن قادراً على أن يتزحزح داخلها. فاجأه أنه لم يعد قادراً على الحركة. ثم غاب هو نفسه أيضاً.

لم يسمع كيف مر حصان بالقرب، وتكسرت في طريقه قصبات الذرة، وبدأ يبتعد شيئاً فشيئاً حتى اختفى تماماً.

عندما استفاق وعاد له وعيه، كان الظلام مخيماً. والسواد يلف المكان. كأنه مغلقٌ عينيه وصامٌّ أذنيه.

تحسس الحفرة التي سقط بها، لكنه لم يستطع النهوض منها. وبدأ يحفر بيديه ويردم تحت رجليه. جرف بأصابعه الأرض القاسية ذات الرائحة الكريهة ورماها تحته، كالوحوش يحفر بيديه، ويدفع بها بعيداً بقدميه إلى الخلف.

كم مرة فعل ذلك، ولماذا. هو لا يعرف. فهو لم يعد يعرف عن نفسه شيئاً، وعندما خارت قواه، سقط والتصق بأرض الحفرة التي حفرها، ومرة ثانية اختفى من هذا العالم. سقط في هاوية.

-٢٦-

كان الصباح دافئاً صافياً بلا غيوم، ولا نسيم. رُسمت حدود الجبال القريبة مع السماء الزرقاء بوضوح تام. كانت تظهر كل التضاريس عليها. وكان الثلج يسطع متلألئاً على القمم.

طائر رمادي داوم فوقه يرفرف بجناحيه ذهاباً وإياباً، يقف ساكناً، يحوم، يراقب فريسته. صرّت الجنادب، وغردت الطيور. ورفرف سرب أسود من طيور الزرزور.

كان الجو طبيعياً هادئاً، مما جعل أحداث البارحة تُستوعب على أنها حلم مزعج. لا آثار عميقة لحصان في الدروب المضروبة وسط حقول الذرة، ولولا الحفرة التي حفرها كولكا، لقرر أن كل ما حدث كان في المنام.

لو أنه يستيقظ الآن في المزرعة الإنتاجية، حيث ينام على القصب، وبجواره ساشكا يشخر. فينخزه كولكا بقبضته في خاصرته ويقول له: اسمع أي منام رأيت اليوم... كما لو أن هؤلاء، الـ... شيشان، كانوا يطاردوننا ليلاً، على الأحصنة. وأنا بلا بنطال، لكُنا ملأنا المزرعة ضحكاً.

وحتى حادثة الفارس لا يمكن استيعابها اليوم بفظاعتها البارحة.

كان الجو العام مفعماً بالهدوء والسلام. ولم يكن يُصدق أو يمكن أن يُفترض أن يحدث في مثل هذا الصباح، شر من أي نوع.

نفض كولكا التراب عن بنطاله، استطلع المكان، حتى إنه قفز ليرى في أي اتجاه تقع بِرِزوفسكَيا. لكنه طبعاً لم ير شيئاً.

حاول استنتاج موضعها حسب الشمس والجبال، واختار اتجاهاً صحيحاً، كما خُيل له، وسار. لم يحاول الاختباء أو اتخاذ أي من إجراءات الحيطة والحذر. لا يمكن أن يكون ساشكا ودميان قد ذهبا بعيداً. وإذا صح تفكيرهما فسيفكران بالذهاب إلى بِرِزوفسكَيا.

وقد يكونان قد أصبحا هناك؟ وهما الآن يجلسان عند البئر، يشربان الماء البارد. وهو أيضاً يشعر بالعطش الشديد.

سار كولكا. سار وهو ينزع خيوط عنكبوت علقت على وجهه، خيوطاً نُسجت على قصبات الذرة في بعض الأمكنة، وأخافت الطيور السوداء الكبيرة.

انطلق من تحت شجيرة كالسهم أرنب رمادي، مستعجلاً إلى مكانٍ ما، كانت الأرض كما لو أنها تنسحب من تحت قدميه.

لم يخف كولكا من الأرنب، لكنه فكر: «ربما لم أكن أنا أصلاً المقصود بالمطاردة البارحة، ربما كانوا يطاردون أرانب كهذا؟ ونحن الحمقى كنا نرتجف... مثل هذا الرمادي على الأرجح».

وعلى قصبة ذرة خضراء تماماً، نبتت متأخرة على ما يبدو، كوز غض لم يكتمل نموه بعد، قطفه كولكا، وأكله كله مع لبه. أراد أن يجد واحداً آخر، لكنه لم يجد، ولم يعثر على قصبات غضات مثلها. أما الأكواز الجافة فكانت قاسية، لا تؤثر فيها الحجارة، فكيف بالأسنان.

خرج من حقل الذرة وقفز إلى الطريق. كان درباً ترابياً جافاً أبيض، تغطيه طبقة خفيفة من الغبار.

على جانبيه أزهر البابونج متأخراً، زهرات صغيرات كثيرات، وفراشات تطير هنا وهناك. لا أثر لسيارة مرت أو لعربة.

نظر كولكا ثانية إلى الجبال، وفكر أنه بتجواله قطع بِرزوفسكَيا، ويجب أن يعود أدراجه إليها. وإلا فإنه سيصل إلى المحطة. والمحطة تبعد مسير يوم كامل. وما الداعي للذهاب إليها، إذا كان دميان وساشكا ينتظرانه في مكان آخر؟ فهما ليسا غبيين حتى لا يفهما أن كولكا سيبحث عنهما في بِرزوفسكَيا. لكنه أولاً سيبحث عن بئر، ويشبع شرباً من مائها.

المثير للاهتمام، كيف سيتهربان من شرح طريقة هروبهما من الفرسان؟ على الأرجح سيقولان إنهما لم يخافا، وكل منهما سيقول إنه ركض لأن الآخر ركض... ساشكا سيرمي الكرة في ملعب دميان، الذي قفز أولاً إلى الزرع، ودميان سيقول إن ساشكا أقلقه، وجعله يصاب بالذعر.

فليكذبا ما دام هذا يريحهما. وكولكا شخصياً لا يريد حتى أن يتذكر كيف كان مستلقياً تحت حوافر الحصان، الذي كان لطيفاً معه وله جزيل الشكر لأنه لم يطأه. ثم كيف كان يركض بخطوات طويلة في الزرع ماسكاً بنطاله، وخلفه قعقعة، وطرق حوافر. وربما كانت القعقعة قعقعته، والطرق طرقه. وعن الحفرة... بالتأكيد لن يحدث أحداً عنها. فهو نفسه كان مندهشاً كيف حاول الحفر ليختبئ، دون أن يعي عمق الحفرة.

وعند المنعطف قلّت كثافة الزرع، وصارت تُرى البساتين وقد تمددت فيها سوق القرع والكوسا، وتُرى قمم أشجار الحور وأسطح المنازل.

أسرع كولكا، ويمكن القول إنه بدأ يركض. كان معتقداً أنه عندما يدخل القرية سيعثر فوراً على ساشكا ودميان. وإلا فسيسأل. وسيخبرونه بمكان رؤيتهم لهما وإلى أين هما ذهبا. لكن قبل كل شيء سيشرب ماء حتى يرتوي.

لقد جف حلقه، حتى إن لعابه قد نشف، لم يعد هناك شيء لابتلاعه. الغبار الجاف وحده تراكم على أسنانه، يضغط عليها فتصر.

ربما كان كولكا غير مبالٍ، وإلا لكان انتبه أن لا أحد في القرية. فهو كان يفكر فقط بساشكا ودميان وقلما التفت، أو لفت نظره شيء آخر.

وفقط عندما اقترب من البيت الأول، لاحظ أن النوافذ مكسَّرة كما الإصلاحية، وظهرت سوداء على الخلفية البيضاء للجدران، كانت تبدو كما جمجمة فارغة المحاجر.

وفي الطريق وجد بئراً لها فتحة بيتونية مستديرة وبجوارها دلو على خطاف.

انحنى كولكا على فتحة البئر السوداء، وعند النهاية البعيدة أضاءت الماء بقعٌ زيتية. أخذ الدلو ليدليه، لكنه فجأة لاحظ أنه ملطخ بمادة دهنية لزجة حمراء اللون... فتراجع. وبهذه اللحظة رأى ساشكا.

ارتعش قلب كولكا فرحاً، كان ساشكا يقف في نهاية الطريق، مستنداً إلى السياج محدقاً باهتمام بالغ إلى غربان تدور بجواره، ما به قد أطال النظر إليها؟ صفر له كولكا بإصبعين.

لو تمكن أحد ما أن يتعرف على عادات الأخوين، لاستطاع أن يميزهما من الصفير. كولكا كان يصفر فقط بإصبعين، لكن الصفير يخرج مركزاً ومنمقاً. أما ساشكا فكان صفيره باليدين وبأربعة أصابع وتخرج قوية، أقوى من صفرة كولكا، ويبقى صداها يصفر في الأذن، وهي تبدو وكأنها كلها من مقام واحد.

صفر كولكا وابتسم: «كأن ساشكا لم يسمع، أصابه الصمم، يقف مثل تمثال».

ركض كولكا في الطريق، مباشرة إلى ساشكا، ثم فكر بأن يتقدم نحوه ببطء ما دام ساشكا يتسلى بعدّ الغربان، فيأتيه من الخلف كما حصل ذات مرة، سيتسلل إليه من خلف السياج ويصرخ بأعلى صوت: «استسلم، ارفع يديك، أنا شيشاني».

وعندما اقترب، صارت خطواته تتباطأ شيئاً فشيئاً. بدا له المكان المجاور لساشكا غريباً جداً. ولكن ما وجه الغرابة، هذا ما لم يدركه كولكا فوراً.

بدا له أن ساشكا أطول من المعتاد، أو أنه يقف بوضعية غير مريحة، وهناك شيء آخر، وقفته الطويلة دون حركة بدت مريبة.

خطا كولكا عدة خطوات مترددة أخرى وتوقف.

شعر فجأة ببرد شديد، وألم قوي، وبدأ يضيق نفسه. تجمد كله حتى نهايات أصابع يديه ورجليه. لم يعد قادراً على الوقوف، هبط على العشب، وبقيت عيناه المتوسعتان رعباً شاخصتين إلى ساشكا.

لم يكن ساشكا واقفاً بل كان معلقاً، كان مثبتاً من تحت إبطيه إلى النتوءات الحديدية على السياج. وبرزت من بطنه عرانيس الذرة الصفراء، والريح تلعب بخيوطها.

أحد العرانيس كان نصفه محشوراً في فمه، والنصف الآخر، الغليظ برز إلى الخارج، جاعلاً من وجهه يبدو كأنه أحمق وغبي.

واصل كولكا جلوسه. سيطرت حالة لامبالاة غريبة عليه. كما لو أنه لم يكن هو، لكنه كان خلال ذلك يرى ويذكر كل شيء. فهو لاحظ، على سبيل المثال، كيف تحترس من تحركاته مجموعة من الغربان، انتشرت على الأشجار، وكيف تتمرغ في التراب الناعم قريباً منه عصافير رمادية رشيقة. ومن خلف السياج وبشكل مفاجئ خرجت دجاجة مجنونة خائفة من قطة مسعورة.

حاول كولكا النهوض، ونجح. مشى ليس إلى ساشكا وإنما حوله دون أن يقترب منه أو يبتعد عنه.

الآن، عندما وقف مقابله، رأى أن ساشكا قد فقد عينيه، نقرتهما الغربان. ونقرت خده الأيمن أيضاً، وقليلاً من أذنه.

أسفل بطنه، تحت أكواز الذرة، التي كانت محشورة مع بعض الأعشاب في بطنه، وعلى البنطلون تهدلت أمعاؤه مضرجة بالدماء، تجلطت واسودت. كذلك نقرتها الغربان.

وعلى الأرجح فقد سالت الدماء إلى أسفل رجليه اللتين ارتفعتا بشكل غريب عن الأرض، وعلقت على أخمص قدميه وعلى أصابعه المتسخة بعد أن تخثرت كتلاً دموية، وكان العشب تحت رجليه كتلة واحدة، سميكة وهلامية.

وفجأة بدأ كولكا يرى كل التفاصيل حتى الصغيرة بشكل أكثر وضوحاً، اقترب أحد الغربان، قد يكون الأقل صبراً، أو ربما الأكثر جسارة، حط على الطريق، وبدأ ببطء يقترب من جسد ساشكا. ولم يعر أي اهتمام لكولكا.

أمسك كولكا حفنة من التراب وألقى بها على الطير.

- حقير، وغد. صاح به، - اذهب أيها السافل.

قفز الغراب ولم يطر. كما لو أنه كان يعرف أن قوى كولكا قد خارت، ولن يستطيع تهديده بجد. وقف الغراب على الطريق بعيداً بعض الشيء وانتظر. لم يستطع كولكا تحمل هذا. صاح، صرخ، أطلق كل الشتائم التي يعرفها والتي لا يعرفها. نسي كل شيء، وهجم على هذا الغراب كأنه يواجه أكثر أعدائه شراسة. ركض خلفه طول الطريق، ينحني ويلتقط التراب ويرشقه على الغراب. يقيناً صاح كثيراً، صياحه ملأ القرية كلها، ملأ الوادي. لو كان هناك كائن واحد حي لهرب خوفاً من هذا الصراخ المتوحش.

لكن هناك لم يكن أحد..

فقط كانت الغربان الكواسر، وهي أيضاً تركت الأشجار وطارت مبتعدة.

وظل يركض على الطريق وهو يصرخ، حتى انتهى صوته. يرشق التراب، والعشب المقلوع، والحجارة بكل الاتجاهات. تعثر وسقط على التراب. جلس ينفض التراب عن رأسه، ويمسح وجهه بكمه. لم يكن قادراً أن يفهم لماذا كان يصرخ، ولماذا ركض عبر القرية حتى نهايتها.

تحرك بصعوبة، عاد إلى جسد أخيه، وجلس يلتقط أنفاسه عند قدميه، بجوار دمائه.

ما فعله فيما بعد كان كله على الأرجح منطقياً، رغم أنه لم يكن يعي كثيراً ما يفعله، كان كما لو أنه يراقب تصرفاته من خارج جسده.

استراح قليلاً، ثم اقترب من ساشكا، انزلقت قدمه على دم أخيه اللزج، وتمسك بكلتا يديه بالجسد، وضمه إليه. سقط ساشكا فوراً على الأرض، وبدا وكأنه انكمش. سقط كوز الذرة من فمه، وبقي فمه مفتوحاً.

جاءه كولكا من جهة رأسه، وأخذ أخاه تحت إبطه، وجرَّه إلى المنزل الأقرب إليه. كان الباب مخلوعاً. وعند المدخل كومة من الذرة، وضع أخاه عليها، وغطاه بسترة كانت معلقة على مسمار هناك. ثم رفع الباب، وسد المدخل كيلا تنفذ الطيور الكواسر إلى البيت.

بعد أن قام بهذا واستراح قليلاً، خرج كولكا، وسار على الطريق المؤدي إلى الإصلاحية، دون أي تستر أو حذر.

كان يعلم أن أسوأ ما يمكن أن يحدث له قد حدث بالفعل.

-٢٧-

بعد عدة ساعات. وعندما اتجه النهار نحو المساء، والشمس انحدرت خلف الجبال البعيدة، عاد كولكا جارّاً خلفه عربة ربطها بحبل، تلك العربة نفسها التي وجداها عند بيت إيليا.

كانت العربة مخبأة بين الشجيرات قرب المخبأ. وجدها كولكا على الفور دون عناء. والمخبأ أيضاً بكل محتوياته كان سالماً: المربى، والأكياس، وورقة الثلاثين، ومفاتيح القطار، كلها كانت في مكانها.

أخرج كولكا كلا الكيسين، ومرطبان نصف ليتر من المربى. فتح المرطبان بحجر، أكل منه ملعقتين، وأحس بالغثيان.

نزل إلى النهر، غسل يديه، وغمر رأسه في الماء، عله يصحو قليلاً.

وبطريقه جاراً العربة خلفه، دخل حقل الذرة، وعرج إلى حيث كانوا قد تركوا الحصان والعربة في وقت سابق. لم يجد صعوبة في العثور على المكان، فقد كان واضحاً أثر العربة على الأرض، وبالجوار لفافة دميان التي رماها دون أن يدخنها بالكامل.

وعند عودته إلى بِرزوفسكَيا، دخل البيت، وسحب أخاه مرة ثانية إلى الطريق، وضعه على العربة بعد أن فرش تحته الكيسين، كيلا تكون العربة قاسية كثيراً عليه. ولفَّ السترة ووضعها وسادة تحت رأسه.

ثم أحضر حبلاً وجده في مدخل البيت، كان غليظاً لكنه ليس قوياً، وكان من السهل قطعه، لذلك كان لا بدَّ من استخدامه مضاعفاً، وأثناء ذلك لاحظ أن الحزام الفضي لم يكن عليه. كان الحزام قد فُقد.

مدَّ كولكا الحبل أسفل العربة، ثم ربطه عند صدر ساشكا. حاول ألا يلمس بطنه، حتى لا يؤلمه.

ربط الحبل وألقى نظرة، كان وجه ساشكا هادئاً وحتى إنه كان مندهشاً، هذا لأن فمه ظل مفتوحاً. كان مستلقياً ورأسه موافق لجهة السير، فقد اعتقد كولكا أن هذا سيريح ساشكا في السفر أكثر.

وما إن استعد، حتى كانت الشمس قد غابت، وحلَّ الغسق ذهبياً قصيراً وخفيفاً، وذابت الجبال في ضباب دافئ، لكن قممها بقيت مضيئة كأنها وحدها أشعلت ناراً عند حِفاف السماء، وسرعان ما ذابت هي أيضاً واختفت.

مرَّ بالضبط يوم كامل منذ استيقظا عند المغيب في عربة دميان، منذ دخلا فناء الإصلاحية المدمرة، وهربا عبر الأرض المزروعة، وكان دميان جالساً على الأرض يحاول إشعال لفافته بيدين مرتعشتين. خُيّل لكولكا أن هذا حصل منذ زمن بعيد جداً. دميان كان يعرف كل شيء. أين هو الآن؟

هما كانا الغبيين.

كولكا لم يتذكر المزرعة الإنتاجية، ولا ريغينا بتروفنا، ولا ولديها. كانوا جميعهم اليوم خارج حدود حياته. خارج أحاسيسه ومشاعره، وخارج ذاكرته.

استراح قليلاً، ثم نهض، أمسك العربة بحيث لا تجرح يديه، وجرَّها على الطريق.

لم يُدرك، أكان صعباً عليه جر العربة أم لا. فلا معايير يمكنها أن تحدد مقدار ما يمكن أن يتحمله أخ يحمل أخاه، وهما لم يعيشا منفصلين أبداً، وإنما كانا دائماً معاً. أحدهما هو جزء من الآخر، يعني، يمكن القول: إن كولكا الآن دون نفسه.

بعد القرية صار المجال أرحب وأكثر إنارة، ولكن هذا كان لفترة قصيرة. وصار الهواء أكثر كثافة، وبدأ السواد يتحد مع حائط قصبات الذرة المليء بالغموض على جانبي الطريق.

وانعدمت الرؤية فيما بعد ولم يعد يُرى شيءٌ، كان كولكا يتعرف على الطريق بقدميه. كان الطريق أمامه يعطي انطباعاً أنه يضيق، وكانت تبدو الأرض المزروعة على الجانبين وكأنها ستلتقي عما قريب، بصعوبة كانت تُرى الفجوة بينهما، على خلفية السماء الحبرية الداكنة تماماً.

كولكا، لم تخفه العتمة، ولا هذه الطريق القفر، ولا الغموض الذي يلفُّها، خلاء كامل، لا ناس ولا عربات.

لو استطاع كولكا إدراك الأمور بواقعية أكثر، وطلبوا منه أن يختار أفضل الظروف لرحلته هذه مع أخيه. لطلب أن يكون الطريق خالياً من الناس، ولم يزعجه أحد حتى الوصول إلى المحطة.

أياً كان من يلتقيه على هذه الطريق، أكان شيشانياً أم غير ذلك، حتى لو كان إنساناً طيباً، فسيكون حتماً عائقاً فيما خطط له.

سار طوال الليل وهو يجر عربته ويتحدث إلى أخيه.

قال له: «أترى ما وصلنا إليه، أنا أحملك الآن، سابقاً كنا نتبادل الأدوار، أحملك وتحملني. لكن لا تهتم، لم أتعب، وسأوصلك إلى النقطة الهدف. لو كنت حياً ربما لفكرت بشكل أفضل، وهذا مؤكد. فأنت دائماً كنت تفكر بشكل أفضل، ودماغك كان يستوعب ويحلل بشكل أسرع. أنا كنت يديك ورجليك في الحياة، هذه قسمتنا، وأنت كنت رأسي. والآن قُطعت الرأس، وتُركت لنا الأيدي والأرجل... لماذا تركوها، لا أعرف؟».

بدَّل كولكا يده باليد الأخرى فقد عرقت.

ولكن قبل أن يكمل الطريق، تلمَّس أخاه وتأكد من أنه يستلقي بشكل مريح والسترة التي توسدها ما زالت تحت رأسه ولم تسقط.

فقط كان ساشكا كما لو أنه برد، أو قد يكون تجمد. صار كل شيء فيه قاسياً، تخشبت يداه ورجلاه. لكنه لا يزال ساشكا، أخاه. وبعد أن تأكد كولكا أن وعورة الطريق لن تؤثر في سلامة السفر، تابع تحركه.

ثم تدفقت الأحاديث.

«أتعرف، قال كولكا، لا أدري لماذا تذكرت الآن عندما أحضروا لدار الأيتام في تاميلِنا سلة توت بري من المزرعة التعاونية، وأنا كنت عندها مريضاً. وأنت تسللت تحت العربة، ووجدت حبة واحدة منها جلبتها لي... زحفت تحت السرير وأنا في العزل وهمست:

«كولكا، أحضرت لك حبة توت بري، بالشفاء والعافية، أتذكر»، وأنا شفيت... ثم فيما بعد في تلك المحطة، محطة كوبان، عندما أبعدنا مرضك بعضنا عن بعض، وكنت أنت في العربة تحتضر، واستطعت أن تتغلب على كل شيء. ونهضت ووصلت إلى القوقاز رغماً عن المرض. هل من المعقول أن نجتاز كل الحواجز التي اعترضتنا طول الطريق، لكي تُبقر بطوننا وتستخرج أمعاؤنا، وتحشى بدلاً منها أكواز الذرة؟ وكأنهم يقولون لنا، كلوا واشبعوا من أرزاقنا حتى تبرز من أفواهكم».

هنا سمع كولكا ضجيج عربات أمامه. وعندما اقترب صرير العجلات، وتناهى إلى سمعه صوت رجال يتحدثون، انحرف بسرعة عن مساره واتجه يتخفى في المنطقة المزروعة. كما تختفي الوحوش عندما يظهر البشر.

لم يرفع عينيه عن الطريق. نظر بكل عيونه وهي الآن عند كليهما اثنتان فقط. وفهم من الأصوات أن القادمين هم جنود. قعقعة سلاح، وهدير مركبات، ومصابيح يدوية تضيء حيزاً شريطياً بجوار الطريق. تحادثوا بصوت خفيض، وفهم كولكا أنهم يتحدثون عن الشيشان، ومما تناهى إلى سمعه أن الجنود يحاصرون الخارجين عن القانون في مكان ما في الجبال، ويتعاملون معهم بالأسلحة المناسبة، وقد تم القضاء على جزء منهم. وتمكن جزء آخر من الإفلات، وصل بعضهم إلى الوادي وارتكب المجازر. سَلِمَ من الساكنين من هرب. والأوامر الآن هي التالية: قاتلوهم بلا هوادة، لاحقوهم حتى تمام القضاء عليهم، من يلجأ منهم إلى بيت أو حقل، أحرقوه مع البيت أو الحقل... اضربوهم بلا شفقة ولا رحمة إذا لم يستسلموا.

تجاوزوه، ذابت الأضواء في العتمة. وعاد الهدوء تماماً.

خرج كولكا، يصيخ السمع في هذا الاتجاه وفي الاتجاه الآخر. فهل هناك من موكب يتبع ذاك؟ انتظر قليلاً، ثم تأكد أن لا أحد.

عاد ليأخذ ساشكا، تلمسه، كيف يرقد، وجرَّ العربة إلى الطريق. أمسك الحبل بكلتا يديه، وسحب.

«وهكذا، قال كولكا، سمعت بأذنيك على الأرجح حديث الجنود، مقاتلونا البواسل يقولون... هم ذاهبون لقتال الشيشان. ومن قتلك أيضاً سيُقتل. أتعرف ساشكا، لو وقع بيدي من قتلك، فأنا لن أقتله، وإنما كنت سأنظر في عينيه فقط. أوحش هو أم إنسان؟ هل فيه شيء من الإنسانية؟ وإذا ما وجدت فيه شيئاً، لكنت سألته لماذا هذا الإجرام؟ لماذا يقتل كل من حوله؟ ماذا فعلنا له؟ لكنت قلت له: اسمع أيها الشيشاني، هل فقدت بصيرتك أم ماذا؟ ألا ترى أنني وساشكا لم نحاربك. جاؤوا بنا لنعيش هنا، ولذلك نحن نعيش، ولكن كنا بكل الأحوال سنغادر بعد حين. وأنت الآن ترى إلى ما وصلنا إليه... أنت قتلتني وساشكا، وجاء الجنود يقتلونك... وأنت ستقتل الجنود، ويموت الجميع، أنت تموت وهم يموتون. أليس من الأفضل لو أنك عشت وهم عاشوا؟ لكنا أنا وساشكا عشنا أيضاً. أليس ممكناً ألا يزعج أحدنا الآخر؟ ولبقي كل الناس أحياء، كما نعيش نحن في الإصلاحية، جُمعنا من كل البقاع، ونعيش جنباً إلى جنب».

ورغم انشغاله بحديثه، سمع كولكا ما يثبت قربه من المحطة، فقفز إلى مرج مفتوح خال من الأشجار، فبانت المحطة، وأصبحت واضحة، وومضت في عينيه الأضواء على طول السكة، وكان يمكن مشاهدة القطار الذي يقف على السكة الاحتياطية. فهناك كانت تضيء الكشافات الضوئية، ويُسمع هدير المحركات وجلبة إفراغ العربات، فقد وصلت وحدة عسكرية جديدة.

اقترب كولكا، ولكن إلى الحد الذي يسمح له بالاختباء إذا ما حدث طارئ. وكان قد وضع العربة خلف الشجيرات.

«وصلنا، قال لساشكا. هنا مؤخراً كنا معاً، حلمنا بالسفر. والآن سننتظر القطار معاً. سأرتاح قليلاً، لقد تعبت بعض الشيء. وأنت على ما أعتقد، تعبت أيضاً، أليس كذلك؟ ابق هنا، وأنا سأذهب لأستطلع المحطة. لكن لا تفكر أبداً أني أتركك. سأعود، فقط سأرى ماذا يجري هناك...».

ترك كولكا ساشكا خلف الشجيرات، وبدأ يقترب من الأضواء وسكة القطار.

لم ير أحداً سوى الجنود. كان العسكريون مشغولين بأمورهم، يتجمعون ويصيحون، تهدر عرباتهم التي ينزلونها على ألواح مائلة من العربات.

اكتشف كولكا أن القافلة العسكرية لا تعيق. فعندما يصل القطار، سيغلق مجال رؤية الجنود للأخوين، ولن يراهما أحد.

عاد إلى ساشكا وقال له: «أرأيت، لقد عدت. هناك الآن الكثير من الجنود، جاؤوا ليقتلوا الشيشاني الذي قتلك، وحشر في فمك وبطنك أكواز الذرة. وعندما يصل القطار، سيغطي علينا ولن يرانا الجنود. أنت تعرف أنني لست بهذا الذكاء، ولكن اضطررت أن استعمل رأسي، وفكرت ملياً، ووجدت هذه الفكرة. والآن صرت أعرف كم كان صعباً أن تستعمل عقلك. لكني لا أعرف كيف لم تستطع خداع ذاك الشيشاني على ظهر حصانه؟ ربما كما خطر ببالي الآن أنك خرجت إليهم بذات نفسك... وصدَّقت أنهم لن يؤذوك، لأنهم لم يقتلوا ريغينا بتروفنا، مع أنهم صوبوا البندقية إليها».

ألقى كولكا نظرة إلى المحطة من خلف الشجيرات، وأضاف متأملاً: «لقد اقترب الفجر، سيكون أفضل لو يصل القطار قبل طلوع الفجر... سيكون صعباً التحرك معك في ضوء النهار».

هنا ظهر القطار، وامتد على طول الهضبة، كان يشبه حزام ساشكا المفقود. والقاطرة فيه كانت كما إبزيم الحزام بحجرين وامضين.

لماذا تذكر كولكا مرة ثانية الحزام الفضي؟ لم يتركه الحزام المفقود يستريح. ولكن إذا حاكمنا الأمر بهدوء، فالحزام هو آخر شيء رآه كولكا عندما افترقا. فعندما اندفع ساشكا إلى منطقة الزرع، لم ير منه في العتمة إلا بريق الحزام.

ماذا لو كان الحزام من الآثار الشيشانية القديمة، وهذا ما عرّض ساشكا للخطر وأوقع به؟

ماذا لو كان الحزام سبباً في إعدامه؟

ولكن عندما كانا في الطريق إلى الإصلاحية لم يكن ساشكا يتمنطق بهذا الحزام وإنما كولكا. حادث الزر غيَّر الكثير...

اقترب القطار أكثر. وبدأ يصل صدى أصوات طرقات العربات المنعكسة عن الهضبة.

انتبه كولكا فجأة للصوت، وأسرع بعربة أخيه عبر المرج. وصل هو وساشكا في اللحظة التي ضغط القطار فيها بحدة على الفرامل، توقف القطار، وهسهست عجلاته.

ترك كولكا العربة في جفنة من جفنات نبات الأركتيوم، تحت سفح سكة القطار، وراح يركض على طول العربات. ينحني ويبحث عن صندوق الكلاب.

لم يكن في العربة الأولى صندوقٌ للكلاب، ولا في العربة الثانية، وفقط في الثالثة وجد صندوقاً حديدياً.

تلمَّسه، فتح الغطاء، أدخل يده، ليتأكد من خلوّه.

ثم ركض إلى ساشكا، نقله إلى جوار العربة، فك الحبل. وفرش السترة على أرضية الصندوق، وبدأ يسحب ساشكا من تحت إبطيه، وراح يصلي كيلا يغادر القطار قبل أن ينجز عمله. كان ساشكا متصلباً، لم تنثنِ مفاصله بسهولة، لكنه بدا ألين من السابق.

أدخله كولكا في الصندوق وهو يلهث، جعل وجهه إلى الأعلى، وغطاه من الأعلى والجوانب بالكيسين حتى يخفف عنه البرد. فالحديد من جميع الجهات.

دفع العربة والحبل إلى الجفنة. فقد انتهت المهمة.

لكن القطار تابع توقفه، واقترب كولكا من الصندوق ثانية، جلس القرفصاء أمامه، وقال لساشكا من خلال الفتحة:

- ها أنت ستسافر. كنت دائماً تريد السفر إلى الجبال... وأنا سأبقى هنا حالياً. كنت أود السفر معك، لكن ريغينا بتروفنا بقيت هي وولداها وحيدة هنا. ساشكا، لا تخف، فأنا سأظل أفكر بك.

طرق كولكا بقبضته على الصندوق مشجعاً، حتى لا يشعر بالخوف وهو وحده.

شاهد وهو يغادر كيف قفز مرافق القطار من العربة ومر بجوار كولكا ثم توقف:

- مرحباً، هذا أنت. قال مرافق القطار، مكشراً عن أسنانه.

ألقى كولكا نظرة إليه: إنه إيليا، إيليا أمامه. ذاك الزفيريوك.

- مرحباً، أجاب. - وأنت ألم تحترق؟

ضحك إيليا:

- أنا لا أحترق. أحسست أن شيئاً ما سيحصل وهربت، أسافر كما ترى. إذا أردت السفر، فأنا مستعد لمساعدتك، أينما تريد سأنقلك.

- لا، لا. قال كولكا. - لا أستطيع.

- وأنت من تكون؟ كولكا أم ساشكا؟

صمت كولكا ثم قال:

- أنا، كلاهما.

في هذا الوقت صفر القطار.

وصاح إيليا ثانية:

- مهلاً، إذا أردت أن تهرب من المتاعب، فالأفضل أن تأتي معي. وركض نحو العربة وقفز إليها.

- بالتأكيد، هز كولكا رأسه، وأخذ نفساً عميقاً. لم يعد إيليا يستطيع سماعه.

غادر القطار، وتتابعت طرقات مخفف الصدمات، وبدأ يتحرك أسرع وأسرع باتجاه الجبال البعيدة. غادر ساشكا، وبقي كولكا وحيداً عند السفح الأسود للسكة الحديدية.

-٢٨-

بقي كولكا جالساً على سكة القطار.

وعندما انبلج الصبح، انتشر الضوء بسرعة، وكأن مصباحاً شُغِّل مفتاحه في مكان ما. زحفت بقع الضوء الصفراء على السكك الفولاذية الرمادية الزرقاء. ترك كولكا المحطة، وصعد الجبل إلى القاعة المستديرة البيضاء.

جلس على الدرجات، ونظر إلى الأسفل. استرسل في النظر، وبدأ يبكي. بكى لأول مرة منذ أن رأى أخاه معلقاً على السياج. حجبت دموعه المشهد البديع للجبل والوادي اللذين أشرقا مع بزوغ الشمس.

تعب من البكاء وغفا.

ورأى حلماً، رأى فيما يراه النائم، جبالاً منتصبة كالجدران، وودياناً سحيقة. كان هو وأخوه يمشيان. اقترب ساشكا من الحافة، دون أن يراها... لم ينتبه لها... وزلَّت قدمه، وانزلق على الجليد... بدأ ينزلق شيئاً فشيئاً إلى الأسفل، حاول كولكا الإمساك بكمه، بمعطفه... لكنه لم يستطع الإمساك به. سقط ساشكا بقوة إلى القاع، ابتعد أكثر وأكثر، وبدأ كولكا يتألم كيف أفلت أخاه من بين يديه، ولم يستطع الإمساك به، ماذا سيحل بأخيه الآن، ستكسر يداه ورجلاه، سيتحطم ويتهشم. هوى ساشكا مبتعداً، صار كتلة سوداء صغيرة تبتعد وتبتعد. واستيقظ كولكا مرعوباً.

تلمَّس وجهه، كان مبللاً بالدموع، فقد بكى مجدداً.

تأمل مشهد الوادي في الأسفل، وفجأة تذكر قصيدة شعرية. لم يتذكر أبياتها قبل الآن، ولم يعرف حتى أنه يحفظها.

سحابة ذهبية، أمضت ليلةً
على صدر جُرف جبل شاهق
غادرته مع خيوط الصبح مسرعة
تلعب وتمرح في زرقة فجر رائق
لكن أثراً ندياً بقي
على تجاعيد الجبل العتيق
وقف العجوز وحيداً في صحرائه
فكر ملياً وبكى بهدوء.

قد يكون الجُرف الشاهق هو هذا الجبل، والقاعة الدائرية البيضاء هي السحابة... التفت كولكا حوله وأخذ نفساً عميقاً. أو ربما تكون السحابة هي القطار الذي أخذ ساشكا معه، وربما لا. الجُرف الشاهق الآن هو كولكا، لذلك هو يبكي، وقد صار عتيقاً كما كل القوقاز. أما ساشكا فقد تحوَّل إلى سحابة... هو إز هو؟ نحن سحاب... نحن أثرٌ نديٌّ... نحن كنا، ولن ندوم.

أحسَّ كولكا أنه سيبكي مجدداً، لذلك قام ومشى. وجد النقش الذي تركاه في العاشر من أيلول. بحث عن حجرة صوان حادة، وأكمل ما كتبه: «سافر ساشكا. بقي كولكا. ٢٠ تشرين الأول».

ورمى الحجر، وراقبه كيف يتدحرج على سفح الجبل، ونزل يتبعه.

غسل وجهه في إحدى حفر الماء الساخن، وسار في الطريق الصاعد إلى مزرعتهم الإنتاجية. لم يكن يعرف ماذا سيقول لمعلمته، ريغينا بتروفنا.

اقترب من المزرعة، واستدار عند التلة الأخيرة، وهو حتى الآن لا يعرف ما سيقوله لها، سيكذب أم سيقول الحقيقة. لم يكن يريد إخافتها هي وطفليها. هنا في هذه المنطقة لا خطر عليهم، رعي المواشي وطبخ القرع. وكولكا لن يبقى هنا. سيقول: «لقد غادر ساشكا، وعليَّ أن أغادر».

طبعاً سيعطيهم كل المربى الموجود في المخبأ، وهو سيأخذ مرطباناً واحداً لرحلته. وسيأخذ ورقة الثلاثين. فهي ثروتهما هو وساشكا، لم يكن ما فعلاه في تاميلِنا عبثاً، فقد كانا يستغنيان عن قطعة الخبز ليحصلا على ورقة الثلاثين. وساشكا قد سافر ولن يحتاج إلى المال بعد الآن، فرحلته كانت مجانية. هو الآن مسافر أبدي مجاناً.

وصل كولكا إلى السقيفة، لكنه لم ير أحداً. ظن أنهم نيام. طرق على النافذة، ونظر إلى الداخل. وهنا لا أحد. كان السرير مغطى بكل ترتيب، كما كل شيء عند ريغينا بتروفنا، وكل الموجودات في أماكنها، أما صاحبة البيت فلا.

اعتقد كولكا أنهم ذهبوا ليحلبوا البقرات. عاد إلى السقيفة، فتش الأطباق، وجد ماماليغا في القدر، تناول بيده منه فوراً إلى فمه. فقط الآن عرف أنه جائع جداً. صار يدفع

الطعام إلى فمه ويبتلعه على الفور، كشط ما بقي في القدر، لكنه لم يشبع، ثم وجد صحن قريشة فأكله، فكر أن ريغينا بتروفنا ستوبخه عندما تعود، لكنها ستسامحه فيما بعد. فهو لم يتقصد، إن الجوع كافر.

شرب بعض الماء، واستلقى على القصب، على فراشه هو وساشكا. وفجأة غفا.

استفاق مساءً، أيقظه الصمت المطبق. كان وحيداً، فقط بعض الطيور تطن فوق سطح السقيفة. ذهب إلى النبع وشرب حتى ارتوى، وغسل وجهه.

لم يُشعره بالراحة هذا الهدوء، أحس بالوحدة. نزل إلى البستان ثم إلى المرعى، حيث يرعى القطيع.

حتى وقت قريب كان الجميع هنا يقفون ويطلقون الأسماء المختلفة على العجلين والعجلتين. والعنزة عندها أكلت لفافة التبغ وخرج الدخان من منخريها. اليوم استدار القطيع كله إليه، ثغت المعزاة فقد عرفته، والعجل هنا والذي اسمه ابن آوى جاء للقاء كولكا... والأكثر غرابة كان تلك البقرة الشريرة التي اسمها ماشكا، والتي كانت كلما رأت كولكا توجه قرنيها إلى الأرض، وفجأة هي أيضاً بدأت تخور وتوحي بأنها ترحب به: «مو-مو-و-و» وأخيراً اعترفت به. ولكن ما الفائدة الآن. فهي لن تقول أين اختفت ريغينا بتروفنا وطفلاها. وفجأة تذكر، فالحمار غير موجود، ولا العربة.

طبعاً، هي ذهبت في إثرهما إلى الإصلاحية. لو كان ساشكا لكان أدرك هذا منذ اللحظة الأولى. في البداية قد تكون ذهبت لتلقاهما عند المحطة، وعندما لم تجدهما، أسرعت وتابعت طريقها إلى الإصلاحية. وهو الغبي نام كل هذا الوقت.

كم كان صعباً على كولكا أن يعود عبر القرية إلى الإصلاحية. لكنه تخيل ريغينا بتروفنا وهي مرتبكة وخائفة، تبحث عنه وعن ساشكا في هذه المنازل المحطمة والمهجورة. فهي ذهبت من أجلهما إلى هذا المكان المجهول، حيث الشيشان على ظهور الخيل يتجولون، وهو، كولكا، لا زال متردداً، وما زال يتساءل أيذهب أم لا.

من سينقذها الآن، من سيساعدها، إذا لم يكن كولكا.

التفت إلى الخلف للمرة الأخيرة، جال بنظره، حاول أن يجد ما يمكن أن يدعم عدم رغبته بالذهاب. لم يجد ما يتعلق به رغم اقتناعه. كان هناك شيء ما يؤخره ويستبقيه، ولم يستطع إدراك ما هو بالضبط.

وفقط عندما خرج وبعد مسير نحو نصف ساعة على الطريق الدافئ الذي سخنه النهار، تذكر أنه كان يريد أن يعرف فيما إذا كانت ملابسهما الجميلة ما زالت موجودة؟ الحذاء الأصفر، القميص والبنطلون، الطاقية المزركشة... أم إنها سُرقت؟ والآن وبينما هما وريغينا بتروفنا يبحث كلٌّ منهما عن الآخر سيسرقونها.

وعند الغسق وصل إلى المحطة. كان القطار العسكري قد غادر. إلا أن الكثير من آثار الأقدام على الطريق، وكانت قصبات الذرة على جوانب الطريق مكسرة ومخربة.

وفيما بعد، رائحة حريق. لم يفهم كولكا، ما الأمر، لو كان ساشكا لعرف فوراً. لكان ساشكا حرك مخه قليلاً واستنتج: «أتعرف، إنهم يحرقون المحصول، ليُخرجوا الشيشان من مخابئهم».

هكذا توقع كولكا ثم بعد ذلك أدرك، أنه هو، هو وحده، وليس ساشكا من قال هذا.

امتدت الحرائق أكثر، وارتفع الدخان فوق الطريق، زحف كما الريح الثلجية. بدأت عينا كولكا تدمعان وتؤلمانه. فرك عينيه، وعندما لم يعد يستفيد، استلقى ووجهه إلى الأسفل إلى العشب، وبدأ يشعر ببعض التحسن.

كانت هناك بقع محترقة تماماً. وكانت ألسنة اللهب الحمراء تلعب في السماء على جانبي الطريق ولا سيَّما أمامه، وكانت إضاءة هذه الألسنة تصل إلى الطريق فتزيد في إنارته.

ثم بلغ كولكا منطقة النار. كانت تشتعل بقايا الأعشاب، ويتصاعد الدخان من نبات عباد الشمس. كانت سوقها حمراء ملتهبة. الحرارة العالية هنا جعلت كولكا يغطي وجهه بقميصه، حتى لا يحترق حاجباه. فجفناه صارا يلتصقان وربما احترقت أهدابهما.

عندها استلقى على الأرض وبدأ يفكر: هل يذهب إلى الإصلاحية أم لا؟ إذا ذهب فقد يحترق. وإذا لم يذهب فهذا يعني أنه ترك ريغينا بتروفنا وولديها وحدهم وسط النار والخطر.

بعد أن استلقى، والتقط أنفاسه، شعر ببعض التحسن. وقرر أن يذهب إلى ريغينا بتروفنا. لم يكن يسعه إلا أن يذهب. لو كان ساشكا لذهب.

اندلعت النيران في كل مكان، اشتعلت في كل الاتجاهات، شعر كولكا ببعض الغثيان من الدخان. أما بالنسبة للرماد والشحار فقد اعتاد، أو تقريباً اعتاد. ولكن الغريب أن يكون هذا الكم الهائل من النيران حوله، ولا وجود لأحد من البشر.

كولكا نفسه، عندما غادر ومعه ساشكا لم يكن يريد أن يصادف بشراً في طريقه. وهو الآن يريد وبقوة أن يصادفهم.

ولو لمرة واحدة

حتى لو أي كان.

لو يحدث أن يلتقي ريغينا بتروفنا وهي على حمارها تسير باتجاهه. وطفلاها خائفان جالسان في العربة، وهي تتلفت حولها، قلقة من النار. وكولكا يصيح بها: «هو إز هو؟ لا تخافي، أنا هنا. أنا معكم. لن نخاف عندما نكون معاً، لقد صرت أعرف كيف أعبر النيران. الآن، حالاً سآخذك وطفليكِ إلى المزرعة. وهناك الجنة. وأي جنة. مئة عام هناك، لن يكون فيها حريق واحد، ولن يطأها شيشاني واحد».

عاد إلى كولكا وعيه، كان مستلقياً على قارعة الطريق، ربما استنشق ما يكفي من الدخان. لا يذكر كيف سقط. رأسه يؤلمه، يشعر بالغثيان قد وصل إلى حلقه. حاول النهوض، لم يستطع. لا تتجاوب رجلاه معه. نظر إلى الأمام: يا إلهي، ها هي بِرِزوفسكَيا، نتأت أسطح بيوتها، إنها مرمى حجر، سأزحف إليها على أربع...

لم تستطع النيران هنا اختراق البساتين والأشجار والشجيرات. وصل كولكا إلى البئر، لكن غاب عنه كيف وصل إلى هناك. بدأ يُنزل السلسلة وهذا استغرق لديه وقتاً طويلاً، ثم صار يرفع الدلو، لكن قواه خارت ولم يستطع رفعها. مرتين رفعها حتى منتصف المسافة، ثم تفلتت السلسلة من يديه وسقطت مرة أخرى. انحنى كولكا فوق البئر وصار يتنفس منه. كان الهواء رطباً، بارداً، خاف أن يسقط فيه. ربط رجله بالسلسلة واستلقى على حافة البئر، رأسه فيه ورجلاه خارجه.

شعر بتحسن، لكن بقي بعض الغثيان.

تقدم في سيره. مجاوراً الحقول، مر بجوار المقبرة. فجأة بدا له أن شواهد القبور هنا لم تكن أعمدة غرانيتية بل رجالاً شيشاناً صفوفاً يقفون... جمد الحشد الساكن عند رؤية كولكا. رافقته عيونهم... كأنها هلوسة، أو فقد عقله وجن. أغمض عينيه، ومرر يده على وجهه، ونظر مرة ثانية، كانت الأعمدة حجريةً، ولم يكن أي مظهر للشيشان. لكنه بكل الأحوال زاد من سرعة تحركه. ولم يخفض عينيه عنها حتى لا تتحول مرة أخرى لا سمح الله إلى شيشان. لم تكن النيران قد نفذت باتجاه الإصلاحية. هنا لا داعي للقميص كغطاء للرأس، ولا داعي للاستلقاء على العشب. لاحظ كولكا أن العشب هنا قد اسودّ، وهو ذاته لم ير نفسه كيف يبدو وأي سواد يغطيه. لو صادفه أحد لاعتقد على الأرجح أن الشيطان نفسه قفز إلى الطريق من عالمه السفلي. أما مقولة أن كولكا جاء من العالم السفلي فهي حقيقة.

لا يذكر كيف وصل إلى نهر سونجا، وهو النهر الصغير الهادئ الذي تميل مياهه للصفرة، جثا عنده استلقى، وصار يغمر ويرفع رأسه فيه.

استلقى مطولاً، حتى بدأ يستوعب ويعي كل شيء حوله. تفاجأ أن الوقت هو صباح، والشمس مشرقة. والطيور تغرد. والماء يرقرق. جاء من جهنم مباشرة إلى الجنة. عليه الآن أن يصل إلى الإصلاحية بأسرع وقت. فهناك ريغينا بتروفنا تنتظره. يجب إنقاذها بأسرع وقت ممكن قبل أن تصل النار إليها. وقبل أن يتابع طريقه، رتب لنفسه حماماً لطيفاً.

تنهد كولكا، نهض ومشى دون أن يعصر ملابسه. ستجف وحدها. لم يدخل الإصلاحية من بابها، وإنما تسلل من ثغرة السياج الخاصة، فقد صارت مألوفة، وأكثر أماناً.

لم يتغير شيء منذ كان هو وساشكا هنا. فقط في منتصف الساحة رأى عربة نقل عسكرية محطمة ملقاة على جانبها، بجوارها تلة. وعلى التلة لوحة خشبية كتب عليه بالحبر.

بيوتر أنيسِمَفيتش مِشكوف

١٧/١٠/١٩٤٤

أمعن كولكا النظر في لوح الخشب المعاكس. قرأ ما كُتب حرفاً حرفاً، أعاد قراءتها مرتين، حتى أدرك أن هذا اسم المدير. وهذا ضريحه، لو أنهم كتبوا «أبو شنطة» لوصلت المعلومة بسرعة أكبر. بذلك يكون قد اتضح الأمر. لقد قتلوه. ويمكنهم قتل ريغينا بتروفنا...

وقف في منتصف الساحة، وصاح بأعلى صوته، بأقصى ما استطاع من قوة: «ريـغـــيـــنا بـــتروفـــنا».

لم يتلق جواباً، إلا صدى صوته.

صعد إلى كل الطوابق، إلى كل الغرف، يتعثر بأشياء مبعثرة هنا وهناك، دون أن يلاحظها. كان يركض وينادي يائساً: «ريغينا بتروفنا... ريغينا بتروفنا... ريغيـ...».

وفجأة توقف. وقف كالصنم. أدرك أنها ليست هنا.

ولم تكن هنا على الإطلاق.

صار الجو كئيباً، موحشاً. بدأ يشعر أنه وقع في فخ، دفع نفسه إليه. هُرع خارجاً من الساحة، لكنه سرعان ما عاد، كيف سيعود مرة ثانية عبر النيران، فكر أنه لن يستطيع ذلك. لا قدرة لديه. ربما معها، مع ريغينا بتروفنا وولديها، كان يمكنه ذلك... لأجلهم كان يمكنه، ولديه القدرة لإنقاذهم، لكنه لنفسه فلا قدرة لديه.

استلقى في زاوية، في غرفة على الأرض، لم يفترش شيئاً، رغم أن فراشاً كان مرمياً بقربه، ووسادة أيضاً. تكور كالفاصلة ونام...

كان يستفيق من وقت لآخر، ينادي ساشكا وينادي ريغينا بتروفنا... لم يكن له أحد غيرهما في هذا العالم، ليناديهم. كان يعتقد أنهما قريبان منه، لكنهما لا يسمعانه، كان يصرخ من عظيم يأسه، ثم يجلس القرفصاء، ينتحب ويولول مثل جرو.

بدا له أنه كان نائماً، وأنه أطال النوم، ولا يمكنه الاستيقاظ بأي شكل من الأشكال. وفقط ذات مرة، استفاق ليلاً ولم يفهم أين هو، فقط كان يسمع بين الفينة والأخرى أن هناك من يتنهد متحسراً.

- ساشكا، كنت أعرف أنك ستأتي. لقد انتظرتك، انتظرتك. قال ذلك وبدأ ينتحب.

فتح عينيه ورأى ساشكا، الذي أقحم في وجهه كوباً معدنياً. أدار كولكا رأسه وانسكب الماء على وجهه.

طلب ساشكا منه بلغة ولهجة غير لهجته. «خيْ... خيْ... شرب، وإلا تموط، ماء لازم شرب... خيْ... فاهم، خيْ...».

شرب كولكا عدة جرعات وغفا. كان يريد أن يقول لساشكا كم كان مضحكاً كيف لفظ «تموط»، لكنه لم يقو على ذلك. حتى إنه لم يكن قادراً على فتح عينيه. فكيف سيسأله عن معنى خيْ - خيْ.

غطى ساشكا أخاه برداء دافئ واختفى، ليظهر مرة أخرى مع كوبه المعدني.

وفي إحدى المرات، فتح كولكا عينيه ورأى وجهاً غريباً، أو الأصح، لم يكن الوجه غريباً تماماً، لأنه عندما كان ساشكا يطرق الكوب بشفتيه، كان لوهلة يبدو له وجه أخيه غريباً، أسمرَ، عريض الخدين... لكن هذا لم يقلق كولكا سابقاً، ولم يُعره أهمية. فعند ساشكا رأس يحتمل أن تخترع له الوجه الذي تريد.

أما الآن فقد أدرك كولكا فوراً، وبمجرد أن شاهده أن هذا ليس ساشكا، وإنما ولد غريب يرتدي سترة مبطنة احترقت بعض نواحيها، وكانت تغطي حتى ركبتيه العاريتين. يجلس أمامه القرفصاء ويتمتم بشيء ما.

- خيْ، خيْ. ويتمتم. - بِبيغ، لازم أكل... وإلا موط....

أغمض كولكا عينيه وفكر ثانية أن هذا ليس ساشكا. إذن أين ساشكا؟ ولماذا استعار هذا الولد الغريب، الأسمر، وجه ساشكا؟ ولماذا تحدث بصوته، وبلسان أعوج، ولغة مكسرة؟ لم يصل كولكا إلى جواب وغفا. وعندما استيقظ، سأل فوراً:

- أين ساشكا؟

لم يسمع صوته، لكنه سمع صوتاً غريباً.

- ساسك ما فيه. فيه ألخوزور... هازا اسم إلي... ألخو-زور فاهم؟

- لا، قال كولكا. - نادي ساشكا. قل له إني أعاني دونه. لماذا يمزح معي، لماذا لا يأتي.

بدا له أنه قال كل هذا. لكنه في الواقع لم يقل شيئاً، وفقط تمتم مرتين وأصدر أصواتاً غير مفهومة. ثم غفا ثانية، ورأى في منامه ألخوزور، الولد الغريب الأسمر يُطعمه حبات عنب، حبة، فحبة. ويُقحم في فمه فصوص الجوز، يمضغها هو في البداية، ثم يعطيها لكولكا.

قال له مرة:

- أنا، أنا ساسك... إذا تريد، هكذا اسمي، سأكون ساسك...

ومرة ثانية مضغ الجوز... وعصر حبة عنب على شفتيه مباشرة.

- أنا ساسك... وأنت أكل... أكل... بعد، صار جيد...

ولأول مرة هز كولكا رأسه. إذن فالأمور تسير نحو الأحسن.

استجاب ألخوزور لمناداته بساشكا، فهذا الاسم أعجبه. كان كولكا راقداً على فرشة في الزاوية، حيث نقله ألخوزور وغطاه بفراش آخر.

وذات مرة، لم يستطع صبراً ونظر في وجه ألخوزور وسأله:

- أحقاً، لم يكن هنا ساشكا؟

نظر ألخوزور بحزن إلى رفيقه المريض وهز رأسه بالنفي.

- ساسك لا، كان جندي، قال ألخوزور. - أنا راح... أنا هرب...

- هل تخاف الجنود؟ تخاف جنودنا؟

ألقى ألخوزور نظرة عبر النافذة ولم يُجب. كان وجهه ذا وجنتين عريضتين وحادتين، وعيناه لامعتين وثاقبتين.

- والحريق؟ سأل كولكا.

- الطريق؟ أعاد ألخوزور، مركزاً نظره عليه. - الطريق؟

- لا، لا، أريد أن أسأل عن النار، هل تشتعل حقول الذرة؟

وذاك هز رأسه وأشار إلى سترته المحترقة في بعض أنحائها.

- كثير نار... خاتشكاش نار... مشي ممنوع... في دخون كثير...

نظر كولكا إلى ألخوزور الحزين وضحك. فقد كان نطقه مضحكاً للغاية عندما قال إن الدخان كثير.

أدار ألخوزور ظهره، وكولكا قال له:

- لا تزعل، لم أضحك لأزعجك... ألا يوجد معك قلم رصاص؟

لحظ ألخوزور كولكا ولم يجب.

- أو فحم... هذا ضروري.

ذهب ألخوزور صامتاً وعاد بقطعة خشب محترقة.

قلَّب كولكا قطعة الخشب بيده.

- هذه من غرفة المدير، قال بحسرة. - عندما رموا فيها قنبلة. ظلت الغرفة تحترق طول الليل، تصور...

هز ألخوزور رأسه. وكأنه على علم بهذا الحريق.

دُهش كولكا:

- وأنت تعرف؟ هل رأيته؟ حقاً رأيته؟

- أنا لا رأى، نفى ألخوزور بشكل قاطع، واستدار إلى النافذة، ينظر من خلالها.

كأنه أراد أن يقول شيئاً ثم عدل عن ذلك، أو هكذا بدا لكولكا، وقد يكون مخطئاً.

غيَّر كولكا مكانه وجلس على حافة الفراش، وبدأ يرسم مخططاً على الأرض بقطعة الفحم، رسم الإصلاحية، ورسم النهر، والمقبرة. نظر ألخوزور إلى الخطوط غير الواضحة، ووضع إصبعه على المقبرة:

- تْشُوورْتْ.

- ليكن، تْشُوورْتْ، وافق كولكا. - لكنها في لغتنا مقبرة. وهنا تقع بِرِزوفسكَيا.

شطب ألخوزور بِرِزوفسكَيا براحة يده، ومسح يده بثيابه.

- لا، بيريسوفسك... خطأ، ديِيْ تْشُوورْتْ، هذا صح.

- لماذا؟

- جد... أب... قبر أب...

- قبر أبوك؟ استوضح كولكا. - هنا قبر والدك؟

استغرق ألخوزور في التفكير. قد يكون تذكر والده.

- لا أب... أب جميع...

والآن بدأ كولكا يستوعب ويجمع المعلومات: تْشُوورْتْ مقبرة، وديِي تْشُوورْتْ تعني مقبرة الآباء، هكذا يسمون القرية، مقبرة الآباء... نعم اذكر كيف تخبط إيليا خوفاً من الاسم الذي يشبه كلمة باللغة روسية تعني «شيطان»، وبالفعل اللفظان متشابهان.

عاد كولكا إلى المخطط الذي يرسمه، نهض قليلاً، لتظهر الشجيرات أكثر وضوحاً عند النهر، وقرب الشجيرات رسم حفرة.

- هل ستجدها؟ سأل بقلق.

لم يكن ليكشف سر المخبأ لأحد في العالم. هذا يوازي أن يسلم نفسه لعدوه. لكن ألخوزور هو الآن ساشكا، وساشكا كان يعرف أين يخبئان ثروتهما. وكولكا نفسه الآن لن يستطيع الوصول إليه. لا قدرة عنده. لا طاقة لديه.

- عندما تجده... أحضر مرطبان مربى منه.

قال وتراجع. أرهقه الحديث الطويل.

ألقى ألخوزور نظرة ثانية إلى الرسم واختفى. وطال أمد اختفائه. بدأ كولكا يفكر أن من أطلق عليه اسم شقيقه قد رحل إلى الأبد. وجد المخبأ، أخذه واختفى. ولماذا سيسأل بعد ذلك عن كولكا؟ فهو المريض والضعيف. والآن اغتنى بالثروة. لكن كولكا لم يفكر

هكذا. أو لم يُرد أن يفكر هكذا. كانت هذه الأفكار تتطاير بجواره، تظهر وهو يطردها. ولكن لماذا لم يعد ألخوزور؟

مرت ساعات... كأنها دهر. ثم سُمعت خربشة ودخل ألخوزور مسرعاً، كان وجهه مشوهاً. تعثر عند الباب وسقط، قفز ثم سقط مرة ثانية وبقي مستلقياً، يراقب الباب ويرتجف عند أي حركة.

رفع كولكا رأسه.

- ماذا بك؟ سأل. - هل تأذيت؟ هل أصبت؟

لكن ألخوزور شد الفراش إلى رأسه دون أن يجيب، والتزم الصمت وهو مغطى به.

- أصمم أصابك، ما بك. صاح كولكا غاضباً.

انتظرَ قليلاً، ثم زحف إليه ورفع طرف الفراش عنه، كان ألخوزور مستلقياً، مغلقاً عينيه كأنه ينتظر أحداً يضربه. ثم فجأة بدأ يبكي، وقال: «تْشُوورْتْ... تْشُوورْتْ...»

- ماذا بك، بالله عليك قل لي. طلب منه كولكا. - فأنا لن أزعجك.

استدار ألخوزور وانكبَّ على وجهه، وغطى رأسه بيديه. وكأنه كان يستعد للأسوأ.

- ماذا تفعل. قال كولكا، وحاول النهوض. ومن ضعفه كان يترنح، فحبا على أربع حتى فتحة النافذة، جرَّ نفسه إليها فتناثرت قطع زجاجها المكسور على الأرض.

ميَّز في غسق المساء، الساحة وفيها مجموعة من الجنود. كان الجنود يحاولون دفع عربة متوقفة، ربما تعطلت، وكانت تحمل شواهد قبور عرفها كولكا فوراً، وهي ألواح حجرية طويلة. هل ينقلونها من المقبرة؟ فكر، إلى أين؟ لماذا؟

يبدو أن العربة كانت عالقة ولا أمل من دفعها.

أحدهم كان يلوح بيده ويبحث حوله ويقول:

- لو نجد عارضة... سأذهب وأبحث عن واحدة.

تلفت واتجه نحو البناء الذي فيه كولكا.

رآه كولكا، تراجع، لكنه لم يكن لديه الوقت الكافي للاختباء تحت الفراش. لذلك بقي جالساً على الأرض. مثل فرخ سقط من عشه.

لم يلحظ الجندي كولكا فوراً. تقدم عدة خطوات، يتفقد الغرفة، وفجأة وقع نظره على كولكا. حتى إنه جفل من المفاجأة.

- من أنت؟ ماذا تفعل هنا؟ سأل مندهشاً. كان الجندي أشقرَ، ملأ النمش وجهه، عيناه زرقاوان، ومن المفاجأة نشق من أنفه.

- هنا أعيش، أجاب كولكا بصوت أجش.

- تعيش؟ أين؟

- هنا، في الإصلاحية...

نظر الجندي حوله وفجأة فهم.

- تقول في الإصلاحية؟ جلس الجندي القرفصاء، ليرى الصبي بشكل أفضل. ومرة أخرى نشق من أنفه. - وأين الآخرون؟

- غادروا، قال كولكا.

- ولماذا لم تغادر أنت؟ هل أنت هنا وحدك؟ أم لست وحدك؟

لم يجب كولكا.

كان الجندي حاد النظر. وهو لاحظ منذ مدة طويلة كيف يرتجف الفراش على الخوزور. وبينما كانا يتحادثان طرفت عينه عدة مرات باتجاهه.

- وهناك من يختبئ؟

- أين؟ سأل كولكا.

- هناك تحت الفراش.

- تحت الفراش؟

كان يطيل الوقت، ليدبر كذبة أفضل. لو كان ساشكا لوجد فوراً ما يقوله، وكولكا بعد مرضه صار أكثر غباءً، لم يكن دماغه يتحرك.

وقال ما تبادر لذهنه أولاً.

- آ، تحت الفراش... هذا ساشكا يرقد، أخي... اسمه ساشكا. هو مريض. وأضاف لزيادة التأكيد. - نحن مرضى، أنا وهو.

- هكذا تركوكما مرضى. صاح الجندي ونهض. - وأنا هنا البارحة كنت أسمع، كأن هناك من يتكلم... كنت أحرس المكان... وأنا أعرف أن لا أحد هنا... كيف تخلوا عنكما وتركوكما وحدكما؟

اقترب من ألخوزور وألقى نظرة عليه تحت الفراش.

- أكيد، حرارته مرتفعة. ربما ملاريا. انظر كيف يرتجف.

أبطأ قليلاً، وهو يتفحص ألخوزور، ورد الغطاء إليه.

اتجه الجندي إلى الباب، لكنه استدار وقال لكولكا:

- سأعود حالاً.

انتبه كولكا. لماذا سيعود؟ وهل لاحظ أن ألخوزور لا يمكن أن يكون أخاه؟

وعاد الجندي يحمل علبة معدنية من المعلبات المألوفة لكولكا، وجاء بسميد القمح المطبوخ وقطعة خبز. ووضعها على الأرض أمام كولكا.

- هذا... لك وله. وهذا دواء أيضاً...

ووضع ست حبات صفراء بجوار العلبة المعدنية.

- هذا كينين، فهمت؟ الكثير هنا مصاب بالملاريا، والكينين هو الدواء الشافي... ما اسمك؟

- كولكا، قال كولكا. لم يكن مناسباً الآن أن يغير اسمه. وأي اسم آخر سيستعمل؟ ألخوزور؟

- وأنا المقاتل تْشِرنوف... فاسيلي تْشِرنوف. من تامْبوف.

وقف الجندي فوق كولكا، أبطأ في المغادرة. نشق من أنفه ونظر بشفقة إلى المريض. وقال وهو يغادر:

- إذنْ أنت كولكا، لا تأكل كل شيء وحدك... أطعم أخاك، اترك له ما يأكله... وأنا غداً سأرسل لكما الممرضين.. إلى اللقاء.

وفقط، عندما حل الظلام، ألقى ألخوزور نظرة عبر فتحة صغيرة من تحت الفراش. أراد أن يتأكد أن الجندي قد غادر.

ناداه كولكا:

- اخرج... لا تخف. انظر، ماذا أحضر لنا المقاتل تْشِرنوف. أحضر هذا لك، ولي...

نظر ألخوزور من الفتحة الصغيرة وهو صامت. تحرك الفراش فوقه.

- هل ستأكل سميداً مطبوخاً؟ سأل كولكا.

خرج ألخوزور ببطء وحرك رأسه معلناً عدم رغبته بالأكل.

- سميد القمح، إنه لذيذ، أضاف كولكا. - مع خبز. هل سبق لك أن أكلت سميد القمح؟

أخرج ألخوزور رأسه، ونظر إلى العلبة وتنهد.

- تعال وكل... قال بنفس النبرة الآمرة التي استخدمها الجندي تْشِرنوف. - هو أوصاني بإطعامك.

تقلَّب ألخوزور، وأخذ نفساً عميقاً. لكنه لم يجرؤ بعد على الخروج من تحت الفراش. لذلك زحف إلى كولكا مع فراشه الذي سحبه خلفه. ففي حال الخطر سيكون بإمكانه الاختباء ثانية. ربما بدا له أنه يكون محمياً بهذه الطريقة بشكل أفضل.

قسم كولكا قطعة الخبز نصفين، وأعطاه أيضاً نصف عدد حبات الدواء. أي ثلاث حبات.

أشار كولكا إلى الخبز، وسأل:

- ما هذا بلغتكم؟

- بِبيغ...

هجم ألخوزور على الخبز بلهفة.

- لا تستعجل، كل الخبز مع مطبوخ السميد، نصح كولكا. - دائماً الخبز مع السميد أطيب. أما الماء فسنجلبه فيما بعد من نهر سونجا.

- سولجا... صحح له ألخوزور. - نهر ديفا، سمه هكذا...

- وهل هما اثنان؟ فوجئ كولكا، وهو يتذوق مطبوخ السميد.

- واحد، لكنهما اثنان.

- رافدان، أليس كذلك؟ دُهش كولكا. بالضبط كما أنا وساشكا... كما كنا... نحن اثنان أيضاً، مثل واحد... باختصار سولجا تماماً.

تناولا مطبوخ السميد بيديهما، أكلا كل شيء، نظفا العلبة بأصابعهما. لو بقيت قطعة خبز بعد، فقطعة الخبز مضغاها مسبقاً. نظر كل منهما بالآخر والسعادة تغمرهما.

- الآن أنت أخي، قال كولكا بعد تفكير عميق. - أنا وأنت سولجا... غداً سيأتون إلينا، سيسألوننا عن الكنية، قل لهم كوزمين... هل ستنسى؟ والخبز عندكم بِبيغ، وعندهم خبز... لن تخطئ، لن يزل لسانك، أليس كذلك؟ ساشكا كوزمين هو أنت الآن.

- أنا ساسك، قال ألخوزور مؤكداً. - أنا أخوك ساسك... وسأل وهو يأخذ نفساً: - وأين أخ ساسك الآخر؟

- سافر، قال كولكا. - سافر في القطار إلى الجبال.

- وأنا سافر بعد أيداً، قال ألخوزور. - أنا بعد هرب... من جندي...

- لماذا؟ لم يفهم كولكا. - الجنود جيدون... الجندي تْشِرنوف أعطانا طعاماً.

أغمض ألخوزور عينيه.

- جندي يكسر تْشُوورْتْ.

- تعني المقابر؟ دعهم يكسرون، وبماذا يضرنا هذا، وما علاقتنا بها؟

لكن ألخوزور ظل على موقفه:

- ما جيد كسر تْشُوورْتْ... هذا سوء...

حَوَلَ ألخوزور عينيه بطريقة يظهر فيها بملامحه، كم هو أمر سيئ.

- لماذا تهتم هكذا. صاح كولكا. - أمر سيئ، طبعاً سيئ. لكن هذا لا يمكن أن يكون للقبور سيئاً، فهم موتى.

مد ألخوزور فمه مثل أنبوب وقال، كما لو أنه يغني، وبدا شكله مضحكاً.

- لا حجارة شاهد، لا قبر تْشُوورْتْ... يعني لا شيشان... إذن لماذا أنا موجود، لماذا أنا؟

- وأنا أقول لك، قال كولكا غاضباً. - إذا كنت أنا موجود، يعني أنت موجود. ونحن الاثنان موجودان. أتفهمني؟ كما نهر سولجا.

نظر ألخوزور إلى السماء التي أظلمت عبر النافذة، ورفع إصبعه إليها، ثم أشار به إلى صدره:

- ألخوزور عند شيشان طير، هذا اسمي. هو يريد يطير... إلى الخور. إذا جَدّي بُمْ. وإذا جَدّتي بُمْ، ألخوزور لا يطير إلى خور... وهو أيداً بُمْ...

واستعرض بإصبعه معبراً بوضوح عن المسدس

-٣٠-

في موسكو، في ليفورتَفا، خلف مساكن طلبة معهد موسكو للطاقة، هناك حمام في بناء من الآجر مؤلف من أربع طبقات. فيه يجتمع كل أربعاء محبو حمامات البخار. طلاب، متقاعدون، عسكريون.

ذات يوم، جاء بي أحد أصدقائي وهو عقيد في الجيش. كان هذا في بداية شهر آذار. وقدَّم لي شخصاً في عمر التقاعد، قوي البنية لكن له كرشاً قال له:

- عزيزي فيكْتَر إِفانيتش... يجب أن نريه - أي يريني - حمامنا وفقاً للقواعد والأصول.

كان فيكْتَر إِفانيتش يرتدي قبعة صوف وفي قدميه صندلاً.

أعطاني حزمتين من أوراق البلوط، جمعهما بنفسه. وأخذني إلى غرفة البخار، وفي الطريق، أوصاني أن أغطُّهما في بركة الماء البارد، ثم أنفضهما جيداً، حتى يزول البلل عنهما. فوضع هاتين الحزمتين أمام الوجه مباشرة يسهل التنفس من خلالهما في غرفة البخار، بينما تطوقنا، وتخيم علينا الحرارة العالية. وهنا على المقاعد الطويلة الجميع يعرف الجميع، ينادي بعضهم بعضاً. نادى أحدهم: «كولا[1]، أعطني أيضاً، أفضِّل النعناع. فيتيا[2]، كينا، ألا يوجد لديك كينا».

ثم وضعوني على مقعد حجري، هذا خارج غرفة البخار، وكان فيكْتَر إِفانيتش وصديقي يتسليان بي، وبالأخص تعب معي فيكْتَر إِفانيتش. وضع طستين: طست ضمن طست آخر فيه ماء يغلي، وطست ثالث فوقهما فيه رغوة صابون. غط الحزمتين في الماء المغلي، ونقلهما بسرعة إلى جسمي. ضاغطاً بهما على خاصرتي، وعلى العمود الفقري على ظهري، مُسخِّناً الجلد لدرجة الألم، كان يهمس: «اصبر... اصبر...» ويتابع تسخيني، ويقول: بقي القليل، ولو كنت مكانك لما صبرت، ولكن كان واضحاً أن مهارته تكمن في معرفته مقادير وحدود ما يقوم به.

ثم مسحا وصوبنا ودعكا بأصابعهما كل عضلة، وكل وتر، وأطالا في فرك يدي من المشط إلى الكتف، ورجلي من الأصابع إلى الركبة، ثم الحاجبين والخدين بكل لطافة ورقة، ومن الأنف إلى الصدغين. وكل هذا شطفوه فيما بعد بالماء، مرة بالساخن إلى الحد الأقصى، لكنهما لم يتجاوزا هذا الحد أبداً، ومرة بالبارد، وأيضاً إلى حد التحمل.

---

(١) كولا: استم التصغير والتحبب لاسم نيكولاي. المترجم.

(٢) فيتيا: اسم التصغير والتحبب لاسم فيكْتَر. المترجم.

ثم ومرة ثانية مرت مكانس الماء المغلي على منطقة جذور الأعصاب، وهذا كان مقصوداً، ولهذا ذهبت إلى الحمام لأنني أعاني التهاب جذور الأعصاب...

وعن التهاب جذور الأعصاب يجب الكلام بشكل منفصل، فهو عندي منذ زمن طويل، منذ القدم... منذ تلك الأيام عندما ذات مرة في طفولتي استلقيت في حفرة في حقل وسط قصبات الذرة اليابسة... كانت مجموعة من الخيالة تلاحقنا. حصان وضع حافره على بعد سنتيمترات مني. سمعت عند مؤخرة رأسي كيف طرق الحصان حافريه بالأرض، وتنفس بصخب فوق رأسي مثيراً شعري. هذا كان عند الغسق، ولم يكن للفارس الوقت الكافي ليتحقق من سبب ضرب حصانه الأرض بحافره في نفس المكان. فقد نودي الفارس من مكان بعيد للمساعدة بلغة حلقية غريبة، ربما قُبض على أحدٍ. وانطلق مسرعاً ضارباً بالسوط الحصان الذي أبطأ.

ومنذ ذاك الوقت وأنا أتوجع وأعاني من آلام شديدة في الظهر... وبفضل الحمام، وبفضل فيكْتَر إِفانيتش مشكوراً، فقد خفت هذه الآلام.

وفي الاستراحة، أخرج أصدقائي الجدد، زجاجة فودكا، مبتهجين بما قاموا به، بعد أن أنهكهم التعب، واشتروا من الحمام زجاجات البيرة، الزجاجة بروبل، وأخرج فيكْتَر إِفانيتش سمكاً مقدداً، وبصلاً أخضر، ومرطبان مخلل خيار... وبهدوء وبكل حرص، جرعنا كؤوسنا ونحن ملفوفون بالمناشف، كان هذا على ما يبدو طقساً من طقوسهم.

حكى لنا فيكْتَر إِفانيتش عن أوراق البلوط، كيف يجمعها، وكيف يضغطها، ويجففها على الشرفة، ويحفظها في أكياس بلاستيكية... ويخزن ما يكفي منها حتى الموسم التالي.

- حتى الصيف؟ سأل صديقي، العقيد في سلك الدبابات.

- آه منكم يا أولاد، قال فيكْتَر إِفانيتش، وهو يهز رأسه. - نعلِّمكم ونعلِّمكم لكنكم لم تتعلموا شيئاً. حتى الثالوث، هل سمعتم بهذا؟

ودخلوا غرفة البخار للمرة الأخيرة، تحلاية. ثم شربوا ما بقي في كؤوسهم، ارتدوا ملابسهم، وخرجوا. لكن هذا كان طقساً غير مكتملٍ كما علمت. فعادوا ودخلوا إلى بناء

الحمام نفسه لكن من الجهة الأخرى. اختفى فيكْتَر إِفانيتش خلف باب متسخ، لكنه سرعان ما ظهر، وأومأ لنا أن نتبعه: «إلى هنا، تعالا إلى هنا».

في غرفة متسخة تشبه القبو، انتصب درع خشبي، وخلفه جلس شخصان، كانا يشربان، كنا رأيناهما في ذاك الحمام نفسه... ووقف بجوارهما شخص قصير القامة يرتدي قبعة بجناحين للأذنين، وسترة سميكة.

- هل سيأتي نيكولاي بِتروفِتش؟ سألاه.

- سيأتي، سيأتي. رد هو باهتمام. - هل تريدون الجلوس هنا أم في الحجرة الأخرى.

- الأفضل في الحجرة الأخرى... إذا كان ممكناً، قال فيكْتَر إِفانيتش.

قالها بشكل آمر.

أُخذونا عبر ممر تراكمت فيه نشارة الخشب، لنصل إلى حجرة صغيرة أخرى أكبر من الأولى. وهنا كانت ألواح الخشب المعاكس والصناديق بدل المقاعد. كان نيكولاي بِتروفِتش قد خرج ليعود حاملاً زجاجة وبضع كؤوس.

صب فيكْتَر إِفانيتش، وأومأ باتجاه الممر قائلاً:

- وهؤلاء... من جماعتنا. أحدهم مقدم، والآخر لا أتذكر... من تموين الجيش أعتقد.

- وأنت ممن؟ سألت أنا، لا أدري لماذا.

لم يُجب، لكنه أخرج بطاقة المحاربين القدماء.

- انظر، قال. - لقد خضت الحرب كلها من الجلدة إلى الجلدة.

شربنا، وشرب هو، وأخذ رشفة من مرطبان ماء المخلل وأكل قطعة خبز وأضاف:

- ابتداءً من عرض الواحد وأربعين العسكري... ثم في كل مكان... كنت رامي رشاش... وعندما كنا في القوقاز... كم نقلنا منهم، أولئك السمر الذين باعوا أنفسهم لهتلر.

صب كأساً أخرى. وشربنا.

أتذكر أنهم أرسلونا في أواخر شباط بمهمة قبل العيد بمدّة قصيرة إلى قرية هناك، وظاهر الأمر هو أننا في إجازة لقضاء عطلة العيد في القرية. أبلغنا ممثل مجلس القرية أن هناك اجتماعاً في السادسة صباحاً أمام بناء مجلس القرية، ويجب أن يحضره كل الرجال. نتحدث إليهم بأمور مهمة. حضر رجال القرية إلى الساحة، ونحن كنا قد طوقنا القرية منذ الفجر ولم نترك لهم مجالاً للتفكير، قدناهم إلى السيارات تحت الحراسة وأعطيناهم عشر دقائق ليجمعوا أغراضهم من بيوتهم ويحملوها. استهلكت العملية برمتها ثلاث ساعات. هرب منهم البعض، وتصدينا لمن هرب... وصرنا نطلق النار عليهم في الجبال... وهم طبعاً بالمقابل علينا...

ظهر نيكولاي بتروفتش، نظر إلى الزجاجة الفارغة وقال:

حان الوقت، سنغلق.

نهض الجميع، خرج فيكْتَر إِفانيتش أولاً وتابع كلامه:

- أتذكر أننا سرنا على طول أرغون... وهو نهر هناك... كنا على الحمير، كان معنا أحد عشر حماراً، كنت الثاني... أُطلق علينا النار من مدفع رشاش من مرتفع مقابل. سقط اثنان، ونحن الباقين زحفنا إلى خلف تلة صغيرة وجهزنا مدفع الهاون، وبدأنا دك ذاك المرتفع حيث تمركز رامي المدفع الرشاش... فلحنا المرتفع، لم يبق لا رامي رشاش ولا مدفع رشاش. لم نجد قطعة ثياب واحدة. كان علينا كما أمرنا أن نسحب الرأس معنا إلى المقر، فقد يتعرف إليه أحد منهم، ونحذفه من مجموعة الأهداف. قد يكون أحمد أو غيره... كان الأمر أن نبقى هناك حتى الربيع... قضينا على الكثيرين هناك... ومنهم كلميك وليتوان... هم أيضاً أوغاد فاشيون حاقدون.

وفجأة سمعت عبارة مألوفةً لي، لم أكن قد سمعتها منذ زمن طويل، ربما سمعتها في القوقاز فيما مضى.

- كلهم، يجب إعدامهم كلهم. لم ننتهِ منهم آنئذ، وها نحن نحصد النتائج.

هنا عرجنا إلى القاعة الزجاجية، لم نصادفها في طريقنا، وإنما كنا نتقصد الذهاب إليها. أخذت هذه القاعة اسم المكان الذي تقع فيه وهو جوار كنيسة بطرس وبولس، وبهذا الاسم تعرف في موسكو. استبدلنا روبل بنقود معدنية، شطفنا الكؤوس، وأخذنا البيرة من جهاز البيع الآلي، ووقفنا على طاولة متسخة نشرب البيرة، ونأكل السمك المقدد.

تجمّع الكثير من الناس، حيّا بعضهم بعضاً، ونادى بعضهم الآخر بالاسم. وهنا أيضاً كما في الحمام، الجميع يعرف الجميع، ويرحبون بعضهم ببعضٍ.

تقرّب من فيكْتَر إفانيتش اثنان، وسلما عليه عن بعد، التجاعيد تملأ وجهيهما، يرتديان معاطف طويلة قديمة الزي، من القماش الأسود. عرّفوني عليهما بأنهما زبونان «من جماعتنا».

- وهما أيضاً من المحاربين القدماء... مدحهم فيكْتَر إفانيتش. - كنا في القطعة العسكرية نفسها، رغم أننا هناك لم نلتق... هنا يوجد الكثير من المحاربين القدماء.

أشار بيده، ودون إرادة مني نظرت إليهما. حقيقة باستثناء الطلاب الذين بالإمكان تمييزهم بسهولة بالعمر واللباس. كان الجميع أو تقريباً الجميع، بنفس عمر فيكْتَر إفانيتش... ليسوا شباباً، لكنهم بالتأكيد يبدون هادئين لطيفين. ورغم أنهم بلا رتب على أكتافهم لكن التدريبات العسكرية القديمة كانت واضحة... مدرسة حربية. وأي مدرسة!

صاح فيكْتَر إفانيتش برفقائه، وهو ينظف السمك المقدد المالح ويجهزه، وقد طار جزء منه إلى الأرض.

- أذكر أولئك الأوغاد، والأحداث ما زالت ماثلة أمام عيني كأنها الآن... عندي شهادة تقدير من الرفيق ستالين بالذات. نعم!

قابله رفقاؤه بابتساماتهم اللطيفة المسالمة وهم يرفعون كؤوسهم بالشراب العكر، ويمدونها لتجتمع وتتصادم عند كأسه.

لكني لن أخفي، ولن أجامل، فقد راودتني فكرة، ولم يكن ممكناً ألا تخطر ببالي، أن أولئك الناس، الذين كانوا ينفذون إرادته هو، نيابة عنه، هم جميعهم أحياء يعيشون بيننا حتى هذا الوقت.

أحياء، ولكن كيف هم أحياء؟

ألا تعذبهم الكوابيس، ألا تأتيهم في أحلامهم عندما تنتصف الليالي، ظلال القتلى، وهم يذكّرون بأنفسهم؟

لا، لا تأتيهم.

بعد أن ينتهوا من اللعب مع أحفادهم، يجتمعون، يتعرف بعضهم إلى بعضهم الآخر بعلامات غير منظورة لكنها واضحة جداً بالنسبة لهم. علامات وسمتهم بها مهنتهم، وهي على ما يبدو ثابتة.

يجتمعون في الحمامات وفي الحانات، يلتمّون على أنخاب يشربونها بكؤوس غير مغسولة لها رنين أصم، ويشربون نخب صحتهم ونخب مستقبلهم.

لا يصدقون أن كل شيء عندهم، صار من الماضي.

عند الفجر فقط، تبدد الضباب الكثيف الذي خيم على الوادي، وهب النسيم من الحقول، يحمل رائحة العشب المحترق، تسللنا إلى الساحة الهادئة، إلى جوار قبر المدير على التلة الصفراء، حيث علقت العربة بألواح الشواهد. يبدو أنهم لم يستطيعوا البارحة إخراجها.

خرجنا عبر ثغرة السياج وتابعنا إلى المقبرة. لكن المقبرة لم تعد موجودة فعلياً. تناثرت حجارتها المكسرة والمقتلعة هنا وهناك، وجُهزت للشحن، وبانت حمرة التربة المقلوبة.

وعندما توجهنا عبر الحقول إلى النهر، عثرنا على طريق تكومت على جانبيه شواهد قبور مرتبة بصفوف.

لم يكن هذا الطريق عادياً فقد استُحدث لا ليصل إلى القرية، وإنما يمتد باتجاه الجبال المهجورة.

ويبدو أن رفيقي تعثر بالشاهدة الأولى. وقف ينظر إلى ما عند رجليه، ثم انحنى وجلس على ركبتيه. أدار رأسه بحرج إلى جانب وقرأ شيئاً ما بصوت مسموع.

- ماذا؟ سألت متلهفاً. - ماذا تقرأ هناك؟

ودون أن يحول بصره عما انشغل به، قال:

- هنا يرقد زبير...

- زبير؟ من هذا؟

هز كتفيه نافياً معرفته بزبير.

- جدك... والدك...

وزحف إلى الشاهدة الثانية...

- هنا يرقد عمران...

- ومن هذا؟

ومثل المرة الأولى، كرر، دون أن ينظر إلي:

- جدك... أبوك...

ثم التالية، من حجر إلى حجر:

- حسن... دنيا... وحيد... رمضان... سوتسيتا... واحة...

نظرت حولي. كان الفجر قد بزغ، وكان من الممكن رؤيتنا من بعيد. كان من الضروري أن نتخفى ونغادر على عجل.

استعجلت رفيقي.

- لنذهب، دعنا نذهب... حان الوقت.

لم يسمعني.

زاحفاً من حجر إلى حجر، قرأ كل الأسماء، كما لو أنه يعيد في ذاكرته تاريخ عائلته.

لا أعرف كم من الوقت كان يمكن أن يستغرق هذا، لولا أن الطريق انتهى عند ضفة النهر العالية والمنحدرة... والتي تليها هاوية. ربما سيكون هنا جسر، وربما بدؤوا فعلاً ببنائه.

وبعد أن اجتزنا المنحدر الخطر، نزلنا إلى النهر. عبرناه على الصخور إلى الضفة الأخرى، وبدأنا نبتعد باتجاه الجبال.

رفيقي كان دائم التلفت محاولاً أن يطبع في ذاكرته هذا المكان.

لا هو ولا أنا طبعاً، لم يكن بوسعنا أن نعرف أنه سيأتي يوم يعود فيه أولاد وأحفاد أولئك الذين كتبت أسماؤهم على هذه الحجارة الشاهدة إلى أرضهم.

سيجد العائدون هذا الطريق، وسيأتي كل منهم إلى هنا، ويأخذ حجارة عائلته ليعيدها إلى مكانها.

سينقلونها كلها، ويزول الطريق المؤدي إلى الهاوية.

- ربما نذهب إلى المحطة؟ سأل لآخر مرة كولكا. - لا تعرف مدى جمال المزرعة الإنتاجية، سنصنع الفطائر... ونطبخ القرع... ماذا تقول؟

هز ألخوزور رأسه معارضاً وأشار إلى الجبال.

- هنا يطلقون الرصاص، هناك لا يطلقون، قال بعند ونظر إلى الأرض عند قدميه.

- حسناً، وافق كولكا. - ما دمنا نحن أخوة، فيجب علينا أن نذهب معاً. أنا وأخي لن نسير منفصلين أبداً. هل تفهمني؟

أفهم، هز رأسه ألخوزور. - عند واحد، اثنان عين، اثنان أخ، أربع عين.

- انظر ما أروعه. هتف كولكا وفوراً التفت، وسكت. ثم تابع بصوت منخفض: - أنت تماماً مثل ساشكا... هو نفس الشيء كان يقول.

أنا ساسك... أكد ألخوزور. أنا صارت ساسك جيد... وهناك... أشار إلى الجبال. أنا ألخوزور جيد... وهناك خبز صارت بيبغ، والذرة - كاتشكاش.. والماء صارت خِيْ...

تجهم كولكا. فقد انبعث في ذاكرته التي حُفرت فيها للأبد تلك العربة الصدئة في محطة كوبان. حيث نتأت أيدٍ وشفاه وعيون متوسلة من نوافذها المعززة بالقضبان الحديدية... وما زالت صرخاتهم تطن في أذنيه: «خِيْ! خِيْ! خِيْ! خِيْ!»، إذاً هذا ما كانوا يطلبونه.

شق الولدان طريقهما على طول الوهاد الضيقة، التي تتصل بطيات الجبال. صادف مرورهما بجوار شجرة جوز ضخمة، وببراعة أسقط ألخوزور بالعصا ثمار الجوز، وكولكا جمعها بحضنه. ثم أكلا ثمار الشيبوفنك[1] البرية الحلوة، ووجدا بعض الفطور لكن طعمها كان مراً.

رافق الهاربين دخان كثيف طوال الطريق، وكولكا الذي أنهكه المرض، غالباً ما كان يجلس ليرتاح.

في هذه الأثناء وبينما كولكا يأخذ قسطاً من الراحة، كان ألخوزور يتسلق الصخور، بسترته الطويلة السميكة، وتظهر رجلاه العاريتان الصغيرتان بين الفينة والأخرى من تحت سترته. يعتلي الشجيرات والأغصان ويأتي بثمار الإجاص والتفاح البري الحامض.

- البركة، عادة ما كان يقول هذا، عندما يمد يده بالفاكهة وهو يبتسم. - وفي الخور لا دخون... هناك جيد سيكون...

حدث مرة، أن فوجئنا برؤية جنود، لكنهم لم يرونا. كانوا مشغولين بسيارتهم التي انزلقت إلى جانب الطريق وعلقت هناك. كان الجنود يشتمون، لعنوا الجبال، لعنوا الشيشان، ولعنوا سيارتهم إضافة إلى ذلك.

كان كولكا يراقبهم من خلف الأغصان، من التلة المقابلة لهم. همس لألخوزور:

- هل تريدني أن أنزل إليهم؟ أطلب منهم طعاماً؟ ما رأيك؟

ارتعد ألخوزور وبدأ جسمه يرتجف كما كان في الإصلاحية.

- لا، لا. صاح هو، التفت على صوته اثنان من الجنود.

وبسرعة استطاعا أن يختبئا، وبالحال أُطلقت العيارات النارية باتجاههم. ثم تابع الجنود انشغالهم بالسيارة، كان إطلاق النار على ما يبدو تحسباً. انتقل صداه عبر الجبال. وصار كما لو أن إطلاق النار من كل مكان.

---

(١) شيبوفنك rosehip: نبات بري أزهاره عطرة. المترجم.

زحف الولدان مبتعدين عن التلة، وسارا بالاتجاه المعاكس.

وبحلول الليل، وصلا إلى سقيفة مهدمة، زريبة، عادة ما يسكن فيها الرعاة. هكذا شرح ألخوزور. وبجوار الزريبة يوجد بستان وحديقة، والمنطقة مهجورة تماماً. وبكل الأحوال انتزع الولدان بضع جزرات، نظفاها بالعشب وأكلاها. وأكملا أكل ما بقي من الجوز.

كان الليل بارداً، هكذا كانت الجبال تُعبر عن نفسها. ناما، يحضن أحدهما الآخر، على حصيرة من القش، تجمدا من البرد. لم يكن هناك ما يمكن أن يتدثرا به. وعند الفجر، لم يعد البرد يُحتمل، كلاهما كان يرتجف، حتى إنهما لم يستطيعا الكلام. تجمدت ألسنتهما.

عندئذ بدأ ألخوزور يركض حول الزريبة، ويغني أغانيه الغريبة.

وبدأ كولكا الركض أيضاً، وصرخ بأعلى صوته أغنيته المفضلة. «من مكان إلى مكان، بين قمم الجبال وفي الوهاد والبرية، نسور أبية تطير بروية، عن ستالين الحكيم يصوغ الشعب أغانيه البهية...». لكن أغنيته عن ستالين لم تدفئه. فبدأ يتذكر أغنية عن بوديوني وفَرَشيلَف... فالهرولة على إيقاع عدو الجياد هو أفضل... ثم تبادر إلى ذهنه تلك الأغنية التي أنشدوها في مهجع النوم: «سرنا معاً، أنا ورفيقي، سرنا نحن الاثنان، تجولنا في البراري، تجولنا في الجبال»...

ثم بدأ كولكا يعلِّم ألخوزور الأغنية. صاحا معاً ليجلبا الجَلَدَ ويصبرا على البرد، قفزا، تدافعا. ثم بزغت الشمس، وشقت أشعتها طريقها عبر الضباب الكثيف، وصار الجو أكثر دفئاً.

استلقيا مباشرة على العشب وغفيا مجدداً. كانا سعيدين فقد تخلصا من رعشة البرد.

رأى ألخوزور في منامه أنه في البيت وأمه توبخه لأنه لم يحفظ دروسه. ورأى كولكا أخاه ساشكا، الذي جاء إلى الزريبة وسأل: «لماذا تنام؟ انظر، خور بكل مكان، وأنت نام؟ ألا ترى؟» وصار يشده من كتفه.

استفاق كولكا ولم يستطع فهم ما يحصل. وقف فوقه ألخوزور، ومعه رجل آخر بمعطف من فرو النعاج الأحمر، وقبعة شتوية ويحمل بندقية في يده.

- تنام معه، أليس كذلك؟ صاح الرجل بصوت غريب متهدج، خرج مباشرة من حلقه. تنام مع خنزير روسي؟ أليس كذلك؟ وأنت الشيشاني، ألا تخجل؟

جذبه ألخوزور من يده، التي يمسك بها البندقية الموجهة إلى كولكا.

كولكا وهو يستفيق، لم يكن يفهم شيئاً. فرك عينيه وأراد النهوض، لكن الرجل ركله بقدمه، فطار كولكا وسقط على الأرض راضاً كتفه مسبباً له ألماً مبرحاً.

- انبطح. صرخ الرجل بأعلى صوته. وإلا سأطلق النار.

عاد وصوب بندقيته باتجاه كولكا، انصاع كولكا وانكب على وجهه وعيناه في الأرض. ظل كولكا هكذا منبطحاً، وكان يسمع الحوار الصارخ، بين الرجل وألخوزور. كان حواراً عالي النبرة، ألخوزور يصيح عالياً بلغته، والرجل يرد بالروسية، ربما ليسمعه كولكا. ليفهم أنهم سيقتلونه الآن.

هدر الرجل قائلاً:

- هذه أرضي، وهو أتى بنفسه إلى أرضي، هذا بيتي، هذا بستاني. وأنا سأطلق النار عليه لأنه اقتحم مزرعتي... سأقتله...

- ما توخا تسوونّا. صرخ ألخوزور. - لا تقتله. هو أنقذني من الجندي... هو أخ لي...

نظر الرجل إلى كولكا وسأله بغضب:

- خان تسي خوون يو؟ ألا يفهم؟ لا؟ ما اسمه؟

استدار كولكا. نظر الرجل إلى كولكا ببرود وقسوة، كان لون عينيه من لون فولاذ فوهة البندقية المصوبة نحوه.

أراد كولكا النهوض مجدداً، لكن الرجل صرخ:

- انبطح. أجب. خان تسي خون يو؟ خو ميلا فوو؟

كولكا. قال كولكا، وهو على الأرض ينظر إلى الرجل. أخفض كولكا نظره عن البندقية، ورأى أن الرجل يلف رجليه بلفائف ويرتدي حذاء مطاطياً مربوطاً برباط متصالب. ومعطفه المصنوع من جلد الغنم كان رَثًّا، ممزقاً من بعض أطرافه، فهو على ما يبدو

كان كثير التجوال بين الأشواك. وعلى رأسه قبعة فرو، وهي أيضاً رثة، وكان يتمنطق بحزام فضي لامع فوق معطفه... تماماً كما ذاك الذي كان عندهما هو وساشكا. ذُهل كولكا بالذات من قبعة الفرو والحزام اللذين لم يكن ينبغي أن يفكر بهما، والغريب أن يفكر بهذا في الوقت الذي يُحضَّر لقتله...

- كولكا؟ عاد وسأل الرجل. - ولماذا جئت إلى الخور؟ لماذا تتجسس على الشيشان؟

- لا أتجسس، قال كولكا. - أنا معه، كما ترى...

- نحن أخ. نحن أخ. صاح ألخوزور.

- سو كخيرو خيخ. قال الرجل الجبلي، وقد التفت إلى ألخوزور.

- ما خيفي سو، رد عليه ذاك.

نظر الرجل الجبلي إلى كولكا، وإلى ألخوزور وأضاف باللغة الروسية:

يجب قتله، هو سيستقدم الجنود الروس إلى هنا.

ما خيفي سو، صاح ألخوزور. وبدأ يبكي.

هكذا بدا المشهد، وهذا ما حصل: كان كولكا على الأرض، ينظر إلى الرجل، وإلى البندقية، وبجواره يبكي ألخوزور. ودون أي خوف فكر كولكا أنهما سيقتلانه الآن كما قتلوا ساشكا، قد يكون المؤلم في هذا المشهد هو عندما يصوبون البندقية، أما عندما يطلقون النار فلن يكون هناك أي ألم. ثم سيلتقي هو وساشكا مجدداً، هناك حيث يتحول الناس إلى سحاب. ليصبحا سحابتين ذهبيتين صغيرتين، سيتعرّف أحدهما إلى الآخر، وسيسبحان فوق قمم جبال القوقاز الفضية، وسيقول كولكا:

«مرحباً، ساشكا. هل تشعر بالارتياح هنا؟»

وسيجيب ساشكا:

«بالتأكيد. أشعر بالارتياح».

«وأنا الآن أصادق ألخوزور». يقول كولكا. »هو أيضاً أخٌ لنا».

«أعتقد أن جميع الناس إخوة». يقول ساشكا، ثم يسبحان ويحلقان بعيداً بعيداً، إلى هناك حيث الجبال تلتقي بالبحار، حيث الناس لم تسمع بالحروب، حروب الإخوة، عندما يقتل الأخ أخاه.

لم يستفق كولكا من غيبته بسرعة، ولم يعرف كم مر من الوقت منذ أن تم قتله.

أو ربما تم قتله فعلاً؟

كان ألخوزور جالساً بجوار كولكا ولا زال يبكي. أما الرجل الجبلي فقد غاب عن المشهد، ولم يكن موجوداً بأي مكان، وساد الصمت عند الغسق.

استغرب كولكا أن ألخوزور لا زال يبكي، وسأله:

- هل آذاك؟

سمع ألخوزور الصوت وازداد نحيبه. مسح الدموع بيده وبطانة معطفه التي برزت من بعض الثقوب فيها حشوتها القطنية المحترقة. كان ألخوزور ينتش القطن منها ويتركه يذهب مع الريح.

وسأل كولكا ثانية:

- لماذا تبكي؟ ولماذا تنتزع القطن؟

هنا مسح بكُمّه وجهه ونظر إلى كولكا.

- فكرت أنت مات.

- ما هذه الأفكار التي تخطر ببالك.

- أنت أغلق عينيه، وصار خر خر... وبدأ ألخوزور يقلد الحشرجة، - وعندها أنا شعرت سوء... كان أخ واحد ثم لا أخ...

قال كولكا:

- ما دام لم يطلق النار فأنا على قيد الحياة. أين هو؟

أشار ألخوزور إلى الجبال.

- هو هناك... هو يحرس أرض... هو يزرع... هو يحب أرض...

- وماذا لو أطلق النار علي؟ سأل كولكا.

وفجأة أحس كولكا بالبرد، وصار الجو كئيباً، كئيباً جداً. وحتى وجود ألخوزور لم يمنع هذه الأحاسيس.

فهم كولكا أنه بالفعل كان يُراد قتله. ولكان هو الآن راقداً هنا وأمعاؤه خارج جسده، والغربان تنقر عينيه، تماماً مثل ساشكا.

نظر ألخوزور إلى كولكا وقال:

- أنا كنت بكاء، قال هذا وبالفعل صار يبكي.

عندها شعر كولكا ببعض الارتياح، شعر أنه أفضل بكثير. وبدأ يخفف عمن ادّعى أُخوتّه وصار يواسيه. وأخذ يشرح له بأنهما يجب عليهما أن يتآخيا بصورة صحيحة. أي أن يجرحا يديهما ويمزجا دماءهما.

وجدا قطعة زجاج، وبدأ كولكا ثم ألخوزور، جرحا جلد راحة اليد اليسرى ومسحا الجرح بالجرح.

- هكذا، قال كولكا. - الآن صرنا أخوين. ونحن يجب علينا أن نغادر هذا المكان. الشيشان سيقتلونني بكل تأكيد.

صمت ألخوزور.

- تعال نعود أدراجنا وننزل، اقترح كولكا، - هناك في الوادي الجو أدفأ.

- هناك جنود يطلقون الرصاص، قال ألخوزور بخوف شديد.

- وهنا شيشاني يطلق النار... صاح كولكا.

- كل مكان سيئ. قال ألخوزور بحسرة. - ولماذا يضرب نار؟ أنت تعرف؟

- لا، قال كولكا. - لا أعتقد أن أحداً يعرف.

خيَّم الظلام. نظرا إلى الجبال المتلألئة قممها، ولم يعرفا كيف سيعيشان القادم من الأيام.

قُبض عليهما عند المنحدر، قرب الوادي، حيث كانا نائمين متعانقين بين الجفنات. عثر عليهما جندي، نكب عن الطريق لقضاء حاجة.

وعندما بُدئ بفصلهما، صرخ كلاهما. وبدأ ألخوزور يعض، والتف كولكا بكل قوته كالثعبان وبدأ يصرخ بأنهما معاً ولا يجوز فصلهما.

عندها قيدهما الجنود، لكنهم فكوا قيدهما فيما بعد وأعطوهما ما يأكلانه.

أكلا من العلبة بأيديهما ولم يلتفتا إلى أحد. كانا ينظران أحدهما إلى الآخر فقط. واتفقا بالإيماءات وباستخدام بعض الأصوات، بأنه لا يمكنهما الإجابة عن أي سؤال.

وصلت امرأة طبيبة، استشيرت في أمرهما، وقالت: إن الصبيين يعانيان من سوء تغذية شديد، ولا يمكن البت فيما إذا كانا سيبقيان على قيد الحياة، عدا أنهما منهكان حالياً، فعند الصبيين اضطرابات نفسية.

لم يسمح الولدان بأي شكل من الإشكال الفصل بينهما إذا ما أرادوا إخضاع أحدهما لفحص طبي، وكانا يرفعان صوتيهما بشكل لا يصدق.

وبعد شهر وعشرة أيام نُقلا من مشفى الأطفال رقم ستة عشر في مدينة غروزني، إلى دار إيواء الأطفال، حيث كان يُحتفظ بالأطفال المشردين، قبل أن يوزعوهم على الإصلاحيات ودور الأيتام المختلفة.

لا زلت أذكر هذا البناء الخشبي الذي كان مدرسة فيما سبق، وهو يقع في شارع فرعي هادئ.

هنا قاعات تدريس ولكن لم يُدرّس فيها قطُّ، كانت المقاعد مصفوفة في الغرف، ولعدم وجود طاولات، كنا نتناول طعامنا على هذه المقاعد، كانوا يقدمون لنا الزَتِروخا المعتادة، طحين وماء إضافةً إلى البصل، وفي أيام السعد النادرة، يضيفون إليها حبة بطاطا... صباحاً، كان فطورنا حبتيّ تمر أو عشر حبات زبيب مع الشاي، وعلى العشاء قطعة زنخة من السمك المدخن، وكوباً من الشاي مرة ثانية. وأحياناً مطبوخ السميد في الأعياد، وأيام الآحاد.

كنا في قاعة النوم أولاداً من جنسيات مختلفة، نعيش معاً.

موسى، ولد مرح، وجهه مليء بالبثور، طويل زيادة عن اللزوم، وهو تتري كان يعيش سابقاً في القرم. يحب مضايقة الآخرين بمقالبه، لكنه عندما يغضب كان يبيض وجهه وتصطك أسنانه، ولا يعود يرى شيئاً، كان قادراً على ارتكاب جريمة. موسى كان يذكر القرم، يذكر الكوخ البعيد عن البحر، يذكر أمه وأباه اللذين عملا في كرم للعنب على سفح الجبل.

بَعل بِكْ كان من نَغايْ. أين يقع موطنه نَغايا، لا أحد منا يعرف، وهو بَعل بِكْ نفسه، لم يكن يعرف. كان قصيراً عريض الخدين. جَرَّبا مرةً، هو وموسى أن يتحادثا كل منهما بلغته، حتى إن حوارهما نجح. كلاهما كان يعرف لعبة النرد. علمنا بَعل بِكْ الشتائم بلغة نَغاي.

ليدا غْروس، البنت الوحيدة، فضلت السكن في قاعة نوم الصبيان لأنه كان يصعب عليها العيش في غرفة نوم بمفردها. طلبت منا أن نسميها بالروسي: غْروسَفا. كانت تحفظ عن ظهر قلب كل الأدوية، كانت بنت مرتبة، وهي من كانت ترتب جميع الأسرة، وهي من كان ينظف الأرضية. عن ماضيها تتذكر فقط أنها كانت تعيش عند ضفة نهر كبير، وفي ليلة ليلاء قدم أناس وأجبروهم على الرحيل. بكت أمها من الخوف، وغادرت المنزل، وفي القطار توعكت صحة الأم فحملوها وأنزلوها من القطار، ونزلت ليدا معها. لم تحتمل صحتها هذه الأحداث، وعُثر فيما بعد على الفتاة بين الحياة والموت في محطة للقطار في مدينة غريبة.

وعاش في القاعة نفسها أيضاً أخوان، كوزمينان. ورغم عدم الشبه بينهما، كان الاختلاف كبيراً جداً: أحدهما ذو سحنة بيضاء وشعر أشقر وأنف صغير، روسي. والآخر أسمر، شعره مقصوص، عيونه سود، وبصعوبة يتكلم الروسية...

لكن الكوزمينين أكدا أنهما أخوان بالدم، رغم أن أحداً لم يُحجها إلى قول ذلك.

في القاعة المجاورة لنا، كان يعيش أولاد من قوميات أرمنية وكزخية وملدافية ويهود، واثنان من بلغاريا. والقاعة التي بعدها عاش فيها مكفوفون.

كان الأولاد المكفوفون يعيشون هنا منذ زمن بعيد، هذا يمكن استنتاجه من معرفتهم طرق الوصول إلى المطعم وقاعة النوم وحدهم دون مساعدة من أحد، يعرفون أماكنهم على الطاولة، ويستطيعون التنزه على الطريق حول السور.

تعرفنا على أحد المكفوفين، اسمه أنتوشا[1]. كان صغير الحجم، وجهه مزروع بنقط سوداء كأنها خردق. قصَّ أنطون علينا حكايته، فقد عثر على قنبلة يدوية وحاول تفكيكها. وخلال حديثه أظهر لنا يديه، إذ لم يكن لديه إلا ثلاثة أصابع على يده اليسرى واثنان على اليمنى.

أحضر أنطون كتاباً، كان الكتاب غريباً مثقباً بنقط بارزة، مرر إصبعه عليها وقرأ عدة أسطر.

عندما أكبر، سأربي ببغاءً، وسأبيع بطاقات في السوق، قال أنطون. - عندنا يعمل الكثيرون في التنجيم وأرباحهم هائلة.

كان الكوزمينان ينامان معاً، على سرير واحد، وكان شهر تشرين الثاني بلا ثلوج، لكنه كان كثير الرياح، وكان البرد شديداً في قاعة النوم.

كانا مثلنا ينتظران القدر، كيف سيقرر مصيرهما.

كان مصير الأطفال في دور الإيواء مختلفاً، فسيوزع قسم منهم على الإصلاحيات، وقسم آخر على دور الأيتام، ويرسل بعض الأولاد إلى المدارس الصناعية والمهنية، إذا كانت أعمارهم مناسبة.

وحصلت أحياناً معجزات، فبعضهم عثر عليه أهله أو أقاربه، وبعضهم حظي بمن يتبناه لتربيته وتنشئته ممن يملك سكناً وكان قادراً على إطعامه وإكسائه.

كانت هناك الكثير من الشائعات والأساطير حول التبني. وكيف يمكن ألا تحظى هذه الظاهرة بالكثير من الاهتمام عند أطفال حرموا وعانوا. يُعرضون مثل الأرانب في سوق

---

(١) أنتوشا: اسم التحبب لأنطون. المترجم.

البيع، أيشترون، أم لا يشترون؟ وهنا يظهر فجأة ذاك الساحر الذي يختارك. إلى أين، ليس مهماً. المهم، من هنا. وإلى الأبد. قد تكون هذه أوهام، ولكن ومن جهة أخرى، أليس ضرورياً أن يكون لمن لا أهل له، قصص يحكيها؟ وهل يمكنهم العيش بمعزل عن الحكايا؟

ذات مرة قدمت امرأة إلى إدارة الدار، وطُلب كولكا إليها. تنبه جميع الأولاد، وسعى كل منهم ليكون قرب الإدارة، فربما يُستدعى أي منهم أيضاً. ولم يشك أحدٌ أن هناك من يتبنى كولكا.

لم يتخلف ألخوزور خطوة عن كولكا، لكنهم لم يسمحوا له بالدخول إلى مكتب المدير معه. ورغم صياحه وشتائمه، أغلقوا الباب دونه وبقي وحده.

غير أن كولكا تمكن من الهمس في أذنه:

- لا تخف، لن أغادر دونك.

كانت مديرة دار الإيواء سيدة مسنة بدينة تدعى أولغا كريستَفورَفنا وكنيتها ميولر. كانت تجلس وبجوارها ريغينا بتروفنا، لاحظ كولكا وجودها منذ دخوله. كانت أكثر نحولاً، لكنها جميلة جداً. وعلى شعرها كانت ترتدي وشاحاً، وتمسك سيجارة في يدها.

قالت أولغا كريستَفورَفنا:

كوزمين؟ هناك من... يهمه أمرك.

وقف كولكا في منتصف مكتب المديرة، وبجواره طاولة كتابة ملطخة بالحبر، وخزانة صغيرة مثلها، وثلاثة مقاعد متشابهة، وكانت عيناه شاخصتين إلى الأرض.

- أظن أنكما تعرفان بعضكما بعضاً؟ قالت المديرة.

صمت كولكا.

ألقت أولغا كريستَفورَفنا نظرة إلى ريغينا بتروفنا وأضافت:

يمكنكما التحدث هنا...

بصعوبة نهضت وغادرت المكتب. ومن الممر حاول ألخوزور الدخول، وبدأ يصرخ في شق الباب: «أنا هنا، أنا هنا».

أُغلق الباب ثانية بإحكام.

- مرحباً، قالت ريغينا بتروفنا وابتسمت. أطفأت سيجارتها ونهضت للقاء كولكا.

لكن كولكا ظل واقفاً مكانه، لم يتحرك ولم يُبدِ أي اهتمام. كان على وجهه لا مبالاة فظة.

توقفت ريغينا بتروفنا في منتصف المسافة، لكنها ببطء وصلت إلى كولكا، ولمسته من كتفه. ارتجف وتراجع خطوة إلى الخلف. فقد أزعجته اليد الغريبة.

- ماذا بك؟ كولكا؟ ألم تعرفني؟

- لا، قال هو.

- لم تعرفني؟ سألته وقد خمدت ابتسامتها.

- لا.

ضحكت بشدة.

- لا تلعب معي... بالمناسبة، هو إز هو... أنت بالفعل كولكا؟

- لا.

- ساشكا، أليس كذلك؟

- لا.

- وأين... الآخر؟

كان كولكا ينظر إلى الأرض عند رجلي ريغينا بتروفنا عندما أخذ نفساً عميقاً.

- حسناً، اجلس، اجلس. قالت ريغينا بتروفنا وجلست هي.

جلس كولكا على طرف الطاولة. لكنه جلس بطريقة يستطيع فيها القفز والهرب إذا حدث ما يستدعي ذلك.

- إنني أبحث عنكما. أخرجت ريغينا بتروفنا سيجارة وبدأت تشعلها. كانت يداها ترتجفان.

شاهد كولكا يديها وأبعد نظره عنها.

- آنئذ نقلني دميان... إيفانيتش، تابعت ريغينا بتروفنا وأخذت نفساً عميقاً. - جاء على العربة، قال، ضاع الولدان. وعلينا الهرب فقد اقتحم الشيشان الوادي. وضعنا الطفلين على العربة، كلاهما كان مريضاً بعد يوم الميلاد. واستعجلنا إلى المحطة... ثم إلى القطار... وعندما عدت إلى رشدي، أردت العودة. لكن دميان إفانيتش لم يسمح لي. قال هناك معارك تجري. لم يعد هناك أحد منذ فترة طويلة... وفجأة عثروا عليك... بالمناسبة من ذاك الصبي؟ سألت ريغينا بتروفنا، وأشارت إلى الباب. صديق جديد؟ أعتقد أني رأيته فيما مضى...

- لا أعرف، قال كولكا.

تجهم وجه ريغينا بتروفنا واكفهر.

- هكذا ستتابع الحديث معي؟ هكذا؟

في هذا الوقت عادت أولغا كريستَفورَفنا. وبهدوء وصلت إلى طاولتها، وسألت، وهي تتنفس بصعوبة:

- كيف؟ هل تحادثتما؟

- نعم، شكراً، قالت ريغينا بتروفنا، وأظهرت أنها على عجلة من أمرها. - هل لي أن أزوركم مرة أخرى إن أمكن؟

- طبعاً، لكن لا تتأخري، قالت المديرة ونظرت إلى كولكا.

- لماذا؟ هل من أوامر بهذا الشأن؟

تمتمت المديرة بكلمات غامضة، ثم انحنت إلى أذن ريغينا بتروفنا وهمست بشيء ما.

دُهشت ريغينا بتروفنا وسألت:

- ومن أين، هو؟

جمعت المديرة كتفيها معبرة عن عدم معرفتها.

- سيأتون وسيتحققون. وهذا هو السبب أننا نحتفظ بهم ولا نوزعهم.

- حسناً، قالت ريغينا بتروفنا. - سآتي بعد أيام... حسناً كولكا، إلى اللقاء؟

رفع كولكا رأسه. ونظر في عينيها لأول مرة. نظر بطريقة جعلتها لا تحتمل، وترنحت في وقفتها. وهو ودون استعجال استدار وذهب إلى الباب.

وسمع في ذاك الحين خلف ظهره المديرة تقول:

- هذا يُعد زهرة... إذا ما قارنته بالآخرين.

-٣٢-

قبل أيام قليلة من حلول العام الجديد ١٩٤٥، وكانت قد نصبت شجرة الميلاد في غرفة الصف، والتحضير لعروض الهواة على قدم وساق، وصلت سيارة فيها اثنان، عسكري ومدني وعلى الفور أعلنا على عجل:

- على الكوزمينين الحضور إلى مكتب المديرة بسرعة.

في هذه الأثناء، كان الأولاد يجلسون عند سرير موسى، الذي ارتفعت حرارته بشكل مفاجئ، وهم يروّحون عنه. كان بَعل بِكْ يحدثهم عن أساطير الأبطال الأولين. وكل أبطال أساطيره متشابهون، فالبطل يكبر وينتصر على الأعداء، ويصبح الشعب حراً.

هنا نودي الكوزمينان، كان نداء غير معتاد، بصوت عالٍ، كما لو أنه إنذار حريق. أُدخل ألخوزور وحده، واحتجز كولكا عند الباب، ولم يُسمح له بالدخول. بدأ كولكا يصرخ ويطرق الباب بقوة حتى انفتح الباب وقال رجل من داخل الغرفة:

- دعوه يدخل، سيكون أفضل، أن يكونا معاً.

اندفع كولكا ودخل الغرفة، كان ألخوزور جالساً على كرسي في منتصف الغرفة، وأمامه عسكري أصلع بنظارات طبية، يرتدي بوطاً عسكرياً طويلاً لامعاً، ويحمل ملفاً من الأوراق، أما المدني فكان واقفاً عند النافذة. كان العسكري يتكلم ويتكلم. في البداية لم يفهم كولكا ما كان يقوله. لكنه أدرك فيما بعد أنه كان يروي حكاية كولكا نفسه لألخوزور. من أين عرفها... ربما لهذا السبب هو أصلع، مثل دميان. الصلعان ماكرون، هكذا كان يقول ساشكا.

سأل العسكري:

- وأين التقيتما؟ أنت ونيكولاي؟ هل التقيتما في برِزوفسكَيا؟

صمت ألخوزور.

انتقل العسكري إلى كولكا، وسأله بلباقة:

- وأنت هل تذكر؟ لا أستطيع الحصول على شيء من صديقك.

- هو ليس صديقي. هو أخي.

- أي أخ. استشاط العسكري. هذا أخوك؟

- هذا أخي الشقيق، أعاد كولكا.

- شقيق جداً؟ كرر العسكري بسخرية.

- نعم.

- وما اسمه؟

- ساشكا.

- هل هذا، ساشكا؟ انظر إليه. ومسك العسكري بإصبعيه صدغي ألخوزور من الأعلى وحرك رأسه بقوة ليواجه كولكا. - هو أسمر، وأنت أشقر، كيف يمكن أن تكونا أخوين؟

- نحن أخوان حقيقيان، قال كولكا.

قام العسكري وهمس لأولغا كريستَفورَفنا بشيء ما، وهي نهضت وخرجت.

تابع العسكري المشي، وخطا في الغرفة يصرُّ بحذائه، كان كما لو أنه يراقب ألخوزور من مختلف الجوانب. ولم يُعر كولكا انتباهه.

وذاك المدني كان صامتاً. لم يتكلم طوال الوقت. كما لو أنه لم يكن موجوداً.

وفجأة دخلت أولغا كريستَفورَفنا ومعها ريغينا بتروفنا.

- اجلسي، طلب منها العسكري وكأنه يأمرها. أنتِ كنتِ معلمة في الإصلاحية المجاورة لبِرزوفسكَيا؟

- نعم، أجابت بهدوء ريغينا بتروفنا، ونظرت إلى كولكا. كانت نظرتها حزينة هذه المرة.

- هل تذكرين الأخوين كوزمين اللذين عاشا هناك؟

أومأت ريغينا بتروفنا برأسها.

- هل تذكرينهما جيداً؟ سأل العسكري ونظر بغضب إلى ريغينا بتروفنا.

- نعم أذكرهما، أجابت هي.

- انظري إليهما... هل تتعرفين عليهما؟ وحرك يده باتجاه ألخوزور. وكولكا كان يجلس بالجانب الآخر.

- نعم، بصعوبة بالغة سُمع صوت ريغينا بتروفنا.

- من هذا؟ وأشار العسكري بإصبعه باتجاه كولكا.

صمتت ريغينا بتروفنا، ثم قالت:

- أعتقد... هذا كولكا.

- نعم، هز رأسه العسكري بارتياح. - وهذا؟ وأشار إلى ألخوزور.

واصلت ريغينا بتروفنا النظر إلى كولكا.

- أعتقد... بدأت تقول، لكن بتردد.

- أنتِ تعتقدين؟ أم تعرفين؟

صمتت ريغينا بتروفنا.

- أنا أسمعكِ. أسمعكِ. قالها العسكري بصوت عال ونظر إلى المدني نظرة ذات معنى. وذاك لم يتأثر بأي شكل.

- هذا... ساشكا... قالت ريغينا بتروفنا بصوت ضعيف.

- هل أنت واثقة أنه ساشكا، أخوه؟

هزت ريغينا بتروفنا رأسها بصعوبة.

- هل فكرتِ جيداً وأنت تجيبين عن سؤالي؟ سار العسكري إلى خلف ظهر ريغينا بتروفنا، وبدأ يحدثها وكأنه يخاطب مؤخرة رأسها.

خافت ريغينا بتروفنا وبحركة سريعة التفتت إليه.

- ماذا؟ سألت هي، وهنا عادت وقالت ولكن بعصبية: - نعم، طبعاً واثقة. كانوا كثراً، وكنت في البداية أخلط بينهم...

- إذاً، يمكننا القول إنك الآن أيضاً يمكنك أن تخلطي بينهم؟ أصرَّ العسكري وهو يخيم فوق رأس ريغينا بتروفنا. حتى إن كولكا تعب من لهجته الحازمة. كما لو أن جميع من يتم استجوابهم هنا يُعاملون بسوية واحدة.

تنهدت ريغينا بتروفنا. ربما كان لديها رغبة قوية بالتدخين.

- لا، أعتقد أنني...

- مرةً ثانية تعتقدين، لا تعتقدي. نصحها فجأة العسكري وهو يبتسم. - أنت معلمة، أليس كذلك؟ ويفترض أنك تعلّمين الأطفال ألا يكذبوا؟ وأنت كيف تكذبين الآن، ولا سيَّما أمامهم؟

- أنا لا أكذب، كما لو أنها تلميذة مذنبة قالتها ريغينا بتروفنا، وأطرقت.

- عظيم، قال العسكري وخطا عدة خطوات في الغرفة. - إذنْ أنت تقولين إنك يمكن أن تخلطي بين الأولاد، وبالتالي فأنت لست واثقة أن من هما أمامك الآن، هما أخوان؟ هذا ما أفهمه من كلامك. هل هذا صحيحٌ؟

لم تجب ريغينا بتروفنا.

- هل هذا صحيحٌ؟ رفع العسكري صوته وفجأة لامست يده مؤخرة رأس ريغينا بتروفنا.

جفلت دون أن تحرك رأسها.

- لا ليس صحيحاً، قالت ونظرت إلى كولكا.

- كيف لا. كيف لا. صاح العسكري وضرب بيده على الملف الذي يحمله. وسُمع صوت الضربة قوياً. جفل الجميع.

- لا... أي يمكنني... أريد أن أقول... إنهما... إنهما... أخوان...

لم يعد العسكري يسمعها، جمع أوراقه ووضعها في الملف.

ودون أن يستأذن، خرج من الغرفة، وسمع بعد قليل كيف تحركت سيارته.

بقي الآخرون في الغرفة. وبقي أيضاً المدني. التزم الجميع الصمت، وانتظروا ماذا سيقول، وهو أيضاً صمت. وساد صمت مطبق.

قررت أولغا كريستَفورَفنا أن تتوجه إليه:

- وعندكم ... عفواً، هل من أسئلة؟

حتى إنه لم يتحرك. تابع النظر عبر النافذة، كما لو أن السؤال لم يكن موجهاً إليه. لكنه فجأة استدار وقال عبر شفتيه المغلقتين:

- أعطني القائمة، من فضلك.

- قائمة الأطفال؟ سألت المديرة.

مد يده دون أن يحاول توضيح ما يريده، وناولته أولغا كريستَفورَفنا الورقة.

ألقى نظرة سريعة إلى الورقة واستفسر:

- ومن هذا موسى؟ هل هو تتاري؟

- نعم، قالت أولغا كريستَفورَفنا. الآن هو مريض.

- من أين هو؟ سأل المدني، متجاهلاً الحديث عن مرضه. - بالمناسبة، هل هو من القرم؟

- أتوقع أنه من كازان، قالت المديرة.

- أتوقع... وغْروس؟ ألمانية؟

- لا أعرف، قالت المديرة. وماذا في ذلك؟ وأنا أيضاً ألمانية.

- هذا ما أريد الوصول إليه. كان صوت المدني يسير على وتيرة واحدة، فيه الكثير من الهدوء، يرفرف بلا ضجيج تقريباً. كل ما فيه كان يعجب كولكا، فقط كانت شفتاه رفيعتين، ومائلتين قليلاً، وكأنهما ليستا جزءاً منه، كانتا كما لو أنهما تعيشان بمعزل عنه، وفيهما عندما تلتويان شيء غريب بارد. - ما هذا الخليط الذي جُمع هنا، كرر، ورمى القائمة مباشرة على الطاولة، ومع أن أولغا كريستَفورَفنا أدركت قصده من هذه الحركة، مدت يدها.

- نحن لا نجمعهم، قالت أولغا كريستَفورَفنا. - نحن نقبلهم.

- يجب أن تعرفوا من تقبلون. قالها بصوت أعلى قليلاً. لكنه وللمرة الثانية لم يكن في كلامه أي إساءة أو تهديد. ولكن كلامه لسبب ما، جعل الكبار يجفلون.

وفقط أولغا كريستَفورَفنا واصلت الحديث متمسكة برأيها، رغم أنه كان مرضها واضحاً وصعباً عليها متابعة الكلام.

- نحن نقبل هنا في الدار أطفالاً. الأطفال فقط، أجابت هي. وأخذت القائمة وبدأت تتلمسها بيدها.

وفي اليوم التالي أخذوا جميع أولاد دار الإيواء بما فيهم العميان إلى المسرح. ساروا أزواجاً، قاد المبصرون المكفوفين. وفي المسرح رُفعت الستارة، وبدأت المشاهد السحرية لمسرحية بعنوان «الأشهر الاثنا عشر».

جلس كولكا بجوار أنطون، وألخوزور بالجوار الآخر. حاولا سرد كل ما يريانه على خشبة المسرح لأنتوشا، لكن الأمر كان صعباً للغاية. زوجة الأب الشريرة تطلب من ابنة زوجها أن تحضر لها ثمار التوت البري الحمراء شتاءً. وتذهب البنت إلى الغابة الجليدية. تبحث عن الثمار، وهي تعرف أنها لن تجدها في هذا الفصل البارد، تجمدت البنت من البرد، لكن وفجأة... كيف لكولكا أن يشرح هذا المشهد، فجأة في منتصف المرج ظهرت نار ضخمة، وكان يجلس حولها الاثنا عشر شهراً.

انعقد لسان ألخوزور من الفرح، وكولكا انفتح فمه وسال اللعاب منه.

وأنتوشكا يهز يديهما ويسألهما: «ماذا هناك؟ ماذا يجري؟».

لم يكن الأولاد قبل هذه المرة في المسرح، خرجوا منه كأنهم سكارى. صمت كولكا، خاف ألا تُعطي الكلمات حق المشهد الذي شاهده.

مساءً، وُزّعت الحلوى للجميع، كانت أولغا كريستَفورَفنا قد صنعتها بنفسها، بسكوتتان لكل منهم، وكعكتان مدورتان، كانت هدية رائعة. وقف المبصرون في جهة من شجرة الميلاد، والمكفوفون في الجهة الثانية. غنى المكفوفون أغنية عن الشجرة، ثم صاحت أولغا كريستفورفا بصوت عالٍ:

- الشكر الجزيل للرفيق ستالين على طفولتنا السعيدة.

وصاح جميع الأولاد «أُورا». وحتى إن موسى من قاعة النوم سمع هذه الصيحة، وتحمس لها.

والمبصرون قدموا عروضهم، كل حسب استطاعته، وكولكا ألقى قصيدة... عن السحابة الذهبية.

لكن أثراً ندياً بقي

على تجاعيد الجبل العتيق

وقف العجوز...

سكت كولكا ونظر إلى المكفوفين: كانوا يمدون رقابهم يستمعون بشغف. كانوا كأنهم يخشون أن يفوتهم حتى صمته... وطال صمته، لأن كولكا انقبض حلقه وانحبست أنفاسه. لم يستطع نطق كلمة «وحيداً» بأي شكل من الأشكال...

وكانت لديه رغبة عارمة بالبكاء

أدرك فجأة، هنا الآن، وهو واقف أمام المكفوفين، أن حياته القوقازية قد انتهت الآن، وغداً كما قيل لهم، سينقلونهم إلى مكان آخر، حيث ستكون لهم حياة مختلفة تماماً.

وقف ألخوزور بجوار الشجرة وأيضاً كان يشاهد كولكا. صار الأولاد يلقنونه الكلمات، لكن كولكا لم يحتمل، وخرج راكضاً إلى الممر، وبدأ المكفوفون يصفقون في أثره.

صباحاً أيقظوهم قبل أوانهم، نحو الساعة السادسة. حتى إنهم أرغموا موسى على ارتداء ملابسه، وهو أيضاً رحلوه. أبقوا فقط المكفوفين. وعندما صفّوهم جميعهم لينقلوهم إلى المحطة، ظهر أنطون من مكان ما وصاح:

- كوزمين، أين أنتما؟ هل أنتما هنا؟

- أنطون، صاح كولكا وخرج من الصف.

وجد أنطون يد كولكا ووضع له فيها ورقة. كانت مثقبة بنقط بلغة المكفوفين.

- هذا ما أراه وأتوقعه لمستقبلك. قال أنطون وابتسم، كما يبتسم العميان للفراغ.

- لكنني لن أستطيع قراءة ما هو مكتوب هنا.

- إذا وجدت نفسك يوماً في مدينتنا، فعرج عليَّ، سأكون في السوق. قال أنطون. - سأقرؤها لك. كولا، أنت إنسان لطيف.

- أولاد، الجميع إلى أماكنهم. صاحت أولغا كريستَفورَفنا. كان هذا النداء مخصصاً طبعاً لكولكا. - ليتبعني جميع الأولاد.

كان الجو بارداً في الخارج. ريحٌ ثلجيةٌ تنثر بياضاً كثيفاً. وكانت محطة القطار خالية. وُزع الأولاد على عربات القطار الفارغة غير المنظفة. لم يسافر أحد غيرهم إلى أي مكان، فهذا اليوم هو الأول من السنة الجديدة.

أشار كولكا إلى الرفين العلويين وقال لألخوزور: «هذان المكانان لنا. كنا وساشكا نسافر فيهما».

دخلت في هذا الوقت إلى القطار أولغا كريستَفورَفنا وصاحت:

كولا، هناك من يسأل عنك.

من؟ تمتم كولكا مستاءً، وغير راغب بالابتعاد وترك ألخوزور وحده.

أخرج، ستعرف. قالت أولغا كريستَفورَفنا.

وتابعت سيرها في العربة بخطوات ثقيلة، لتتحقق من أن الجميع قد حظي بمكان مريح.

- موسى، ألا تشعر بالبرد؟ سألت هي التتري.

كان موسى يرتجف، لكنه لم يرغب بالشكوى. وهو بشكل عام كان سعيداً أنه يسافر إلى مكان ما. وهذا أفضل من أن يبقى وحده...

خرج كولكا إلى مدخل العربة، ورأى هناك عند العربة ريغينا بتروفنا تحمل كيسين في يدها.

هُرعت إلى كولكا، لكنها تعثرت. وهو ينظر إليها من مدخل العربة. نظر كيف تصعد مستعجلة على الدرج غير المريح، والكيسان كادا يسقطان من يدها.

- انظر، قالت بلهفة. - هنا الطق - مان. طقمك وطقم ساشكا. وبما أن كولكا تابع صمته، أكملت هي حديثها: - خذهما معك إلى المكان الجديد.

ووضعت الكيسين على الأرض بجوار كولكا.

صمتا، وهما ينظر أحدهما إلى الآخر.

- أنا لا أعرف إلى أين يأخذونكم... قالت وهي تنظر إلى كولكا. لسبب ما يُبقون الأمر سراً، سخافة. لكن أريدك أن تفكر، هل تريد أن تبقى معنا؟ ناقشنا هذه المسألة أنا ودميان إيفانيتش، وهو لا يمانع أن تكون معنا... وصححت: أنت وذاك الصبي...

حرك كولكا رأسه رافضاً الفكرة.

أخذت ريغينا بتروفنا نفساً عميقاً. وبدأت تخرج سيجارة لكنها كُسرت بيدها، فألقتها بعيداً.

- حسناً، قالت هي. - ربما ستكتب لنا؟ عندما تصل وتستقر؟

أشار بإيماءة من رأسه أنه لن يكتب.

وفجأة مدت ريغينا بتروفنا يدها، ومسحت على رأسه. وهو لم يكن لديه الوقت لينسحب.

- حسناً، وداعاً يا صديقي. سارت ثم فجأة استدارت. - هل يمكنك أن تجيبني عن سؤال واحد؟

هز رأسه موافقاً. هو كان يعرف عما ستسأل، وكان ينتظر هذا السؤال.

- أين أخوك؟ أنا أعني ساشكا، أخاك الحقيقي... أين هو؟

نظر كولكا في عيني أجمل امرأة في العالم. كم أحبها. كم أحبها كلاهما. والآن... كان يمكن أن يسامحها ساشكا، يغفر لها هروبها، لكن كولكا لم يستطع... وهو لم يكن بإمكانه ألا يجيب. عندها قال:

- ساشكا سافر.

- بعيداً.

- بعيداً.

- الحمد لله، إذن هو على قيد الحياة... وابتعدت عنه. قفزت ريغينا بتروفنا عن درج القطار، فقد بدأ القطار يتحرك.

وفوراً دخل كولكا إلى العربة، ولم يذكر الكيسين. كان قلقاً على ألخوزور، فغيابه قد يشعره بالقلق.

لكن ألخوزور كان ينظر من النافذة ويفكر بأمر ما. والآن كلاهما ينظر من النافذة. هناك وقفت سيدة، ومع أن الريح عاصفة والبرد قارسٌ، وقفت تنظر إلى العربة ولم تغادر.

وأخيراً تحرك القطار.

اهتزت العربة وتحركت ببطء. بدأت السيدة تلوح بيدها.

قرَّب كولكا وجهه من زجاج النافذة، لينظر للمرة الأخيرة إلى ريغينا بتروفنا. هُيئ له أنها صرخت بشيء ما. حرَّك رأسه معلناً الرفض. هو عنى بحركة رأسه أنه لا يسمع ما تقوله. لكنها هي كان يمكنها أن تفهمها بشكل آخر. ورغم ذلك تابعت صراخها، وسارعت من خطواتها. ثم بدأت تركض...

انزلق المنديل عن شعرها إلى عنقها، كاشفاً شعرها الأسود. وفُكت أزرار معطفها. هي لم تلحظ كل هذا. ركضت، كأنها حظيت بسعادتها، وتحاول اللحاق بها قبل أن تفلت منها... وصارت تصرخ وتصرخ...

عندها لوح كولكا لها وهز رأسه، كما لو أنه فهم شيئاً ما. لم يرها بعد ذلك. صعد إلى سريره واستلقى بجوار ألخوزور. ولسبب ما بكى وهو متشبثٌ بكتفه. خفف ألخوزور عنه، وقال مواسياً:

- لماذا، بكاء. لا داعي بكاء... نحن نسافر، ثم نصل، أليس كذلك؟ سنكون معاً، أليس كذلك؟ نحن سنعيش معاً، أليس كذلك؟

لم يستطع كولكا التوقف عن البكاء، وصار يبكي أكثر وأكثر، ولم يستطع طمأنة ألخوزور. لكن القطار فعل، كان يجيب عن أسئلة ألخوزور، بطرقات عجلاته على السكة: «دا، دا... دا، دا...»[1].

١٩٦٨[2]

---

(١) دا: كلمة روسية تعني نعم. المترجم.

(٢) انتهى الكاتب من كتابة روايته عام ١٩٨١، ولم يُسمح بنشرها حتى عام ١٩٨٧.

أناتولي برِيستافكِن

(١٩٣١ – ٢٠٠٨)

- كاتب وروائي روسي.
- فقد والداه خلال الحرب ونشأ في دار للأيتام. تُرجِمت كتبه إلى ثلاثين لغة، ومنها العربية إذ ترجم له خيري الضامن «أفراخ الوقواق».
- عضو اتحاد كتاب الاتحاد السوفياتي منذ عام ١٩٦١م، ثم اتحاد كتاب روسيا الاتحادية فيما بعد.
- نُشرت روايته «سحابة ذهبية أمضت ليلةً» في أواخر الثمانينيات، ونال عليها جائزة الدولة للاتحاد السوفياتي.

د. نزار عيسى

- طبيب ومترجم سوري.

- حاصل على جائزة سامي دروبي للترجمة لعام ٢٠٢٠م، عن رواية **المستشرق**.

٢٠٢٤م

لم يأت اسم الرواية من فراغ، «سحابة ذهبية أمضت ليلةً»، هو البيت الأول لقصيدة مشهورة للشاعر ميخائيل ليرمنتوف. حمل الكاتب روح القصيدة ونثرها على كامل الرواية. نسج خيوطها، وطرَّزها بكل عناية لتخفق مع أحداثها قلوب القراء.

تتحدث الرواية عن توءمين يُنقلان إلى القوقاز مع بضع مئات من المشردين، ليحلّوا محل الشيشان الذين رُحّلوا من هناك: «كانت روسيا كلها تتحرك، كلها تسافر وتنتقل، وكنا نحن ضمن دفق تيارها، تياراً من الأجساد، تياراً من أبنائها». والكاتب كان ضمن هذا التيار، ضمن من نُقلوا إلى القوقاز، عاش الفقر والتشرد، وعاش الحرب. شكلت ذكريات حياته أساس روايته هذه، واستخدم فيها الأسماء الحقيقية لمن رافقوه في تلك الرحلة، علّه يعثر على أي منهم.

لا أريد أن أخيب أمل القراء بنهاية سعيدة للرواية، لكنها الحقيقة، للبعض على الأقل.

www.syrbook. gov.sy
E-mail: syrbook.dg@gmail.com
هاتف: ٣٣٢٩٨١٥ - ٣٣٢٩٨١٦
مطابع الهيئة العامة السورية للكتاب - ٢٠٢٤ م